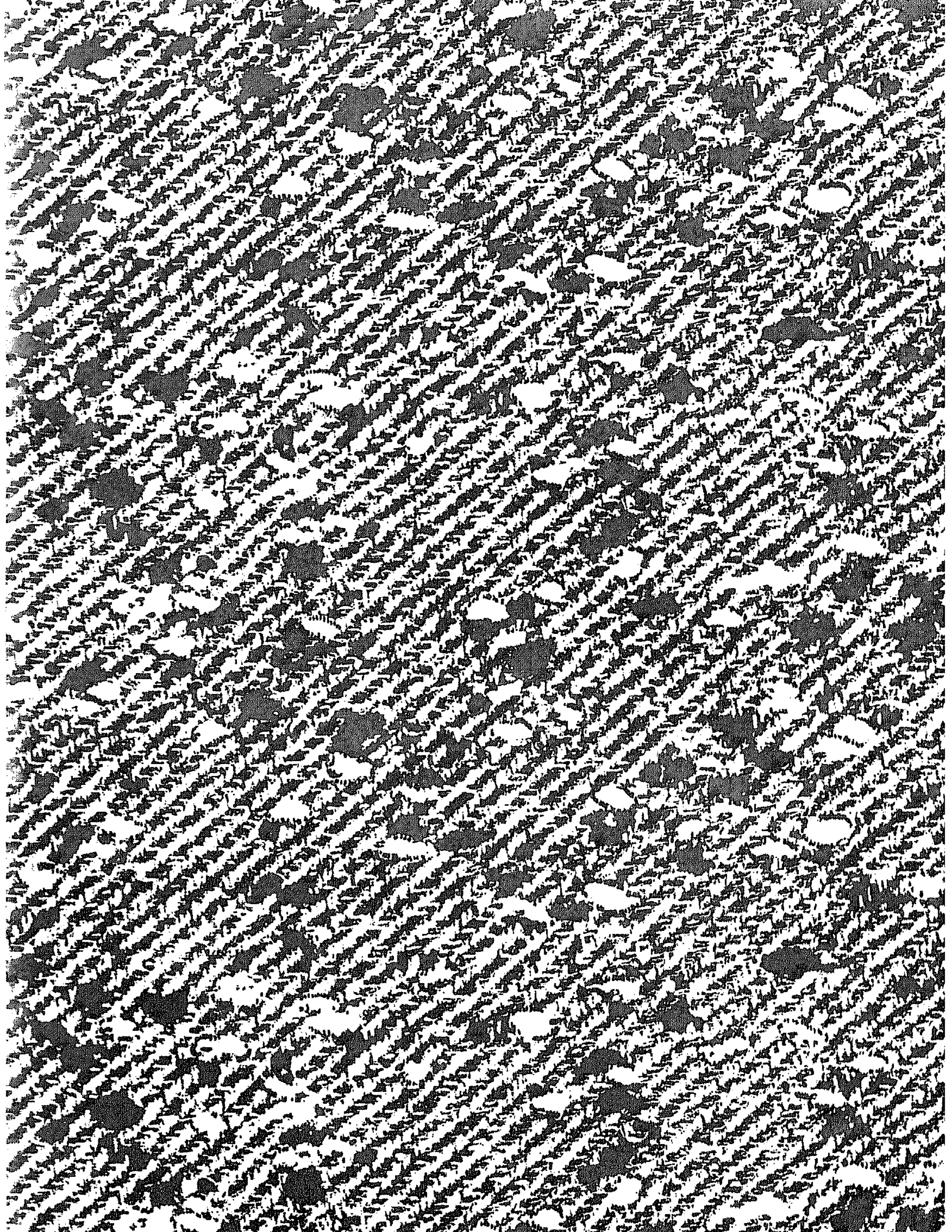
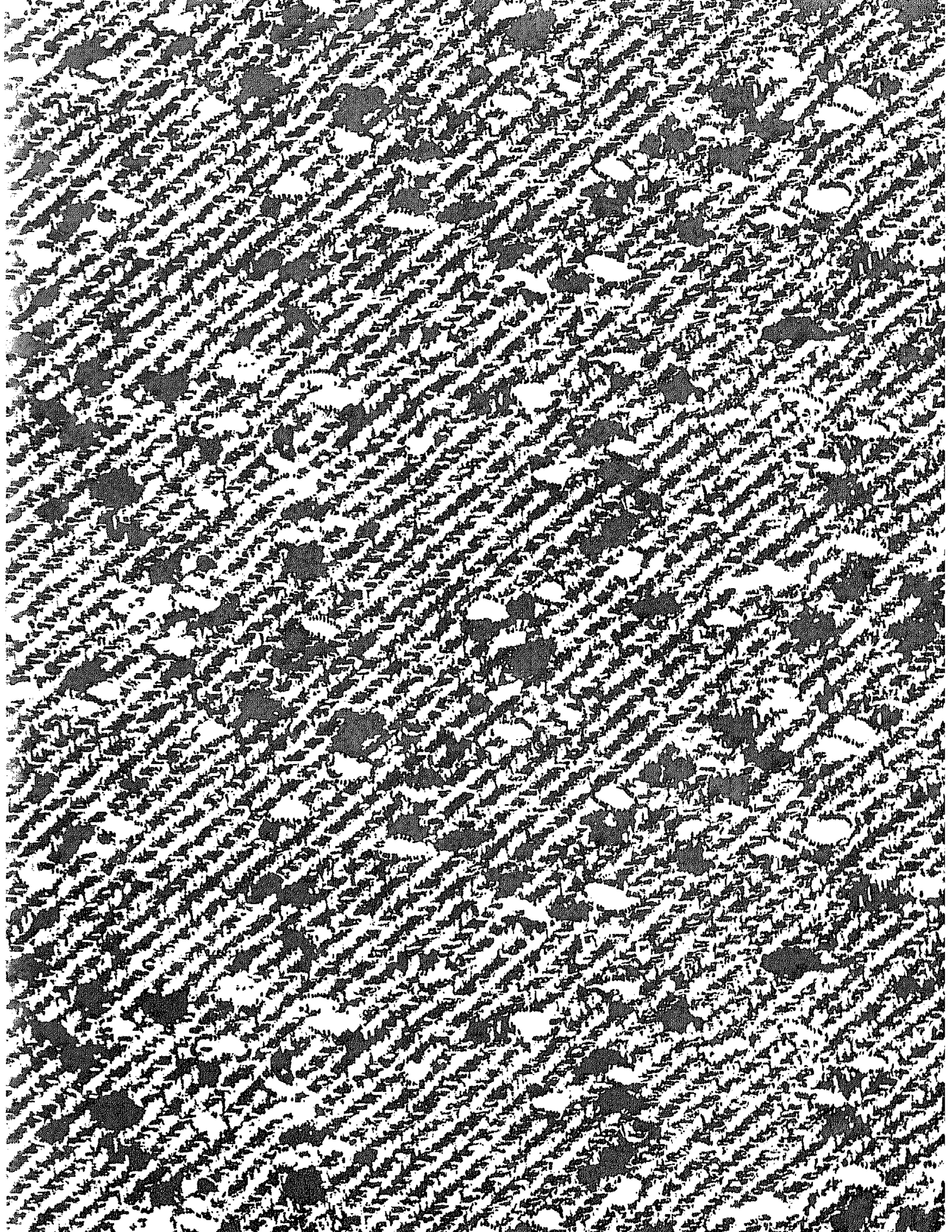






حياة الأمير عبد القادر

تأليف

شارل هنري تشرشل

ترجمه وقدم له وعلق عليه

الدكتور أبو القاسم سعد الله

الدار التونسية للنشر

54 ، شارع الحرية ـ تونس

مقدمة المترجم

قبل كتابة هذه المقدمة رأيت من الضروري زيارة الاماكن التي جرت فيها احداث الكتاب • لذلك توجهت الى مدينة معسكر ، عاصمة الامير ، واقمت فيها عدة ايام زرت خلالها مسقط رأس الامير في القيطنة على ضفة وادي الحمام وفي سفح جبل سطانبول حيث مرتع صباه ومغنى شبابه • ثم زرت ضريح والده محيي الدين وجده سيدي قادة في (كاشرو) التي اصبحت تعرف اليوم بسيدي قادة • كما زرت قرية الكرط وزاويتها التي اختلف عليها معظم مشائخ الحشم وعلمائهم ، وزاوية (مسجد) الشيخ بوراس الناصري ، وشجرة المبايعة في فروحة وجامع المبايعة الثانية الذي كان يعرف بجامع سيدي حسن (1195 هـ) ، والجامع الكبير ، وعددا آخر من المؤسسات الدينية والعلمية التي تحفل بها مدينة معسكر وضواحيها والتي كانت ، اثناء ظهور الامير ، الشموع التي ارتفعت لتعلن المقاومة ضد الاحتلال ولتحتضن الامير عالما وسلطانا • وهناك عدد من افاضل العلماء الذين ما زالت الناحيه تزخر بهم والذين استفدت من الحديث اليهم في موضوع الكتاب •

والواقع ان هذه الزيارة ضرورية لاكثر من سبب • فنقل الكتاب من لغة اجنبية الى العربية يستلزم اعادة كثير من الالفاظ والمصطلحات الى اصلها العربي نطقا وكتابة • وان نقل النص من لغة ذات حروف لاتينية الى اخرى مماثلة ليس فيه مشقة البحث عن اصول الكلمات العربية كالتي يواجهها من ينقل من لغة ذات حروف لاتينية الى العربية• ومن اجل ذلك وجدت صعوبة شاقة في اعادة كثير من اسماء الاعلام والقبائل والاماكن الواردة في الكتاب الى اصلها العربي • والكتاب كما هو متوقع يحفل بالكثير من الاعلام والقبائل والاماكن ، ولكن معظمها لم يعد مستعملا اليوم • وكان لابد من

الاتصال باهل البلاد . والكبار منهم على الخصوص، لمعرفة اصول هذه الاشياء. ومن المعروف ان بعض ضباط المكاتب العربية من الفرنسيين قد قاموا بوضع خرائط وقوائم للقبائل التى كانت تقع فى نطاقهم ، ولكن هذه الاعمال ، على ما فيها من تحريف ، لا تحل المشكل لانها مكتوبة بالحروف اللاتينية وخاضعة لمقاييس نطق اللغة الفرنسيه ، واليك مثلا : فى الكتب الاجنبيه يكتبون سهل Ersibia (ارسيبيا) بينما ينطق بها اهل معسكر (خصيبية) وهى اليوم قرية فى ضواحى معسكر. ويكتبون جبل نوسمت Nusmut بينما اهل البلاد ينطقون به (مسمط) . وبالاضافة الى ذلك هناك عدد من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية التى استشهد بها المؤلف والتى كان لابد من اعادتها الى اصولها العربية ، وهو امر ليس باليسير .

وتعود صلتى بهذا الكتاب الى عدة سنوات مضت عندما كنت اعد رسالتى للدكتوراه . وقد عزمت منذئذ على نقله الى العربية لاقتناعى بأهميته (1) . ذلك ان المؤلف قد جمع فيه وثائق اصلية يبدو انه حصل عليها من الامير نفسه او من عائلته مباشرة . واهم من ذلك هو انه كتبه ، كما يقول ، من املاء الامير نفسه ، فهو حينئذ نوع من الترجمة الذاتية . وبالاضافة الى ذلك ان معظم الذين ترجموا للامير كانوا يستخدمون تشرشل كمصدر هام من مصادرهم ، ولا نستثنى من ذلك الامير محمد ، صاحب « تحفة الزائر » (2) الذى كثيرا ما نقل عنه الفقرات الكاملة دون ان يذكره بالاسم او يذكره بقوله قال تشرشل او قال احد مؤرخى الانكليز ، الخ كما لا نستثنى من ذلك بول ازان صاحب « الامير عبد القادر » (3) ولا يكاد يخلو مصدر من مصادر ترجمة الامير من ذكر كتاب تشرشل . وسنتعرض لاهمية الكتاب التاريخية بعد قليل .

ورغم انه سبق لى ان ترجمت بعض الاعمال الاخرى فان هذا هو اول عمل مطول قمت به . ومن الملاحظ ان اللغة الانكليزية فى تطور مستمر وان تعابير

---

1) بدأت فى ترجمته منذ سنة 1969 ، وقد نشرت منه عدة فصول فى مجلة « المجاهد الثقافى » انظر الاعداد : 8 ، 10 ، 11 ، 12 ، 13 ، 15 ، 16 ، 17 ، 18 . وبعد الانتهاء من الترجمة العربية ظهرت فى السوق الترجمة الفرنسية التى قام بها السيد ميشيل هابار والتى نشرتها الشركة الوطنية الجزائرية ، 1971 .

2) ظهرت طبعته الاولى فى جزئين فى الاسكندرية سنة 1903 .

3) طبع سنة 1925 فى باريس ، وعنوانه الكامل :
« الامير عبد القادر 1808 ـ 1883 من التعصب الاسلامى الى الوطنية الفرنسية » .

واسلوب القرن التاسع عشر قد اصبحت صعبة او غير مستصاغة اليوم • ولذلك فان نقل عمل كهذا مطبوع سنة 1867 لا يخلو من صعوبة ومن مشقة• بالاضافة الى ان المؤلف كان يكتب احيانا باسلوب اختصاصي دقيق حين يصف المعارك والمناورات الحربية ، او باسلوب ادبي رومانتيكي حين يتعرض لوصف آمال الامير ومهارته وشخصيته • وكلا الاسلوبين صعب على المؤرخ الذي له هو ايضا اسلوبه في الكتابة والنقل والاستيعاب •

ورغم الكتابات الكثيرة التي كتبت عن الامير حتى الآن فاننا لا نجد له ترجمة شخصية وافية في اية لغة • فالفرنسيون الذين اهتموا بالامير ، ولاسيما بعد 1847 ، والذين يملكون عنه اكثر من غيرهم وثائق اساسية عن حياته وعلاقاته ومجالات تفكيره ، لم يكتبوا عنه الا اشياء متفرقة موجهة ترمي في الغالب الى اثبات تفوقهم من ناحية وتخدير الجزائريين باثبات صداقة الامير للفرنسيين بعد حربه لهم من ناحية اخرى ، ولعل افضل ترجمة شخصية هي التي كتبها عنه السيد الاسكندر بيلمار (4) والتي نشرها سنة 1863 اي قبل عدة سنوات من ظهور ترجمة تشرشل له • ولكن كتاب بيلمار ، كما ينص على ذلك العنوان الفرعي،لا يتناول سوى الجانب السياسي والعسكري من حياة الامير • وبذلك تظل الجوانب الروحية والفكرية والاجتماعية مهملة فيه • ومن جهة اخرى فان كتاب بيلمار كتب قبل عشرين سنة من وفاة الامير • ومعنى ذلك ان فترة غير قصيرة من حياته لا يتناولها الكتاب من قريب او من بعيد • وياتي بعد ذلك كتاب الكولونيل بول ازان عنه الذي ظهر سنة 1925 • وهو كتاب فيه كثير من التحليل والاجتهاد الشخصي في تفسير النصوص • ولكن يؤخذ على المؤلف انه كرجل عسكري انساق وراء القاعدة التي تقول « عظمتك في عظمة عدوك » فهو باعتباره مؤلف عدة كتب عن الجيش الفرنسي في الجزائر (5) يريد ان يثبت مكانة عالية لقواد هذا الجيش لانهم كانوا يحاربون خصما عنيدا جديرا بهم • هذا من جهة ومن جهة اخرى فان كتاب ازان يسير في خط واضح سار عليه معظم الكتاب الفرنسيين وهو ان الامير قد اصبح بعد سنة 1847 . صديقا وفيا لفرنسا ، وهذا الخط يفسره العنوان الفرعي للكتاب الذي يقول « من

---

4) عنوانها : عبد القادر : حياته السياسية والعسكرية ، باريس سنة 1863 • وبيلمار كان مترجما وعلى صلة بحياة الامير ، وقد كتبه متاثرا بتدخل الامير في احداث الشام 1860 •

5) منها « جيش افريقيا من 1830 ــ 1850 » نشره سنة 1936 ، و « احتلال وتهدئة الجزائر » ظهر سنة 1931 • و « بوجو والجزائر » نشره سنة 1930 الخ •

التعصب الاسلامي الى الوطنية الفرنسية » • وبالرغم من أن كتاب ازان يغطي كل حياة الامير ، فانه مثل كتاب بيلمار ، يظل مركزا على الجوانب السياسية والعسكرية من حياته • اما اعمال ليون روش L. Roches (6) والجنرال دوما Daumas (7) وغيرهما من الضباط والقناصل والمترجمين الفرنسيين الذين شغلوا لدى الامير مناصب معينة فانها تدخل في الانطباعات الشخصية والاحداث الشاملة اكثر من كونها اعمالا متكاملة عن حياته •

اما الترجمة الشخصية العربية عن الامير فلا تكاد توجد ، واذا كانت «تحفة الزائر» لابنه محمد تعتبر حتى الآن افضل مرجع عنه ، فانها ليست خالية من العيوب الاساسية • ذلك أن افتقارها الى المنهج ، واحتواءها على المبالغات واسلوبها العاطفي تنزع عنها صفة الترجمة الشخصية الجادة ، بالاضافة الى اعتماد الامير محمد على نقول غير منظمة من الكتب الاجنبية عن الامير ، ولا نكاد نجد في الكتابات الاخرى عنه سوى الالتزام العاطفي نحوه ، اعجابا ببطولته الشخصية او بمواقفه السياسية • اما الروح العلمية المجردة والمناقشة الهادئة لدور الامير سواء في الجزائر او خارجها فلا وجود له بالعربية ايضا •

ولكن ترجمة تشرشل للامير تختلف عما سبق ذكره • فهي اولا تجمع الى الحوادث السياسية والعسكرية عنصرا هاما في حياة الامير وهي الروح الدينية والمواقف الانسانية والاجتماعية • وهي ثانية تهتم بالبحث لذاته • حقا ان تشرشل، كما سنرى ، لم يكن بعيدا عن القضايا السياسية المعاصرة، ولكن عمله على كل حال جاء جامعا لعدة جوانب ايجابية تفتقر اليها الاعمال الاخرى سواء كانت عربية ام فرنسية • غير ان الملاحظة التي لاحظناها عن كتاب بيلمار توجد ايضا في كتاب تشرشل ، لان هذا ينتهي ايضا بحوادث سنة 1864 ، وبذلك تظل تسع عشرة سنة من حياة الامير غير واردة الاحداث عن مصدرها الاصلي وهو الامير نفسه • وسنتعرض بعد قليل الى بعض احداث الكتاب • ولم نجد عملا انكليزيا هاما بعد تشرشل سوى كتاب

---

6) مثل « اثنتان وثلاثون سنة عبر الاسلام » جزآن ، باريس ، 1884 _ 1885 •

7) تعتبر وثائقه عن الامير هامة ، ولكنها لم تجمع في كتاب واحد ، وقد استفاد منها بيلمار ، واستعار منه بعضها تشرشل (دون ذكره بالاسم) واستخدمها أزان • وقد كان دوما قنصلا لفرنسا في معسكر اثر معاهدة التافنة (1837 – 1839) ثم مرافقا للامير في قلعة لامالق • وله عدة تآليف • كما تولى ادارة الشؤون العربية في الجزائر •

بلانت W. Blunt الذى ظهر عقب الحرب الثانية (8) ٠ وان ظهور هذا الكتاب في ذلك التاريخ له اكثر من معنى ، اهمها الذكرى المائوية لنهاية مقاومة الامير ٠ ولكن الظاهر ان بلانت ، كما اعترف هو بذلك ، لم يات بجديد وانه اعتمد اساسا على تشرشل من جهة وعلى اهم الاعمال الفرنسيه عن الامير من جهة اخرى،ولكنه على كل حال يكشف اهتمام الانكليز بشخصية الامير حتى بعد ان لم يعد له نفوذ او تاثير يرتجى ٠

والواقع ان الانكليز وقفوا من الامير موقف المعجب المشجع اثناء مقاومته رغم ان اعجابهم به وتشجيعهم له لم يصل حد الحماس والتاييد المطلق ٠ فقد ثبت انهم امدوه ببعض الاسلحة والذخيرة من مراكزهم فى المغرب واسبانيا٠ واتصل به بعض عملائهم في الجزائر لمعرفة تفكيره السياسي واتجاهاته (9) ٠ وغطت صحفهم ، حتى المحافظة منها ، اخباره بلهجة معجبة ٠ وتناوله بعض شعرائهم . بل دخل حتى في ادبهم الشعبى (10) ، وتبادل معهم الرسائل وانتصروا له عند سجنه في فرنسا ٠ وقد تدخل كبار رجالهم لاطلاق سراحه (11) ٠ ولكن علاقة الامير بنابليون الثالث ، وما قيل من ان الامير قد منح كلمته الصادقة بان لا يرفع السلاح مرة اخرى في وجه فرنسا اينما كان ، وحماية فرنسا له ولاولاده وتزويده بأكثر مما يحتاجه من مال على يد نابليون، كل ذلك وغيره قد جعل الانكليز يقفون منه موقف الحذر ٠ فقال عنه بعضهم بأنه قد أصبح صديقا للفرنسيين ولا يمكن أن يكون غير ذلك ، وسكت عنه الآخرون فلم يهتموا به ولم يعد فى نظرهم قادرا على القيام بأى دور على المستوى العالمي ، واذا كانت الملكة فيكتوريا قد ارسلت اليه بندقية وخطاب شكر فانها قد فعلت ذلك تقديرا لموقفه الانسانى من حوادث 1860 فى الشام تمشيا مع ما قامت به معظم الدول الاوروبية نحوه ٠ ولم يكن ذلك بدون شك تغييرا فى سياستها نحوه او تقربا منه للاستفادة من نفوذه كما فعل الفرنسيون ٠ أما تشرشل فستعرف لماذا درس الامير وكيف تناوله ٠

---

8) عنوانه . « صقر الصحراء عبد القادر والاحتلال الفرنسى للجزائر (لندن ، 1947) ٠

9) انظر الكولونيل سكوت Scott « يوميات اقامة فى زمالة عبد القادر واسفار فى المغرب والجزائر » (لندن ، 1842) ٠

10) انظر القصيدة التى نشرتها جريدة « بانش » ونقلتها عنها The Northern Star (النجم الشمالى) (22 يناير ، 1848) وعنوانها « عبد القادر فى طولون او الصقر السجين » The caged Hamk

11) انظر تدخل اللورد لندنديرى فى كتابى « الحركة الوطنية الجزائرية » (بيروت 1969) ص57

واذا كان ذلك هو موقف الانكليز من الامير . فما كان موقفهم من دايات الجزائر على مدى التاريخ ؟ لقد ارتبطت العلاقات بين الجزائر وبريطانيا منذ القرن السادس عشر . ورغم الهزات التي تعرضت لها اثناء الثورة الامريكية والثورة الفرنسية وحملة اللورد اكسموث 1816 فان هذه العلاقات كانت في جملتها ودية . فبريطانيا كانت تدفع عن رضى الجزية المتعارف عليها عندئذ، وكانت سفنها وقناصلها بالتالي محل احترام من الجزائريين ، وكثيرا ما كان الاسطول الجزائرى يتزود من الموانى البريطانية . وكثيرا ما تبادلت الجزائر وبريطانيا البعثات والهدايا الثمينة . وباتفاقية سنة 1806 حصلت بريطانيا على حق صيد المرجان وتجارة الحبوب في الشرق الجزائرى ، وهو الحق الذى كانت تتمتع به فرنسا ، ولكن هذه سرعان ما استردت ذلك الحق بعد سقوط نابليون وبعد حملة اللورد اكسموث المذكورة . ويبدو انه كان ليهود الجزائر، ولا سيما اسرة بكرى - بوشناق ، دور رئيسى في عدم استقرار العلاقات التجارية بين البلدين ، ويذكر بعض مؤرخي الانكليز ان هذه الاسرة كانت تستخدم حتى الكيد والتوريط للاضرار بالمصالح البريطانية في الجزائر (12).

ومنذ بدأ النزاع الجزائرى الفرنسي سنة 1827 لعب القنصل البريطاني السيد روبير ويليام سان جون R. W. St. John الذى تعين قنصلا عاما لبريطانيا خلال 6 ديسمبر 1827 ، خلفا للسيد موريس توماس M. Thomas دورا بارزا في هذه الاثناء . وقد ظل في منصبه هذا مدة طويلة حتى تقاعد . وكانت القنصلية البريطانية العامة التي كانت تقع أسفل جبل بوزريعة بالعاصمة من اهم القنصليات في الجزائر مكانة لدى حكام الجزائر . وكان يلحق بها غالبا جراح خاص وقسيس وتراجمة ونحو ذلك . ومما يذكر ان طبيب القنصلية حين بدأ النزاع بين الجزائر وفرنسا كان هو الدكتور باون Bowen الذى كان منزله بحيدرة ، وهذا الطبيب هو الذى تدخل عدة مرات لصالح الاسرى الفرنسيين . أما القنصل العام سان جون فقد كان محل ثقة الداى حسين باشا وكان على صلة باعيان طبقة الحضر الجزائرية كحمدان خوجة (13) وقد استدعاه حسين باشا عنده لاطلاعه على البيان الذى وزعه الفرنسيون

---

12) انظر بهذا الشأن كتاب الكولونيل بليفير Playfair (قنصل بريطانيا في الجزائر) « جلادة المسيحيين » Scourge of christendom (لندن ، 1884) وله عنوان فرعى يقرأ هكذا : « حوليات العلاقات البريطانية مع الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي » .

13) نوه خوجة في كتابه المرآة (باريس ، 1833) بدور القنصل البريطاني العام . وقد دافع بعض كتاب الانكليز عن استقلال الجزائر ، من ذلك ما كتبه بانيستر « نداء لصالح الجزائر وامريقيا الشمالية بقلم انكليزى » (باريس ، 1833 ، ط 2 1883) .

بالعربية على السكان ضده ، وقام رفقة كاتب الباشا وبعض أعيان الحضر بمفاوضة الكونت دى بورمون قائد الحملة ، وتدخل لتاخير دخول الجيش الفرنسي الى المدينة عدة ساعات بطلب من الداى ، وكلفه بورمون بمفاوضة الداى على الاسرى الفرنسيين فقام بذلك الى ان حملهم سالمين الى مقر القنصلية• واخيرا تدخل لصالح الداى لدى بورمون الى ان خرج حسين باشا من الجزائر باموال واهله الى الجهة التى اختارها : (نابولى) •

وفي الوقت الذى كان فيه قنصل بريطانيا العام يقوم بهذا الدور النشيط بين الخصمين نجد ان الحكومة البريطانية لم تقم بدور فعال فى منع فرنسا من احتلال الجزائر • حقا ان حكومة شارل العاشر قد ناورت الرأى العام الاوروبى ، والبريطانى خاصة ، لكى تقنعه بان هدفها ليس احتلال الجزائر ولكن تأديب الداى حسين باشا على اهانته للقنصل الفرنسي دوفال Deval وحقا أيضا فان بريطانيا كانت تعمل بتنسيق مع الدولة العثمانية على حسم الخلاف قبل أن تصل الحملة الى الجزائر ، وعليه جاء المبعوث العثماني خليل أفندى على سفينة بريطانية الى الجزائر (14) • وكان الهدف من هذه البعثة هو اقناع الداى بالعدول عن موقفه المتصلب او ابعاده اذا اقتضى الامر • وظلت فرنسا تناور الرأى العام حتى بعد نزول الحملة والاطاحة بحكومة الداى، التى كان يبدو ان بريطانيا لم تكن تتوقع سقوطها بتلك السهولة • ذلك ان فرنسا ظلت تعلن حوالى أربع سنوات عن سياسة « التردد » فى الجزائر بينما كان جيشها يقوم بتثبيت ركائز الاستعمار هناك ويقضى على عناصر المقاومة الاهلية • ورغم احتجاجات بريطانيا فان سياسة « الامر الواقع » التى سلكتها فرنسا فى الجزائر قد تغلبت فى النهاية ، ولم يسع بريطانيا الا الاعتراف « بالسيادة الفرنسية » على الجزائر تحت ضغط الاحداث الملحة فى المشرق وفى اروبا (15) •

ورغم الغموض الذى يحيط بحياة الكولونيل شارل هنرى تشرشل الشخصية فان بعض الخيوط تكفى لربط علاقته بالامير • فاسرة تشرشل

---

14) انظر كتاب « السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر » تاليف آرجمنت كوران وترجمة عبد الجليل التميمى (منشورات الجامعة التونسية ، تونس • 1970)

15) عن سياسة بريطانيا تجاه احتلال فرنسا للجزائر انظر كتاب جيمس ا• سبوين J. E. Swain « الصراع من اجل السيطرة على البحر الابيض المتوسط قبل 1848 ـ دراسة فى العلاقات الانقلو ـ فرنسية » الذى هو دراسة موسعة لرسالة دكتوراه عنوانها « معارضة الاحتلال الفرنسى للجزائر 1830 ـ 1834 » (امريكا ، 1933) •

تنتمي الى الارستقراطية الانكليزية التي تميزت بالنبالة والثروة وخدمة التاج البريطاني • وأول من وضع هذه الاسس للاسرة هو دوق مارلبورو Marlborough (1650 ـ 1722) الذي هزم الفرنسيين في معركة بليتهايم (1702) • ونمر بعد ذلك بأسماء بارزة من أمثال راندولف تشرشل (1849 ـ 1885) وابنه السير وينستون تشرشل زعيم بريطانيا في الحرب الثانية • ومعظم أفراد هذه الاسرة لعبوا أدوارا عسكرية وسياسية ، لذلك فهم يمجدون البطولة والفروسية واعمال النبل • ولا عجب ان نجد هذه الظاهرة بارزة في كتاب تشرشل عن الامير • فالكولونيل ، الذي كان في سن الامير ، وجد نفسه في اسبانيا خلال سنة 1835 • وهي الفترة التي كانت بريطانيا تعطف على الامير وتمده ببعض الاسلحة والذخيرة • وبتأزم الموقف في الشرق اثر حروب محمد علي ضد الدولة العثمانية واثناء الحكم المصري للشام نجد الكولونيل فجأة على مسرح الاحداث (16) • ولعل المرء يجد كثيرا من اوجه الشبه بين دوره ودور مواطنه لورانس بعد حوالي قرن من الزمن • فقد حمل مثله عواطف الكره الشديد ضد العثمانيين ومال مثله نحو العرب،وكان كلاهما يعمل في المدى البعيد على تأمين المصالح البريطانية العليا • وان كتابه عن الامير لحافل بهذا الموقف •

وظل تشرشل يقيم بالشام بدون هوية واضحة ، فهو مرة يقف مع الدروز ضد المارونيين واخرى يحمل عليهم • وهو تارة يؤيد العرب ضد الترك ويدعو الى كيان عربي وشخصية عربية مستقلة • وهو اخرى يحيا عيشة عربية ويملك الاملاك في الجبل ويتزوج عربية من أهل المنطقة ويختلط بالناس حتى يصير عندهم السيد شرشر • وقد جاء عنه انه « جاء لبنان 1842 على رأس هيئة اطلق عليها اسم (البعثة البريطانية في سوريا) واشترى قرية بحوارة التي تقع بين عالية وبحمدون وبنى فيها بيتا سكن فيه وما تزال اطلاله قائمة الى اليوم • وقد انشأ اتصالات واسعة مع بعض الاسر الاقطاعية في البلاد • ونسب اليه الاشتغال بعدد من الحركات المحلية خلال اقامته في لبنان ••• ويعرف العامة في لبنان الكولونيل تشرشل باسم شرشر بك • توفي في بيروت وانتقلت بعد وفاته ملكية قرينه الى التاجر البيروتي السيد

---

16) ذهب الى الشرق حوال 1840 ، وهي السنة التي ذهب فيها الكولونيل سكوت المذكور الى مدينة معسكر لمقابلة الامير •

جورج تشرشل (17) وهو اخرى يعمل بدون كلل على تثبيت المصالح البريطانيه فنجده يغدو ويروح بين قنصليتى بريطانيا فى دمشق وبيروت ويدعو بلاده ان تتخلى عن تأييد الرجل المريض (الدولة العثمانية) الذى يقف فى طريق الحضارة والتقدم • وقد ظهرت كل هذه الافكار التى قد تبدو متناقضة فى مؤلفاته « جبل لبنان » فى ثلاثة اجزاء ، (لندن ، 1852) ، « الدروز والمارونيون » (لندن ، 1862) • ومنها الكتاب الذى نقدمه اليوم عن الامير عبد القادر • ويجب ان يكون واضحا ان تشرشل قد نشر كتابه هذا فى الوقت الذى ظهرت فيه فى فرنسا وفى الشرق دعوة الى تولية الامير ملكا على العرب ، فهل اراد تشرشل بهذا الكتاب ان يساهم فى هذه الفكرة باسم الانكليز حتى يحافظ لبلاده على مكانة بارزة لدى الامير اذا ما تحققت الدعوة؟ ومن جهة اخرى اننا نعلم ان الامير قد زار لندن فى صيف سنة 1865 (اى بعد انتهاء تشرشل منه وقبل صدوره) ، ولكننا لا ندرى مدى مساهمة تشرشل فى حمل الامير على هذه الزيارة التى قيل عنها انها كانت زيارة خاصة دامت بضعة ايام فقط •

ومهما يكن الامر فان تشرشل كان فى بيروت عندما حل الامير باسطانبول ثم ببروسة سنة 1853 بعد ان اطلق سراحه وسمح له بالاقامة فى الدولة العثمانية • وكان وصول الامير ، مع ما سبقه من السجن غير المنتظر ، والاحتفالات التى اقيمت له فى باريس وغيرها من المدن الفرنسية ، ثم احتفاء سفير فرنسا به فى العاصمة العثمانية ، حادثا هاما فى الشرق • وقد تهاطلت الوفود على الامير من كل جانب ، وكان لكل وفد رغبة وهدف ، فهناك الجزائريون الذين سبقوا الامير الى المشرق . وهناك علماء واعيان الدولة العثمانية ، وهناك قناصل وممثلو الدول الاجنبية • ومنهم تشرشل • فهؤلاء كانوا يتساءلون بلا شك عن دور الامير الجديد بعد ان اطلق سراحه • هل سيعود الى الجزائر ويعلن الحرب ضد فرنسا مجددا ؟ هل سيلعب دورا خطيرا فى البلاد العربية ؟ هل سيعتزل السياسة تماما ويتنسك ؟ هل سيعيش تحت النفوذ الفرنسى محاطا بسياج من المعاش المالى الضخم الذى اغدقه عليه نابليون ؟ الى غير ذلك من الاسئلة التى كانت تدور فى خلد ممثلى الدول الاجنبية ، وبدون شك لدى السلطات العثمانية ايضا • وقد حمل الفضول السياسى تشرشل على التوجه لمقابلة الامير فى بروسة • وكان ذلك خلال

---

17) من كتاب عادل الصلح « سطور من الرسالة : حركة استقلالية قامت فى المشرق العربى سنة 1877 » (بيروت • 1966) ص 71 •

سبتمبر من السنة المذكورة • ولم يكن ينقصه لا المهارة السياسية ، ولا حذاقة اللسان العربي ، ولا الخبرة بالطبائع العربية والاسلامية • ويبدو ان الرجلين قد مالا الى بعضهما • فقد توقف الامير عند توجهه الى دمشق سنة 1855 عند صديقه تشرشل في جبل لبنان وبات ليلته عنده • ولا شك ان الاحاديث قد تطورت بينهما فتناولت ، بالاضافة الى حياة الامير الشخصية، حياة الشرق عامة ، ومنطقة الشام خاصة • ولا نستبعد في هذه الحالة ان يكثر الامير من الاصغاء ويقلل من الكلام رغم ان تشرشل يقول ان « احاديثنا الطويلة لا تكاد تخرج عن اعماله في الجزائر » •

اما تشرشل فقد عزم منذئذ على كتابة سيرة شخصية للامير• واثناء شتاء سنة 1859 ـ 1860 اقام تشرشل في دمشق لتنفيذ مشروعه فاتفق مع الامير على الجلوس معه ساعة يوميا طيلة خمسة شهور • ومن هذا «الاملاء الشخصي» والوثائق الاصلية التي حصل عليها المؤلف ، ولد هذا الكتاب • ومن حق الباحث ان يتساءل لماذا اخر تشرشل كتابة كتابه حوالى عشر سنوات (1855 ـ 1864) ؟ هل كانت تنقصه الوثائق الضرورية او كان ينتظر الفرصة المواتية او ان الاحداث لم تتطور بعد لتجعل من الامير محط الانظار من جديد او كان تشرشل مشغولا بامور اخرى ؟ على كل حال ان هذه الاسئلة لا يجيب عليها الكتاب • ولعلها ستظل بدون جواب حتى يظهر من الوثائق ما يكشف الحقيقة •

ومن هذه العلاقة بين الرجلين (السن ، نبل الاصل ، الفروسية ، الثراء ، الاعجاب المتبادل) نفهم لماذا صاغ تشرشل كتابه هذا على النحو الذى هو عليه • والكتاب يقوم على مبدأين : تمجيد بطولة الامير الحربية وتمجيد مواقفه الانسانية•ان حماس تشرشل هو للامير كزعيم وانسان وليس لشعب الجزائر ذلك ان اعجابه بالامير كشريف وبطل ومصلح يقابله وصفه للجزائريين بالتخلف والقبلية والقدرية ، واذا ابدى اعجابه بجماعة منهم فهو اعجاب بالارستقراطية (وبالاخص الدينية) وليس بالغوغاء او عامة الناس•اما مواقفه الانسانية فتتمثل عند تشرشل في ايمانه بالتقدم وسماحته في معاملة الاسرى من الاعداء ، وتدخله لانقاذ المسيحيين المهددين في الشام • وهذا الخط واضح في كل الكتاب • ولذلك نجد نقصا واضحا في تغطية عدد من الاحداث العسكرية والدبلوماسية لانها لم تكن تشغل بال المؤلف ولذلك تجاوزها •

ولكن ما المواقف والاحداث الكبرى فى حياة الامير التى تعرض لها كتاب تشرشل والتى ما زال يكتنفها الغموض ؟ يتناول الكتاب حياة الامير منذ ولد فى القيطنة سنة 1807 الى عودته الى دمشق من الحج سنة 1864 • وخلال نصف القرن هذا شهدت الجزائر تجربة الاحتلال الفرنسى وحركة المقاومة ضده ، وشهد الشرق ظهور محمد على واصلاحات الدولة العثمانية . وحرب القرم وفتنة الشام ، وشهدت اروبا حروب نابليون ، وثورات 1848 والتقدم الصناعى ومحاولات الوحدة فى كل من ايطاليا والمانيا • اذن فقد عاصر الامير كل هذه الاحداث وشارك فى بعضها •

ونلاحظ ان الطابع الاسطورى لظهور الامير قد بدا منذ نعومة اظفاره فقد كانت تظهر عليه علامات خاصة ميزته عن جميع اخوته فجعلت والده يوجه له عناية خاصة ويؤثره على غيره • وقد ظهرت هذه العناية فى الثقافة والتوجيه•وكان محيى الدين يراقب ابنه عن كثب ويتوسم فيه علامات غامضة• وقد روى تشرشل عدة قصص عن علاقة الاب بابنه سواء فى الجزائر او فى بغداد عند ضريح الولى عبد القادر الجيلانى • ثم ان نبوغ الامير العلمى دون اخوته واهتمامه بالفروسية والصيد وزواجه المبكر كلها عناصر هامة فى نضج الاسطورة • يضاف الى ذلك الحسب والنسب والحج والوسامة والورع ، بل حتى مبايعته تحت الشجرة ثم فى الجامع • ان الدارس لحياة الامير يصادفه الجواب على هذا السؤال : هل كان الامير رجل دين او رجل دولة او كان هما معا ؟ وقد اجاب الكثيرون ، كل حسب ما تهيا له • ولكن الغموض ما يزال يحيط بالموضوع • ان بعضهم يعتبر الامير فى كل تحركاته مدفوعا بعامل دينى قوى وان الظروف والاحداث فقط هى التى اجبرته على الدخول فى المعركة ضد الفرنسيين . وان دوره الحقيقى لم يكن اقامة دولة بل العبادة والتجرد والبعد عن هذا العالم• وهم يستدلون على ذلك بعدة اقوال ينسبونها الى الامير ، ولكن من الذى يستطيع ان يحدد دوره ويرسم مصيره قبل ان يولد وحتى بعد ان ولد ؟

ولكن الامير الذى ولد فى بيئة دينية محافظة اثناء فترة جمود عقلى واستبداد سياسى فى بلاده والذى لم يعد يجد حريته حتى الشخصية الا فى احضان وادى الحمام وغابات كاشرو وخلوة جده سيدى قادة ، سرعان ما ادرك ان دوره ، بعد ان امسك بزمام السلطة ، هو بناء دولة عصرية تقوم على جيش منظم وادارة محكمة وعادلة ، ونظام ضريبى دقيق ، واقامة صارمة للعدل ، وتاسيس مراكز للتعليم على نحو جديد،وربط علاقات متفهمة بالعالم الخارجى،

واقامة مصانع تلبي حاجات المجتمع الجديد ، واستيعاب وفهم عميق لروح الدين وحاجات العصر ٠ومن اجل ذلك تخلص الامير من اعدائه بلا هوادة وقطع الصلة بالادارة العثمانية وبقاياها ونظمها ، وفاوض الفرنسيين حين راى ان ذلك لا يتنافى مع المصلحة العامة . واستعان بالاجانب في الامور التي عجز عنها مواطنوه ٠ ولعله من الواضح ان رجلا يفكر ويخطط على تحقيق هذه المشاريع ليس بالرجل الناسك في احدى الزوايا المهجورة ٠ ولا نظن ان هذه المشاريع قد فارقت راس الامير نهائيا بعد 1847 ٠ ان كثيرا من اقواله وتصرفاته تظهر ان الرجل كان يعيش عصره ويفكر كرجل دولة ٠ خذ مثلا قولته بعد ان زار متحف المدفعية والمطبعة في باريس حين قال « بالامس رايت بطاريات الحرب ، وهنا ارى بطاريات الفكر » ٠ او موقفه حين عرضت عليه امارة العرب في الشام حين قال لمحدثه :«دع الامور تنضج»٠

واذا كنا لا نستغرب موقف الامير من بقايا السلطة العثمانية في الجزائر التي وقفت من والده موقف العداء، فان موقفه من الحاج احمد،باي قسنطينة، الذي كان مثله يقاوم الفرنسيين ، غير واضح ٠ ورغم المبررات التي ابداها لتشرشل فان استراتيجية الحرب كانت تقتضي موقفا آخر غير الذي وقفه من حملة قسنطينة ٠ حقا انه كان في موقف حرج هو الآخر ، وانه كان في حاجة الى ساعة واحدة من الهدوء ليستعد للخطوة التالية ٠ ولكن يبدو ان عداءه للسلطة العثمانية قد جعله ينظر الى الباي المذكور نظرته للباي حسن قبله في وهران : التخلي تماما عنه ٠ ولعله كان يعتقد ان اهل قسنطينة سيهرعون بالاعتراف به والانضمام اليه بعد سقوط الحاج احمد كما اسرع اهل وهران اليه بعد سقوط الباي حسن ٠ ولكن الجغرافية والسياسة كشفتا له عن سوء التقدير ٠

ومن حق الباحث ان يتساءل عن اعتماد الامير اعتمادا كليا على شخصية مولود بن عراش في ادارة شؤونه الخارجية بعد ان ثبت ان ابن عراش كان يعمل مستقلا واحيانا بطريقة تتناقض ومصالح الامير ٠ وهناك شخصيات اخرى غامضة كان الامير يستمع اليها كاليهودي ابن دوران والمرتد المغامر ليون روش ٠ ومهما كان حسن نيته وفقره الى ممثلين اكفاء فان كثيرا من النقائص التي وردت في معاهداته مع الفرنسيين كان مرجعها ابن عراش وامثاله ٠ وان موقف هذا من معاهدة ديميشال ومعاهدة التافنة خير دليل ٠ ويذكر تشرشل تفاصيل ذلك في عدة اماكن من كتابه ٠

ورغم اننا لا نملك النص العربى الاصلى لمعاهدة ديميشال (انظر الملاحق) فقد استطعنا ان نعثر على النص الفرنسى الذى قيل انه ترجمة امينة للنص العربى الاصلى • ويظهر منها انها كانت اول انتصار دبلوماسى حققه الامير• فقد اعترف به « كامير للمؤمنين » وهو تعبير ، كما لاحظ شارل كوكنبوت Cockempot (18) بحق ، لا يستعمله الا الخلفاء ذوو السلطة الروحية والسياسية • واقرت مبدا تبادل القناصل بحيث يرسل هو ثلاثة قناصل الى ثلاثة موانى رئيسية كانت فى يد الفرنسيين وهى وهران وارزيو ومستغانم • اما الفرنسيون فيرسلون قنصلا واحدا الى مدينة معسكر عاصمة الامارة (19) • كما نصت على تبادل الاسرى وحرية العمل بالدين الاسلامى وحرية التجارة وضرورة تبادل المجرمين الهاربين • وبالجملة فانها قد نصت على سيادة الامير ومكانته ، وقد اعطاه ذلك وقتا للتنظيم الداخلى والقضاء على المنافسين والمترددين •

واذا كانت فرنسا قد اعترفت باستقلال الامير ، ضمنيا على الاقل، فانها لم تحصل على الاعتراف بسيادتها على الجزائر ، وهو الامر الذى كان يحرص عليه جميع المفاوضين الفرنسيين من ديميشال الى بوجو • ولم يسع المعلقون الفرنسيون الا ان يفسروا عبارة « بين شعبين حكم الله عليهما ان يعيشا تحت نفس السلطة » (20) التى وردت فى نص المعاهدة ، بان ديميشال كان يرمى من ورائها الى الحصول من عبد القادر على الاعتراف بالسيادة الفرنسية ، لان هذه « السلطة » فى نظر ديميشال هى السلطة الفرنسية• ولكن عبد القادر نفسه كان يريد ، من العبارة نفسها ايضا ، « سلطة » الاسلام والمشيئة الالهية ، وبعبارة اخرى السلطة التى يمثلها هو •

ومن الالفاظ التى اختلف فيها النص العربى والنص الفرنسى فى هذه المعاهدة استخدام عبارة « قناصل » فى النص العربى وعبارة « ممثلين » فى

---

(18) فى كتابه « معاهدة ديميشال » (مطبوعات كلية الآداب بالجزائر) ، باريس ، 1924 •

(19) ارسل الامير ثلاثة قناصل وهم الآغا خليفة بن محمود لارزيو (وهو مركز مهم ، وابن محمود هذا شارك ابن عراش فى المفاوضات) ومحمد بن يخو لوهران • وابن دوران لمدينة الجزائر (وهو يهودى) ، اما الفرنسيون فقد عينوا قنصلا لهم لمعسكر وهو عبد الله دسبون الذى كان من مماليك مصر •

(20) اما صاحب « تحفة الزائر » فيورد العبارة هكذا : « بين شعبين اقتضت الارادة الالهية ان يكونا تحت سلطة واحدة » • (انظر ج 1 ، ط 1 ، ص 106) وهذا التعبير ، رغم انه انفرد به بين الكتاب ، هو اقرب الى مراد الامير من المعاهدة ، ولعله قد اطلع على نصوص اخرى للمعاهدة لم يطلع عليها غيره •

النص الفرنسي • ولا شك ان عبارة قناصل كانت تعني عند الامير اشخاصا يحميهم القانون العام يتكلمون باسمه لدى السلطات الفرنسية في الموانيء الثلاثة المذكورة • وهي تعني من جهة اخرى ان هؤلاء القناصل هم وكلاء دولة مستقلة ذات سيادة يمثلها الامير • اما عبارة ممثلين او ضباط الواردة في النص الفرنسي فلا تعني ذلك•ومما يذكر ان ديميشال نفسه قد استخدم تعبير « قنصل » مما يدل على انه كان يعني تبادل القناصل بين دولتين مستقلتين •

ومن المعروف ان الامير كان حريصا كل الحرص على احتكار التجارة الداخلية والخارجية لنفسه وانه لم يتسامح في هذا الامر قيد انملة • لذلك نجد عبارة « سوق » الواردة في نص المعاهدة العربي تعني حرية العرب في الذهاب الى اسواق الموانيء الثلاثة المذكورة للبيع والشراء • اما التبادل التجاري والتعامل الذي يتم بين قوتين فهو من حقه وحده • ولكن ديميشال قد فهم من حريه « السوق » التعامل التجاري على النطاق الدولي ، وهو ما كان الامير يرفضه بكل شدة • ومن جهة اخرى كان الامير يصر على ضرورة التعامل بالمثل وعلى قدم المساواة • وكان ذلك واضحا في موقفه من النص على تبادل الفارين • وهو امر يؤكد رفضه الاعتراف بالسيادة الفرنسية• اما قضية جواز السفر الذي يحمله الاوربي في المناطق العربية فان النص الفرنسي يثبت ان دور قناصل الامير هو مجرد التاشيرة عليه اما الذي يصدره حقا فهو السلطات الفرنسية • اما النص العربي فيجعل منح الجواز بالتساوي بين الطرفين تاكيدا لسيادة الامير •

ويتضح من ذلك انه بالرغم من حرص الفرنسيين على الحصول على اعتراف الامير بسيادة فرنسا فانهم لم ينجحوا • بينما اعترفوا به هم كرئيس دولة مستقلة يتعاملون معه بالمثل في جميع الامور السياسية والتجارية والقضائية • ولذلك نجد تشرشل يؤكد على ان الامير كان يحتفظ بالنص العربي الواضح ويعمل بمقتضاه ، اما السلطات الفرنسية فانها حين عجزت عن الحصول منه على ما تريد لجأت الى التفسيرات وتحميل العبارات ما لا تطيق مما تسبب من جديد في التوتر بين الطرفين واستئناف الحرب •

ولكن مشكل الترجمة يظل قائما سواء مع معاهدة ديميشال او معاهدة التافنة • فالباحث كوكمبوت سابق الذكر يزعم ان النص العربي لمعاهدة ديميشال يجب ان يكون ترجمة للنص الفرنسي الذي اعده الجنرال ديميشال لان هذا كان لا يعرف العربية • كما يزعم ان الامير قد وضع خاتمه على هذا

النص العربي الذى هو ترجمة من النص الفرنسي ، ولكن المرء يتساءل : لماذا لا يصوغ عبد القادر شروطه بنفسه ؟ واين هو النص الاصلي الذى احتفظ به الامير كوثيقة تحمل تفسيره للمعاهدة ؟ اننا نعلم ان الامير كان يضع شروطه ويرسلها الى الطرف الاخر فيقبلها او يضع شروطا جديدة ، وبعد تبادل الوثائق عن طريق المفاوضين يحتفظ كل بنسخة مما اتفق عليه. فكيف يصبح من « الطبيعي » ، كما يقول كوكمبوت ، ان تكون النسخة العربية لمعاهدة ديميشال هي ترجمة طبق الاصل للنص الفرنسي ؟

والمشكل نفسه نواجهه بالنسبة لمعاهدة التافنة (1837) . فالمؤلفان ايميرت M. Emerit وهنرى بيريس H. Peres ، يزعمان انهما قد عثرا على النص العربي لهذه المعاهدة وان هذا النص ايضا ترجمة عن النسخة الفرنسية الاصليه (21) . ويؤكد ما ذهب اليه ان الذى قام بترجمته الى العربية هو السيد بريسني Bresnier الذى كان استاذا للعربية في الجزائر ، كما يؤكده ان الصياغة ليست من اسلوب عبد القادر في شيء (انظر الملاحق) . فالعبارات عامية او قريبة منها والتركيز فيها دائما على المصالح الفرنسية التى نصت عليها المعاهدة . فاين ما كتبه الامير من شروط ؟ هل يعتقد هؤلاء الباحثون انه يكفي في هذا المقام الاعتماد على النص الفرنسي وحده سواء كان اصليا او مترجما ؟

الواقع ان الباحث ايميرت قد القى التبعة على بوجو الذى يقول عنه انه كتب النص بالفرنسية اولا ثم ترجم النص الى العربية التى لم يكن يعرفها وانه احتفظ عنده بالاصل ولم يمكن منه الحكومة الفرنسية . وامتنع ورثته من تسليمه الى الارشيف الوطني . وان بوجو هو الذى استخدم عبارة « الى وادى خضرة الى قدام » الواردة في المادة الثانية من المعاهدة ، وانه قد دفع تخوف الامير بقوله انه يعني بعبارة « الى قدام » الاجزاء الاخرى من هذا الوادى التى تحمل اسماء اخرى » . ومما يذكر ان السلطات الفرنسية في مدينة الجزائر قد الصقت نص هذه المعاهدة على جدران المدينة ثم اسرعت بنزعها لان العرب احتجوا على ما جاء فيها من تعبير « الى قدام » مما يفهم منه ان حدود فرنسا من الجهة الشرقية تمتد الى تونس ، وهذا هو ما عبر عنه بوجو لحكومته التى كانت تستعد لحملة قسنطينة الثانية من انه ليس لفرنسا

21) انظر مقالهما « النص العربي لمعاهدة التافنة » في « المجلة الافريقية » (1950) ، ص 85 — 100 .

حدود ضدها شرق مدينة الجزائر لان المعاهدة تقــول « الى وادى خضــرة الى قــدام » ٠

وعبارة « الى قدام » ، او « الى ما وراءه » التى جاءت فى نصوص اخرى ، (22) عبارة غامضة لا نظن ان الامير قد قبلها مهما كانت التفسيرات التــى اعطاها له بوجو ٠ فهذا الاخير هو الذى كان مستعجلا عند المفاوضة وكان يريد ان تنتهى المفاوضات بالنجاح مهما كانت عواقب هذا النجاح ٠ وقــد لاحظ تشرشل ان بوجو كان يريد ان يحقق انتصارا شخصيــا سياسيــا ومعنويا ، وان سفينة كانت تنتظره فى عرض الميناء لكى تعود به ، كما ان اجراءات الاستعداد لحملة قسنطينة كانت تقتضى منه التوصــل الى اتفــاق مع الامير ٠ وقد اعترف بوجو نفسه عندما عوتب على استخــدام التعبيــر الغامض بانه كان تحت ضغط شديد ٠ والغالب على الظن ان بوجو قد اضاف عبارة « الى قدام » ، دون علم الامير ، الى نسخته الخاصة ، كما اضاف سريا بعض العبارات الاخرى اشار اليها الامير فى رسائله الى السلطات الفرنسية عندما تازم الموقف ٠ ومن جهة اخرى فان كلمة « وادى خضرة » الواردة فى الترجمة العربية ترد فى بعض النصوص وادى قدرة Kuddra (بضــم القاف وتخفيف الدال) وبهذا استعملها تشرشل واستعملها صاحب (تحفة الزائر) ٠ اما اهل المنطقة التى ذهبت اليها شخصيا فينطقون بها وادى قدارة (بفتح القاف) وهو الوادى الذى ينجمع فى جبل بوزقــزة ويلتقى بــوادى الحد ثم يشق السهل الى البحر حيث يدعى وادى سيدى سالم ثم وادى بودواو ٠ وما دام النص العربى الاصلى مفقودا فلا نستطيع ان نقبل كلمة « وما فوقه » التى قيل انها توجد فى نسخة الامير الا على اساس انها تعنى الضفة الشرقية للوادى المذكور ٠

ورغم ما فى هذه المعاهدة من اختلاف فى وجهات النظر ومن غموض فــى التعبير فانها كانت انتصارا لكلا الطرفين ٠ فمن وجهة النظــر الفرنسيــة على اعتراف بالسيادة الفرنسية ، وفتحت امامهم مجال التجارة مع الاهــالى ولاسيما فى الغرب الجزائرى ٠ امــا من وجهــة نظــر الامير فانهــا ادت الى الاعتراف به سلطانا على حوالى ثلثى الجزائــر ، وانه لم يعتــرف صراحــة

---

(22) يستعمل صاحب « تحفة الزائر » عبارة « وادى القدرة وما فوقه » ، ج 1 ، ط 1 ، ص177 ٠

بالسيادة الفرنسية (23) ، وانه قد حصر بها الفرنسيين في بعض المدن الساحلية ، وانه بها قد اصبح ندا لدولة كبرى فى المعاهدات مما يجعله يسكت خصومه الذين كانوا يعترضون عليه على مهادنة الكفار، واخيرا مكننه من الهدوء الذى كان ضروريا له لينظم جيشه ويضع اسس دولته ويقيم المصانع ويبنى مجتمعا جديدا ، كما مكنته من حق شراء الاسلحة من فرنسا •

واذا عدنا الى بنود المعاهدة نجد ان بوجو كان حريصا كل الحرص على انتزاع الاعتراف بالسيادة الفرنسية من الامير ، ولكن هذا اكتفى بقولة (المادة الاولى) : « ان الامير يعرف حكم سلطنة فرنسا فى افريقية (24) » وهو بلا شك تعبير بعيد كل البعد عن الاعتراف بالسيادة • ونلاحظ ان البند الثانى تعرض لغرب البلاد ووسطها وسكت عن شرقها (25) • فاذا لاحظنا ان عنابة وبجاية كانتا فعلا تحت ايدى الفرنسيين وان بقية اقليم قسنطينة كان ما يزال تحت حكم الحاج احمد ادركنا ما كان يخبئه كل طرف من نوايا حول شرق البلاد • فالامير كان يريد السكوت عنه لانه كان يعتقد ان المعاهدة ستجعل اهالى قسنطينة ينضمون اليه ويتخلون عن الحاج احمد سواء بعد حرب يخوضها معه او بعد ثورة داخلية ضده • بينما كان الفرنسيون ، من جهتهم ، يخططون للاستيلاء على اقليم قسنطينة كله بالقوة• فالسكوت عن هذا الاقليم اذن يخدم مصلحة الطرفين ولكن من وجهتين مختلفتين •

ومن اهم ما نصت عليه هذه المعاهدة لصالح الامير المعاملة بالمثل وعلى قدم المساواة مع الفرنسيين • فهو يدفع الحبوب والبقر وهم يدفعون السلاح

---

23) يستعمل المصدر السابق عبارة « ان الامير يعترف بسلطة دولة فرنسا على مدينتى الجزائر ووهران » وهو تعبير لا يعنى الاعتراف بالسيادة على الجزائر كما توهم المصادر الفرنسية قارن ذلك بالترجمة الواردة فى الملاحق •

24) انظر تفسير تشرشل لموقف الامير من الاعتراف بالسيادة الفرنسية فى الفصل الثانى عشر وبناء على تشرشل ايضا ان الامير كان يملك نسخة بالعربية من معاهدة التافنة كان قد كتبها بنفسه • وهذا يخالف ادعاء بيريس وايمريت وغيرهما من ان النص الفرنسي للمعاهدة هو الاصل •

25) جاء فى (تحفة الزائر) بخصوص الشرق الجزائرى ما يلى : « على دولة فرنسا ان تعترف بامارة الامير عبد القادر على اقليم وهران واقليم تيطرى والقسم الذى لم يدخل فى حكم فرنسا من اقليم مدينة الجزائر لجهة الشرق » • (ج I • ط I ، ص 177) • ومعنى ذلك ان المنطقة الواقعة بين وادى بودواو وحدود اقليم قسنطينة تكون تحت يد الامير •

والذخيرة ، وهو يلتزم بمنح حرية الملكية والتنقل لكراغلة تلمسان وهم (الفرنسيون) يلتزمون بنقل بعض خصومه من الدوائر الى جهات محددة قرب وهران • وهو يلتزم بعدم تسليم اى ميناء الى دولة اجنبية وهم يلتزمون بتسليمه ميناء رشقون ومدينة تلمسان بالاضافة الى التنصيص على حرية التجارة وتبادل الاحترام لكلا الجنسين من السكان وتبادل المجرمين وتبادل القناصل •

ولكن ما الاشياء الاخرى التى التزم بها بوجو كتابة للامير ولكنه احتفظ بها سرا عنده ولم يضمنها نصوص المعاهدة المشتركة ؟ اننا ندركها من رسائل الامير الى السلطات الفرنسية العليا سنة 1839 بعد ان بدا المارشال فالى فى الجزائر ومعاونوه يخرقون الاتفاقية • فقد جاء فى رسالته الى الجنرال برنار ، وزير الحربية الفرنسية (انظر الملاحق) ان بوجو قد التزم للامير كتابة بدفع الف قنطار من البارود وثلاثة آلاف بندقية خلال ثلاثة اشهر كما التزم له بابعاد عدد من الدوائر من وهران • ولكن الفرنسيين الذين قيدهم النص العربى للمعاهدة داخل سهل متيجة رأوا ضرورة فتح الطريق الى قسنطينة شرقا بعد ان نجحوا فى احتلالها والقضاء فيها على مقاومة الحاج احمد • وبعد ان عجزوا عن اعطاء كل التفسيرات للبند الثانى من المعاهدة بحيث يسمح لهم بالمرور برا من الجزائر الى قسنطينة ، وبعد ان عجزوا ايضا عن اقناع عبد القادر بالتخلى عن معارضته للمشروع ، لجأوا الى السلاح • اما الامير فقد تمسك بنص المعاهدة الذى لديه وبالشروط التى وافق عليها بوجو نفسه خطيا • وبعد ان رفع القضية الى وزير الحربية الفرنسى والى رئيس الوزراء ، بل حتى الى الملك نفسه ، لم يجد بدا من الدفاع عن حدوده بالسلاح ايضا • وعاد بوجو بعد ثلاث سنوات من توقيع المعاهدة بيده لفسخها بحد سيفه •

وكان استئناف الحرب سببا فى قطع جهود الامير الاصلاحية والحضارية • ان خطا واضحا فى كتاب تشرشل يشير الى مدى هذه الجهود وخصائصها• وقد ركز المؤلف على هذه الناحية لانه ، كما سبق ان قلنا ، كان يرى فى الامير مؤمنا عميقا بالتقدم الانساني وبضرورة الاخذ باسباب الحضارة الغربية لتجديد وبعث الامة العربية الهامدة والفكر الاسلامى الراكد • وان المتامل فى التسامح الدينى الذى عرف به الامير ، اثناء وجوده فى الجزائر واثناء وجوده خارجها ، يدرك ان الرجل كان يفهم روح العصر وحاجات التعايش بين الشعوب • فموقفه من رجال الدين الفرنسيين فى الجزائر ، وتصريحه

فى كنيسة المادلين حين قال « حينما بدات مقاومتى للفرنسيين كنت اظن انهم شعب لا دين له • ولكن تبينت غلطتى • وعلى اى حال فان مثل هذه الكنائس ستقنعنى بخطئى • » وتدخله اثناء فتنة الشام ، وقبوله عضوية الجمعية الماسونية بناء على بعض الروايات ، وغيرها من المواقف تكشف ان الرجل كان يعرف عن كثب تيارات العصور وروح الاديان ونزعات الناس فى الوقت الذى عرف فيه بالتصلب والتمسك الى اقصى حد بالمبادىء الاساسية الاسلامية (26) •

وقد برهنت التجربة على ان الامير كان لا يعارض الاخذ بالحضارة الاوربية ما دامت لا تتعارض مع مبادئه • فقد الزم جيشه بالنظام الاوربى المحكم حين عزم على تكوين جيش عصرى وانتدب بعض المدربين الاجانب للقيام بهذه المهمة • واشترى الاسلحة الحديثة وبنى مصانع للذخيرة والمدفعية وسك النقود ونحوها واستعمل عليها بعض الخبراء الاوروبيين فى تسييرها ، وكانت له مشاريع اخرى فى هذا المجال لم يكن له الوقت الكافى لتنفيذها • ولعل النظام الادارى التصاعدى الذى سنه ، ضاربا صفحا عن النظام الادارى العثمانى الذى كان قبله ، يكشف عن تفهمه لحاجة قومه لنظام يكفل لهم الارتقاء من عهد الاقطاع والقبلية الى عهد التعايش الاجتماعى والالتزام نحو بعضهم ونحو الدولة (27) • ومن حسن الحظ ان تشرشل قد تناول هذه الناحية بكثير من التفصيل • ويضاف الى النظام الادارى النظام التعليمى والعناية بالكتب وتقدير العلماء •

ورغم ان الامير كان يصدر عن ذاتية خاصة وتفهم شخصى لروح الدين وحاجات العصر فان هناك بعض الاشخاص الذين اطلقتهم فرنسا للتأثير عليه ومراقبته وتفهم افكاره • وقد تكون ملازمتهم له تركت بعض البصمات على مواقفه • حقا ان الامير لم يكن بالرجل السهل ، فكثيرا ما راوده الفرنسيون على التنازل عن بعض حقوقه فلم يفلحوا ، ولكن هناك نواح

---

(26) وجدت على النصب التذكارى الذى اقامه الفرنسيون للامير فى كاشرو (معسكر) ما يلى : قال الامير : « لو اصغى الى المسلمون والنصارى لرفعت الخلاف بينهم ولصاروا اخوانا ظاهرا وباطنا » ونحن لم نقرأ هذا الكلام فى اى نص للامير ولكنا لا نستبعد نسبته اليه لانه يتماشى مع ما قام به من اعمال ومواقف ، ولا سيما اثناء فتنة 1860 •

(27) قسم الامير الجزائر الى ثمانى مقاطعات : (تلمسان ، معسكر ، مليانة ، المدية ، سطيف ، (مجانة) ، الزيبان (بسكرة) ، برج حمزة ، الصحراء الغربية • وجعل على كل مقاطعة خليفة • وكانت كل مقاطعة مقسمة الى دوائر ، وعلى كل دائرة آغا • والدائرة عبارة عن مجموعة من القبائل ، فكان على كل قبيلة قائد ، وعلى كل عشيرة (جزء من القبيلة) شيخ • فكانت اوامر الامير تنفذ الى الشيخ الذى يمثل قاعدة الحكم عن طريق القائد فالآغا فالخليفة •

اخرى في النفس الانسانية لا ندرك كنهها بالكلمات والتصريحات والمواقف العاطفية • ان اشخاصا كالجنرال دوماس والعقيد بواسوسي والفسيس دوبوش لابد ان يكونوا قد قاموا بدور عنده • وكلهم كانوا خبراء في الشؤون الاهلية والنفس العربية ، ولا سيما الاولان • وبعد ان انتقل من فرنسا الى دمشق كان على صلة برجال القنصلية الفرنسية هناك • وفي سنة 1878 كتب السيد لورتي Lortet ، الذي كان عميدا لكلية الطب والذي ذهب الى دمشق في مهمة ، يقول ان فرنسا لم تعرف كيف تستفيد من نفوذ عبد القادر • ومن جهة اخرى كانت صلة عبد القادر بعلماء الغرب ، ولاسيما الفرنسيون ، قوية وكان يتراسل مع البعض منهم • فالى اى مدى اثرت هذه العلاقات على الامير وعدلت من نظرته للاشياء والناس ؟ ذلك ما تكشف عنه مواقفه نفسها • وفي هذا الكتاب كثير منها •

واذا كان هناك اى شك في علاقة الامير بمن سبق من الاشخاص ، فمن يستطيع ان ينفي اثر شخصية نابليون الثالث عليه ؟ ان الخمس سنوات التى قضاها الامير اسيرا في فرنسا قد روضت نفسه وعدلت من طبعه • فقد وقعت له اولا خيبة ظن عنيفة في الفرنسيين الذين كان يثق في كلمتهم ثقة كبرى من قبل • ولكن الاسر اراه ان كلمة الفرنسيين لاقيمة لها وانه كان تحت ضغط شديد لكي يتنازل عن حقوقه تارة ولكي يطلب البقاء في فرنسا تارة اخرى او يظل اسيرا طول الدهر • وزاد من عنف الصدمة عليه ان الحكم في فرنسا لم يكن مستقرا وان الذين اعطوه الكلمة هم الذين تخلوا عنه • فمن حرره من اسره وحقق له امله بالعيش في ارض اسلامية ؟ انه نابليون الثالث • ولكن نابليون لم يكتف نحوه بذلك • فقد اكرمه غاية الاكرام واعجب به اشد الاعجاب واقام له المآدب والحفلات وسار معه وسط جماهير باريس وتبادل معه الهدايا والوعود القاطعة واغدق عليه المال بعد انتقاله الى الشرق ، بل فكر في اعادته اميرا على الجزائر او تنصيبه سلطانا على العرب في المشرق • وباختصار فان نابليون قد جعله شخصا آخر ينعم بالحرية موفور الكرامة ، بعد ان هد الاسر قواه وروضت نفسه المحن والخطوب •

وكل لفتة كريمة من لفتات نابليون كانت قيدا معنويا في عنق الامير • ذلك ان الامير من الذين يقدرون حق الرجال ، وتصبح الكلمة عندهم دينا والاحسان قيدا • وقد ظل فضل نابليون عليه يتبعه سواء كان في بروسة او في دمشق ، في مصر او في الحجاز • وكان الامير يرد التحية باحسن

منها • فكان يزور باريس لرؤية صاحب الفضل عليه او يكتب اليه كلما عن له امر يستوجب ذلك • فزارها مرة بعد زلـزال بروسـة (1855) ليطلـب موافقته على الانتقال الى دمشق • وزارها ثانية (1865) ليشكره على الوسام الذى اهداه اياه بمناسبة تدخله فى فتنة الشام وعلى زيادة معاشه التى بلغت 150،000 فرنك • وقد ظل الامير وفيا لنابليون الى وفاته كما ظل نابليـون وفيا له • وعند سقوط هذا الاخير سنة 1870 كان عمر الامير حـوالى ثلاث وستين سنة • فلم يفعل الامير ما فعله رجال الجمهورية الثانية فى فرنسا حين زعموا له انهم غير ملزمين بالكلمة التى قطعها له رجال العهد السابق، بل ظل محافظا على وعده لنابليون فلم يقم باى شىء يناقض وعده •

وعلى هذا الاساس لم يتدخل الامير فى قضايا الجزائر التى جـرت اثناء وجوده طليقا فى المشرق • ومن اهم هذه الاحداث ثورة بلاد القبائل سنـة 1857 ، وثورة أولاد سيدى الشيخ سنة 1864 و 1881 ، وثورة سنة 1871 • حقا ان اسمه قد ذكر فى بعض الوثائق وان السلطات الفرنسية فى الجزائر كانت تتوجس منه خفية وكانت تزعم انه على صلة باهل البلاد • ولكن يبدو ان ذلك كان مبالغة وتخيلا فقط • فالاحداث السابقة (باستثناء ثورة 1871) كانت محلية وقصيرة الاجل • اما ثورة بوعمامة فقد وجدته يناهـز الرابعـة والسبعين • حقا انهم ينسبون اليه تاييد فرنسا كتابـة اثنـــاء ثورة 1871 والتخلى عن ابنه محيى الدين الذى جاء الى الجزائر للانضمام الى الثوار ، ونحو ذلك (28) • ولكن هذه الادعاءات غير مسلم بها • فتخليه عن ابنه قد يكون تقية فقط (29) والوثيقة المنسوبة اليه قد تكون مـزورة لخدمـة اغـراض داخلية • ولقائل ان يقول انه حتى ولو لم يتخذ موقفا مضادا مـن الثـورة فانه لم يتخذ موقفا ايجابيا • وهذا حق • ولكن الذى نرجحه هو ان الامير ظل وفيا لوعده بعدم التدخل فى شؤون الجزائر سواء من قريب او من بعيد ، وهو كرجل متدين ذى مبدا قد التزم بما وعد • ومع ذلك ، وسواء أراد أو لم يرد ، فان اسمه ونضاله القديم ومواقفه قد ظلت موردا ينهل منه المقاومون الجزائريون كما ظلت قوة معنوية تحفز ارادتهم وتساعدهم على شق الطريق•

(28 بناء على وثيقة خطية من مقال لم ينشر بعد للاستاذ عبد الجليل التميمى عن ثورة 1871 ان الامير عبر للقنصل الفرنسى فى طرابلس الغرب عن عدم رضاه بدخول ابنه الى الصحراء الجزائرية دون اذنه ، وطالب القنصل برده الى الشام •

(29 أكد لى ذلك أكثر من واحد من احفاده اثناء زيارتى لدمشق سنة 1968 •

ولكن مواقف الامير من القضايا العربية والاسلامية تختلف عن موافقه من القضايا الجزائريه • ان السمعه الهائلة التي سبقته الى المشرق كمجاهد وعالم وشريف قد فتحت امامه آفاقا غير محدوده • وكانت شخصيته العظيمة قد تركت وقعها على كل من خالطوه وانتموا به ، ولا شك ان الامير كان يعرف ذلك جيدا • فقد صدرت عنه عدة دراسات وكتبت عنه المقالات الصحفية وكانت تصله الرسائل والاخبار • وقد ازدادت هذه السمعة بعد تدخله في فتنة الشام حين راى نفسه محلى بعدد من الاوسمة التي منحتها له ملوك واباطرة ذلك العصر • كما تلقى على اثرها العديد من الهدايا الثمينة مرفوقة بآيات الشكر والاكبار • اما من الوطن العربي والاسلامي فقد وردت عليه رسائل التقدير وقصائد المدح والثناء • وهكذا اصبح في بداية الستينات محط انظار العالم وامل دعاة الاستقلال العربي •

ووسط هذا التيار ظهرت في اروبا ، وبالاخص في فرنسا ، دعوة تنصيب عبد القادر سلطانا على العرب • تناولتها بعض الصحف وبثها بعض الكتاب• وكان هذا امرا شائعا عندئذ،حتى ان بعضهم رشحه ليكون ملكا على اليونان• وفي نفس الوقت ظهرت سنة (1864) رسالة نابليون الى بيليسى الحاكم العام عندئذ على الجزائر ، التي يقول فيها « واكرر مقالتي لان وطن الجزائر لم يكن كارض خالية نعمرها وانما هو مملكة عربية واهل الوطن لهم حظ متساو (كذا) في حمايتي كاصحاب العمارات الافرنجية والآن فاني سلطان على العرب كما اني سلطان على « الفرانساوية » (30) وقد شاع ان الامبراطور كان يفكر في اعادة عبد القادر الى الجزائر • وكان صديق الامير ديليسبس، وبعض العناصر الفرنسية الاخرى ، يعمل لهذه الفكرة في مصر ايضا مما جعل حكام مصر عندئذ ينظرون شزرا الى الامير ويكتفون بالمجاملة عندما زار مصر سنة 1864 في طريق العودة من الحجاز الى دمشق •

اما دعاة الاستقلال العربي عندئذ فقد رأوا فيه املهم الوحيد • فهو الشخصية التي تستطيع ان تقنع الاتراك بحق العرب في الاستقلال • وهو الذي يمكن ان تتفق عليه كلمة الدول الكبرى ذات المصالح المتصارعة في المنطقة بعد ما قام به اثناء الفتنة • وفوق كل ذلك فهو المجاهد ذو النسب الشريف والعالم ذو المقام الرفيع والمحايد الذي يمكن ان تهابه وتنضوى

---

30) من نسخة بالعربية من الرسالة المذكورة بالمكتبة الوطنية (باريس) تحت رقم 8959 وتحت يدى صورة منها •

تحت لوائه مختلف الطوائف والملل والعشائر في المنطقة • وهكذا بدأت الاتصالات به سرا وعلنا اثر مؤتمر انعقد سنة 1877 • ومن اهم من كان على اتصال به عندئذ المناضل يوسف كرم والسياسي احمد الصلح • واذا ما صدقنا ما جاء في كتاب « سطور من الرسالة » فان الامير كان لا يرفض الدعوة التي تجعل منه راسا للحركة ولكنه كان يرى ان الوقت لم يحن بعد وان الفكرة في حاجة الى نضج ، وانه اتفق مع هؤلاء الزعماء على بث الفكرة والعمل لها وسط الجماهير ، ووعدهم شفويا وكتابة بدراسه الموضوع ولا ندري ان كان الامير قد جس نبض الموضوع مع السلطات العثمانية وممثلي الدول الاجنبية في المنطقة قبل اتخاذ موقف نهائي • ومهما يكن الامر فان الدولة العثمانية قد دخلت من جديد في حرب مع اليونان وجاء مؤتمر برلين (1878) وتولى السلطنة عبد الحميد الثاني (1876) وتقدمت السن بالامير فتجمد المشروع مؤقتا •

ومهما كان دور الامير في حركة الاستقلال العربي التي ظهرت في السبعينات فمن المؤكد انه كان على صلة باحداث وشخصيات اخرى في العالم العربي الاسلامي • فحضوره افتتاح قناة السويس وفكرة اقامته في مصر ، وموقفه من احتلال فرنسا لتونس كلها تعبر عن متابعته لاحداث بلاده الكبيرة • ومن جهة اخرى كان على صلة بالسيد محمد شمويل الداغستاني، المصلح القوقازي الكبير • وقد تبادل ايضا الرسائل مع الشيخ محمد عبده الذي وصفه في رسالة التعزية بانه « منتهى وصف الواصفين وغاية مدح المادحين (31) • ولا ندري ان كان على صلة ايضا بالسيد جمال الدين الافغاني •

ولكن صلته بزعماء العصر لم تكن كلها في الجانب السياسي النشيط ، بل كانت ايضا في الجانب الفكري والديني الهادىء • فقد كان يكاتب العلماء ويكاتبونه ، ويقضي معظم اوقاته في التاليف والقراءة والتامل الصوفي • حقا ان عبد القادر قد انغمس في اخريات حياته في عالم روحاني بعيد عن الصراع الدنيوي • وقد انتج خلال هذه الفترة عمله الكبير المسمى «المواقف» الذي يدل على اصالة تفكيره الصوفي واتجاهه الروحي • ونحن لا نستغرب ان يكون عبد القادر بن محيي الدين المتعلق بالطريقة القادرية القاضي شطرا

---

31) انظر « تاريخ الامام » للشيخ رشيد رضا ، ج 4 • وكانت بين الرجلين صلات واحاديث في شؤون المسلمين اشار اليها الشيخ عبده في احدى رسائله اليه بقوله : « ورجائي الا يزايل فكرك ما تفارقنا عليه وسبق الكلام فيه مرارا » •

من حياته فى العبادة والزهد في زاوية القيطنة قد انهى حياته الفكرية والروحية بكتاب كالمواقف • اما انتاجه الآخر فتغلب عليه روح النقل، فكتابه « ذكرى العاقل وتنبيه الغافل » ملء بالنقل الحرفى من « احياء علوم الدين » للغزالى • و « وشاح الكتائب » عبارة عن تنظيمات وقوانين عسكريه وليس تاليفا بالمعنى الدقيق للكلمة ، بالاضافة الى انه قد ثبت ان الذى صاغه هو كاتبه قدور بن رويلة • اما دوره هو فيه فهو الافكار والتوجيهات العامة • وشعر الامير ما زال لم يدرس دراسة نقدية هادئة ، غير انه يمكن القول ان القصائد الجيدة فيه هى قصائد الفخر • اما الوصف والمدح ونحوه فى شعره فهو تعليمى بارد وسطحى متكلف • ولكن ثروة هائلة من آثار الامير الفكرية ما زالت لم تدرس ولم تجمع وهى رسائله ومراسلاته • وحين يتحقق هذا العمل سيجد الباحثون كنزا قد يغير كثيرا من افكارنا عنه •

والواقع اننا نجد تشرشل قد وفى معظم هذه الموضوعات حقها • ولكن اهم الموضوعات التى ركز عليها هى التربية والتكوين الطبيعى والدينى للامير والبيئة الاجتماعية التى كان يتفاعل معها ، والنظام الادارى الذى حاول اقامته ، ومناوراته وخططه العسكرية ، وروح التقدم والاصلاح التى تميز بها ، وتسامحه حتى مع الد خصومه وحسن معاملته للاسرى ، وصبره على المكاره وعدم يأسه حتى فى اضيق ساعات العسر ، واعجابه بالحضارة الغربية والتقدم الانسانى ، وتدخله الانسانى اثناء فتنة الشام ، وحبه للعلم وتعلقه بالدين وكرمه وعزوفه عن الدنيا وشهامته • ويروى المؤلف كل ذلك فى اسلوب شيق متسلسل ، يكتسى طابع الرواية اكثر من طابع التحليل التاريخى •

وقد قسم المؤلف كتابه الى فصول مرقمة ولم يضع لها عناوين متميزة واكتفى بذكر الفترة الزمنية التى تناولها • ولم ار من جهتى داعيا لتغيير هذا النظام لان المؤلف يتناول عدة موضوعات فى الفصل الواحد • وقد اهدى الكتاب الى نابليون الثالث تقديرا لموقفه من اطلاق سراح الامير ، وقدم لكتابه بمقدمة قصيرة ذكر فيها الغرض من تاليفه • كما حلى كتابه برسالة كان الامير قد ارسلها اليه واثبتها بنصها العربى ثم ترجمها • وحتى لا نثقل على الكتاب وضعنا هذه الرسالة (فى نصها العربى) مع الملاحق • ومن الجدير بالذكر ان تشرشل لم يضع سوى حاشية واحدة وردت فى مقدمة الكتاب • لذلك وجب التنبيه هنا الى ان جميع الهوامش والتعاليق فى الكتاب هى من وضعى الخاص • كما يجب التنبيه الى انى حافظت فى النص على

الحروف البارزة التي يوردها المؤلف لتأكيد معنى او نحوه ووضعت امام ذلك لفظة (اصلي) . كما وضعت لفظة (كذا) امام الخطأ الواضح فى النص المنقـــول .

وقبل ان اضع القلم يجب على ان اشكر جميع الذين ساعدونى من قريب او من بعيد على انجاز هذا العمل.واخص بالذكر اهل مدينة معسكر وعلماءها على رحابة صدورهم وجودهم بالمعلومات القيمة . واخص بالذكر ايضا زميلى الدكتور محمد برج الذى لم يبخل على بفوائده عـن احـداث الشرق اثنـاء وجود الامير هناك ، وزميلى الاستاذ حليمى عبد القادر الـذى اطلعنى عـلى مجرى وادى قدارة والحدود الشرقية التـى نصت عليها معاهـدة التافنـة ، والشيخ الطاهر التليلى القمارى الذى ارشدنى الى اصل ابيات ابن حمديس التى استشهد بها الامير فى الفصل الثانى والعشرين ، والاستاذ عبد الجليل التميمى الذى ارسل الى نسخة من رسالة الامير عبد القـادر الى السلطـان العثمانى عبد المجيد . لنشرها ضمن الملاحق .

ومهما كان الهدف السياسى لتشرشل من كتابة سيرة شخصية للاميـر فان عمله الذى جاء نتيجة تعارف وصداقة بينه وبين الاميـر دامت حـوالى عشر سنوات ، يعتبر من افضل ما كتب عن الامير حتى الآن . وانى ارجـو ان يجد فيه القارىء المتعة التى وجدتها فيه قارئا ومترجما .

كما ارجو ان يكون هذا العمل مساهمة مثمرة فـى التعريف بالجـوانب الوطنية والعربية والانسانية للامير عبد القادر ، ومساهمة ايضا فى حركة ربط الحاضر بالماضى التى هى هدف من اهداف الثورة الجزائرية ، لان الامير عبد القادر ، مهما قيل عنه ، لم يكن مجرد بطل مقاومة . ولكنه كان ، بالاضافة الى ذلك رمز حضارة وصوت تاريخ . وحسب المرء ان يسعى .

مدينة معسكر ، يوم الجمعة 13 /8/ 1971 .

أ . سعد الله

THE

LIFE OF ABDEL KADER,

Ex-Sultan of the Arabs of Algeria;

WRITTEN FROM HIS OWN DICTATION, AND COMPILED FROM OTHER AUTHENTIC SOURCES.

BY

COLONEL CHURCHILL,

AUTHOR OF "TEN YEARS' RESIDENCE IN MOUNT LEBANON," "DRUZES AND MARONITES UNDER TURKISH RULE," ETC., ETC.

LONDON:

CHAPMAN AND HALL, 193, PICCADILLY.

صورة العنوان الاصلي للكتاب

حياة عبد القادر

السلطان السابق لعرب الجزائر

كتبت من إملائه الخاص ومن وثائق أخرى أصلية

بقلم

الكولونيل تشرشل

مؤلف كتابي « عشر سنوات في جبل لبنان »
و « الدروز والمارونيون تحت الحكم التركي » الخ الخ

لندن
شابمان وهال 193 بيكاديللي
1867

ترجمة العنوان الاصلي للكتاب

إهداء الكتاب

الى نابليون الثالث ، امبراطور الفرنسيين

سيدى ،

قد يدعي الآخرون لانفسهم شرف تسجيل الشجاعة والحكمة والمهارة التى توصلتم بها الى مقاليد فرنسا الامبراطورية .

اما انا فادعي ، وانا فخور برضاكم ، ميزة اكثر تواضعا ولكنها ليست اقل شرفا ، باهدائى اليكم هذا الكتاب الذى ، بينما يحتفى بالاعمال الكبيرة ويصور الشخصية العظيمة لواحد من اعظم الرجال الذين انجبتهم السلالة العربية ، يسجل ، في نفس الوقت ، رغم الضعف وعدم الكفاءة ، سمو المبدا ونبل الشعور والغيرة الحساسة على الشرف الفرنسى التى اقنعتكم باطلاق سراحه ، تلقائيا ودون شرط ، من اعتقال خادع على ارض فرنسية .

ان ذلك العمل يكفى لان يكون فاتحة عظيمة لحكمكم ، انه عمل يكفى وحده لاعطاء هذا الحكم مجدا خالدا .

شارل هنرى تشرشل

مقدمة المؤلف

اذا كنت لسوء الحظ مخطئا في الاعتقاد والتوقع في ان بعض اهتمام الرأى العام ما زال يمكن اثارته بالكتابة عن اعمال وانجازات الامير العربى الشهير الذى اخترت حياته غير العادية موضوعا لبحثى ، فاننى مستعد ان اعترف عن ارادة بصدمتى ، لا نتيجة لاى نقص فى الحكم والتمييز من جانب الـراى العام القارىء ، ولكن نتيجة لحماسى المندفع المخلص لكل شىء عظيم ومشرف ورومانتيكى ٠

وان كون هذه القيم بمعانيها الموحية التى تهز الروح هـزا قـد تأججت بالحياة التى صورتها هنا ، ستكشف عنه الصفحات التالية بكل وضوح ٠
وبعد ان اوضحت الشعور الذى حدا بى الى الاقتراب من هـذا الموضوع، والذى كان بالنسبة لى مشحونا بجاذبيات خاصة تكاد لا تقهر ، اتابع حديثى لاتحدث عن الظروف التى بدأ ونضج فيها عملى الحاضر ٠

فقد كنت فى القسطنطينية خلال شهر سبتمبر 1853 ٠ وقد كان عبد القادر يعيش منفيا فى بروسة ٠ وما دمت على مسافة قريبة من شخص ظل خـلال سنوات يشغل عقلى بكل ميزات العظمة والبطولة ، فقد رايت انه من الخيانة لاعز مشاعرى واعمقها ان لم اشبع فضولى برؤية شخصه ٠

لذلك توجهت اليه ورايته ٠ وان هذا التعرف الذى تم على ذلك النحو اصبح تدريجيا ، اثناء مجرى احداث غير متوقعة ، صداقة دائمة لا تتحول ٠ لقـد حل بسورية سنة 1855 ٠ وبذلك اصبح منفاه دمشق بدل بروسة ٠ واثنـاء قدومه الى دمشق ، عبر بيروت ، قضى معى وقتا قصيرا فى جبل لبنان ٠

وكانت احاديثنا الطويلة لا تكاد تخرج عن اعماله فى الجزائر : حملاته ونوع ادارته وخطط اصلاحاته ومبادئه فى الحكم • وكان يتناول هذه الموضوعات لا بدون تحفظ فقط ، ولكن بحماس ايضا • وكانت القصة ، التى كان يقصها مرة بنغمة متحمسة وبطاقة عظيمة ، ومرة بصوت حزين ينبىء بتأثر عن آمال لامعة اصطدمت بقسوة بالخيبة ، وعن مطامح وطنية بعيدة المدى قضى عليها بغلظة ، اكثر من مجرد قصة هامة ومثيرة • ان لها عظمة وسمو ملاحم التراجيديا •

ولقد تساءلت فى نفسى ، هل يجب ان تصبح كل هذه الثروة من الاحداث، والعجائب من المغامرات ، والمتنوعات من الاعمال الخيرة العظيمة المجيدة « زكاة للنسيان * » بدون حتى ادنى محاولة من الانقاذ ؟ الم يوجد احد عرضت عليه فرصة تدعوه بالحاح الى الانضباط النفسى ، الى بلوغ درجة اعلى من الجرأة العقلية ، الى ممارسة اكثر قسوة من انكار الذات ، بان وضع امامه سجل حياة اشتهرت وتميزت بالاخلاص التام للواجب ، وبتحديد الهدف وتركيزه، وبمثابرة لا تنثنى ولا تقهر ؟

وبعد ان امتلات بهذه الافكار سالت عبد القادر ذات صباح ما اذا كان قد احتفظ بأى وثيقة مكتوبة عما كان يقوم به • فابتسم وقال « لقد كنت منشغلا كثيرا وباستمرار عن ذلك • اننى قمت بواجبى • وقد كان ذلك بالنسبة لى يشغلنى بما فيه الكفاية » • فقلت له « ولكنى لو سعيت الى الكتابة عن اعمالك المتنوعة هل تتفضل بمساعدتى ؟ » فرد على « بالفرح والسرور • اننى ساكون سعيدا ان اجيب على اية اسئلة قد توجهها الى • » وفى ذلك اليوم عزمت على كتابة ترجمة شخصية لعبد القادر •

لذلك اقمت فى دمشق اثناء شتاء سنة 1859 ـ 1860 بهدف وضع عزيمتى موضع التنفيذ ، ورغم ان عبد القادر كان شحيحا بوقته فقد رضى ان يمنحنى مقابلة ساعة يوميا ، وهكذا فتح المنجم امامى • وبقى على ان استخرج منه الخام • وقد فعلت ذلك مدة خمسة اشهر • وهناك بعض الاعمال الفرنسية التى ساعدتنى اثناء قيامى بالبحث فى هذا الموضوع مثل «الاخبار الجزائرية» للسيد بيليسى دى رينو P. de Reynaud و «تاريخ احتلال مدينة الجزائر»

---

* « ان للزمن ، يا الهى ، جرابا على ظهره حيث يضع زكاة النسيان » ترْويلس وكريسدة • (المؤلف) •

للسيد الفريد نيتمون A. Nettement وغيرهما مما هو اقل اهمية منهما . وفي وقت متأخر استفدت ايضا من عمل آخر اكثر تخصصا في موضوعي بعنوان « عبد القادر ، حياته السياسية والعسكرية » للسيد بيلمار

وقد كان عبد القادر مسهبا في ملاحظاته وتعاليقه على هؤلاء المؤلفين ، وبذلك قدم لي كثيرا من التصحيحات المفيدة ، بالاضافة الى كمية غزيرة وقيمة من المعلومات الاصلية منه شخصيا .

ولم يكن يخطر على بالي وانا اغادر دمشق في ربيع سنة 1860 ان فصلا آخر كان يوشك ان يضاف الى تاريخه الغريب كثير الوقائع ، او ان نجمه المجيد الذي كان يبدو انه سيظل ساطعا الى الابد ، كان مقدرا له قريبا ان يظهر فجأة من جديد بعظمة اخرى ثاقبة . اما عن سلوكه الباهر النموذجي خلال المذبحة المخيفة التي تعرض لها مسيحيو دمشق ، وسط تواطىء السلطات التركية المخزية القاسية ، فقد حصلت على تفاصيل على درجة كبيرة من الاهمية والصحة من مشاهدي العيان .

هذه اذن هي مادتي . ولم يبق لي الا ان انسقها واصوغها . وقد فعلت ذلك . وانني ادعو قرائي ، بكل هيبة وتواضع ، ان يصدروا حكمهم على العمل نفسه .

الفصل الأول

1828 - 1807

هو عبد القادر ناصر الدين ، الابن الرابع لعبد القادر محي الدين ، ولد في شهر ماي سنة 1807 في قرية القيطنة على ضفة وادي الحمام في منطقة اغريس التي تقع في اقليم وهران في الجزائر .

ومنذ طفولته كان عبد القادر موضعا خاصا لحب والده ، حتى عندما كان في الرضاع فان الوالد الحنون كان يصر دائما على أخذ الطفل الى حضنه . وكان لا يسمح لاحد غيره أن يقوم بالعناية به . فقد كان هناك ، على ما يبدو . سر غامض وعاطفة غير محددة يدفعان الاب الى ان يخصص اهتماما غير عادي للطفل الذي سيكون مستقبله محفوفا بهالة مجيدة ومرتبطا بمستقبل بلاده .

وقد تطور الولد بدنيا بسرعة فائقة . بينما كانت ملامحه تظهر ، في مقارنة غريبة مع تطوره الجسمي ، حياء طبيعيا كبيرا . فعبارة (يخاف من ظله) قد تؤخذ على حرفيتها بالنسبة لعبد القادر . ولكن بعد سنوات ، وعندما كان في كمال وحيوية رجولته ، اظهر شجاعة فاقت كل شجاعة ، فقد كان دائما اول من يقود اطلاق النار أو يغطي الانسحاب . لقد كان والده غالبا ما يعود به الى عهد طفولته الناعمة ويعجب من المقارنة المدهشة .

اما الملكات العقلية للولد فقد كانت تدل على نبوغ غير عادي . فقد كان يقرأ ويكتب عندما كان في الخامسة من عمره ، وقد أصبح (طالبا) عندما كان في الثانية عشرة ، أي انه في هذه السن كان متمكنا من القرآن والحديث وأصول الشريعة . وبعد سنتين حصل على تسمية (حافظ) ، وذلك يعني انه اصبح يستطيع ترتيل القرآن عن ظهر قلب . وفي هذه المرحلة بدأ يعطي

دروسا فى جامع الاسرة حيث كـان يعقب ويفسر أصعب وأعمـق الآيـات والشواهد • لقد كان طموحه الاكبر فى شبابه هو ان يصبح (مرابطا) ، مثل والده الذى كان يحبه ويتحمس له تحمسا بلغ حد العبادة •

وفى السابعة عشرة اشتهر الشاب عبد القادر بين زملائه بقوته العجيبة ونشاطه الواضح • فهيئته المتكاملة المتناسقة (كان طوله حوالى 5 اقدام و 5 بوصات) ، وتركيب عظامه ، وصدره العريض الغائر ، كلها قد شكلت اطارا جسمانيا لا يعرف الكلال وقادرا على احتمال أشق الاتعاب •

وكان لا يدانيه احد فروسية • ولم يكن عبد القادر فارسا مهيبا فحسب بل ان تفوقه المدهش فى كل متطلبات الفروسية ، التى توجب العين القوية واليـد الثابتة والرجولة الحقة ، كان حديث كل اولئك الذين عرفـوه • فقـد كان يلمس كتف فرسه بصدره ويضع احدى يديه على ظهر الفرس ثـم يقفز الى الجانب الآخر • او انه كان يدفع الفرس الى أكبر سرعة ممكنة ثم ينزع قدميه عن المهماز ، ويقف على السرج ويطلق النار على هدفه بدقة عجيبة • وبلمسته الخفيفة الماهرة يثنى الفرس العربى المدرب ركبتيه ، او يمشى مسافات عـلى رجليه الخلفيتين بينما تضرب قائمتاه الاماميتان فى الهواء او يلوح ويقفز بهما كالغزال •

ولكن فتوة عبد القادر قد ظهرت خاصة فى سباق الخيل . لقد كان ذلـك يمثل عاملا هاما فى حياته وهو ذلك الفراغ المثير من الوقت الذى كان يقضيه النبلاء الجزائريون بحماس يفوق الحماس الذى يدخل به هواتنا حلبة السباق • وكان يركب جوادا فاحم السواد (وهو اللون الذى كان يفضله ، لانه عادة يدل على استعدادات ممتازة ولانه يمثل مقارنة خاصة مع بياض برنسه) يجعله محط جميـع الانظار •

كان كساؤه بسيطا وصريحا • وليس سوى سلاحه يظهر الزينة • فقد كانت بندقيته التونسية الطويلة مرصعة بالفضة • اما مسدسه فقد كـان مرصعا بالجواهر • وكان سيفه الدمشقى مغمدا فى غمد من فضة • ان هذه المرافق ، مع المنح التى خصت بها الطبيعة شخصه ، قد أعطت لمظهره مهابة يصعب التعبير عنها •

ان ملامحه التى كانت من اصفى الطابع الكلاسيكى ، كـانت جذابـة لوسامته المعبرة التى كادت تكون جمالا انثويا ، فأنفه الذى يتوسط وجهه فى حجم وسطى وفى شكل رائع — كان بين الانف الاغـريقى والرومانـى —

وشفتاه المنحوتتان بدقة والمضغوطتان قليلا تنبسان بتحفظ مهيب وبوثـوق في الهدف • بينما تشع عينان صافيتان في لون البندق تحت جبهة عريضة في بياض الرخام مع نعومة مكتومة وحزينة او تتألقان بأشعة العبقرية والذكاء•

وعندما يبدأ السباق كان يظهر برودة تامة وضبطا كاملا للنفس • ونظرا الى انه كان يسبق منافسيه بمسافات فانه غالبا ما كان يصل الى الهدف وحده وسط اصوات الاعجاب سواء بالتصفيق الحاد او زغاريد مئات النسوة ، تلك الاصوات النافذة المليئة بالفرح والترحيب عند العرب والتي تزيد المحـارب المنتصر نشوة بالانتصار •

وهكذا فانه عندما قام في عهد متأخر من حياته بتلك الادوار المدهشة التي أثارت استغراب وحيرة أعدائه (عدم النوم خلال أسابيع والتعرض للصدام وندرة اغماد سيفه) كان صحيحا ما قيل عنه من ان « سرجه كان عرشه » •

ينقسم النبلاء في الجزائر الى طبقتين متميزتين : المرابطين والاجواد • وبينما تستمد الطبقة الاولى مكانتها من الدين تستمدها الطبقة الثانية من السيف • ان هؤلاء الممثلين للنفوذ المعنوى والقوة الطبيعية كانوا ينظرون الى بعضهـم نظرة غيرة وازدواء مشترك • فالاجواد كانوا يتهمون المرابطين بالطموح المقنع وبالجرى وراء الثروة والسلطة متسترين تحت عنوان ان كل شيء يضيفونه كان لخدمة الدين فقط • أما المرابطون فقد كانوا يتهمون الاجواد بالعنف ، والتهور ، والنهب •

كان الشخص الجواد مكرسا نفسه كلية للصيد • فقد كان يجد المتعة في كل أنواع التسلية التي تستدعي المهارة والشجاعة • كان فخره في اتقـان صيد الباز ، وصيد الغزال ، والنعامة ، والخنزير البرى ، والنمر • ان هذه المغامرات العنيفة ، التي تهز طاقات البدن والعقل معا تعد الجواد الى الملاقاة الاشد جدية في الحرب • فالصيد هو مدرسة الغارات الحربية •

وعبد القادر ، رغم انه بالتأكيد لم يفكر في امكانية ان يصبح مغيرا — وهو قد رفض تماما هذا النوع من الحرب (الذى كان عادة قائما على حب الغنائم)، لانه ضد مبادئه وميوله — فانه مع ذلك قد مارس رياضة الصيد برغبة شديدة• وكان صيده المفضل هو الخنزير البرى • وكـان يتجنـب بعنـايـة المظهـر الاستعراضي لـلاجـواد الـذيـن كـانـوا يتقدمـون للصيـد مـع حاشية كبيرة بصقورهم وكلابهم • أما هو فقد كان يمتطي جواده فرديا ، ولا يأخذ

معه سوى اثنين او ثلاثة من الخدم ، ثم يدخل أعماق الغابة • واثر عودته من رحلته الرياضية كان يعزل نفسه للدراسة بحيوية متجددة •

وليس من العجب ان يحصل تدريجيا شخص موهوب بالطبيعة وجاد في فن الثقافة العصامية والاصلاح الذاتي على تفوق عظيم على كل من حوله • لقد كان عبد القادر يتمتع بكامل الاحترام والثقة والحب الذي خص به عرب وهران والده منذ وقت بعيد • أما الوالد ، الذي كان فرحا برؤية أعز أمانيه يتحقق ، فقد كان لا يقوم بشيء او يتمتع بمناسبة اجتماعية دون حضور ابنه المحبوب • ففي استقبالاته ، واعلان خططه ومشاريعه ، وفي رحلاته وزياراته للبايات الاتراك في المدينة وللقبائل العربية في التل او في الصحراء كان عبد القادر محل ثقته وصاحبه الذي لا يتخلف •

وقد تزوج عبد القادر شابا يافعا على الطريقة الاسلامية وطبقا لنصوص القرآن • فقد قال النبيء : «تزوج شابا فان الزواج يغض نظرة الرجل وينظم سلوك الفتاة » (1) وفي هذه الفترة من الحياة التي تتحرك فيها الشهوات لاول مرة في الصدر كان عبد القادر ، بطريقة خاصة ، هدفا لاهتمام والده • فأينما حل كان يتبعه خادم مطيع ومخلص • ولم يسمح له ان يبقى وحده ابدا • وهكذا صرفت المغريات التي كان يمكن ان تلطخ طهارة أخلاقه • ففي سن الخامسة عشرة تزوج ابنة عمه لاللا خيرة التي كانت مثله تتمتع بجمال خارق وأخلاق عالية •

ثم حان الوقت الذي شعر فيه محيي الدين ، الذي كان عندئذ في الخمسين من عمره ، بضرورة اداء واجب الحج الى مكة • وقد اتخذت استعدادات كبيرة للحادث الهام • فهناك كثير من التوسلات من ابنائه وحاشيته طالبين الاذن لهم بالمشاركة في اخطار وشرف الرحلة • وليس هناك من يستطيع تحمل التفكير في ان يترك الى الوراء • ثم قرر محيي الدين ، الذي كان محرجا من هذه التوسلات ، ان يذهب الى الحج وحده • ولكن في اليوم التالي وقع استثناء في صالح عبد القادر • وهكذا اضطر الجميع الى الاستسلام ولكن بقلوب حزينة ، وقبلوا القرار الاخير ، وغادر الاب والابن قرية القيطنة في اكتوبر ، 1823 •

---

1) لعل تشرشل يشير بهذا الى الحديث « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه احصن للفرج ، الخ » •

وسرعان ما شاعت اخبار حركة محيى الدين فى اقليم وهران ٠ وفجأة بدا أمل حنون يخامر العرب فى كل الجهات ٠ فكلهم تذكروا ان عليهم واجب اداء فريضة الحج ٠ وقد ترددت عبارة « الى مكة ، الى مكة » فى كل جهة ٠ وهكذا أقيمت المآدب ، وأعدت البغال ، وأحضرت الخيام ٠

وفى نهاية اليوم الاول من رحلته راى محيى الدين مئات من العرب يطالبون بشرف مشاركته فى رحلته المباركة ٠ وفى اليوم الثانى اصبح عددهم بالآلاف ٠ وفى اليوم الرابع اقيم بحر من الخيام حول خيمته ٠ ولم ينفع فى صدهم لا العتاب اللطيف ولا الرفض الشديد ٠ ان محيى الدين كان مرابطهم، ورئيسهم ، وقديسهم ، وستتضاعف بركة اولئك الذين يتطلعون ، تحت رعاينه ، الى تقبيل الكعبة المقدسة ٠ وفى عشية اليوم السادس تجمع الركب الكبير على ضفة نهر جديوية فى سهل الشلف ٠

وفى عمق الليل اسرع فارس تركى وترجل عند خيمة محيى الدين ، لقد كان يحمل خطابا من حسين باى وهران (2) ٠ فتح عبد القادر الخطاب بسرعة ووجده يحتوى على دعوة لطيفة لوالده ليظهر فى مقر الحكومة ٠ وقبل طلوع الفجر فرغ محيى الدين من استعدادات العودة الى وهران ٠ طاعة لاوامر رئيسه ٠ وقد حل بالعرب فزع كبير حين انتشرت انباء الدعوة غير المتوقعة٠ فهم لم يشعروا بآمالهم تتحطم فقط بل ملكهم الذعر خوفا على زعيمهم المحبوب ٠ وقد تجمع عدد منهم حوله : منهم من تعلق بشخصه ، ومنهم من اخذ حصانه ، بل ان آخرين رموا بانفسهم يائسين فى طريق الحصان ، وكلهم كانوا يتوسلون اليه ويرجونه ان لا يستجيب الى الدعوة ٠ وبهدوء اجاب محيى الدين كل هؤلاء المتظاهرين من اجله والمتعلقين به ، وبشعور من الولاء الذى لم يتخلف عنه ابدا قائلا : « يا ابنائى ، ان من واجبى ان اطيع وان اذهب ، حتى ولو كلفنى ذلك حياتى » ٠

وبعد ان فرغ من كلامه وودع الاصدقاء من حوله اخذ الطريق مع عبد القادر الى المكان الذى دعى الى الحضور فيه ٠

ويبدو ان الاستقبال الذى خصهما به الباى حسين كان صريحا ووديا ٠ وقد وجه حديثه الى محيى الدين قائلا : « انك تعلم يا صديقى كم انت تتمتع باحترامى وحظوتى ٠ وقد احزننى ما سمعته عنك من الانباء السيئة ٠ ان

2) الصحيح هو حسن وهو آخر بايات اقليم الغرب فى العهد العثمانى ، وسيأتى الحديث عنه ٠

اعداءك كثيرون • وقد خفت ان تقع فى يدى داى الجزائر الذى قد دخلت ترابه بطريقة اعرف انها اثارت شكوكه (3) • لذلك ارسلت من ورائك لكى انقذك من خطر محقق • ان قلبى كان يموج بالقلق عليك » •

وقد اجابه محيى الدين بهدوء وسخرية : « ولكى اخلصك من هذا القلق اطعت اوامرك » •

وليس هناك شك فى ان الباى حسين كان هو نفسه قد هزته نفس مشاعر الغيرة والشك التى نسبها هو الى زميله فى الجزائر • ان تجمهر العرب الغريب وغير العادى حول محيى الدين قد انذره بالخطر • لقد كان يعلم ويكره الشعبية الكبيرة التى يتمتع بها المرابط • وكان يخشى ان تؤدى به هذه الشعبية الى ان يصعد الى مكان المنافس له على السلطة • وكان متاكدا ان اى حركة علنية معادية للرجل ستكون خطرا ، ان لم تكن بلا طائل• ولكنه الآن قد نجح ، تحت ستار الصداقة ، ان يضع يده على نفس الرجل ويحضره تحت سلطته • وقد اظهرت تصرفاته التالية حقيقة نواياه • فبمجرد ما ذهب محيى الدين وعبد القادر الى ماواهما وضع حرس تركى حولهما • واينما حلا كان الجنود فى رفقتهما • فكان الجنود يدخلون معهما منازل اصدقائهما ، ويقفون بجانبهما فى المساجد • فكانا حقا سجينى الدولة (4) •

وقد استمر هذا الوضع الشاق دون وهن سنتين • ولم يقم محيى الدين باى احتجاج • وقد استفاد هو وعبد القادر من هذه العزلة المفروضة وكرسا اوقاتهما لدراستهما المفضلة • كانا ينتظران باستسلام قدرى قرار نزوة طاغيتهما • واخيرا استيقظ الباى وعرف حماقة مخاوفه فارسل وراء محيى الدين واعطاه اذنا باستئناف حجه (5) •

قرر محيى الدين ان لا يعوذ الى القيطنة مرة اخرى ، حتى لوداع اسرته لكى لا يؤدى ذلك الى تجمهرات مماثلة لما حدث سابقا وسبب لهما ما هما فيه

---

3) هو حسين باشا ، داى الجزائر عند دخول الفرنسيين سنة 1830 •

4) بهذه المناسبة ارسل السيد السنوسى بن عبد القادر الحسنى الراشدى قصيدة نونية الى محيى الدين يسليه ، مطلعها :

عول على الصبر لا تحزنك اشجان ولا ترعك بما فاجتك وهران

5) يقول الامير محمد باشا (تحفة الزائر) ، ط • الاسكندرية ، سنة 1903 ، ج 2 ، ص 303) ان الباى قد تراجع عن موقفه لتدخل اهل ديوانه وخاصته ، اما بول ازان (الامير عبدالقادر، حاشية ، 1923 ، ص 5) فيقول ان زعماء المخزن قد تدخلوا لصالح محيى الدين عن طريق ام وزوجة الباى •

من الاحراج • لذلك غادر محيي الدين وعبد القادر وهران بسرعة عظيمة في نوفمبر عام 1825 • وقد وصلا تونس مارين بالمدية وقسنطينة • وهناك انضما الى وفد من الحجاج تعداده 2 000 حاج كانوا ينتظرون تحسن الطقس ليقلعوا بالبحر الى الاسكندرية • وبعد قليل اقلعت احدى السفن بالوفد كله متجهة نحو ذلك الميناء • ولكنهم فوجئوا بعاصفة هوجاء ارغمتهم على العودة• ولكن الفرصة واتت محاولتهم الثانية • وبعد رحلة استغرقت حوالى خمسة عشر يوما وصلوا الى الاسكندرية

وبعد توقف بضعة ايام فى الاسكندرية توجه محيي الدين وعبد القادر الى القاهرة ونصبا خيمتهما بالقرب منها • وهنا راى عبد القادر لاول وآخر مرة محمد على • ولم يكد الحاج الشاب يتصور ، بينما كان يتامل فى ذلك الجندى الناجح ، انه هو نفسه كان مقدرا له ان يفوقه ، قبل مرور وقت طويل ، فى المهارة العسكرية . والقدرة الادارية ، وفى اعمال طبقت شهرتها الآفاق •

لقد قطعا الطريق العادى الى مكة ، عبر السويس وجدة ، بدون اى حادث يذكر • وبعد ان اديا الشعائر فى الكعبة انفصلا عن جماعتهما وذهبا الى دمشق • وقد بقيا فى هذه المدينة عدة شهور • وهناك تعرفا على مشاهير العلماء وكانا يقضيان جل وقتهما فى الجامع الكبير دائبين على القراءات الدينية (6) •

ثم قاما بحج آخر لا يقل قداسة فى نظرهما عن الاول الذى ادياه الى مكة ، زيارة قبر الولى عبد القادر الجيلانى ، حارس الجزائر • وصلا بغداد بعد ثلاثين يوما عن طريق تدمر • ولما كانا من عائلة شهيرة بالهدايا الثمينة التى تقدم بها كثير من اعضائها الى القبر المقدس ، فانهما قد لقيا استقبالا حارا كريما من قاضى المدينة ، السيد محمد الزكريا الذى كان هو نفسه منحدرا من الولى العظيم ، وقد ساهم محيى الدين بكيس ملء ذهبا • ان الشك فى كرامات عبد القادر الجيلانى يعتبر ذنبا كبيرا فى عين المرابط يشبه الشك فى رسالة الحواريين عند المسيحيين •

---

6) من ذلك انهما قرآ الحديث بالجامع الاموى على الشيخ عبد الرحمان الكزبرى •

فوالده مصطفى كان قد زار ثلاث مرات الى بغداد ، وفي كل مرة كان ينال حظوة خاصة (7) • مرة حين كان عائدا ، ولم يكن بينه وبين دمشق سوى ثمانية ايام • فقد انفصل عن القافلة واضاع الطريق ووجد نفسه وحيدا في الصحراء في حيرة وقد دهمه الظلام • وفجاة ظهر زنجي الى جانبه وعرض عليه ان يقوده الى المدينة • وعند طلوع الفجر رأى المنائر ونفذ صوت المؤذن الى اذنيه • وهكذا الغي الوقت والمكان خلال بضع ساعات •

ومرة اخرى عندما كان في القاهرة • فقد كان عندئذ يرغب في شراء كتاب ولكن لم يكن له نقود لذلك • وهنا تقدم منه رجل غريب ووضع قطعا من النقود في يده ثم اختفى • لقد كان هذا ، في عين محيي الدين ، نتيجة للاعتقاد الثابت الصميم في عبد القادر الجيلاني •

ان هذا الرجل الصالح قد اشتهر في القرن الثاني عشر • وكان له مقامات تذكارية في كل الشرق • ويعتقد في الجزائر ان تسيير العالم الطبيعي يقع تحت سيطرته • فلا رحلة تبدا بدون الصلاة له ودعوته بالحماية • ولا رحلة تنتهي بدون مهرجان شكر على شرفه • ان العرب ينسبون نجاح وحظ عبد القادر السعيد الى تعضيد سميه العظيم • ولكن كلما سئل عبد القادر عن عقيدته في هذه الخرافة ، اجاب بلا تغيير ، مشيرا باصبعه الى السماء ، « ان ثقتي في الله وحده » •

وهناك كثير من القصص التي شاعت عن علامات غامضة اعطيت لعبد القادر، عندما كان في بغداد، بخصوص عظمة مستقبله• ولكن كل هذه القصص كانت بلا اساس • حقا ان محيي الدين كان له حلم • فقد ظهر له كائن ملائكي ووضع مفتاحا في يده واخبره ان يسرع بالعودة الى وهران • وعندما طلب منه ماذا سيفعل بالمفتاح اجابه الملاك « ان الله سيوجهك » • ان هذا الحلم كان له وقع في ذلك الوقت على الحاجين لانه رسخ فيهما وطالما تذكراه ، ولكنه لم يزد على اثارة الفضول دون ان يتحول الى هوس •

وبعد ثلاثة اشهر في بغداد عاد الاب والابن الى مكة وقد نفدت ذخيرتهما من المال • لذلك اعتمدا في بقية الرحلة على موارد زملائهما المسافرين وهم

---

7) هو مصطفى بن المختار ، جد الامير عبد القادر ، وكان قد حج اكثر من مرة واجازه الشيخ مرتضى الزبيدي وهو الذي اسس قرية القيطنة ونشر الطريقة القادرية في الغرب الجزائري، ومات اثناء عودته من الحج ودفن في (عين غزالة) قرب برقة بليبيا ، سنة 1212 هـ ، واثناء عودة محيي الدين وولده من الحج بالبر توقفا لزيارة قبره •

الحجاج مثلهما الذين كانوا عائدين الى الجزائر · وقد اخذ الطريق البرى خلال العودة كلها ووصلا بلادهما اوائل سنة 1828 ، بعد غيبة دامت اكثر من سنتين ·

وكانت هناك افراح كثيرة احتفالا بعودتهما سالمين الى القيطنة · واول هذه الافراح واكبرها حفلة عظيمة على شرف عبد القادر الجيلانى · ففد ذبح خلال هذه المناسبة خمسة عشر بقرة وثمانون شاة · وحضر الضيوف من كل الطبقات والدرجات كل ساعة من جميع الانحاء تلقائيا ودون دعوة · وكان بعضهم ممتطيا جواده بأبهة ومرتديا اضخم الازياء ومتبوعا بصفوف طويلة من العبيد والخدم · وكان آخرون ممن ينتمون الى الطبقة الوسطى قد جاؤوا راكبين ظهور البغال والحمير ، بينما كانت المئات من الطبقات الدنيا تنصب نحو المكان متوقعة فى شغف اكلة اميرية من مرابطهم المعظم ·

ولكن محيى الدين، الذى كانت ضيافته مضرب المثل ، لم يعرف اية حدود لهذا الفيض الغالى من الولائم · وهكذا مرت الاسابيع الواحد تلو الآخر وما زال الضيوف الجدد يصلون باستمرار لينضافوا الى سيل الولائم العام· ولم يعد وادى الحمام الى مظهره العادى الهادىء الحانى الا بعد ان فام كل عرب اقليم وهران تقريبا ، وعدد من الوفود تمثل قبائل الصحراء ، باداء التحية وتقديم التهانى الى زعيم قبيلة هاشم المبجل ·

اما عبد القادر فهو الآن مرة اخرى مقيم مسالم فى القيطنة مسقط راسه · وكان قد قطع عهدا على ان يلتزم عزلة دينية · ولم تظهر امامه اية رؤى لعظمة انسانية · ولم تخالج صدره اية مطامح دنيوية · فقد كان يحتقر غوايات الطموح · لذلك اعطى كل وقته الى الدراسة المتواصلة المتانية · وما من ناسك استطاع ان يقطع بعناية كل صلة بينه وبين الانسان مثل ما فعل عبد القادر · فهو نادرا ما غادر بيته من طلوع الشمس الى غروبها · ولم يكن يوقفه عن ذلك سوى وجبات الطعام واداء الصلوات المفروضة ·

وهكذا قرأ هذا الطالب الشغوف المتحمس اعمال افلاطون ، وفيثاغورس، وارسطو ، ودرس كتابات مشاهير المؤلفين من عهود الخلافة العربية عن التاريخ القديم والحديث ، وعن الفلسفة ، واللغة ، والفلك ، والجغرافية ، بل حتى عن الطب ، وقد تجمعت لديه مكتبة ضخمة · وكانت ارواح النبوغ ترفرف حوله · ولم يكن ليستبدل اتحاده معها بكل عروض الدنيا · ولكن تغييرا كان يوشك ان يقع ·

ان القوة الغامضة التى تتحكم فى الارادة الانسانية وتجعل كل عمل فان خاضعا لقرارها الحكيم الشامل الذى لا يقاوم كانت تمارس تأثيرها الخفى . ان عبد القادر كان قد رفض العالم . ولكنه سيظهر من اكبر ممثليه . لقد كان يكره المعارك ، ومع ذلك فانه حالا سيلمع كاعظم ما يكـون فـى جبهـة القتـــال .

الفصل الثاني

(1832 - 1830)

ان استيلاء الفرنسيين على الجزائر لم يثر في العرب ، بادىء الامر ، اية مشاعر غير عادية بالخوف او القلق . ذلك ان الفرنجة طالما نزلوا بشواطىء العرب بل انهم كانوا قد احتلوا بعض مدنهم الساحلية . وطالما رفرفت اعلام اسبانيا وانكلترا بافتخار على حصون وهران وطنجة . وكانت عنابة والجزائر قد اضطرت في مناسبات متعددة ان تذعن في احترام حزين امام مطالب الحضارة الاوروبية ، ولكن كلا من الاحتلال العسكرى والضغط السياسى قد انتهى ، ولذلك فان العرب لم يشعروا بعد ابدا بسبب يدعوهم الى اعتبار التدخل المعادى في وطنهم من الفرنجة ، علامة خطر على وجودهم القومى .

ولكن سلوك الفرنسيين في الجزائر سرعان ما اقنع العرب بان حضور هؤلاء المعتدين لم يكن حضورا عاديا . والحق ان الجنرال بورمون Bourmont قد صرح ، منذ البداية ، بواسطة بيان علنى ، ان فرنسا قد استولت ليس على مدينة الجزائر فقط ولكن على البلاد كلها (1) . وقد تلا ذلك مباشرة نفى الداى ، وازالة كل معالم وآثار الحكم التركى ، وتهجير السكان الاتراك ، واصدار القوانين والمراسيم باسم ملك الفرنسيين ، وتوسيع وتجميل مدينة الجزائر ، والاستيلاء على كل المدن الساحلية ، وامتداد المراقبة العسكرية نحو جبال الاطلس — كل ذلك قد كشف عن خطط لم يكن لا عرب الجيل الحاضر ولا اجدادهم قد جوبهوا بها أبدا .

1) بورمون هو قائد الحملة على الجزائر . وقد عزل بعد سقوط حكم شارل العاشر .

ويبدو ان شعور العرب كان وديا نحو الفرنسيين قبل ان يبدأ هؤلاء في تحركاتهم وراء حصون مدينة الجزائر (2) • فمواد التموين كانت قد أحضرت بكثرة• كما تقدم بعض رؤسائهم بعروض الولاء للفرنسيين• بل ان باى الطيطرى قد قبل خلعة فرنسية (3) • حقا لقد كانت الامور تبدو واعدة الى درجة ان الفرنسيين كانوا يفتخرون بان العرب سيستقبلونهم استقبال المحررين ، واعتقدوا ان العرب ، الذين كانوا منتشين بتخليصهم من النير التركى البغيض (4) ، سيقبلون الحكم الفرنسى اعترافا بالجميل • ولكن اول حركة من الفرنسيين الى داخل البلاد سرعان ما بخرت ذلك الخيال العذب •

ان الحملة التى قادها الجنرال الفرنسى شخصيا الى البليدة الواقعة فى سفح جبال الاطلس (24 جويلية ، 1830) اظهرت فى الحال مشاعر العرب الحقيقية ، فقد القى الفرنسيون عصا الترحال عندما شعروا بالامن لما كان يبدو من الاستقبال الودى الذى خصهم به سكان المدينة التى خرج زعماؤها للقائهم ، وجالوا بسرور خلال حدائقها الجميلة • ولكن فجأة نزلت عليهم كتائب من العرب والقبائل من الجبال المحيطة وهم يصرخون صراخا يصم الآذان ، وبدأوا هجماتهم فى عنف شديد• وبسرعة تجمع الفرنسيون وصمدوا بشجاعة ، وفى اليوم التالى انسحبوا الى مدينة الجزائر فى نظام محكم •

اما العرب فقد فسروا هذا الانتصار المؤقت على انه باكورة نجاحاتهم المستقبلة • ومنذ تلك اللحظة اخذت روح العناد والمقاومة شكلا حاسما • فالمرابطون ، الذين كانوا يقودون ويوجهون الفكر القومى ، اعلنوا الجهاد أو الحرب المقدسة • وباى الطيطرى الذى كان شغوفا للتخفيف من مفعول اعلان ولائه الاخير للفرنسيين ، كتب الى بورمون محددا له اليوم الذى سيقود فيه ضده 20،000 رجلا ويرميه هو وجنوده الفرنسيين فى البحر •

ومن جهة اخرى فان الفرنسيين كانوا يقيمون ويحصنون بهدوء معسكراتهم فى جميع المدن الساحلية • ففى وهران كان الباى حسين (5) مهتما بخلاصه

---

2) انظر كتابى « تاريخ الجزائر الحديث ـ بداية الاحتلال » (معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ، 1970) •

3) هو مصطفى بومزراق ، ولكنه عاد فثار ضد الفرنسيين ، غير ان كلوزيل ، خليفة بورمون، اسره ونفاه فهاجر الى الاسكندرية حيث مات •

4) ذلك ما عبروا عنه فى بيان وزعوه على الجزائريين عشية الحملة،انظر نص هذا البيان فى مقالى « اول بيان فرنسى للشعب الجزائرى » فى مجلة (المعرفة) الجزائرية ، عدد 17 ، سنة 1965•

5) انظر الهامش (2) من الفصل الاول •

من وضع اصبح خطيرا على شخصه • فقد كان العرب محاصرين له باحكام وكانوا يتقدمون رغبة في الثأر لانفسهم من طغيانه • ولم يكن حرسه التركي قادرا على الدفاع عنه • والعرب الذين كانوا في خدمة الاتراك ، أي المخزن كما كانوا يسمونهم ، كانوا يفرون امام القبائل التي طالما عانت من الاضطهاد والتي اصبحت تشعر الآن بان ساعة الانتقام قد حانت •

وامام هذا المأزق قرر الباي حسين ، الذي كان لا يريد ان يهرب ومع ذلك لا يستطيع ان يسيطر على مركزه ، أن ينبني موقفا املته عليه الضرورة الملحة رغم أنه مهين لشرفه • فقد ارسل الى محيي الدين وتوسل اليه ان يحميه • غير ان محيي الدين تعجب من مثل هذا الطلب • ولما كان يخشى المساومة على مركزه في عين مواطنيه بمنح حسين موافقة ارتجالية ، فقد طلب الاذن بالانصراف لكي يعود الى داره ويستشير بني هاشم •

وعند عودته الى القيطنة جمع محيي الدين حوله مجلسا عائليا وطلب من كل عضو ان يبدي رايه في الموضوع • فكان الراي العام هو ان رفض طلب الباي سيكون موقفا غير كريم • حقا ان الجميع كانوا يعتقدون ان المظالم التي ارتكبها ضد زعيمهم المحبوب كانت قاسية وخبيثة ، ولكنهم نصحوا بان رفض الملاذ لشخص متكوب سيكون لطخة في الشرف العربي •

وهنا تكلم عبد القادر • وطلب قبل كل شيء المعذرة من أقاربه ، وبالاخص من والده ، اذا هو تجرأ على الاختلاف معهم • وقد قال بأن حالة الفوضى التي تسود الآن اقليم وهران قد لا تسمح لهم بحماية الباي من غضب الشعور العام الذي يتميز غيظا وسخطا عليه • ومهما اتخذوا من خطوات لحمايته فان الباي ما يزال معرضا لخطر الاهانة والهجوم بل لعل الاغتيال • فمن يستطيع ان يمنع موجة سخط شعبي او يقدر على تحمل عواقبها ؟ وفي هذه الحالة ، ما اعظم الاهانة التي ستلحق باولئك الذين اعطوا عهد الامان وهم غير قادرين على جعله محترما !

وقد تابع عبد القادر حديثه قائلا : « وهناك سبب آخر لا يقل اهمية يمنع من استقبال الباي في قريتنا القيطنة • ان اعطاء أسرتنا الملجأ الى ذلك الممثل البغيض للجبروت التركي سيفسره العرب على انه نوع من النسيان الضمني لكل مواقفه الماضية • ونتيجة لذلك فاننا سنجعل من كل القبائل التي تمقت الباي اعداء لنا • وبعبارة اخرى فان اعداءنا سيكونون هم كل عرب اقليم وهران » •

وسرعان ما اعلن محيي الدين تأييده لرأى ابنه ، ثم تبعه كل اعضاء المجلس • وقد وجهوا مبعوثا الى الباى لاعلامه بان طلبه لا يمكن قبوله لان محيي الدين لن يصبح مسؤولا على سلامته • وفى 4 جانفى ، 1831 دخل الجنرال دامريمون Damremont ميناء وهران (6) • وفى الحال استسلم الباى وسمح له بالابحار الى الاسكندرية •

ان الاضطراب والفوضى اللذين كانا قد بدءا فى داخل البلاد أصبحا الآن يزدادان انتشارا باستمرار • والمسلمون الذين كانوا يسكنون المدن الساحلية والذين فروا من الفرنسيين ، كانوا مشردين فى ذعر ويأس مع عائلاتهم • وكان العرب (7) يقطعون عنهم الطريق وينهبونهم بدون رحمة • وقد شعر محيي الدين ، الذى كان الى الآن ملاحظا مسالما ، بان الوقت قد حان للعمل • وبأمر منه قام عبد القادر وأخوته ، مع حامية هامة ، بطواف السهول من كل جانب ، وحماية المشردين المنكوبين ، وانقاذ كثير منهم من ايدى اللصوص وأخذهم جميعا الى أماكن مأمونة •

ولكن مهما قدم محيي الدين من خير بتدخله الانسانى الذى جاء فى الوقت المناسب فانه كان من الواضح ان يدا اقوى من يده كانت ضرورية لاقامة أى شىء يشبه النظام والسلطة • ولم يكن الخصام والتدهور فى الارياف فقط بل كان فى المدن أيضا • فقد فتحت من جديد حرب الثارات التى كانت مكتومة منذ وقت بعيد ، بل تضاعفت حدتها • ان العرب قد أرخوا العنان فى كل مكان ، الى غرائزهم الداخلية الجامحة لنشر الفوضى والاضطراب •

وقد عقد المرابطون مساورات طويلة قلقة لدراسة هذه الامور المخيفة • وكلهم قد اتفقوا على شىء واحد ، وهو اللجوء الى محيى الدين لمعرفة رأيه • وبعد ان اتصلوا به خاطبهم محيى الدين ناصحا بالعبارات التالية :

« منذ عدة شهور وأنا أحاول ، كما تعلمون جميعا ، أن أحافظ على الاقل على درجة ما من النظام وسط الفوضى العامة التى تسود الآن • ولكن جهودى القصوى لم تقدر سوى على انقاذ عدد قليل من الضعفاء والمشردين من ايدى أناس قساة غلاظ •

---

6) تولى ايضا منصب الحاكم العام على الجزائر ، وقد مات قتيلا اثناء الحملة على قسنطينة سنة 1837 •

7) يبدو ان المؤلف يقصد (الاعراب) لانه يستعمل لفظة (العرب) فى مناسبات اخرى فى غير هذا المعنى وهذا الاستعمال شائع فى الكتاب •

« ان طغيان الاتراك قد كبح وأوهن طاقاتنا • ولكن اذا استمرت الامور على ما هي عليه الآن فانها ستحطم كل طاقاتنا تحطيما • فأواصر المجتمع تنحل • وكل فرد قد رفع يده في وجه جاره • وشعبنا ، الذي ارخى العنان لغرائزه الرذيلة ، قد اصبح يستهتر يوميا بقوانين الله والانسان • وفي نفس الوقت فان النكبات التي تهددنا من الخارج لا تقل خطرا عن ذلك الذي ينهشنا من الداخل • فهل سنستنجد بالفرنسيين ؟ ان ذلك غير ممكن • وان الاستسلام اليهم ، فما بالك بالاستنجاد بهم ، يعتبر خيانة لواجبنا نحو الهنا ، ووطننا ، وعقيدتنا •

« ولكن الفرنسيين أمة محاربة ، قوية العدد ، واضحة الغنى ، تشتعل حبا في الاحتلال • وماذا لدينا نحن من قوة نصدهم بها ؟ ان القبائل على خلاف مع بعضها • وزعماء البلاد شرهون يتآمرون ضد بعضهم ولا يصارعون الا من اجل الثروة الشخصية • اما الدهماء التي رمت عنها كل قناع فبعضها قد اغنى نفسه بالنهب ، وبعضها الآخر لا يكاد يجد قوت يومه• فالطرفان غير متعادلين • وأمام هذه الحالة فحتى تصور نجاح المعركة مع الكفار يعتبر حماقة، اما محاولة المعركة نفسها فهو جنون •

« لا • ان الملك الفرنسي ، قويا كما هو ، لا يمكن ان يواجهه بفعالية الا ملك مثله على رأس دولة محكمة النظام ، يملك خزانة ضخمة مليئة ، ويقود جيشا تام الانضباط • وليس هناك حاجة الى ان نذهب بعيدا للبحث عن هذا الملك • ان سلطان المغرب قد عبر عن عاطفته نحونا • ويجب ان يعرف ان الخطر الخارجي الذي يهددنا نحن اليوم قد يهدده هو غدا • ان حضوره بيننا سيشجع ويدعم حالا الخير ويصرف الشر • وبفضل ذلك سيقوى النظام • واذا حاربنا تحت لوائه فسنتقدم نحو انتصار مؤكد ، لان لواءه هو لواء الله ورسوله » •

وبعد أيام قليلة توجهت بعثة جزائرية نحو فاس • وكانت البعثة مكونة من عشرة أعضاء هم من أهم المرابطين والشيوخ تاثيرا ، مع حامية تتكون من خمسين فارسا ، وقافلة من البغال محملة بالهدايا • وقد استقبل السلطان عبد الرحمان البعثة بكل مظاهر الود ووعد بدراسة مطالبها • ولكن ستة أشهر قد انقضت بدون جواب • وأخيرا دعا السلطان أعضاء البعثة للمثول امامه • وكانت الحركات في القصر وتجمع الجنود تدل على ان مطلب عرب الجزائر قد قبل • وخلال ستة أسابيع اقام علي ، ابن السلطان ، الذي كان

على راس 5 000 فارس ومدفعي ميدان ، معسكرة في تلمسان الواقعة فى اقليم وهـران ٠

وقد أسرع محيي الدين وعبد القادر ، مع كل رؤساء بني هاشم ، ورؤساء بني مجاهر ، وبني عامر ، وغيرهم من القبائل ، لكي يعلنوا ولاءهم لابن وممثل سلطانهم الجديد ٠ وبسرعة اعترفت البلاد كلها بسلطته ٠ وكانت الخطبة تعلن باسم سلطان المغرب فى كل المساجد ٠ وكل شيء كان يحمل بالتأكيد على الاعتقاد بان الجزائر قد اصبحت ، وبطريقة سلمية ، تحت الصولجان المغربى ٠ ولكن الحكومة الفرنسية التى اطلعت فى الحين على هذه العلاقة الجديدة بين عرب الجزائر وبين السلطان عبد الرحمان ، ارسلت فى الحال انذارا الى السلطان بالانسحاب العاجل من الجزائر أو الحرب ٠

ولكن عبد الرحمان ، الذى كان عليه أن يختار واحدا من هذين الحلين والذى لم يكن تماما على استعداد للبدء في الخصام ، ارسل فى الحال الاوامر الى ابنه بالعودة ٠ وخلال عدة ايام لم يعد يرى أى مغربى فى كامل البلاد ، رغم ان المغاربة كانوا محل ترحيب حار حتى فى اقليمى الطيطرى وقسنطينة٠ وأمام هذا الوضع قرر المرابطون والرؤساء ان يعرضوا منصب السلطان على محيى الدين وذهبوا فى جماعة من اجل ذلك الى القيطنة غير انه بكل تواضع رفض العرض ، وأوصى فى نفس الوقت بنداء جديد الى المغرب ٠

وبناء على ذلك توجهت بعثة اخرى الى فاس لكـى تتوسل الى السلطـان المغربى ان يقبل اعطاء اسمه على الاقل ، ان لم يكن فى استطاعته ان يمنـح المساعدة والمعونة المادية ، الى الحركة التى كانت تتكـون لصالحـه ٠ ولكـن عبد الرحمان الذى لم يكن قادرا على العمل العلنى ، ومع ذلك كان يأمل ان يستفيد من الاحداث ، وافق على طلب الجزائريين وارسل احد نفاته الى مدينة معسكر ٠ غير ان هذا العمل السرى لم يستمر ٠ فالعرب لا يحترمون السلطة التى لا تجرأ على الاعلان عن نفسها ، لذلك سرعان ما انسحب ممثل السلطان٠

ومرة أخرى اتجهت جميع الانظار نحو محيى الدين ٠ ومرة أخرى توسل اليه العرب ان يكون سلطانهم ٠ ولكنه أجابهم « لا ٠ اننى لا أصلح أن أقوم بواجبات هذا المنصب ٠ ولكننى سأقوم بما يحتمه على الدين ٠ واننى سأذهب معكم الى الجهاد » ٠ ومنذ وقت كان العرب يقومون بمحاولات متعددة لاستعادة وهران التى هى الآن تحت سيطرة الفرنسيين القوية ٠ أما عبد القادر فقد دخل الميدان بينما كان والده يعمل تحت امرته ٠

ومنذ وقت قريب كان العرب يهاجمون قلعة فيليب وهى قلعة قوية فى جنوب المدينة • وكان عبد القادر هو الذى اقترح واشرف على العملية • وقد قاد جيشه الخليط من المشاة والفرسان الى أعقاب القلعة نفسها بينما كان بارز الطلعة ببرنوسه القرمزى • وأمر المشاة ان يدخلوا الخنادق وان يواصلوا اطلاق النار على القلعة • اما الفرسان فقد جعلهم فى وضع يسمح لهم بان يكونوا مستعدين لمقاومة اى تسلل يمكن ان يقوم به العدو من الحصن • وكانت الطلقات النارية والقذائف التى كان الفرنسيون يطلقونها على العرب غزيرة الى درجة انها يمكن ان تدوخ احسن الجيوش انضباطا • ولكن عبد القادر ، الذى كان يغدو ويروح بين رفاقه والذى كان يبعث فيهم الحماس بصوته واشاراته ، قد نجح فى الاحتفاظ بهم متماسكين ودربهم على ان يستهينوا بوابل القذائف الذى كان العدو يريد ارهابهم وادهاشهم به •

وقد بلغ الامير عبد القادر فى هذه الاثناء ان الرجال الذين وضعهم فى الخنادق قد استهلكوا ذخيرتهم وانه لا احد منهم يود ان يكشف نفسه لجلب مزيد من الذخيرة ، فصاح بهم قائلا : « ايها الجبناء ! اعطونى الخرطوش » • وقد لف ذلك فى جناحى برنوسه وركب فرسه وعبر السهل بمفرده الى ان وصل القلعة فرمى بالخرطوش فى الخندق وحث رجاله على الثبات والاستمرار فى الضرب ، وأمام اندهاش الجميع عاد دون ان يمسه أى أذى •

وخلال مناسبات كثيرة مليئة بالخطورة والمبادرة ، استعمل فيها عبد القادر سيفه البكر ، أدت شجاعته وفروسيته لا الى الثناء عليه فقط بل الى الاعجاب المنقطع النظير به ، فقد بدأ العرب ينظرون بتقديس خرافى الى رجل يتمتع بشخصية وسيمة ويتقدم بلا خوف دون أن يلحقه أذى حيثما هدد الخطر ، فهو مرة يمرق من صفوف الرماة الاعداء ، ومرة يطلق النار فى شكل تربيعى ويكنسح حربات البنادق بسيفه ، واخرى يقف دون حراك مشيرا بامتعاض الى قنابل المدافع وهى تئز حول رأسه والى القذائف وهى تنفجر حول قدميه •

غير ان العرب ، مهما بلغ شعورهم بالثقة فى زعيمهم الشاب ومهما اعترفوا بان فيه هو قد تمثلت القيادة الحقة التى ستقودهم فى صراعهم مع الكفار ، فانهم قد شعروا بان الهجوم المفكك لم يكن حربا • لقد رأوا بكل وعى بان كل جهودهم ستكون بلا طائل وان كل تضحياتهم ستكون بلا نتيجة اذا لم يكن هناك قائد مسؤول عن التنظيم ، وعلى جباية الضرائب بانتظام ، وعلى

استخدام وتنمية الموارد ، وعلى وضع وتنفيذ خطة حملة محددة واضحة • وفى اجتماع كبير عقد فى مدينة معسكر ، نوقشت هذه الموضوعات بكل جدية •

وقد دعى محيى الدين ، الذى كان فى القيطنة فى استراحة قصيرة ، الى حضور الاجتماع • ولم يكد يصل ويترجل حتى تجمهر من حوله خلق كثير هائج •وقد ارتفعت اصوات كالرعد • ووجه اليه الخطاب من كل الجهات « الى متى يا محيى الدين ونحن بلا قائد ؟ الى متى وانت واقف جامد متفرج على حيرتنا ، انت يا من يكفى اسمه فقط ان يجمع كل القلوب لتشجيع القانط وردع الخبيث ، وتدعيم وتماسك القضية المشتركة ؟ ان كثيرا من اشجع شجعاننا قد سقطوا ضحية الحيرة والغم • انهم يقولون من سيعوض ما فقدناه، ويعيد خيولنا التى قتلت ، واسلحتنا المكسورة الفاسدة ؟ انت يا محيىالدين هو المسؤول عن كل هذا » • ثم أحاطوا صدره بسيوفهم وناداه رؤساؤهم قائلين : « اختر بين ان تكون سلطاننا او الموت الآن » •

اهتز محيى الدين من هذا الموقف ، ولكنه حافظ على توازنه العقلى وطلب الاستماع اليه • فقال « انكم جميعا تعرفون اننى رجل سلام مكرس نفسه لعبادة الله • وان الحكم يقتضى استعمال القوة بغلظة وسفك الدماء • ولكن ما دمتم تصرون على أن أكون سلطانكم فانى أقبل ، ولكنى أتنازل عن ذلك لصالح ابنى عبد القادر » •

وقد استقبل الحاضرون هذا الحل الفجائى وغير المنتظر للمشكل باصوات الموافقة العالية • فاسم عبد القادر قد ردد بحماس • وكانت شخصية ، وملامح ، ورجولة ، وشجاعة ابن محيى الدين المفضل هو موضوع الحديث الرئيسى • ونتيجة لذلك ارسل اليه فارس لاحضاره من القيطنة •

وفى الصباح الباكر من اليوم التالى ، الموافق 21 نوفمبر 1832 دخل عبد القادر مدينة معسكر • وقد غصت كل الشوارع والطرق المؤدية الى المدينة • وكان الرجال والنساء والاطفال يتبادلون التهانى فى مظاهرة ترحيب سارة بسلطانهم المستقبل • وبعد ادخاله الى الرحبة حيث كان المجلس منعقدا اعلم عبد القادر بكل ما دار • وفى هدوء ، وانضباط نفس ، وبدون زهو قال: « ان من واجبى طاعة أوامر والدى » • وهنا انفجر تصفيق حاد على هذا العهد البسيط الذى يعبر عن البنوة الطائعة والاخلاص الوطنى •

جلس السلطان الشاب عبد القادر على كرسي قديم رسمي ، كان سابقا ملكا لبعض الاغنياء الاسبان جيء به لهذه المناسبة التي نفضت عنه الغبار . وكان عمر عبد القادر اذاك 25 سنة . وبدأ يتقبل البيعة من النبلاء والرؤساء الذين تجمعوا حوله . وقد انفجرت اصوات عالية من المجلس كله مرددة « الحياة والنصر لسلطاننا عبد القادر ! » وبلغ صدى ذلك الى الجماهير خارج المجلس فرددت هي بدورها نفس العبارة . وهكذا كانت الجماهير تعلن عن بداية خلافة عربية .

وبعد الظهر ذهب عبد القادر الى الجامع الذي كان غاصا بالناس الى حد الاختناق . وعندما انتهى من اداء واجباته الدينية وقف بينما وضع مصحف في يده فأخذ يقرأه ويشرحه . وشيئا فشيئا كانت سرائره تزداد انتعاشا ، وصوته يصبح اكثر حدة ، وهيئته اكثر وقعا ، وحركته اكثر تأكدا ، بينما كان ينتقل من التحليل اللغوي الى الموضوعات الاكثر نبلا واثارة .

ولم يدم الجندي الخطيب على تلك الحال دقائق ، ولكن ساعات ، بل حتى غروب الشمس . فقد اندفع اندفاعا في بيان ساحر عذب منسجم . واطنب في نغمة تهز نياط القلب ، في الحديث عن الذنوب ، والمظالم ، والجرائم والرعب الذي حل بالبلاد . وفي عبارات صارخة تحدث عن عقاب الله الذي سيأخذ الشعب الذي تخلى عن تعاليم الله وترك نفسه ينغمس في الآثام. وكان يذكر الجمهور في كل مرة ويناشدهم ، في عبارات مثيرة ، ان يتنبهوا الى ما حل بالبلاد من سوء على ايدي الكفار الذين استباحوا ديارهم وانتهكوا حرمة مساجدهم .

وشيئا فشيئا تحول الاستغراب والدهشة اللذان استحوذا في البداية على قلوب مستمعيه الى شعور بالخجل والانكسار والندم الذي يمزق الضمير . ولكن عندما نادى قومه ، بذراع مفتوحة ونظرة بارقة وفي كلمات تتألق بنور الوحي ، ان يصمدوا للدفاع عن دين الله والنبي ، وان يلتفوا جميعا حول راية الجهاد ، وان يفعلوا مثل ما فعل شهداء الملة السمحة الابرار ، ورسم امامهم لوحة معبرة لارواح الشهداء المرفرة وهي تدخل المنازل المباركة ـ نهض قومه على اقدامهم ولوحوا برماحهم ، وعقدوا سيوفهم ، وبكوا بصوت عال ، ثم بزمجرة مرعبة تنادوا « الجهاد ! الجهاد ! » .

ولكن الفنان الذي هز قلوب الجماهير والذي كان منتشيا في مروءة لم يتوقف عن الضرب على نفس الوتر الذي هزت خفقاته كل قلب واوقدت كل

روح • وكلما زادت الزمجرات من حوله ارتفاعا ازداد صوته هو اندفاعا وارتفاعا فوق الجميع • وعندما شاهد من جمهوره الاستجابة والرضى احس بنشوة جديدة تملا قلبه فراح يصول ويجول ، فقرع صدره ، وضمخت قطرات كبيرة من العرق حاجبيه ، وتلالات عيناه وشعت ، ورفع يديه عاليا كانه ينادي شهود السماء • لقد اصبح هيجانه جارفا ومسيطرا الى درجة ان العقل كاد يغرق لو لا ان الطبيعة قد خففت من غلواء ذلك التوتر المخيف بطوفان من الدموع •

وفي اليوم التالى (22 نوفمبر 1832،) ذهب عبد القادر الى وادى خصيبية الذى يبعد مسافة عشر دقائق من معسكر • وكان هناك في الانتظار عشرة آلاف فارس عربى للاستقبال والترحيب برئيسهم المنتخب الجديد • كانوا قد اصطفوا في شكل هلال ، بحسب قبائلهم ، حول خيمة ضخمة نصبت وسط السهل • وكان جميع اهالى معسكر قد تجمعوا ايضا فى المنطقة •

وفي اللحظة التى بدأت فيها اشعة الشمس المائلة تنبسط على جبل مسمط مضيئة هذا المشهد كما لو كانت لالاء سحريا – كانت زغاريد النساء وتهاليل الرجال وطلقات البنادق التى لا تنقطع تعلن قدوم الموكب الرسمى • تقدمت اولا كوكبة من الفرسان حاملة راية الجهاد • ثم تلا ذلك رؤساء بنى عامر ، وبنى مجاهر ، وبنى يعقوب ، وبنى عباس ، على صهوات خيولهم المندفعة ، بعتادهم اللامع ، واسلحتهم المصقولة • ثم ظهر عبد القادر الذى كان بسيطا بلا زينة ، يغطى كتفيه برنوس احمر ، وممتطيا صهوة جواده الاسود المفضل • وكان رؤساء بنى هاشم ، قبيلته هو ، فى مؤخرة الموكب العظيم •

وقد مر عبد القادر وسط الزحام الشديد (كان بعضهم قد تجمع حوله لتقبيل يده ، وآخرون لتقبيل برنوسه ، وآخرون كانوا يقبلون حتى قدمى فرسه) وعندما وصل الخيمة ترجل • وقد اختفى عن الانظار بعض الدقائق • ثم تقدم محيى الدين آخذا عبد القادر من يده لتقديمه الى الشعب ، وقال : « انظروا هذا هو السلطان الذى اعلنته النبوءة ! » « هذا هو ابن الزهراء ! أطيعوه كما لو كنتم تطيعوننى • الله يحفظ السلطان ! » فرد الناس « حياتنا ، واملاكنا ، وكل ما عندنا له ! لن نطيع قانونا غير قانون سلطاننا عبد القادر » •

وقد أجاب عبد القادر على ذلك « وانا بدورى لن آخذ بقانون غير القرآن

لن يكون مرشدى غير تعاليم القرآن ، والقرآن وحده · فلو ان اخى الشفيق قد أحل دمه بمخالفة القرآن لمات » ·

ووسط التهاليل التى حيت هذه الخطبة القصيرة ذات المغـزى العميـق ، قفز عبد القادر على سرجه وتبعه كل الرؤساء ، ومر سريعا مستعرضا صفوف العرب · وبين الحين والآخر كان يثنى عنان فرسه ليصيح باختصار « الجهاد ! الجهاد ! ان الحرية والاستقلال لن يكونا الا بالجهاد· ان الجنة فى ظل السيوف· هلموا جميعا الى راية الجهاد ! » ·

وخفقت الاعلام وارتفعت اصوات الطبول والمزامير العسكرية ، وتجمـع الجمهور الغفير فى دائرة حول سلطانهم ، الكتيبة تلو الاخرى ، وساروا فى صحبته عائدين الى معسكر · وبعد ان تناول وجبة خفيفة اغلق عبـد القادر غرفة صغيرة على نفسه وجمع اليه كتابه واملى عليهم البيان التالى :

« الحمد لله وحده ، الصلاة والسلام على من لا نبى بعده · الى (قبيلة كذا وقبيلة كذا » (8) وخصوصا نبلاءها ، وشيوخها ، واعيانهـا ، وعلماءهـا هداكم الله وارشدكم ووجهكم الى الطريق المستقيم ونجح اعمالكم ومساعيكم· ان اهالى معسكر وشرق وغرب غريس وجيرانهم وخلفاءهم ، بنى شقـران ، والبرجيين ، وبنى عباس ، واليعقوبيين وبنى عامر ، وبنى مجاهر ، وغيرهم قد وافقوا بالاجماع على تعيينى ، وبناء عليه انتخبونى لادارة حكومة بلادنا · وقد تعهدوا ان يطيعونى فى السراء والضراء ، وفى الرخـاء والشدة ، وان يقدموا حياتهم وحياة ابنائهم واملاكهم فداء للقضية المقدسة ·

« ومن اجل ذلك، اذن ، تولينا هذه المسؤولية الهامة (على مضض شديد) آملين ان يكون ذلك وسيلة لتوحيد المسلمين ، ومنع الفرقة بينهم ، وتوفير الامن العام الى كل اهالى البلاد ، ووقف كل الاعمال غير القانونية التى يقوم بها الفوضويون ضد المسلمين ، وصد وطرد العدو الذى اعتـدى على بلادنـا مريدا ان يغل اعناقنا بقيوده ·

« ولقبول هذه المسؤولية اشترطنا على كل اولئك الذين منحونا السلطات العليا ان عليهم دائما واجب الخضوع ، فى كل اعمالهم ، الى نصوص وتعاليم

---

8) هكذا فى الاصل دون ذكر اسماء القبائل ، ويبدو ان تشرشل كان يترجم هـذا البيـان من نسخة عربية ·

كتاب الله ، والى الحكم بالعدل فى مختلف مناطقهم ، طبقا لسنة النبى • وان يعاملوا القوى والضعيف ، النبيل والمحترم باخلاص ودون محاباة • وقد قبلوا هذا الشرط •

« ولذلك ندعوكم الى ان تشاركوا فى هذا العهد او العقد ، بيننا وبينكم• سارعوا، اذن، لاعلان ولائكم وطاعتكم • والله يجازيكم فى الدنيا والآخرة• ان هدفى الاساسى هو الاصلاح وفعل الخير ما دمت حيا • ان ثقتى فى الله، ومنه هو وحده ارجو الجزاء والنجاح •

« بامر من المدافع عن الدين ، صاحب السيادة علينا ، أمير المؤمنين ، عبد القادر بن محيى الدين • نصره الله • آمين • حرر فى مدينة معسكر ، 22 نوفمبر ، 1832 » •

الفصل الثالث

(1833)

ان ذلك النداء الذى وجهه عبد القادر قد استقبلته القبائل المتعددة المعنية بالامر استقبالا مختلفا ، فالمتدينون كانوا ميالين الى منح تاييدهم القوى الى رجل دعاهم للحرب من اجل العقيدة · اما الطبقة التى كانت تفكر تفكيرا دنيويا والافراد الطموحون فقد نظروا بغيرة الى هذا الادعاء للسيادة من جانب عبد القادر ، فالرؤساء ، الذين صارعوا من اجل الابقاء على وجود مستقل حتى تحت الحكم التركى ، لم يشعروا بواجب قبول حكم من ند لم تكن دعواه للسيادة ، فى نظرهم ، اولى من دعواهم ·

بل حتى فى اقليم وهران قد اثارت الظروف التى عين تحتها عبد القادر سلطانا ، مشاعر الخصام بدل القضاء عليها ، فقد تكلم سيدى العريبى وهو قائد قوى وله تأثير مطلق على قبيلة فليته فى سهل الشلف ، بامتعاض مكشوف عن السلطة الجديدة · ورفض الغمارى قائد بنى انجاد الطاعة · وشعر محمد بن نونة ، الذى كان يحب ان يقول انه يحكم تلمسان باسم سلطان المغرب ، انه من السفالة الاعتراف بالولاء لعبد القادر · اما مصطفى ابن اسماعيل ، الذى كان محاربا قديما ومجربا والذى ابيض شعره فى خدمة الاتراك كزعيم للمخزن (1) ، فانه قد عبر عن تقززه من تقبيل يد ولد ما يزال امرد ، حسب تعبيره ·

وبالمقارنة الى هذه الآراء الانانية والمطامح الضيقة ، تقدم عبد القادر الى بنى وطنه بفكرة بسيطة وعظيمة فى نفس الوقت ، وهى فكرة قومية عربية ·

---

1) تعبير يعنى به القبائل التى تحالفت او تعاملت مع السلطات العثمانية ·

ورغم ان هذه الفكرة قد تظهر في بادىء الامر بعيدة المنال ولا يمكن ان تقدرها حق قدرها سلالة اعتادت منذ قرون على مد رقابها الى النير الاجنبى واختفت فيها منذ امد طويل جميع مبادىء الوطنية (2) ، فان عبد القادر كان يعتقد ان هناك ، من بين مئات القبائل التى تقطن الجزائر بعضا على الاقل ستوقظ فيه الفكرة القومية رد فعل ايجابى ٠

ومن جهة اخرى ، كان عبد القادر يعرف جيدا ، رغم انه لم يكن هو نفسه متعصبا ، مدى نار التعصب التى تشتعل فى صدر كل مسلم : وكان يعرف ايضا ان ما قد لا يحققه حب الوطن ، ستحققه بالتاكيد الغيرة على الدين ٠ لذلك قرر ان يجعل من هذا الشعور الاخير حجر الزاوية فى الصرح الهائل الذى تجاسرت عبقريته هو وحده على تصوره ٠ وفى هذه الوحدة لخطة عمله تكمن عظمة المأساة التى عرضها عبد القادر امام العالم المتحضر ٠

وجه عبد القادر دعوة لاجتماع عام لجميع القوى يقع فى مدينة معسكر فى ربيع 1833 ٠ وقد رحب بالدعوة عدد كبير من القبائل الهامة فى التل والصحراء ، اما قبائل المخزن ، وهى تلك التى طالما كانت آلة فى يد الاتراك لاسترقاق واضطهاد اخوانهم ، فان بعضهم قد رد ردا تملصيا ، وبعضهم رد ردا مهينا ٠ ان الفوضى كانت انسب الى طبائعهم الخسيسة ٠ وقد كانوا على استعداد ، اذا ما واتت الفرصة ، ان يعرضوا خدماتهم على الفرنسيين ٠

وفى اليوم المعين للاجتماع (18 ماى ، 1833) وقف صف مهيب من 8،000 فارس و 1،000 راجل فى سهول خصيبية ٠ وكان لواء عبد القادر الخاص ، وهو علم كبير ابيض تتوسطه يد مفتوحة ، قد رفع امام الجمهور الغفير فى ابتهاج واحتفال كبير ٠ وبعد ان استعرض الصفوف على فرسه وخاطب الجمهور ببعض العبارات القصيرة الصارمة التى كانت ترجف الدم فى الشرايين قادهم فى اتجاه وهران ٠

وخلال هذه الحملة افتتح عبد القادر ذلك النظام ، الذى اشتهر بالبساطة والانتظام ، والذى حافظ عليه بعد ذلك رغم كل التغييرات والتقلبات خلال كل حملاته ٠ كانت خيمته واسعة ومريحة وتحتوى على بعض المعلقات المزينة بأهلة حمراء وزرقاء وصفراء وخضراء ٠ وكان يقسم الخيمة الى نصفين ستار

---

2) رأى غريب لتشرشل فى أمة هو فى الحقيقة فى موقف الدفاع عنها ، ولعله كان متأثرا ببعض المصادر الاجنبية ٠

من الصوف • فالنصف الاكبر واسمه المنزل ، غرفة استقبال كبيرة مفتوحة لجميع القادمين ، وفيها كان عبد القادر يستمع الى الشكاوى ويدير القضاء • اما النصف الصغير فيستعمله كغرفة نوم ومكتبة خاصة، وفى هذا الجناح كان يقضى الوقت فى القراءة اكثر من النوم •

وعند الترجل فى نهاية مسيرة اليوم ، وهى عادة عنــد منتصف النهــار ، يصرف عبد القادر عنه كل الحاضرين ويخلو الى نفسه مكرسا ساعة من وقته للصلاة • ثم يذهب الى غرفة الاستقبال حيث كتابه وضباطــه ينتظرونــه • وهناك كانت تناقش حركات العدو والخطط الضرورية لمواجهته ، او كان يملى بنفسه الاوامر والرسائل • وخلال هذه المناسبات طالما ايد عبد القادر وجهات نظره بنصوص مناسبة من القرآن • وكان مجلسه العسكرى العادى يتالف من اربعة قواد وكاهيته وامين ماله • وفى بعض الاحيان كان يستدعى قوادا آخرين لحضور المجلس اذا دعت الضرورة • وكان هو يصغى الى الجميع بصبر وخلق عظيــم •

وعند الغروب كان عبد القادر يقف امام باب خيمته ويبــدا فى الوعظ • ولم يكن من الضرورى حضور اى كان ولكن لم يكن يتخلف احد ، اذا امكن، عن حضور هذه الخطب الوعظية • وبذلك كان الجميع يجددون يوميا حــرارة الغيرة الحربية والدينية التى كانت تتقد داخل صدورهم فكان عبد القــادر بذلك كأنه منبع رئيسى من الضوء والحرارة لقومه • ذلك انه قــد اشتهــر بامتلاك القدرة على انتزاع الحب والاعجاب من اتباعه • وقد استعمــل بقوة تكاد تكون سحرية ذلك الطلسم الذى هو منحة ، كما انه علامة ، على شرف الطبائع وعظمتها •

وقبل تقدم عبد القادر الحالى نحو وهران بعدة اسابيــع كان بنــو هــاشم الغرابة ، وهم قبيلته ، قد قاموا بعدة مجابهات مع الفرنسيين الذين كــانوا تحت قيادة الجنرال بوايى Boyers وحديثا حل الجنرال ديميشال Dumiche!s محل الجنرال بوايى•وقد جاء عبد القادر فى الوقت المناسب لمساعدة حلفائه (بنى هاشم) لمقاومة هجوم قوى قام بــه ضدهــم الجنــرال ديميشال• وبعد ان قسم قواته قسمين بعث قسما منها لمهاجمة جناح العدو الايسر • بينما تقدم هو مباشرة على راس القسم الآخر ، نحو حصن اقامــه الجنرال الفرنسى فى مكان يدعى الكرمة Figuier وكان يتولى الدفاع

عن هذا الحصن فرقة مشاة من حوالى الف جندى وفصيلة من قناصى افري
(3) Chasseurs d'Afrique وقطعتان من المدفعية ٠

وعند الاقتراب من الحصن تردد المشاة العرب ٠ وفى الحال ترجـل عب
القادر وقاد رجاله على الاقدام ، وحاول ان يتسلق السور ٠ ولكن بعد ان
الفرنسيون عن مسعاه في الاستيلاء على الحصـن امتطـى جـواده وانسح
برجاله وانضم الى فرسانه في السهل ٠ وهناك فشل الفرنسيون فشلا ذر
في مقاومة الغارات الموجهة ضدهم ٠ فصفوفهم المناوشة انسحقت وتربيعا
انكسرت ٠ وقد دامت المجابهة حتى الليل ، حين انسحب ديميشال بينه
كانت تغطيه نار مدفعيته ٠ ولم تحدث منازعات لعدة ايام ٠

ولكن عبد القادر ، الذى كان قلقا من عدم الحركة ، خرج ذات ليلة مع ٥
فارس مختارين ونصب بنفسه كمينا فى أجمة قريبـة من وهـران اعتـ
الفرنسيون ان يرسلوا خلالها نجداتهم من الفرسان الى المواقع الامامية ٠ و
الساعة المعتادة ظهرت فصيلة من القناصة الفرنسيين ٠ فقاد عبـد القـ
اطلاق النار ضدهم ، فاندحروا وتشتتوا ، وقد قتل بعضهم ، واخـذ منه
حوالى ثلاثين أسيرا ٠ وكان احد القناصة قد رماه برمح فمر الرمـح تحـ
ذراعه الايسر ، فضغط عليه عبد القادر بين ذراعه الايسر وجنبه بينما
راس القناص الفرنسى بحركة بارعة من سيفه ٠

ووسط الصدام اصيب ابن عمه احمد ٠ فبقى عبد القادر الى جانب قر
الجريح بعض الوقت ، ثم اوقف نزيف الدم وضمد الجرح ، ووضع الجري
امامه على فرسه وحمله بعيدا عن الخطر ٠ وبعد فترة قصيرة راى ان الفرنس
لم يكونوا على استعداد مرة اخرى لخوض معركة معه فانسحب بكامل قوا
ورجع الى معسكر ٠

لقد قام عبد القادر بتلك الحركة وهدفه منها امتحان رجاله وبعث الثة
فيهم اكثر من الامل فى تحقيق اية نتيجة نهائيـة ٠ فقد شعـر ان الغيـ
والتنافس اللذين يحوطان به لا يمكن القضاء عليهما الا بخوض المعركة ،
كل الصعوبات الداخلية ستنتهى أمام النجاح ٠ وقد اكد الاستقبال الذى
فى معسكر هذه الفكرة فكثير من الرؤساء الذين ابـوا الاذعان له حتـى
كانوا هناك فى انتظاره ٠ فالحاج ابن عيسى الذى كان مرابطا شهيرا ،
احضر معه هو وحده نوابا يمثلون عشرين قبيلة فى الصحراء ٠

---

3) فرقة خاصة تمتاز بخفة الحركة والمهارة فى الضرب ٠

ان عبد القادر الذى آمن ايمانا عميقا بضرورة الاتحاد المطلق بين مواطنيه، لكي يحقق لهم استقلالهم المشترك ، قد قرر الآن ان يقارع بسيفه كل اولئك الذين يشكون أو يحاولون أن يقاوموا سلطته٠وقد كان هناك سيدى العريبى الذى كان يجمع قواته ، التى لم يتردد فى ان يصرح بانها كانت موجهة ضد ابن محيى الدين الطموح ٠

وقد باغته عبد القادر على راس 5 000 رجل معلنا قدومه بطلقات البنادق وصيحات الانتصار ٠ وهنا بهت منافسه سيدى العريبى وشل الدفاع الذى حاوله بسرعة ٠ فقد اقلعت الخيام ، وقبض على الاسرى ، وسيقت الماشية ٠ ولم يحصل سيدى العريبى على غفران الماضى وأمن المستقبل الا بارسال تعهد مكتوب بالطاعة وتقديم ابنه كرهينة لدى قاهره ٠

واثناء مواصلة عبد القادر لعمله وسط سهل الشلف الواسع والمناطق المجاورة له انضم اليه عدد من القبائل الهامة ٠ بل انه تقدم حتى وصل الى الونشريس، وهى سلسلة من الجبال الصعبة التى يقطنها اهل القبائل الاشداء ان هؤلاء الجمهوريين الجفاة الآمنين فى مناعتهم ، غير المبالين بما يجرى فى العالم الخارجى ، قد اعتادوا الاستهانة باية سلطة ٠ ولما كان عبد القادر غير متأكد من موقفهم ، فقد كبح نفسه من التوغل في منطقتهم ٠ ونفس هؤلاء القبائل قد أطاعوه فى فترة لاحقة طاعة الاطفال ٠

حيثما اختفى تأثير الاقطاع الكبير وجد عبد القادر كل الترحيب السريع بل كل الثناء ٠ فالمدن المحلية الصغيرة سرعان ما فتحت ابوابها له ٠ واحتلاله لمدينة أرزيو ، الواقعة على مسافة فرسخين من الميناء الذى يحمل نفس الاسم، قد عرف بحادثة تصور موقفه الانسانى بخطأ من ناحية وبمحاولة الكيد له من ناحية اخرى ٠

فقد كان أصدر أوامره الصارمة بعدم اجراء اى اتصال مع الفرنسيين ، ولكن سيدى احمد بن الطاهر ، قاضى مدينة ارزيو ، قد أمد الفرنسيين ، مخالفا بصراحة تلك الاوامر ، بالماشية والعلف ، بل باعهم الخيول التى كان بيعها لهم يعتبر جريمة نكراء ٠ وطالما كاتبه عبد القادر محذرا له من مغبة تصرفاته ، ومنذرا له بالعقاب الشديد اذا هو استمر فى أعماله ٠ ولكن القاضى ابن الطاهر ، الذى كان غير قادر على التخلى عن الارباح التى كانت تدرها عليه تجارته والذى كان متكلا على حماية الفرنسيين له ، قد واصل اعماله ٠ وفجأة ذات يوم دخل عبد القادر المدينة والقى القبض على القاضى وسيق ، مثقلا بالسلاسل ، الى سجن معسكر ٠

وبعد ان اصدر توصياته المشددة بعدم اتخاذ اى اجراء فى الوقت الحاضر ضد الجانى ، ركب فى اتجاه بنى عامر بشأن قضايا جعلته يبقى هناك عدة أيام • كانت نية عبد القادر اعطاء الفرصة للقاضي لكى يفتدى نفسه (التى كان قد أحلها بناء على تعاليم القرآن) بـ 5 000 فرنك ولكنه حين عاد الى معسكر وجد وهو مندهش ان القاضي قد قتل ، فقد أمر محيى الدين بمحاكمته • واصدرت المحكمة ضده حكما بالعقاب الاقصى ، ونفذ فيه الحكم فى الحال ، وقد فقئت عيناه (4) • ان مسؤولية هذا العمل الفظيع التى كانت باقتراح تلقائى من احد منفذى الحكم ، قد القاها بعضهم على كاهل عبد القادر كيدا له•

كان عبد القادر يعى تماما ان النجاح فى ميدان المعارك لا يكفى لتدعيم سلطته • لذلك قرر ان يقيم سيادته على ارضية اكثر صلادة عن طريق الاحتفاظ بمراكزقوية،وتشييد دور الاسلحةوبناء المخازنومستودعاتالذخيرة• وقد وضع نصب عينيه هذه الفكرة عند ما هاجم مدينة تلمسان التى تبعد حوالى سبعين ميلا جنوب غرب وهران ، ان هذه المدينة تقع على نجد فى سفح جبال منحدرة عالية • وهى مشهورة بكثافة وقوة أسوارها التى طالما أعيت الحصارات •

كانت قوة عبد القادر الرئيسية خلال هذا الوقت تتمثل فى بنى عامر وبنى هاشم • وبعد ان أخذ معه وحدات قوية من هذه القبائل اقترب من تلمسان• كان أهاليها منقسمين الى حزبين : الاتراك والكراغلة • فالاخيرون (وهم المنحدرون من آباء اتراك وعرب) (5) كانوا يحتلون القلعة • اما العرب فقد كانوا تحت قيادة « نونة » الذى سبقت اليه الاشارة • وقد طلب عبد القادر من نونة الاستسلام ، ولكنه رفضه • غير ان المقاومة التى حاولها سرعان ما انهارت ، لانه بينما كان عبد القادر يهاجمه من جهة فتح عليه الكراغلة النار من القلعة •

وبعد انتصاره فى تلمسان عامل عبد القادر اهلها بكل احترام • لقد كان يأمل ان يعترف الكراغلة بسيادته • غير انهم رفضوا كل العروض التى تقدم اليهم بها لانهم شعروا بالامان فى تحصيناتهم • ولكنهم رفضوا أن يبقوا معه معاملات ودية • وما دام هو لا يملك المدفعية التى يخضعهم بها فقد قبل المساومة وأقام أحد مساعديه حاكما على المدينة ثم عاد الى معسكر •

---

4) يضيف صاحب (تحفة الزائر) ان الجانى قد « قطعت يداه ورجلاه ووضع فى حفرة فى ساحة الصراية الى ان مات بعد ثلاثة ايام » • انظر ج 1 ، ص 107 •

5) هو عادة من اب تركى وام جزائرية •

وفى الطريق سمع بنعى ابيه • ان محيى الدين عاش الى ان رأى ابنه المحبوب قد شرع فى ذلك العمل الذى كان يأمل أن يكون مقدمة لحرية واستقلال بلاده • وقد شعر الابن الشجاع بفداحة الخطب الذى تركه فقدان الوالد الذى خلع عليه منذ طفولته كل حب وود ، والذى كان يعامله دائما كصديق مقرب وزميل ، والذى يدين له فى الحقيقة بالمكانة التى وصل اليها • ولما كان لا يجد الوقت للدخول فى عزلة مؤقتة يقتضيها المصاب الاليم فانه لم يستطع سوى ان يتبع جثمان والده الى مقره الاخير •

ان ديميشال قد استولى على ارزيو ومستغانم • ولذلك فان عبد القادر لا يستطيع اضاعة لحظة واحدة • لقد كان واجبا عليه ان يبذل قصارى جهده لالغاء هذا التوسع الفرنسى فى اقليم وهران • وفى الثانى من أوت سنة 1833 كان عبد القادر تحت اسوار مستغانم ، التى هاجمها فى الحال • وبعد ان ترك ديميشال معسكره ليدافع عن نفسه عاد توا الى وهران • لقد كان يأمل ان وجود عبد القادر فى مستغانم سيجعله حرا فى القيام بحملة تسللية ناجحة طالما فكر فيها •

وفى الخامس من أوت ، وهو اليوم التالى لوصوله الى وهران ، ارسل ديميشال ، بناء على ذلك قوة من 3 000 فارس وراجل مع ثلاث قطع من مدفعية الميدان لمهاجمة الدوائر والزمالة (6) ، القبيلتين اللتين تسببتا فى خسائر فادحة للفرنسيين لقيامهما بتنفيذ الحصار الذى أمر به عبد القادر • وفى فجر اليوم السادس حل الجيش الفرنسى بمضارب الخيام العربية • وفى الحال فتحت المدفعية فوهاتها ، وتقدم المشاة فى صفين واطلق الفرسان النار •

ولم يقم العرب الذين اخذوا على غرة والذين كانوا ذاهلين حائرين ، سوى بدافع غير فعال وبلا طائل • وأخيرا رفعوا خيامهم وتركوا وراءهم مواشيهم وكثيرا من النساء والاطفال فى يد العدو • وفجأة بدأت حركة فرارهم تتوقف، بينما كان الفرنسيون مندهشين ، وكان عددهم يزداد بطريقة تكاد تكون سحرية ثم تحول دفاعهم الى هجوم ، ان عبد القادر قد وصل •

لقد احس بنوايا العدو عند مغادرته لمستغانم ، فتخلى عن الاشراف الشخصى على الحصار ، وسارع الى النقطة التى كان الخطر يهددها مباشرة اكثر • وكان وصوله فى اللحظة الحاسمة • ولم يكلفه تحويل تيار المعركة

---

6) مجموعتان كبيرتان من القبائل كانتا بالقرب من مدينة وهران • وكانتا من قبائل المخزن •

سوى القليل . فقد اسرع المشاة العرنسيون بالتراجع ، ونجح بعضهم في تشكيل تربيعات بسرعة مما جعل بعض صفوفهم غير كاملة . واطلق الفرسان العنان لخيلهم . اما المدفعية فهي الوحيدة التي قامت بعمل طيب . ان الفرنسيين الذين كانوا يتوقعون انتصارا سهلا ، لم يحضروا معهم المؤونة . وقد اجبروا الآن على التخلي عن الغنائم التي غنموها . وداهمتهم غصة الجوع والعطش . ومن لهيب الشمس المحرقة فوق رؤوسهم . وفي الحال احاط بهم العرب من كل جانب .

وهنا صاح عبد القادر بقومه : « احرقوا السهل » وسرعان ما ركض مئات الفرسان بعيدا واشعلوا النار في الاعشاب الجافة والاجمات الممتدة وراء خطوط الفرنسيين الخلفية . وقد كان على الجنود المنكوبين الذين تأخروا في تقدمهم بسبب الجرحى الذين أبى عليهم الشرف تركهم ، أن يمشوا فوق الجمر وان يخوضوا امواجا من اللهيب . ولكن الطبيعة الانسانية انهارت امام قسوة الامتحان ، فكثير منهم القى بسلاحه بل ان بعضهم اختنق . ورمى آخرون بأنفسهم يائسين على الارض بعصبية مستعجلين الموت الذى أراحهم به اليطقان العربى فى الحال .

وعلم ديميشال بالنكبة التى حلت بالحملة عن طريق بعض الفارين . وفي الحال أمر كل معسكر وهران بالتحرك للنجدة . ولكن الجنود كادوا لا يصلون في الوقت الى الميدان لانقاذ رفقائهم من الابادة التامة .

وفي نشوة النصر رجع عبد القادر بدون تاخير للاسراع بحصار مستغانم. ومن الصعب ان يقول المرء ما اذا كان الاعجاب راجعا الى جرأة خطة عبد القادر او الى شجاعته ومثابرته التى اوشكت على تحقيق الخطة اذ لم يكن لديه مدافع للحصار ، وكل ما كان عنده هم المشاة والفرسان . وقد استولى مشاته على الضواحي وكانوا يهاجمون احدى القلاع القريبة من البحر . ولكن سفينة شراعية فرنسية اطلقت عليهم النار ، فخلع العرب ملابسهم وسبحوا في اتجاهها وهم يحملون بنادقهم فوق رؤوسهم وحاولوا الصعود الى السفينة . ورغم انهم صدوا عن ذلك بالقوة فان الشجاعة الفائقة التى اظهروها تدل على انه كان فى استطاعة العرب ان يحققوا الكثير اذا وجدوا قائدا مقداما يعرف كيف يؤثر عليهم . بدأ عبد القادر فى التلغيم الى ان وصل اللغم الى قدم السور . وقد وقع انفجار فأحدث ثغرة فى السور . وصدرت الاوامر بالهجوم العام. واندفع العرب ، الذين كانوا مقودين ومنتشين بصوت ومثال سلطانهم

ثم تقهقروا • ذلك ان الفرنسيين ، الذين اصطفوا فوق جانبي اعلى السور ، قد صبوا نيرانهم الحامية على المغيرين الذين اضطروا الى التراجع في فوضى بعد صراع يائس ، وحين وجد عبد القادر ان آخر موارده قد نضب ، رفع الحصار وعاد الى معسكر •

ورغم ان عبد القادر قد فعل الكثير لتبرير موقف وتأمين ثقة اتباعه المقربين في السلاح ، ولجعل نفسه (رغم غيرة بعض القواد) محط آمال ومطامح كل القبائل في اقليم وهران ، فان قوة الظروف قد اضطرت بعض هذه القبائل ، مهما كانت تطمح في الالتفاف حول لوائه ، أن تستسلم للمعتدين •

ان الدوائر والزمالة ، الذين كانوا دائما عرضة ، بحكم المسافة ، للتدخل الفرنسي ، قد عانوا خسائر جعلت غرائز الطبيعة المتسامحة تملي عليهم فكرة تعويض الخسائر بتعاملات ودية ظاهريا مع عدو يضمرون له العداوة داخليا • ولما كانوا غرباء عن فكرة انكار الذات التي تتطلبها روح الوطنية الحقة فانهم قد رضوا بشراء هدوء مؤقت عن طريق قبول الحماية الفرنسية • وبمقتضى المعاهدة التي وقعوها مع ديميشال وضعوا انفسهم تحت العلم الفرنسي ، عند نهر ميسرغين الواقع على بعد ثلاثة فراسخ من وهران •

ان سياسة عبد القادر السامية لا تستطيع صبرا على هذا الخرق الفاضح لمبادىء القرآن الواضحة الصريحة • ان ذلك الكتاب المقدس لم يؤيد ولم يقر مبدأ الخضوع • فشعاره الذي لا يقبل المساومة ولا الرحمة هو الانتصار او الموت والسيف في اليد في سبيل الله • ولما كان عبد القادر مفسرا، غيورا، ومدافعا جسورا عن ذلك الكتاب المؤثر بكل عظمته البطولية ، فانه قد جعل واجبه الاساسي حماية القرآن بيقظة لا تعرف الكلل ولا التواني ومقابلة ابسط خروج عن مبادئه بشدة لا تعرف التراجع •

• وقد راى عبد القادر ، مستقلا عن تلك الاعتبارات القرآنية السامية الواضحة ، انه اذا سمح ان يكون القرب من العدو مبررا للاستسلام اليه وان تكون القسوة والمعاناة مبررا للخيانة ، فان سياسته التي يخططها لتحقيق تحرير بلاده ستنهار بسرعة، وان خططه لتجديدها وانعاشها ستصبح خيالا ، وان اعظم جهوده لتحقيق ذلك الحلم ستكون قصيرة الاجل • لقد كان يعلم ان الصرح الذي كان يشيده بكل صعوبة سينهار . اذا ما غض النظر عن اولئك الذين يهدمونه من اساسه •

ونتيجة لذلك قدر انه اذا رضى بهذا النوع من الاستسلام او غض عنه النظر او برر مثل هذا الضعف مهما كان سببه ، فان موقفه سيكون مماثلا للتخلى عن الرسالة التى آلى على نفسه حملها والمهمة التى اقسم على تحقيقها. وقد يكون الخيار المعروض امامه غير مهذب ، وقد يكون مؤلما ولكنه، ما دام صافيا وهادىء الضمير ، وما دام متاكدا واثقا من عدالة قضيته فانه قبل ذلك الخيار ٠

وبينما كان يحافظ على جبهة قوية فى وجه العدو كان من المحتم عليه العمل ليصبح علامة ارهاب ، بدل علامة حب ، بالنسبة لمئات ، بل ربما الآلاف ، من ابناء وطنه ٠ انه من الممكن ان توصف قسوته بالاضطهاد ، وقد تنعت شروطه وعقابه بالاستبداد ٠ ولكنه قرر ، مهما كان الثمن الذى يدفعه الشخص المنكوب ، ومهما تضررت شعبيته ، ان يكون واضحا مفهوما لدى جميع القبائل ، ان السياسة التى تراعى المصلحة المشتركة تقع على عاتقه هو وحده ، وانه هو فقط الذى من حقه ان يعقد معاهدات السلام ، وان يوقع الشروط ، ولذلك عزم على افهام جميع القبائل ان حسابهم الاخير والعسير سيكون معه ، اذا ما قبلوا ان يكونوا طرفا فى اى تعامل مع الفرنسيين ٠ وقد ذاق الدوائر والزمالة فى الوقت المناسب هذا النوع من الانضباط العسير ٠

الفصل الرابع

(1833)

ان الحماس الذى هز فرنسا نتيجة احتلال الجزائر لم يكن طويل الاجل · فقد حدثت ثورة اطاحت بالفرع القديم لاسرة البوربون ، الذى كان مسؤولا عن احتلال الجزائر (1) · وهكذا مدت اللعنات وسحب الكره السوداء التى اطاحت بالطاغية الراحل ظلال الشؤم على ذلك الانتصار الباهر الذى تحقق بقوة السلاح ·

وقد اصبحت رغبة التخلي عن ثمار الانتصار الـذى تحقـق تحت تلـك الظروف هى السائدة · فقد استنكر قسم كبير فـى البرلـمـان الفرنسـى الاحتلال المنظم للجزائر وباعتباره باهظ الثمن وغير مفيد · واقترح بعضهم الاحتفاظ بالمدن الساحلية ، لا على اساس التوسع ولكـن رغبـة فى انقـاذ الشرف القومى ·

وليس هناك من كان يفهم طبيعة البلاد التى كانت موضوع النقاش ، بـل ان القلائل فقط هم الذين كلفوا انفسهم عناء التعرف على هذه البلاد · فكلهم كانوا يعلمون ان الجزائر كانت عشا للقرصنة ، وان حكامها كانـوا اتراكـا متوحشين ، وان اهلها كانوا عربا منحطين (2) · ولكن ما هى الاحوال فى الداخل وما هى الطبائع والعادات والملامـح الاجتماعيـة للشعب ، وما نـوع الحكومة التى يمكن ان تحل محل تلك التى انهارت ، وما هو النظام الادارى الذى يجب ادخاله ، كل ذلك لم يفكر فيه احد آنـذاك · فقد كـان الجهـل واللامبالاة مهيمنين بخصوص تلك النقط ·

---

1) يقصد ثورة يوليو سنة 1830 التى اطاحت بحكم شارل العاشر الذى كـان مسؤولا عـن احتلال الجزائر ، وجاءت بحكم لويس فيليب الذى استمر الى سنة 1848 ·

2) هذه هى صورة الجزائر لدى معظم الاوروبيين خلال الحكم العثمانى لها ·

ولما كانت الوزارة الفرنسية غير متأكدة من خططها ، وفى نفس الـوقت لا تريد ارخاء قبضتها ، فانها قد خفضت ، في المرحلة الاولى، من عدد الجيش فى الجزائر الى 10،000 جندى فقط • وخلال فترة طويلة بعد ذلك كانت كل خططها تتميز بالضعف والتردد ، وهكذا فخلال ست سنوات ارسلت مـا لا يقل عن عشرة حكام عامين ليقوموا بتجـارب عن نظريـات جديدة فـي التشريع • فالحبل الرسمي للتجربة كان حالا ينقطع بوصول خلفاء مبتدئين فى فن الحكم • وكل ممثل جديد على المسرح كان يظهر بازيائه الخاصة التى كان يسعى لتنفيذها بكل غلظة •

وفى خريف سنه 1830 افترح الماريشال كلوزيل (3) Clauzel الحاكم العام ، ان يعهد باقليمي وهران والتيطرى الى امراء مـن اسرة باى تونس ، على شرط ان يصبحوا خاضعين لفرنسا • وبناء على ذلك منـح وهـران الى الامير سيدى احمد الذى تعهد ان يدفع لفرنسا مبلغا قدره مليـون فرنكـا سنويا • ولما كان هذا الامير غير متأكد من موقف العرب في وهران منه • احتاط لذلك وارسل قبله نائبا عنه اسمه خير الدين ليجس النبض • وحين وصل هذا النائب الى وهران وجدها خالية تقريبا من السكان ووجد المخازن فارغة من المؤونة •

ومع ذلك فقد واصل خير الدين مهمته لمعرفة الموقف • فقد اصدر بيانا الى العرب هناك اطراهم فيه وأعطاهم الضمانات المؤكدة عن مستقبل سياسته نحوهم ، واخبرهم انه ليس للفرنسيين اية رغبة فى التدخل فى عاداتهـم وتقاليدهم ، وانهم سيكتفون باحتلال المدن الساحليـة فقط ، وان القبائـل فى المناطق الداخلية ستختار هى حكامها منها •

وقد أقنع هذا البيان بعض الرؤساء العرب فلبوا النـداء ونالوا البرنس وغيره من علامات التشريف • ولكنهم حين عادوا الى قبائلهم اصبحوا محل سخرية • وبذلك برهنت الخطة الفرنسية على فشلها الذريع • فهى لم توقظ أملا ولم تبعد خوفا • وهكذا انسحب مبعوث الامير التـونسى بعـد بضعـة اسابيع •

وكان عبد القادر يضيف يوميا الى الفرص العظيمة التى تولدت عن تردد وفشل السلطات الفرنسية تلك النتائج الباهرة التى حققتها طاقته وشجاعته •

---

(3) تولى مرتين الاولى من 1830 ـ 1831 والثانية من 1835 ـ 1836 • وقـد اشتهر بحماسه للاستعمار • وعندما فشل فى حملته على قسنطينة (1836) استدعته حكومته •

فثمار الدفع القوى الذى نشره بين مواطنية كانت تزداد نضجا • والثقة ، ان لم يكن النصر ، كانت تتبع طريقه اينما حل ، والشخصية العربية كانت تتطور وتظهر فضائل طالما ظلت خافية فى اعماقها البعيدة • فالصبر ، والثبات ، والمثابرة ، وتحديد الهدف ، وروح الوحدة كلها برزت الى الوجود بفضل قيادة عبد القادر العبقرية •

كانت عنايته الاساسية موجهة للتخلص من كل العراقيل التى يمكن ان تهدد الصالح العام او تضر بخطته العامة • فالقرار الذى كان قد اصدره ومنع فيه كل المبادلات التجارية مع الفرنسيين قد اضر كثيرا ببعض القبائل التى اعتادت منذ وقت طويل على التجارة مع المدن التى هى الآن فى ايدى الفرنسيين• ان ثمار تلك المعاملات التجارية المتوارثة جيلا عن جيل والارباح الطائلة المحصلة منها كانت فرصا رخية لا يمكن نسيانها بسهولة • ولكن بفضل تأثير بعض المرابطين ، الذين كانوا يتجولون باستمرار بين تلك القبائل بامر من عبد القادر ، حل شيئا فشيئا الشعور الوطنى محل الشعور التجارى ، وهكذا توقف العرب عن التجارة فى الاسواق الفرنسية •

وقد كان لنظام الحصار الذى ضربه عبد القادر تاثير مهلك على القوات الفرنسية • ذلك ان هذه كانت تعتمد تماما تقريبا على العرب من اجل ضرورات الحياة • فالبحر كان لا ياتيهم منه شىء ، واذا اتى فالقليل فقط وفى مناسبات نادرة • ولذلك حدث للفرنسيين قلق شديد ادى الى اعمال العنف حين اصبحوا كالطيور الكاسرة يبحثون ويقعون على طعامهم فى المناطق الداخلية • وبينما كان ديميشال يبحث عن طريقة يستطيع بها ان يفتح المفاوضات مع عبد القادر تخفف عنه شدته وتلبى ضروراته ، دون ان يظهر امام عبد القادر بمظهر الضعيف ، حدث ما فتح طريق التعامل بينهما •

فحوالى نهاية اكتوبر ، 1833 جاء عربى يدعى قدور،وهو من قبيلة البرجية الى مدينة ارزيو وباع فيها الماشية • وعند رحيله طلب من القائد الفرنسى ان يعين له حامية تصحبه لانه كان يخشى جنود السلطان عبد القادر الذين يعلم انهم كانوا يراقبون الطريق • وقد اعطاه القائد الفرنسى اربعة فرسان ، وعلى مسافة حوالى فرسخ من المدينة هاجمت قوات عربية كبيرة تلك الحامية ، فقتلت احد الفرسان واخذت الثلاثة الباقين اسرى وقادتهم الى مدينة معسكر •

وقد كان ديميشال سعيدا بهذا الحادث الذى وجده فرصة لكـى يكتب الى عبد القادر ٠

لذلك ارسل اليه الرساله التالية : « انى لا اتردد فى ان اكون البادىء فى اتخاذ هذه الخطوة ٠ ان وضعى، كما هو ، لا يسمح لى ان افعـل ذلك ، ولكن شعورى الانسانى يحملنى على الكتابة اليك ٠ لذلك فاننى اطلب حرية اولئك الفرنسيين الذين سقطوا فى كمين بينما كانوا يحمون عربيا ٠ اننى لا اتوقع ان تجعل اطلاق سراحهم مرهونا بشروط معينة ، ما دمت انا قـد اطلقت فى الحال سراح بعض افراد قبائل الزمالة وقبائل الغرابة ، عندمـا سقطوا فى يدى نتيجة الحرب ، دون شروط ، بل لقد عاملتهم احسن معاملة٠ فاذا كنت تود ان تعتبر رجلا عظيما ، فانى ارجو ان لا تتاخر عنى فى الكرم وان تطلق سراح اولئك الفرنسيين الذين هم الآن رهن يديك » ٠

وقد اجابه عبد القادر بالرسالة التالية : « لقد اتصلت بالرسالـة التـى رجوتنى فيها اطلاق سراح السجناء الذين اشرت اليهـم ٠ وقـد فهمـت محتواها ٠ انك تخبرنى انك ، بالرغم من مكانتك ، رضيت ان تكون البادىء فى الاتصال بى ٠ لقد كان من الواجب عليك ان تفعل ذلك ، بناء على قواعـد الحرب ٠ فالاعداء يتناوبون الحظوظ ، يوم لك ويوم عليك ٠ والدائرة تـدور علينا معا ، وهى دائما تدوس فى طريقها ضحايا جددا ٠

« اما فيما يتعلق بى ، فانك حين اخذت سجناء ، لـم اكلف نفسى ابـدا مشقة طلب اطلاق سراحهم٠ حقا لقد تألمت كانسان من اجل مصيرهم السىء، ولكننى كمسلم كنت انظر الى موتهم ، اذا وقع ، على انه حياة جديدة ٠ انك تخبرنى ان رجالك الفرنسيين كانوا مرسلين لحماية رجل عربى ٠ ذلك ليس حجة فى نظرى ٠ فالحامون والمحمى كانوا سواء اعدائى ٠ وان كل العـرب الذين يشيدون بك هم ليسوا مؤمنين حقيقيين وجهلاء بواجبهم ٠

« انك تفخر بانك مجانا اطلقت سراح بعض قبائل الغرابة والزمالـة ٠ هذا حق ،لكنك فاجأت اناسا كانوا يعيشون تحت حمايتـك وكانـوا فـى الواقع يمدون اسواقك بالمؤونة ٠ فجاء جيشك وجردهم من كل ما يملكون٠ فلو ، بدلا من الوقوع على الذين كانوا يقدمون اليكـم خدمـات ، تجاوزتـم خطوطكم ، وهاجمتم الناس الذين كانوا مشتاقين الى لقائكم مثل بنى عـامر وبنى هاشم ، لكان فى امكانكم ان تتحدثوا ، بحق ، عن الكرم ، اذا اسرتم منهم اسرى ثم اطلقتم سراحهم ٠

« اذن لجاز لكم ان تستحقوا المدح الذى تدعونه لانفسكم من انكم قد أعرتم على الزمالة ، ثم تدعون بانني قد وقعت فى ايديكم • وعندما تتقدم مسافة يومين خارج حصون وهران فانني اتمنى ان نلتقي ، وعندئذ سيظهر من منا سيبقى سيد الميدان » •

ان هذا التحدى الصارخ كان يمكن ، فى ظروف غير هذه ، ان يثير فى صدر الجنرال الفرنسى أعلى مشاعر الفروسية فتدق الطبول ، وتطلق الصفارات وتنشر الاعلام ويدعى البطل العربى بسرعة الى المقابلة • ولكن ديميشال رد بمهاجمة قبائل الدوائر والزمالة مرة اخرى وسلبهم أرزاقهم • وقد كان عبد القادر مع بنى عامر عندما سمع بما قام به ديميشال •

وفى الحال توجه عبد القادر على رأس 5،000 فارس للنجدة • وفى اقل من ثلاث ساعات قطع الفرس العربى الذى كان طليق العنان راعد الحافر ، خمسين ميلا • وعند الوصول كان حوالى النصف فقط قادرا على خوض المعركة • ومع ذلك فان عبد القادر قد قرر خوض المعركة بذلك العدد •

وهنا لم يسع الفرنسيين ، الذين سرت فيهم الفوضى المتناهية لظهوره غير المتوقع ، الا ان يتقهقروا بسرعة تاركين النساء والاطفال الذين كانوا قد احتجزوهم معهم كرهائن • حقا ان بعض الجنود قد جاؤوا لنجدة الفرنسيين مع قطع اخرى من المدفعية ، غير ان عبد القادر قد لاحق العدو بالرغم من النيران الحامية التى كان متعرضا لها ، وكان يحوم حولهم حتى الى مداخل وهران •

وعند عودته الى المعسكر العربى امر قبائل الدوائر والزمالة بالاستعداد خلالا لمغادرة هذا المكان حيث يتعرضون فيه باستمرار الى مخالفة اوامره الخاصة بالتعامل مع الفرنسيين ، وحيث كانوا معرضين باستمرار ايضا الى سوء وقسوة الهجومات • لذلك نقلهم من هناك مع كل قطعانهم ولوازمهم ووضعهم فى سهل واسع وراء تلمسان •

ولما وجد ديميشال نفسه مشلولا بجرأة وحضور خصمه الشهير فى كل مكان ، ووجد موارده تنضب ، والامدادات تنقطع ، والجوع على وشك القضاء على رجاله ، راى انه لم يبق امامه سوى احد حلين : اما الجلاء واما السلام • وامام هذه الضرورة الفظيعة كتب الى عبد القادر ما يلى :

« انك لن تجدنى أصم لاى عاطفة من السماحة ، واذا كان يناسبك ان تمنحنى مقابلة معك فانى على استعداد لذلك،على امل ان يكون فى استطاعتنا

ان نوقف اراقة الدماء بواسطة معاهدة مباركة ، بين شعبينا اللذين حكم عليهما القدر ان يعيشا تحت نفس السلطة » (4) ٠

غير ان عبد القادر الذى راى خصمه قد اتخذ موقف الضعيف ، فضل اللامبالاة ٠ فقد ترك الرسالة بدون جواب ٠ وفى نفس الوقت استخدم يهوديا يدعى موردكى Mordecai عمار الذى كان مندوبه فى وهران ، لكى يهدىء الجنرال الفرنسى بالمعاذير ، اذا اشتكى من صمت عبد القادر ولكى يقترح عليه افضلية تقديم اقتراحات اكثر وضوحا وتفصيلا ٠ وبعد ان انقضى شهر كتب ديميشال رسالة ثالثة الى عبد القادر :

« ما دمت لم اتصل منك باى رد على الرسالة التى وجهتها اخيرا اليك ، فانى افضل افتراض عدم وصولها اليك على التصور انك قد اخترت ان لا تعيرها التفاتا »

وقد انهى ديميشال حججه بطلب السلام بالعبارات التالية : « اذا كنت تود الاحتفاظ بالمكانة البارزة التى وضعتك الظروف فيها ، فانك لا تستطيع فى نظرى ان تفعل افضل من ان تقبل دعوتى ، لكى تكرس القبائل وقتها لحراثة الارض ، وتتمتع بثمار وبركات السلام ، فى ظل معاهدة تربطنا معا رباطا أكيدا » ٠

ان السلطان الشاب المنتصر يستطيع الآن وهذه الوثيقة فى يده ، ان يظهر لرعيته ان العدو كان اول من تضرع من اجل وقف القتال ٠ ولم يعد هناك مناسبة لتاخير اكثر ، لذلك ارسل الجواب التالى الى الجنرال الفرنسى :

« لقد اتصلت برسالتك وفهمت محتواها تماما ٠ ويسرنى ان اجد عواطفك تتفق مع عواطفى ٠ اننى اشعر بثقة نحو اخلاص نواياك ، ويمكنك ان تثق بأن اى التزام يمكن ان نتوصل اليه سيكون محل احترام من جانبى ٠ اننى ارسل اليك ضابطين من جيشى ، وهما مليود بن عراش (5) وولد محمود (6) وسيجتمعان خارج وهران بموردكى عمار وسيعلمانه بكل الاقتراحات ٠ فاذا قبلتهما فانك تستطيع ان ترسل الى ، وعندئذ سنكتب معاهدة تقضى على

---

4) انظر مقدمة المترجم ٠

5) كان فى منصب وزير الخارجية للامير ، وقد لعب دورا هاما فى توجيه ديبلوماسيته ولا سيما معاهدة التافنة كما سياتى ٠

6) ليست هناك وثائق تساعد على التعرف على شخصيته ٠ والظاهر انه كان من ثقاة الامير ٠

ـاء والعداوة اللتين تفصلاننا الآن عن بعضنا وتحل محلهما صداقه
صام لها . ويمكنك الاعتماد على لاني لم اتخل ابدا عن كلمتي » .

ـ تمت المقابلة المقترحة بتاريخ 4 فيفرى 1834 . كان عمار اليهودى
ـبا بكل اعضاء هيئة الاركان الفرنسيين . وقد تلا ذلك مناقشات
حول المقترحات التى تقدم بها ديميشال . ثم غادر الممثل ابن عراش
ـة قائلا انه سيرفع تقريرا عما وقع الى سيده ثم يعود . وقد اخذ معه
ـة المقترحات ، ولكن دون امضاء ديميشال .

ى 25 من نفس الشهر عاد ابن عراش الى وهران ومعه مسودة المقترحات
ومختومة بخاتم عبد القادر ، بالاضافة الى ورقة اخرى تحتوى على
حات عبد القادر . وكان عبد القادر قد امر ابن عراش ان لا يسلم
فة الاولى حتى يوقع ويختم ديميشال على الوثيقة الثانية . وقد رأى عبد
. ان تبادل هاتين الوثيقتين يشكل المعاهدة . وكان اهم ما جاء فى
ثتين ما يلى :

شروط الجنرال ديميشال

ـ منذ اليوم تتوقف الحرب بين الفرنسيين والعرب .

ـ دين وعادات المسلمين ستكون محل احترام .

ـ الاسرى الفرنسيون سيطلق سراحهم .

ـ الاسواق ستكون حرة .

ـ كل فرنسى هارب يعيده العرب .

ـ كل مسيحى يتنقل داخل البلاد يعطى جواز سفر ممهور بختم قنصل القادر وختم الجنرال ديميشال .

شروط السلطان عبد القادر

ـ العرب احرار فى شراء وبيع البارود ، والاسلحة ، والكبريت . وبكلمة واحدة كل شىء ضرورى للحرب .

2 — التجارة في ميناء ارزيو ستكون تحت سلطة امير المؤمنين · ولن تشحن البضائع سوى في هذا الميناء · اما مستغانم ووهران فسوف لا تحصلان الا على المواد التجارية الضرورية لسد حاجات سكانهما. ولذلك لن تكون هناك معارضة لهذا الهدف · وعلى اولئك الذين يريدون شحن البضائع ان يتوجهوا الى ميناء أرزيو ·

3 — سيعيد الجنرال الينا كل الفارين مقيدين · ويتعهد بعدم منح اللجوء للمجرمين · ولن تكون للقائد العام في مدينة الجزائر اية سلطة على العرب الذين قد يأتون اليه برضى رؤسائهم ·

4 — لا يجوز منع اى مسلم من العودة الى اهله وداره حين يرغب في ذلك ·

وقد وضع ديميشال ، الذى كان لا يخشى شيئا كما يخشى قطع المفاوضات، ختمه وتوقيعه على الوثيقة التي تحتوى على شروط عبد القادر · ان عبدالقادر بالطبع قد قدر انه بمقتضى المادة الثانية قد أمن احتكار التجارة ·

وفي 26 فيفرى،1834 اقترح ديميشال على ابن عراش وضع معاهدة مختلطة تحتوى على اهم ما ورد في الوثيقتين السابقتين ، ولكن تنص على الشروط الفرنسية بتفصيل أكثر ·

ولم يعترض ابن عراش على ذلك · ولم يخطر بباله لحظة ان مثل هذه الوثيقة قد يراد بها فسخ الشروط التى وضعها سيده والتى ختم عليها ووقعها الجنرال · ومن ثمة ولدت « معاهدة ديميشال » التى أثارت فيما بعد كثيرا من الصعوبات والتعقيدات ·

معاهدة الجنرال ديميشال ، 26 فيفرى 1834

« ان القائد العام للقوات الفرنسية فى مدينة وهران وأمير المؤمنين سيدى الحاج عبد القادر بن محيى الدين ، قررا العمل بالشروط التالية :

المادة الاولى — ان الحرب بين الفرنسيين والعرب ستتوقف منذ اليوم ·وان القائد العام للقوات الفرنسية والامير عبد القادر لن يدخرا وسعا فى الحفاظ على ذلك الاتحاد والصداقة التى يجب ان تكون بين شعبين حكم عليهما القدر ان يعيشا تحت نفس السلطة (7) · ولهذا الغرض سيقيم ممثلو الامير في

7) انظر مقدمة المترجم ·

وهران ومستغانم وارزيو • ولمنع الصدام بين الفرنسيين والعرب سيقيم الضباط الفرنسيون فى مدينة معسكر •

المادة الثانية — ان دين وعادات العرب ستكون محل احترام •

المادة الثالثة — كل المساجين سيطلق سراحهم حالا من الجانبين •

المادة الرابعة — حرية التجارة ستكون كاملة وشاملة •

المادة الخامسة — ان العسكريين الفرنسيين الفارين سيعيدهم العرب • ونفس الموقف سيتخذ ازاء كل العرب المجرمين الذين يفرون من قبائلهم الى الفرنسيين تفاديا للعقاب • فهؤلاء سيقبض عليهم فى الحال ويسلمون الى ممثلى الامير فى المدن البحرية الثلاث التى يحتلها الفرنسيون •

المادة السادسة — كل أروبى سيعطى ، اذا رغب فى السفر داخل البلاد ، جواز سفر موقعا عليه من ممثلى الامير ومصدقا عليه من القائد العام ، حتى يجدوا المساعدة والحماية فى كامل الاقليم » •

ان هذه الشروط ، التى كتبت فى أعمدة متوازية بالعربية والفرنسية ، قد وقعها وختمها الطرفان ، ونلاحظ ان شيئا لم يذكر فى هده المعاهدة عن احتكار التجارة • غير ان عبد القادر كانت له وثيقته وكان راضيا • اما ديميشال ، الذى كان فخورا بما اعتبره انتصارا ديبلوماسيا فقد أسرع بارسال بشائر السلام المباركة الى الحكومة الفرنسية ، وسمح لنفسه أن يعبر عن انفعاله بالطريقة التالية :

« اننى أعلن لكم استسلام اقليم وهران الذى يعتبر أكبر جزء فى ولاية الجزائر وأكثرها محاربة • الفضل فى هدا الحادث الكبير يعود الى الميزات التى امتازت بها القوات التى اقودها » •

اما عبد القادر فمن حقه ان يهنأ على أكاليل الغار • فقد أرغم عدوه على طلب السلام ، ووضع شروطه الخاصة ، ولم يدفع أية جزية ، ولم توضع اية حدود على منطقته وقد اعترف له الجنرال الفرنسى بالاستقلال بعرضه عليه تعيين واستقبال القناصل • وكان على الفرنسيين ان يشحنوا من ميناء واحد فقط ، وان يخضعوا لضريبته الجمركية •

وبمقتضى الاحتكار الذى نص عليه بعباراته الخاصة ، اصدر عبد القادر أوامره بمنع العرب من بيع القمح والشعير او الانتاج الفلاحى ، مهما كان

نوعه الى المسيحيين سواء كانوا من أهل البلاد او أجانب • وقد أعلن ان ممثليه هم الوحيدون المسموح لهم بالشراء والبيع ، وهم فقط الذين يحددون الاسعار في الاسواق •

وقد رفع التجار الفرنسيون في ارزيو شكواهم الصارخة الى ديميشال نتيجة هذه القيود• أما عبد القادر فقد احتج بنص وثيقته، بينما كان ديميشال يفضل تجاهلها ويلتزم بالمعاهدة المشتركة التى نصت على حرية التجارة • وقد وافق عبد القادر على هذا الامتحان ، ولكنه قال انه بالرغم من انالاسواق كانت حرة فان تمويلها من حقه هو فقط •

وذات يوم اشترى احد التجار الفرنسيين ، الذى كان يعمل بمقتضى المعاهدة كما فسرها الجنرال الفرنسي ، كمية كبيرة من القمح والشعير من عربى من قبيلة حميان وعند سماع ممثل عبد القادر بالصفقة ذهب واحتجز الكمية • فاشتكى التاجر الفرنسي الى السلطات الفرنسية المحلية ، غير ان هذه أخبرته بانه لا يجوز التدخل فى التنظيمات التى يقيمها الامير •

وعندما أحرج ديميشال بشكاوى جديدة وبطلب تفسير لما يجرى من الجنرال فوارول (8) Voirol الحاكم العام الذى لا يمكن ان يقبل كل ما كان يجرى من سوء التفاهم ، رضى ان يسلك طريقا وسطا • فأعلن ان احتكار الحبوب الذى رخص به للامير كان يشمل فقط الحبوب التى ينتجها فى ارضه الخاصة • ولكن عبد القادر سخر من هذه الخديعة • فهو لم يكن يعلم شيئا عن التفسير الخاص الذى اختار ديميشال ان يضعه على معاهدته • كان يعلم فقط ان حتم وتوقيع الجنرال على الوثيقة التى تعترف له باحتكار التجارة • وكان عازما على تطبيق هذا الاحتكار • ولم يكن الفرنسيون عندئذ فى وضع يستطيعون فيه منازعته فيما يرى • وقد فعل هو ما كان يريد •

وحين وجد عبد القادر نفسه فى حرية من التدخل الخارجي ، كرس كل جهوده الى الشؤون الداخلية لمملكته • وكان ما يزال أمامه كثير من الصعوبات والمحاولات • فهناك غيرة البعض من نجاحاته ، وهناك حسد الآخرين للشهرة التى وصل اليها ، وهناك الدسائس الحقودة التى كان ينشرها منافسوه والتى كانت تجد آذانا صاغية لدى المتعصبين الذين كانوا يعتقدون انه قد خان

---

8) كان حاكما عاما عندما زارت اللجنة الافريقية الجزائر سنة 1834 • انظر كتابى « تاريخ الجزائر الحديث » ، الفصل الخاص باللجنة الافريقية •

القضية المقدسة بعقد السلام مع الكفار . كل هذه العناصر متجمعة قد اثرت كثيرا او قليلا على استقرار الحكومة .

ولكن رد عبد القادر كان حاضرا . فقد أجاب المغيرين الذين كانوا يقولون: « اين الآن زعيم الجهاد ؟ اين الصرخة العالية التى كانت لا تنادى الا بالمعركة والمقاومة ، والتى كانت تدعو الى الموت بدل الاستسلام ؟ » . أجابهم بهدوء مشيرا الى ان المعسكرات الفرنسية قد اصبحت مقصورة على الحصون التى وضعوا عليها مدافعهم . ومشيرا ايضا الى السهول وقد حررت من الكفار النهابين، والى المدن وقد خلت من ازعاج المعتدين الفرنسيين ، وفوق هذا وذلك مشيرا الى المعاهدة التى املاها بحد سيفه والتى تمنح الآن ، لاول مرة فى التاريخ ، صك الضمان لآمال الحرية العربية ، والتى كانت تعد ان تكون اساسا للاستقلال العربى .

الفصل الخامس

(1834)

والآن شرع عبد القادر فى التنظيم • انه لم يكن يثق الا قليلا فى نوايا السلام التى ابداها الفرنسيون ، وكان لا يعتبر وقف القتال سوى هدنة مسلحة • لذلك عزم على استغلال هذا الوقت الثمين في بلورة خططه ، وتنمية موارده ، وتحضير معاركه المستقبلة • وقد أعلن ان الجهاد لم يتوقف ولكنه تأجل فقط . واصدر أمره العادى بجمع ضريبة الحرب المكونة من العشور ، او عشر كل المنتوجات الزراعية ، والزكاة ، او الضريبة على الماشية •

وما كان اشد استغراب عبد القادر حين وجد ان اعظم القبائل اخلاصا له واكثرها غيرة بين اتباعه ، اى نفس الرجال الذين كانوا حراس ومؤيدى قوته الوليدة ، والذين بمساعدتهم استطاع ان يكبد العدو خسائر مهلكة رفضوا الطاعة • انهم بنو عامر الذين ادعوا بان وقف دفع الضرائب كان ، فى اعينهم ، نتيجة شرعية لوقف القتال •

غير ان عبد القادر لم يتردد لحظة واحدة • فبنوعامر يجب اخضاعهم • وقد كتب الى مصطفى بن اسماعيل فى تلمسان وامره ان يعد قبائل الدوائر وقبائل الزمالة للعمل فى الحال •

ان ذلك الزعيم القديم الداهية ابن اسماعيل الذى كان على راس المخزن التركى ، رغبة منه فى اغتنام هذه الفرصة للانتقام [illegible] عدائه القدماء المرعبين، وفرحا بالغنائم المنتظرة ، قبل بكل غبطة أمر عبد القادر . بل زاد عليه معتمدا بافتخار على ولاء قبائله • ولكن واقعة لم تكن فى الحسبان غيرت مجرى الاحداث •

فبينما كان عبد القادر يلقى خطبة الجمعة ، كعادته ، فى مسجد معسكر ، وقعت عينه على بعض شيوخ بنى عامر • وفجأة غير تيار بيانه وخاطبهم هكذا : « الستم انتم يا بنى عامر ، اول من دعانى الى المركز الذى أتولاه الآن ؟ الستم انتم اول من رجانى أن أسس حكومة منتظمة توحى الى الخيرين بالثقة والى الاشرار بالخوف •

« الم تتعهدوا بشرفكم لوضع حياتكم ، واملاككم ، وكل ما هو عزيز ومقدس لديكم ، لمساعدتى وتدعيمى فى مهمتى الشاقة ؟ فهل ستكونون اول من يتخلى عن القضية المشتركة ، وأول من يؤيد ويشجع ، باعطاء المثال ، المؤامرات ضد نفس الحكومة التى اقمتموها ؟ كيف تستطيع اية حكومة ان تواصل عملها بدون ضرائب ، وكيف تستطيع ان تبقى بدون اتحاد وتاييد الجميع ؟ •

« هل تظنون ان اصغر قطعة نقدية فى الضريبة التى اطلبها ستستخدم فى مصارفى الشخصية او العائلية ؟ انكم جميعا تعلمون ان املاك والدى تكفى لحاجاتى الشخصية • ان ما اطلبه هو ما فرضه قانون الرسول عليكم كمسلمين حقيقيين • واننى اقسم بالله العظيم ان ما يدخل يدى سأحتفظ به كأمانة مقدسة ، من اجل انتصار الاسلام »

وقد تاثر شيوخ بنى عامر بهذا النداء الصريح فطلبوا الاجتماع • وهرع الناس اليهم من كل الرتب والاعمار راجينهم الوفاق • وحين اصبح الشيوخ محاطين بالجمهور تقدموا الى السلطان الشاب وقبلوا يده • وقد وعدوه باسم قبيلتهم بدفع الضريبة • ومن جهة اخرى ارسل عبد القادر امره الى مصطفى ابن اسماعيل لوقف مسيرته ضد بنى عامر •

وبعد ثلاثة ايام جاء فارس بسرعة كاملة ليعلن ان مصطفى بن اسماعيل قد بدا ، رغم الامر ، الهجوم • وسرعان ما جمع عبد القادر ما يمكن جمعه من الفرسان وبمجرد وصوله ارسل امره الى ابن اسماعيل لينسحب • وحين رفض هذا طاعة الامر تقدم عبد القادر وحمل على هذا القائد المعاند • ولم يتبعه سوى عدد قليل من بنى عامر • وبعد مناوشة يائسة كان عبد القادر فى غم من رؤية رجاله يتفرقون ويفرون امام عدو يفوقهم عددا •

ولم يبق سوى عدد قليل من الرجال يحيطون بشخصه • واقتداء بزعيمهم حارب هؤلاء الرجال حربا بائسة • فكلهم تقريبا قد قتلوا أو انزلوا عن

خيولهم · واخيرا ، وبعد ان اظهر معجزات من الشجاعة تخرق خلالها برنسه بالرصاص وتغطى حصانه بالجراح ، مرق من صفوف العدو الذى احاط بـه وعاد الى المعسكر · وقد وصلها فى اعقاب الليل وحده ·

وقد انتشرت الاخبار كالنار فى الهشيم ان عبد القادر قد هزمه عربـى · وفى لحظة ما ، صحا كل المنافسين الغافلين · فهذا سيدى العريبى قد حمل لواء الثورة · وهذا الغمارى وبنو انجاد ، استعدوا للانضمـام الى سيـدى حمادى ، حاكم تلمسان ، الذى كان على صلة بمصطفى بن اسماعيل ·

ولكن اخبار هذه التمردات لم تصب نفس عبد القادر بالقنوط ، بل زادته طاقة جديدة · فقد كان بنو هاشم الغرابة ، وبنو مجاهـر ، وبنـو عبـاس اوفياء له · اما بنو عامر فقد اكدوا انضمامهم اليه كما فعل شيوخهم فـى معسكر · وهكذا كان فى استطاعة عبد القادر ان يجمع قـوة تبلـغ 15·000 فارس · وقد اخذ عددا كبيرا من هذه القوة واسرع الى الميدان ·

اما ابن اسماعيل فقد قاد الدوائر والزمالة الى مكان حملاتهم القديم قرب وهران · آملا ان يسترضى الفرنسيين وان يحصل على تاييدهـم · ولكنـه اصطدم حين انذره هؤلاء بالعواقب الوخيمة التىقد تترتب علىتمرده المستمر ضد عبد القادر ، حليف فرنسا ·

لقد تأكد ديميشال بعد تجارب مريرة انه لا يمكنه احتلال اقليم وهـران بمثل تلك القوة التى تضعها حكومته تحت تصرفه · وقد بدا له ان تكويـن قوة محلية ، تابعة او حليفة ، لسد ذلك العجـز وللمساعـدة على توسيـع السلطة الفرنسية ، هو أسهل طريقة للفرار من مأزق خطير · والحق انه كان قد اندهش اعجابا بمؤهلات عبد القادر العظيمة ، وكان دائما يلذ له مـدح بطولته وجرأته · بل حتى قيادته · لقد كان تقريبا يحسـده ويطمـع فـى مجـده ·

ومن المعروف عن ديميشال انه طالما اعلن انه سيجعـل الاميـر العربـى الشاب صاحب سلطة قوية من حدود المغرب الاقصـى الى حـدود تونس · ولا شك ان هذا الراى كان مصحوبا بتحفظ وهو ان لا يصل هـذا القائـد المقدام الى تلك السلطة الا كتابع لفرنسا (1) · وكان عبد القادر يفهـم حـق الفهم التيار المفيد لنفسه من ذلك الاعجاب الكبير ، لذلك عمل على ان يظـل

---

1) قيل ان ديميشال كان يؤمن بفكرة نصب الحماية الفرنسية على الجزائر بدل الاستعمار الكامل.

ذلك الخيال يراود ديميشال لانه يزيد من شان خططه الخاصة. غير انه كان سريا يعمل على الاحتفاظ بمكانة مستقلة حقيقية ، وعلى حصر حلفائه (الفرنسيين) في مساكنهم على الساحل .

وبينما كان ابن اسماعيل موضوعا عند حده كما اشرنا ، نزل عبد القادر بكل قواته على سيدى العريبى واحاط به وهزمه شر هزيمة واخذه سجينا. وفي نفس الوقت عاقب القبائل المتمردة عقابا شديدا وجمع منها كل الضرائب المتخلفة .

وبعد ان نال هذا الانتصار الباهر التفت الآن الى ابن اسماعيل . وقد تقابلا على سهول محرز في 13 جويلية ، 1834 . ودامت المعركة بين الخصمين عدة ساعات كان النجاح خلالها دوريا . واخيرا اصيب الجانبان بالاعياء والتعب ، بالاضافة الى شدة الحرب . فتوقفا عن القتال للراحة .

وقد اغتنم عبد القادر الفرصة وأرسل بعض المرابطين الى صفوف العدو لكي يتقدموا ببعض الاقتراحات ، ولما كان ابن اسماعيل يخشى هجوم الفرنسيين الذين تقدموا حتى وصلوا معسكر مسرعين حيث كانوا يراقبون، فانه كان على استعداد للترحيب بكل الاقتراحات التي قد تخرجه من وضعه المحرج. ورغم انه رفض الاجتماع الشخصي مع عبد القادر فانه ارسل مندوبا عنه علامة على الرغبة في الصلح .

ثم توجه عبد القادر الى تلمسان . ان ظهوره امام المدينة مع كل الصيت بالانتصار ، قد قضى على كل المؤامرات التي كانت هذه المدينة مركزا لها . فمساعده الخائن سيدى حمادى قد اعتقل ووضع في السجن ، ولكن عفى عنه فيما بعد ، رغم انه لم يسمح له بالاحتفاظ بمركزه . اما مركزه فقد اعطى الى نونة الذى كان قد فر بعد هزيمته الاخيرة الى المغرب الاقصى ثم عاد حاملا معه رسائل توصية من السلطان المغربي .

وقد دخل عبد القادر مدينة معسكر منتصرا . واثناء غيابه عنها جرت حادثتان ساعدتاه ماديا . فالغمارى ، رئيس بنى انجاد ، حوكم امام محكمة وأعدم .

اما سيدى العريبى فقد مات في السجن . وهكذا وجد نفسه حرا من هذين الخصمين واصبح غير مقيد بالخلافات الداخلية ، فصرف جهوده مرة اخرى لتنظيم ادارته العامة .

فاقليم وهران قد قسم الى منطقتين كبيرتين وضعتا تحت خليفتين : منطقة الشرق ، مقسمة بدورها الى سبع نواح كل ناحية تحت آغا ، وكان خليفته عليها ابن صهره ، مصطفى بن التهامي (2) ، وكانت معسكر هي مقر الحكومه في هذه المنطقة • ومنطقة الغرب التي كانت تلمسان عاصمة لها والتي كان خليفته عليها البوحميدي (3) • وقد اصدر اوامره بان كل قبيلة كانت مسؤولة عن السلام والنظام في دائرتها • وطلب تقارير اسبوعية عن عدد الماشية • والحيوانات حاملة الاثقال • والخيول الصالحة للخدمة في كل ناحية (أو أغاليك) • وقد عين السلطان عبد القادر لكل قبيلة قاضيا يتقاضى اجره من الخزينة العامة لادارة العدل •

ومن جهة اخرى نظم جيشا نظاميا مكونا من الفرسان والمشاة • وكان الاخيرون يتدربون ويتعلمون على ايدي ضباط فرنسيين مسرحين سمح لهم بالقيام بهذه المهمة للغرض المذكور • وقد اقام عبد القادر مصاهر للمدافع، ومطاحن للبارود ، ومصانع للاسلحة الخفيفة ، وكان الخبراء الاوروبيون هم الذين يديرون هذه المنشآت • اما العرب فكانوا يتعجبون من هذه الاعمال الغريبة الجديدة • وقد شعروا ان نظاما جديدا لحياتهم قد سقط عليهم فجأة•

وبالاضافة الى تلك الاعمال ، كانت هناك اليقظة المستمرة لاكتشاف الجرائم وتأكيد وتشديد العقاب • كل ذلك كان له اثره على المجتمع فكل الاقليم الذي كان منذ ثمانية شهور خلت ضحية لكل انواع الفوضى والاضطراب، اصبح الآن يتمتع بهدوء كامل • وقد كان الشعور بالامن سائدا شاملا الى درجة ان استعمال التعبير العربي بخصوص الحكومة الحقيقية الفاضلة يصلح في هذا المقام ومعناه « يمكن لفتاة ان تتنقل في طول البلاد وعرضها حاملة سله من الجواهر على رأسها دون خوف من الازعاج »

ان شهرة عبد القادر قد طبقت الآن كل آفاق الجزائر • لقد كان الشعور السائد هو أن رجلا قد ظهر وانه لم يكن فقط قادرا على حفظ النظام من الداخل ، بل انه ، بمهارته وشجاعته قد نجح في فرض شروطه على الكفار

---

2) كان ابن عمة الامير وقد ولاه عدة مناصب منها خليفته على معسكر وقائد دائرته بعد هزيمة الزمالة • وكان في نفس الوقت من كتاب العصر •

3) محمد البوحميدي الولهاصي ، من قبيلة ولهاصة ، وقد ظل وفيا للامير ، وكان حكمه صارما ، وقد مات اثناء سفارة قام بها الى المغرب ، كما سياتي •

من الخارج • ولذلك فعيون كل المتطلعين الى الصلاح اتجهت طبيعيا نحو ذلك الذى حقق كل هذه النتائج الباهرة •

ان سكان المدية ومليانة • وهما اهم مدن اقليم التيطرى . قد ارسلوا وفدا الى عبد القادر راجين منه ان يعمل في اقليمهم ما فعله في اقليم وهران• ولو كان حرا في التصرف في رغبته الخاصة لكفاه اقل من ثمان واربعين ساعة ليكون في مسيرته نحو اقليم التيطرى تلبية لذلك الطلب • ذلك ان الدعوة لم تكن فقط اطراء لشهامته، اذ تدل على ان تاثيره قد امتد الى اجزاء بعيدة جدا عنه ، بل انها قد فتحت (وهذا ما كان في نظره اقوى اغراء) طريقا جديدا لتحقيق هدفه الكبير ، وهو اقامة جنسية عربية واسعة الارجاء •

ان معاهدة ديميشال لم تنص على منع عبد القادر من دخول اقليم التيطرى لان تلك المعاهدة لم تقصره داخل اية حدود معينة • ومع ذلك فانه لم يكن مستعدا لتنفيذ هذا المشروع دون التأكد اولا من ردود فعل السلطات الفرنسية على هذه الخطوة، وبينما عزى نفسه في الوقت الحاضر باجابة تلك الدعوة ، على انه يحتاج الى وقت لتلبية طلبهم ، ذهب يسبر غور افكار الكونت ديرلون D'Erlon الحاكم العام الجديد عن الموضوع الخطير (4) • ان قدوم تلك الشخصية قد اعطاه فرصة لفتح الحديث عن المشكل الدقيق دون ان يظهر انه يجعله موضوعا خاصا للمفاوضات •

فتحت ستار رسالة تهنئة بالتعيين الى القائد العام ، وضع عبد القادر العرض التالى بكل وضوح : « ان القائد ميلود بن عراش سيفصل لكم الحديث عنا • لقد اعطيته التعليمات ليؤكد لكم افضل الطرق لاقامة الهدوء في كل النواحي ، سواء على الساحل او في الداخل ، على طول السواحل بين مدينة الجزائر ووهران ، وفي السهول والجبال من تلمسان الى معسكر ، **وحتى الى المدية ومليانة** » (اصلى) •

والواقع ان الكونت ديرلون قد جاء ليتولى مهمة شاقة ومسؤولية دون تعليمات واضحة ودون قوات اضافية • فالحكومة الفرنسية التى كانت ما تزال غير متاكدة من علاقاتها الاوروبية ، لم يكن لها لا النقود ولا الجنود لمتابعة

---

4) بعد قرار الحكومة الفرنسية سنة (1834) بالاحتفاظ بالجزائر والحاقها بفرنسا اداريا صار ديرلون اول حاكم عام على الجزائر ، اما من سبقوه فقد كانوا يحكمون بعنوان « القائد العام للجيش الفرنسى فى الجزائر » •

الحرب الجزائرية بدرجة كبيرة . وقد كانت تتملكها فكرة غامضة ، وهي ان عبد القادر هو السلم الذى يصعد عليه الفرنسيون اعالى الاطلس. لذلك كان الاحتفاظ بعلاقة طيبة مع هذا القائد الواسع النفوذ ، خلال تلك الفترة ، يشكل حجر الزاوية فى السياسة الفرنسية .

وبناء على ذلك ، جاء جواب الكونت ديرلون على عبد القادر غامضا عاما ، وكان كله قد لف فى عبارات غير واضحة الى درجة ان عبد القادر اعتقد ان الفرنسيين لن يتخذوا اية اجراءات لمعارضته فى مشروعه لو انه فقط قرر تنفيذه . ولكنه راى من الضرورة ان يحصل من الحاكم العام الجديد على الموافقة على حقوقه الحالية قبل ان يطلب حقوقا جديدة . ولهذا الغرض ارسل الى الحاكم العام لاقناعه ، نص الوثيقة التى تحمل شروطه الخاصة والتى كان ديميشال قد وقعها وختمها فى الحال .

ولكن ديرلون قد صعق من هذه الوثيقة التى كان لا يعلم حتى بوجودها ، لانها لم تكن قد ارسلت الى الحكومة الفرنسية . فهذا جنرال فرنسى قد اخذ على عاتقه توقيع معاهدة سرية تعطى حقوقا ثابتة وخاصة الى عدو ما تزال عداوته مسلحة وصداقته محل شك . وقد كان تقرير ديرلون الى الحكومة الفرنسية عن هذا التصرف غير العادى قوى المفعول الى درجة ان استدعاء ديميشال من وهران قد تم بسرعة فائقة .

وفى نفس الوقت ارسل الكونت ديرلون الى عبد القادر رأيه حول هذا الموضوع : « اننى ارجو ان تلاحظ ان الجنرال ديميشال ليس له قوة او سلطة شرعية خارج اقليم وهران ، ولا يستطيع ابدا ان يبت فى شأن اى جزء من الولاية (الجزائر) وحتى لو اعطينا اكثر التفسيرات تسامحا للمعاهدة التى بينك وبينه خلال شهر فيفرى 1834 ، فانه لا حق لك فيما هو ابعد من اقليم وهران ، المحدود بسلطة سيادة فرنسا .

« ان رأيى الخاص هو ان لا تجتاز الشلف الاسفل ، فى اتجاه الشرق . فاذا حكمت الاقليم الذى هو الآن تحت يديك طبقا للقوانين الاسلامية ، وبعدل صارم ، فسنكون اصدقاء : ولكننا لن نسمح لك بدخول اقليم التيطرى . فما يجرى فى هذا الاقليم هو من شأنى . وانى لست فى حالة حرب مع سكانه . وليس لى حاضرا مشاريع لاقامة منشآت فى البليدة او بوفاريك، ولكن اذا رايت ذلك فى المستقبل من اجل مصلحة فرنسا فانى لن اترك احدا يقف فى طريقى » .

امام هذا المنع القاطع ،وقف عبد القادر فى الوقت الحاضر • وبالاضافة الى ذلك فان القلاقل التى تشبت بين قبائل فليته فى وادى الشلف ، التى اثارها ضده ابناء سيدى العريبى ، قد فرضت حضوره العاجل فى ذلك الاتجاه •

وبينما كان يحاول تهدئة تلك القلاقل اندهش للاخبار التى تقول ان المسمى الحاج موسى (5) ، وهو من اشراف الصحراء ، قد دخل المدية ، وكان قد استقبله عدد كبير من الناس استقبالا حارا • وبعد ان انتظر مدة ليرى ما الخطوات التى سيتخذها الحاكم العام الفرنسى ، وبعد ان وجد الكونت ديرلون لم يبد اية معارضة لادعاءات هذا المغامر ، عزم عبد القادر على ان ياخذ حريته فى تطبيق مشاريعه• فاذا كان احد اشراف الصحراء يمكن ان يختطف اقليما ، فلماذا عبد القادر ؟ ان الحظ حليف الجسور وان الدنيا لمن يأخذها بالقوة • وقد اجتاز عبد القادر وادى الشلف وسار نحو المدية ، متبوعا بكل فرق فرسان وهران ، وبفرقتين من جيش المشاة النظاميين ، وباربع قطع من المدفعية • ان قيصر قد اجتاز الروبيكون Rubicon (6) •

خرج الحاج موسى للقائه متنبئا ان الله سينصره عليه وان مدافع عبد القادر لن تنطلق • وقد اجاب عبد القادر بانه اذا كان حقا ان مدافعه لن تنطلق فانه على استعداد ان يعترف بالتدخل الالهى فى الموضوع وينسحب• وربح عبد القادر المعركة وانهزم المتنبى والمدعى (الحاج موسى) هزيمة كاملة واستولى عبد القادر على اقليم التيطرى ، وسط التهاليل العامة ، وعين خليفتين عنه فى المدية ومليانة (7) •

وقد اقترح الجنرال تريزل Trezel الذى خلف الجنرال ديميشال فى وهران ، الاستيلاء على مدينة معسكر كرد على هذه الحركة التى قام بها عبد القادر • ومال ديرلون الى هذا الاقتراح • ولكن الحاكم العام لم يكن مرخصا له ولا مستعدا لاستئناف الحرب • فوافق على المفاوضة مع عبد القادر

---

5) يعرف ايضا بابى حمار ، وهو الحاج موسى بن حسن ، جاء مدينة المدية لنشر الطريقة الشاذلية ، ثم وجد الفرصة مواتية لتولى القيادة السياسية فتولاها الى ان اصطدم بالامير •

6) نهر صغير فى شمال ايطاليا اجتازه قيصر سنة 49 ق م فى اتجاه روما وبذلك بدات الحرب الاهلية بينه وبين خصمه بومبى • Pompey

7) عين على المدية محمد البركانى الذى كان من اعيان المدينة وقد ظل وفيا له ثم التجا الى المغرب اما مليانة فقد كان عليها ابن علال •

فى نفس المدينة (المدية) التى استولى عليها فى مخالفة صريحة لرده عليه بالمنع • وقد ارسل اليه الضابط سانت هيبوليت St. Hippolyte حاملا مسودة المعاهدة التالية :

1 ـ الاعتراف بالسيادة الفرنسية •

2 ـ تحديد صريح لسلطة الامير التى لن يستعملها خارج اقليم وهران ، محدودا من الشرق بوادى الشلف من منبعه الى مصبه عند وادى ارهيو ومنه الى كوجيلة •

3 ـ من حق الفرنسيين والاوروبيين عامة ان يتنقلوا داخل اقليم وهران •

4 ـ حرية التجارة الكاملة فى الداخل •

5 ـ يتعهد الامير بعدم تصدير البضائع الا فى الموانىء التى يحلتها الفرنسيون •

6 ـ يدفع عبد القادر الجزية ، ويطلق سراح الرهائن • وتعتبر الجزية علامة اعتراف بالسيادة الفرنسية •

ان من حق عبد القادر ان يعتبر معاهدة قد الغت ، بجرة قلم ، كل الحقوق والامتيازات التى حصل عليها بسيفه البتار ، اهانة او تحديا • غير ان الواقع ان هذه المعاهدة كانت نتيجة دبلوماسيته الخاصة • لقد تعلم ان يقدر قيمة واهمية القوة فى صنع المعاهدات • وهو قد تعلم ايضا ان هذه القوة تعنى مكانة مستقلة ، سواء فى اقتراح او قبول المعاهدة • وبمقتضى ذلك كان جنرال فرنسى قد اعترف به واكد حقه فى السلطة ، والحياة كامير ، وأمير للمؤمنين أو سلطان •

ان المفاوضات اذا ما فتحت مع الحاكم العام الجديد قد تؤدى الى امتيازات مشابهة • فطبيعة الاقتراحات المقدمة اليه فى الحالة الاولى كانت بالنسبة اليه قضية على درجة عالية من اللامبالاة • ان ما اراده ، وما الح بجد على ممثليه فى مدينة الجزائر ان يحصلوا عليه من ديرلون ، هو معاهدة • وقد ترك للصدف ان تهىء الظروف لمفاوضات جديدة كما يريدها هو •

ان استخدامه للجواسيس ذوى الاجور العالية قد جعله معروفا لدى اكثر مجالس السلطات الفرنسية سرية • فقد ارسل عملاء قادرين مهرة لدى رؤساء الدوائر فى الادارة الفرنسية، فى مختلف فروعها ، كوسيلة للتعريف

بآرائه والاقناع بمصالحه · كان اولئك العملاء قد اعطوا تعليمات بان يكسبوا ثقة اهم الشخصيات ، وان يكونوا دائما مع هذه الشخصيات باختلاق كل الاسباب لذلك ، وان يمدحوا باستمرار فضائل سيدهم ، وان يتوسعوا فى قدراته الادارية ، وان يثنوا على تأثيره الخارق فى البلاد ، واخيرا ان يلمحوا الى الفوائد العظيمة التى تنجر لفرنسا من ان يكون لها هذا الرائد فى طريق الاحتلال ·

وكان هناك يهودى، يدعى دوران Durand قد قام بكل تلك التعليمات ، فى مدينة الجزائر ، بمهارة فائقة · وقد احتال بسهولة لجعل ديرلون يستمع اليه · فكان هذا يستشيره فى كل شؤون الساعة المتعلقة بالادارة الداخلية للولاية ·

وأدى ذلك تدريجيا الى تأثر ديرلون فأصبح رأيه يميل الى عبد القادر · ونجح دوران فى مهمته حتى اقنع ديرلون بما كان عندئذ تيارا شائعا ساذجا عن تصرف عبد القادر ، وهو انه اوقع أكثر من واحد من خلفاء الحاكم العام · وفى نفس الوقت كان دوران هو الذى استخلص من ديرلون المعاهدة السابقة، وكان قد كلف باصطحاب حاملها الى المدية ·

وهناك ، بالرغم من ان المعاهدة لم تلق الا قليلا من الترحيب والانتباه ، فان حامل هذه المعاهدة قد استقبل بكل علامات الصداقة والكرم · فقد اقيم من اجله استعراض كبير ، وهكذا أتيح للمبعوث الفرنسى ان يتفرس باعجاب غامض فى نواة الجيش العربى · كما استدعى ان يصطحب السلطان فى رحلة تفقدية كانت على وشك البدء فى كل من اقليم التيطرى ووهران · وقد قبل المبعوث الفرنسى الدعوة · وهكذا ظهر للعيان الضابط سانت هيبوليت واليهودى دوران فى الموكب الرسمى ·

وكان عبد القادر يستفيد من وقته الى اقصى حد · فكان عن قصد يذهب الى تلك المناطق التى أظهرت أخيرا عدم الاخلاص او التى كانت مترددة فى ولائها له ، وكان فى داخله معجباً بالانطباع الذى تركته البزة الفرنسية على القبائل التى كانت تتساءل : ما هى يا ترى قوة هذا القائد الذى جعل من الكفار اتباعا له والذى يستطيع ، بلا شك ، فى أية لحظة ، ان يستدعى جيوشهم لتسير تأييدا لعرشه ؟ فاية مقاومة لهذا العاهل ستكون مجرد جنون· وليس أمامهم اذن سوى الاستسلام غير المشروط ·

وعند الوصول الى مدينة معسكر كانت علامات اخرى من الأدب والترحيب في انتظار الضيوف المحترمين • وفي اليوم الثالث من وصول الموكب كتب عبد القادر معاهدته الخاصة بيده • فكانت هكذا :

1 ـ الاقليمان الواقعان الآن تحت سلطة أمير المؤمنين واللذان هما خاضعان له يظلان تحت سلطته • وفي نفس الوقت فان البلاد التي هي الآن تحت الحاكم العام تظل تحت سلطة الفرنسيين •

2 ـ كلما رأى الامير أن يعين او يعزل خليفتيه في المدية ومليانة فانه يطلع الحاكم العام للعلم على ذلك • كما انه يجعل من هذين الخليفتين واسطة في اية مراسلة او اتصال يريده معه •

3 ـ التجارة ستكون حرة للجميع • فالعرب سيكونون محل احترام في الاسواق من الفرنسيين ، كما ان هؤلاء سيكونون محل احترام من العرب ، في كل الاقاليم الواقعة تحت سلطة الامير •

4 ـ ان أمير المؤمنين سيشترى من مدينة الجزائر ، بواسطة عملائه ، كل ما يحتاجه في شكل مدافع هاون ، وبنادق ، وبارود ، وكبريت •

5 ـ سيسلم الامير الى الفرنسيين كل الفارين من الخدمة ، ويتخذ الحاكم العام نفس الاجراء نحو الامير •

6 ـ اذا رأى الامير أن يقوم برحلة نحو قسنطينة ، او غيرها ، فانه سيطلع الحاكم العام بعزمه على ذلك وهدفه منه •

ان المعاهدة التي تتعارض في سخرية مع تلك التي أرسلها اليه الحاكم العام الفرنسي ، والتي ، بالاضافة الى كونها لم تجعل حدا لسلطته ، اقترحت ان يسمح له ان يقفز ، في قفزة واحدة من ابواب وهران الى ابواب قسنطينة، والتي تجعل من الفرنسيين هم الموافقون الملاطفون على تضييق الخناق على انفسهم ، هي بالتأكيد معاهدة لم يكن أمير المؤمنين يتوقع أبدا ان الفرنسيين سيقبلونها •

ولكنه لما كان يفهم جيدا الاهمية المبالغ فيها بخصوص صداقته وتأييد الحكومة الفرنسية له ، ولما كان معتمدا على مهارة اولئك العملاء السريين الذين استعملهم بنجاح حتى الآن، فان عبد القادر لم يكن بلا امل • فهو بطلبه الحق ـ بطريقة جهيدة، وبعزم قوى على تحقيق خططه، يذكر بقوته المتحفظة ـ يمكنه

على اية حال ان ينال معاهدة تزيد في الامتيازات التى لديه حاليا ، وتقوى مكانته ، وتوسع ميدان عمله ، زيادة على انها تقشع السحب التى ماتزال تغطى مناظر المجد الرائعة الممتدة أمامه ·

حتى الآن نجح عبد القادر تقريبا في كل ما فعل · فايمانه برسالته ، الذى كان دائما قويا لا يتزعزع ، كان يطغى الآن على روحه في قوة اقتناع دينى · وقد اصبح هذا الايمان بالنسبة اليه وسيلة للسلطة ، باعطاء كل من حوله الشعور بالثقة والعقيدة · وكان نجاحه في الماضى مقبولا على انه علامة الانتصارات في المستقبل · وخلال هذا الوقت نصحه ضابط فرنسي ، بدافع عاطفة مخلصة نحوه وتقدير له ، ان لا يبالغ في الثقة بنفسه · فما كان من عبد القادر الا أن أجابه : « ماذا تقول ! قبل ثلاث سنوات فقط كنت ابنا بسيطا من ابناء والدى الخمسة · وقد اضطررت الى تولى المسؤولية والى تجهيز نفسى من غنائم العدو · وأنت ترى ما أنا عليه الآن · ومع ذلك تنصحنى بعدم الثقة بنفسى ! » ·

الفصل السادس

(1835)

زار الكونت ديرلون مدينة وهران في شهر جوان ، 1835 • وقد اغتنم عبد القادر هذه الفرصة وكتب اليه يهنئه بالوصول وينتظر منه عروض المفاوضات بفارغ صبر • وكان الحاكم العام راغبا في استدعائه لاجتماع شخصي وتبادل الراي معه• غير ان «تريزل» وقف بصرامة ونجاح ضد هذه الخطوة التي اعتبرها غير سياسية • وكان رأيه ان عبد القادر ، الذي هو ابعد ما يكون عن الرغبة في رؤيته ، فما بالك بالمساعدة على اتساع رقعة السلطة الفرنسية في الجزائر ، كان في الحقيقة وبكل وضوح جاعلا من الحكومة الفرنسية آلة لمجده الخاص ، وان الدخول في علاقات مضيقة معه سيكون عبارة عن الموافقة على تصرفاته الاخيرة •

هذا هو في الواقع الغيظ الذي شعر به ذلك الجندي « تريزل » غير المساوم ازاء السهولة التي كان عبد القادر يحقق بها اهدافه على حساب الشرف الفرنسي ، كما يرى « تريزل » • لذلك كان في كثير من الاحيان يميل الى الهجوم عليه على مسؤوليته الخاصة غير مبال بما قد يجره ذلك من فضائح على الحصافة والوعي الفرنسي العام • ولكن ديرلون كان على عكس ذلك ، مقتنعا في هذا الوقت بأهمية وضرورة تأييد عبد القادر ، فكان لا يريد ان يسمح بأية اجراءات قد تؤدي الى قطع العلاقات معه • وعند ما رجع الى مدينة الجزائر أمر تريزل ان ينشد بعناية صداقة وحلف عبد القادر •

وخلال وقت قصير تطورت الامور في اقليم وهران الى درجة لم يعد فيها امام تريزل سوى اختيار احد حلين : اما الخضوع لاوامر عبد القادر وانتظار ارادته في كل شيء يتعلق بداخل البلاد ، واما وضع نفسه في مكانة يستطيع بها ان يفعل ما يشاء باستقلال •

لقد استانفت قبائل الدوائر والزمالة المبادلات الودية مع الفرنسيين. فهدد عبد القادر ان يعيدهم بالقوة الى تلمسان . ولكن تلك القبائل فضلت طلب الحماية الفرنسية في الحال على التخلي عن منتوجاتها والتجريد عن تجارة مربحة . وقد لبى تريزل طلبهم . وعندما سمع ان جنود عبد القادر يزعجون تلك القبائل في اجراءات عنيفة (للاستيلاء على ماشيتهم وأسر بعض شيوخهم) أرسل فرقة عسكرية الى مخيماتهم قرب مسرغين . وفي 16 جوان ، 1835 ، وقع الطرفان معاهدة تحتوي على احدى عشرة مادة، وتعلن ان الدوائر والزمالة أصبحوا رعايا فرنسيين .

ولكن عبد القادر كان مايزال يريد عدم استئناف الحرب بل كان معنيا باتقاء أي سبب قد يقود الى الحرب ، فأصدر أمره الصارم بأن لا يطلق أي عربي النار على فرنسي ، مهما كانت الظروف ، عدا في حالة الدفاع عن النفس . واكتفى بالكتابة الى تريزل محتجا بصرامة على هذا الاجراء الذي يراه هو خرقا صارخا لمعاهدة ديميشال التي بمقتضاها التزم الفرنسيون بعدم اعطاء حق اللجوء الى القبائل ، كما التزموا باعادة العرب الفارين اليه .

وقد اجابه تريزل بانه على استعداد لاحترام المعاهدة ، ولكنه قال بان كلمة (هارب) لا تطبق الا على الافراد ، ولا يمكن ان تعني كل القبائل التي فضلت الحكم الفرنسي على حكمه . وعلى أساس هذا التفسير للمعاهدة قال تريزل بانه لا يستطيع أبدا تجريد قبائل الدوائر والزمالة من الحقوق التي حصلوا عليها .

وكان رد تريزل قد أدى بعبد القادر الى ان يكتب اليه الرسالة التالية :
« انك تعلم الشروط التي التزم بها ديميشال معي قبل أن تأتي الى وهران والتي وعدت أنت نفسك باحترامها . وبمقتضى تلك الشروط ، فان كل عربي يرتكب جنحة او جريمة ، ثم يفر اليك للجوء او الحماية ، يجب اعادته الى ، حتى ولو كانت القضية تتعلق باكثر من فرد واحد . وما أقوى حجتي في هذه النقطة عندما تصبح القضية قضية قبائل بأسرها فارة مني وملتجئة اليك .

« ان الدوائر والزمالة هم رعيتي . وبناء على قانوننا فان لي الحق في ان افعل بهم ما أشاء . فاذا سحبت منهم حمايتك تركتهم يطيعونني ، كما كانوا ، فذلك ما اريد . واذا كان موقفك عكس ذلك ، فاصررت على التنكر لالتزاماتك فاستدع في الحال قنصلك من مدينة معسكر ، لانني لن أرفع يدي عن قبائل

الدوائر والزمالة ، حتى ولو دخلوا وراء حصون وهران ، الا بعد ان يندموا ويتوبوا . وبالاضافة الى ذلك فان ديني يمنعني من السماح لمسلم ان يكون تحت سلطة مسيحى . فاختر ما يحلو لك او ان اله الحرب سيحكم بيننا » .

وليس في وسع تريزل ان يرد على هذه اللهجة الا بطلقات المدافع . والواقع ان النزاع قد بدأ قبل الآن بدرجة ما . فمنذ أيام قليلة أغار الفرسان الفرنسيون ، الذين كان ينقصهم الشعير ، على مزارع بنى هاشم الغرابة . وعندما سمع عبد القادر بهذا الاعتداء على قبيلة عائلته الخاصة ، ارسل 2 000 فارس و 800 راجل بالقرب منهم ، عند نهر سيق . وقد قرر تريزل ان يهاجم هذه القوة قبل ان تتطور الى اكبر مما هى . لذلك قاد ، فى 26 جوان ، 1835، طابورا من الجند مكونا من 5 000 ماش ، وفرقة من قناصة افريقيا واربع قطع مدفعية ، وعشرين عربة مؤونة ، بالاضافة الى مستشفى ميدان عادى .

وبعد فترة قصيرة من دخول غابة مولاى اسماعيل ، فتحت الفرق الطلائعية النار على ما ظنته كتيبة عربية ضالة . ولكن النار أعيدت بعنف . وسرعان ما ظهر الفرسان . لقد كانوا طلائع عبد القادر قادمين من جهة نهر سيق . وخلال بعض الدقائق هوجم الفرنسيون مهاجمة عنيفة من الامام ومن الجوانب.

ان مفاجأة البداية ، وكثافة الغابة ، والطبيعة المتموجة للميدان التى كانت تغطي العدد الحقيقى للعدو ، بالاضافة الى الصراخ والصياح الذى حاول العرب ان يضخموا به عددهم ، كل ذلك ساهم فى زعزعة ثبات صف الجنود الفرنسيين .

وكانت المحاولات لادخال بعض التغييرات على هذا الصف بدون جدوى : فقد أمرت الفرق الخلفية أن تتقارب وان تكون سدا ، وأمر الوسط بالتلاحم ، وأمر الفرسان بالابتعاد . وفى وقت قصير دبت الفوضى فى كامل الجيش الفرنسى ، فدخل الفرسان فى الميدان ولم يكن المشاة والمدفعية قادرين سوى على اطلاق النار بدون هدف .

وبعد وهلة بدأ الهجوم العربى يضعف . فقد كان الفرنسيون يمرقون من صفوفهم . ان عربات المؤونة احتجزت وافرغت كما حطمت براميل الخمر . وكان الجميع يأكلون ويشربون بشراهة . وبعد لأى أعيد بعض النظام ، بفضل الجهد الجهيد للضباط ، وبدأت الحركة الى الامام ، وقد وصل الجيش الفرنسى نهر سيق عند الغروب ، وهناك نصبوا معسكرهم فى مربع ثابت ولحسن حظ الفرنسيين كان جيش عبد القادر الرئيسى ،

الذى كان يتقدم بسرعة قوية من تلمسان ، قد اضطر للتوقف فترة قصيرة حوالى فرسخين من ذلك النهر . لذلك استراح الفرنسيون خلال تلك الليلة . وعند الفجر بدأ تريزل فى الانسحاب ، ولكن عبد القادر لم يكن بدون حركة . وبتقدم سريع في الليل نجح عبد القادر في وضع نفسه على خطوط مواصلات العدو مع وهران . غير ان تريزل لم يكن فى حالة يقدر معها على الحرب ، لذلك اخذ اتجاه البحر الى مدينة ارزيو . ولما كان يعلم الصعوبات التى تواجه الحركة المباشرة فى ذلك الاتجاه (هناك اجزاء من الارض كانت غير صالحة لمرور العربات او حاملات المدافع) ، فانه قرر ان يتحول الى جبال حميان وان يظهر على سهل ارزيو عن طريق مضيق نهر الهبرة حيث يغير نهر الهبرة اسمه الى المقطع .

وحين رأى عبد القادر اتجاه الفرنسيين أحس فى الحال بهدفهم . فاذا استطاع ان يستولى على مضيق نهر الهبرة قبل ان يصلوا اليه فانه يعلم انهم سيكونون تحت رحمته . ولكن المسافة كانت بعيدة جدا على المشاة لتحقيق ذلك الهدف فى الوقت المحدد . فاختار عبد القادر الف فارس وأمر كل راكب ان يردف معه جنديا ، وان يسرعوا الى المكان المعين . ان ذلك الالهام قد توج بنجاح كامل . فالفرنسيون بعد ان عانوا مشقة استطاعوا بصبر جميل ان يعبروا سهل سيراط وبعد مطاردة الفرسان العرب لهم طول الطريق ، دخلوا مضيق الهبرة حوالى نصف النهار .

وقد اندهشوا عندما وجدوا منحدرى المضيق مدججين بالسلاح . وحين تقدموا رميت عليهم قطع كبيرة من الصخور ، وبينما كان المناوشون الفرنسيون منشغلين ، خلال ساعتين ، بفتح الطريق بشجاعة ولكن ببطء ، كان عبد القادر وجيشه كله قد سد عليهم الطريق من الخلف . وقد خشيت مؤخرة الفرنسيين ان تقطع بقية الجيش فاندفعت الى الامام فى فوضى

كان جزء من مستشفى الميدان والمدفعية قد تحول الى اليمين وغرق فى مستنقع . اما رجال المدفعية فقد فصلوا المدافع عن حاملاتها وهربوا . واختلطت الفرق مع بعضها . واسرعت الكتائب او اجزاء منها هنا وهناك باحثة عن مخبا او مفر . ومن حسن حظهم ان العرب كانوا منهمكين فى جمع الغنائم وتجريد وقتل الجرحى فلم يتبعوهم الى المخابىء والزوايا التى لجأوا اليها . وهناك كثير حاولوا ان يسبحوا ولكن التيار حملهم وغرقوا . ثم حل الليل . وسارت البقية المضعضعة المشوهة نحو مدينة ارزيو فى جماعات غير مترابطة من الفارين البائسين الحائرين .

لم يكن العرب يعرفــون حدا لابتهاجهــم • فصـــراخ الفرح كان يتصادى ، والمشاعل المتوهجة كانت تلمع اماما وخلفا في المضيق خلال الليل كله • فلو كان هناك ناظر من الجو لرأى جزءا من المضيق مشغولا بمهندسين معماريين منهمكين في اعمالهم • ولو اقترب هذا الناظر لرأى من الارض شيئا يتضخم يشبه الهرم • ولو انحنى وانصت لسمع صياحا مجنونا يردد « مزيـــدا مـــن الرؤوس مزيدا من الرؤوس ! » ولو وقع التأمل القريب في هذا العمل الفني لكشف المتفرس المستغرب عن مئات من الرؤوس الفرنسية في كدس مشوش الترتيب (1) •

توجه عبد القادر الى عين المكان حوالى نصف الليل • وهناك شكم فرسه ووقف برهة صامتا في تفكير معذب • لقد ثارت نفســه ازاء ذلك النصـــب التذكاري الشاحب ، وكان مدة من الزمن واهن القوى، غير انه ، وهو يمضي، عزم في داخله على ان هذا يجب ان يكون الاخير لتلك الفظائع •

هذه هي قصة المقطع المريعة • لقد اهتزت فرنسا لاخبـــار النكبة • فقـــد طالبت الامة ، في صوت واحد ، بالتحقيق ، والمعاقبة ، والانتقام • وهكـــذا استدعى ديرلون ، وحل الجنرال دارلانج D'Arlange محـــل تريـــزل الشجاع ولكن سيء الحظ • وعين المارشال كلوزيل مرة اخرى ليفتتح عهدا جديدا فيما كان يسمى عندئذ المستعمرة الافريقية لفرنسا • ولكـــن ســـلاح كلوزيل الجديد قدر له ان يتحطم في يديه •

وفي جلسة سنة 1835 تكلم السيد تيير Thiers بقوة في البرلـــمان الفرنسي عن موضوع النظام الذي كان ، الى ذلك الوقت ، مطبقا في الجزائر • فقد قال « انه ليس استعمارا • انه ليس احتلالا على مـــدى واســـع ، وليس احتلالا على مدى ضيق • انه ليس سلاما ، وليس حربا • ولكنه حرب سيئـــة الادارة • » واخيرا تحركت الحكومة الفرنسية ، بعد هذا التقريع المثير الذي تبرره بمرارة حادثة المقطع المروعة ، فزادت من عدد الجيش فـــي الجزائـــر ، وامرت بادارة قوية للحرب مع عبد القادر ، واصدرت قرارا باحتلال مدينة معسكر • وكان الاعتقاد السائد هو ان الاستيـــلاء عـــلى عاصمتـــه سيجبـــر السلطان الطموح على التسليم •

وصل الماريشال كلوزيل الى مدينة الجزائر في 10 اوت 1835 • وقد اصـــدر بيانا فخفاخا اعلن فيه باعتزاز الاستسلام السريع لكامل الولاية • وفي نفس

1) تعرف هذه المعركة بوقعة المقطع •

الوقت نشرت خريطة تظهر المستعمرة (الجزائر) مقسمة الى مناطق(بايليكات)، مع اسماء بايات محليين معينين لحكمها • وكان يعتقد ان عبد القادر قد اصبح شيئا من الماضي، وانه ، اذا وجد ، يمكن التخلص منه بسهولة •

ولكن هذه الاجراءات الفخفاخة لم تتجاوز ابدا حدود الخيال • فاعمال الماريشال العسكرية كان مقدرا لها ان تتناقض بخرق مع احلامه العسكرية• والحملات التي ارسلها الى المدية ومليانة وشرشال كلها رجعت بقصص حزينة من الاهانات والهزائم • وقد اعلن في تباه ان « الحاجوت سيقضي عليهم في ظرف شهرين • » ولكن بينما كان الماريشال يتفلسف كان عبد القادر يعمل•

لقد نزل خليفة عبد القادر في مليانة ، بامر منه ، الى متيجة مع 5،000 فارس وراجل ، وانضم اليه نفس الحاجوت الذين تحدث عنهم كلوزيل ، ونظف سهول مدينة الجزائر من كل المستوطنين الفرنسيين ، ونصب الحصار على مدينة الجزائر نفسها • ومن جهة اخرى اصبح دارلانج ومعسكره في وهران محصورين في البوغاز • لقد كانوا في الواقع اسرى حرب • لقد أوشك عبد القادر على تحقيق انذاره من اى طائر لن يطير فوق المدن التي يحتلها الكفار من غير اذنه •

كان الفرنسيون يتحرقون في قيودهم • فالجيش كان ينفث الغضب والسخط ويوشك على التمرد • وطالبوا كلهم من الجنرال الى الطبال ، بان يقادوا ضد العربي الشجاع الناجح الذى تحداهم ، واحاطهم باحبولة عبقريته المبدعة التي لا تعرف الخوف • وفي 21 نوفمبر ، 1835 ذهب كلوزيل الى وهران واعد نفسه لدخول ميدان المعركة بـ 12،000 رجل •

كان عبد القادر على اهبة الاستعداد • وكانت قواته الجاهزة لمقابلة هذه العاصفة تتكون من 8،000 فارس ، 2،000 راجل ، واربعة مدافع • بهذه القوى راى ان يوقف ، ويقلق ، بل عساه يغرق الجيش الفرنسي في خط مسيرته • اما الدفاع عن مدينة معسكر فانه لم يدخل في حسابه ؛ لان قواته لم تكن قوات حصار •

غادر كلوزيل وهران في 27 نوفمبر • واجتاز غابة مولاى اسماعيل وخاض نهر سيق بدون معارضة ولكن عندما اقترب الجيش الفرنسي من الهبرة لاح له العرب يتحركون في اتجاه متواز على طول المرتفعات المجاورة • كان عبد القادر يراقب وينتظر اللحظة التي يقع فيها خلل في الصفوف الفرنسية

ليعطيه نقطة ضعف صالحة للهجوم · غير ان كلوزيل احس بذلك فتوقف وسد الثغرات في صفوفه ، وبعد ان تحصن تقدم ضد العرب في وحدات مغيرة ·

ولكن عبد القادر رفض الدخول في معركة · فقد ترك خصمه يتمتع بالثمار الضحلة لتغيير الجبهة ، واندفع هو بسرعة لوضع نفسه في الطريق الرئيسي الذي يقود الى مدينة معسكر · ووضع يساره على مرتفع حيث نصب مدفعيته ، اما يمينه فقد كان محميا بغيلة · ان اختياره للمكان يمكن ان يعد في حد ذاته شرفا لقائد اروبي ·

ان القائد الماهر قد يختار النقطة الاستراتيجية بطريقة تقرر مصير المعركة · قد يتغلب بمهارته على عقبات يبدو انها لا تقهر ، بل قد يحولها في صالحه ، وقد يجعل المكان والزمان خادمين لخططه · غير انه لا يستطيع ان يعطي الجنود النظاميين الثبات الضروري للاحتفاظ بدورهم في نظام المعركة العادي · لقد قدر لعبد القادر ان يكتشف الآن ، في محاولته تطبيق النظريات الاروبية للعلوم العسكرية في الميدان المفتوح وفي مكان معين ، مع الامكانيات التي تحت قيادته ، ان القوات التي وفرها كانت في مستواها تحت ما تتطلبه عبقريته ·

فقد استولت طلائعه على اربعة اماكن للعبادة موقوفة على سيدي مبارك - ولكن الفرنسيين سرعان ما افتكوها منهم · وقد اطلق الفرسان العرب النار في جهات مختلفة ولكن القنابل والصواريخ اسكتتهم وفرقتهم · كان عبد القادر شخصيا يوجه نيران المدفعية · وكانت بعض الطلقات الموجهة بدقة قد احدثت الفوضى في احدى الكتائب الفرنسية · وفي الحال قاد بنفسه مشاته ضدها · وبالحماس الذي احدثه حضوره معهم اندفع العرب والقبائل في شجاعة فائقة ولكن بدون جدوى حاولوا ان يقفوا ضد شجاعة وثبات المشاة الفرنسيين · لقد كان صراعهم مستميتا ولكن بلا طائل ، ثم انسحبوا في فوضى ·

وبعد بضع ساعات من الكفاح المرير ، استولى الفرنسيون على الغابة الواقعة على يمين المواقع العربية ، بينما تقدمت مدفعيتهم الى الامام في الطريق الرئيسي · لقد تخلى العرب عن الميدان في جميع النقط · وبدون جدوى حاول عبد القادر ان يحافظ على بعض النظام اثناء الانسحاب · وخلال نفس الليلة انحلت فرق مشاته النظامية · اما فرسان القبائل فان البعض عاد الى

المنازل ، والبعض الآخر اسرع الى مدينة معسكر وبدأ فى اعمال النهب • واما عبد القادر نفسه فقد انسحب الى كاشرو (2)، التى كانت ملكا لاسرته وهى تبعد حوالى فرسخين عن معسكر •

ان جيش عبد القادر قد ذاب كما تذوب ضفيرة الثلج • وكان واضحا ان الفرنسيين سيحلون قريبا فى معسكر • وقد تسقط تلمسان فى ايديهم فى زمن قصير • ومن الممكن ، نتيجة لذلك ، ان تستسلم قبائل باجمعها طلبا للامان • بل ان بعض الرؤساء الذين كان عبد القادر يعتمد عليهم اكثر من غيرهم قد تخلوا عنه • وهكذا كانت حالته تبدو بائسة • لقد كان يحس بالغم والاهانة من اللطخة التى ألصقت بشهرته وسمعته ، نتيجة ضعف وجبن البعض وخيانة الآخرين • ومع ذلك فهو لم ينطق ابدا بقدح او مثلبة•

لقد حاول البعض الذين بقوا مع عبد القادر ان يقرأوا افكاره • غير انه حاول تثبيت المنزعجين ، وتشجيع المنهارين • اما أمه ، التى تقدمت منه بحنان الامومة وعطفها لتبث فى اذنه كلمات الصبر والعزاء ، فقد اجابها بهدوء وهو يضع يدها فى يده « ان النساء ، يا اماه هن الحقيقات بالشفقة ، وليس الرجال » •

اما كلوزيل فقد دخل مدينة معسكر فى 6 ديسمبر ، 1835 • ولم يبق من سكانها سوى جمع من اليهود البؤساء • لقد خرجوا من كهوفهم ليجثموا عند اقدام المنتصرين الفرنسيين • ان كل المنتصرين كانوا سواء فى نظر هؤلاء المشردين من ارض الميعاد • لقد اشمأز المسلمون من السماح لهم بمصاحبتهم عند رحيلهم من المدينة • وفى السابع من الشهر اشتعلت النيران فى اجزاء مختلفة من المدينة ولكنها سرعان ما اطفئت • كان الفرنسيون قد بدأوا يستريحون من تعبهم ويفكرون فى استيلاء دائم على المدينة عندما أمروا لدهشتهم واستيائهم ، بالاستعداد للرحيل • وهكذا جلوا عن مدينة معسكر فى الثامن من الشهر •

وفى اليوم التالى ظهر فارس امام ابوابها • لقد كان ذلك هو عبد القادر• وانتشرت اخبار حضوره بسرعة • فجاء بعض العرب عنده ، وكانوا يظهرون

---

2) يقول صاحب (تحفة الزائر) انه قصر كان فى بستان تمتلكه العائلة • وقد زرت بقاياه شخصيا خلال صيف سنة 1971 ورايت آثار الحصن الذى اقامه هناك والحمام الخاص به والنصب التذكارى الذى اقيم له بها أعلى الجبل، الخ • وقد قيل لى ان الفرنسيين هدموا فى الآونة الاخيرة الاثار التى اقامها والد الامير فى المنطقة •

بمظهر المرتبكين المرتابين • وكان أوارى (3) وهو آغا بنى هاشم ، بين هؤلاء وهو الذى كان قد نهب مظلة السلطان اثناء الحرب • فجاء بها الآن • فقال له عبد القادر فى ابتسامة ساخرة « احتفظ بها لنفسك ، فلعلك تصبح سلطانا فى يوم من الايام » •

وعندما تقدم النهار جاء بعض الرؤساء الذين كانوا قد فروا • فنظر اليهم عبد القادر باحتقار • واخيرا تشجع احدهم وسأله ما اذا كان عنده اوامر جديدة لهم • فتعجب قائلا « اوامرى ! نعم ، ان اوامرى هى ان تعفونى فى الحال من ذلك الحمل الذى وضعتموه على عاتقى ، والذى جعلتنى مصالح الدين فقط أقوى على حمله حتى هذه الساعة • دعوا القبائل تختار خلفا لى وتعلم الحاج الجيلالى بالنتيجة اما أنا فاننى ذاهب مع عائلتى الى المغرب الاقصى » •

وفى حركة واحدة جثموا ، رؤساء واتباع ، امامه وقبلوا يديه وقدميه وبرنسه ، راجينه الغفران والسماح عن الماضى ، واعدينه الاخلاص والثبات فى المستقبل •

« لقد كان هو اباهم ، وسلطانهم ، والرجل الذى اختاره الله ليقودهم للجهاد • ان حياتهم له • فاذا تخلى عنهم فليس لهم ما يفعلون سوى الاستسلام للكفار » •

وحين سمع عبد القادر هذه الكلمات الاخيرة التفت حالا • لقد ارتفع الدم الى وجنتيه • لقد ضربوا على الوتر الوحيد الذى خفق له قلبه ، وهو الشعور بالواجب • فاجاب « ليفعل الله ما يشاء • ولكن تذكروا • اننى اقسم ان لا ادخل مدينة معسكر باستثناء الجامع ، حتى تثأروا لهزيمتكم النكراء • اننى ارى الخونة بينكم • ها هو معمر واحد منهم • فاشنقوه • » وفى الحال اعتقل الجانى سيء الحظ واعدم ، طبقا للامر •

لقد انتصرت ارادة النضال من جديد وعادت الثقة • وفى نفس الليلة توجهت الرسل من الخيمة السلطانية الى كافة القبائل تدعوهم الى العمل مجددا • وفى الغد انبرى عبد القادر ، والسيف فى يده ، نشيطا مبتهجا كالعادة ، شامخا فوق النكبة ، غير مبال بالخطب ، جريئا عندما يجزع الجميع، يختطف النصر وهو طائر ، من اعماق الاهانة والهزيمة • لقد انبرى هذه

---

(3) وهو من الحشم ، ولعله ينطق اصلا الهوارى •

المرة على راس 6،000 فارس الى مهاجمة وازعاج الجيش الفرنسي الذي كان قد واجه عاصفة غسلته بالمطر وشلته بالبرد، بينما كان يواصل انسحابه الصعب نحو مستغانم ٠

الفصل السابع

(1836)

رغم احتلال كلوزيل المؤقت لمدينة معسكر ، فان عبد القادر قد استعاد سلطانه • فقد كان في كل مكان مسيطرا على الميدان • والقبائل العديدة التي اظهرت الميل الى قبول الحكم الفرنسي عوقبت اما بجباية النقود واما بحجز الماشية • وبالاضافة الى ذلك فان كلوزيل قد نشد السلام •

وقد اجاب عبد القادر على الاقتراح الخاص باعترافه بالسيادة الفرنسية بانه يود ان يعرف بالضبط ، قبل الاعتراف بالسيادة ، مدى السلطة والمنطقة التى له ان يحكمها ، بالاضافة الى مدى الالتزامات التى عليه ان يقوم بها • لقد وجهت الدعوة الى ميلود بن عراش ليأتى الى وهران للمفاوضة • اما كلوزيل فقد كان ، فى هذه الاثناء ، يستعد لارسال حملة ضد تلمسان •

ان وجود الفرنسيين في الوسط قد شجع انصارهم • فمصطفى بن اسماعيل قد وعد كلوزيل بتعاون عدد كبير من القبائل العربية اذا ما تقدم نحو تلمسان • واعلن بنو انجاد انفسهم اصدقاء لكلوزيل وكانوا يتقدمون نحو المدينة ، فى قوة ضخمة ، لكى يساعدوه ويساعدوا الكراغلة على الفرار من القلعة التى كان هؤلاء ما يزالون محاصرين فيها •

وحين سمع عبد القادر بهذا التجمع اسرع بمهاجمة الطرفين • فقد فاجأ ابن اسماعيل والكراغلة فى نفس اللحظة التى كانوا يقومون فيها بالخروج من المدينة فاعادهم حيث كانوا • ثم التفت الى بنى انجاد وهزمهم • ولم يكد ينتهى من ذلك حتى ظهر كلوزيل وجيشه المكون من 8،000 جندى يتقدمون نحو المدينة • فلم يبق امام عبد القادر سوى ان يكمل الجلاء عنها • وهكذا

انسحب مع كامل سكانها، بدون ازعاج، الى مدينة وجدة على الحدود المغربية. ودخل كلوزيل تلمسان في 13 من شهر جانفي، 1836.

وقد تقدم ابن اسماعيل والكراغلة، متبوعين بجمع من اليهود البائسين، لاستقبال الحاكم العام (كلوزيل) ومجلس قيادته رافعين اليه أسمى آيات الولاء والاستسلام وداعين اياه بمنقذهم وولي امرهم. اما هو فقد طلب منهم 100،000 فرنك كعربون على اخلاصهم. فحاول اولئك المنخدعون المندهشون ان يقنعوه بعدم قدرتهم على جمع ذلك المبلغ، ولكن بدون جدوى، لان كلوزيل كان لا يرحم. وهكذا استخدم الضغط المتناهي بدون شفقة. فاستعمل التهديد، والضرب، بل حتى التعذيب، وحصل اخيرا على المبلغ، جزء منه نقدا والجزء الآخر من الماس والجواهر.

وقد كانت معاملة الفرنسيين لمن بقي في المدينة فرصة كبيرة تخدم قضية عبد القادر، كما لو كان قد حقق انتصارا. وهذا ما جعله يتعجب قائلا «اذا كانت تلك هي معاملة الفرنسيين لاصدقائهم، فماذا عسى ان يتوقع منهم اعداؤهم.

وشاع خارج المدينة وذاع ان يهوديا قد ترأس محكمة حاكمت وعاقبت الكراغلة. فكان العرب ساخطين من جراء ذلك. ان هذا الاحتقار للمسلمين لم يسمع به ابدا من قبل. وكان من نتيجته ان فتح بنو انجاد اتصالات مع عبد القادر. كما ارسل اليه الكراغلة سريا انهم لا ينتظرون سوى رحيل الفرنسيين لتسليم القلعة اليه.

ولكن نية كلوزيل كانت احتلال المدينة لانه كان شغوفا الى انشاء اتصال مباشر بين تلمسان وبين الساحل. وكان فم نهر التافنة اقرب نقطة صالحة لهذا الغرض، ولكن المسافة الواقعة في الوسط كانت جبلية وقرر ان يحقق هدفه في 23 جانفي. غير انه حالا وجد نفسه وجها لوجه مع عبد القادر بجيشه كاملا.

دامت المعركة بينهما عشرة ايام متتالية. كان العرب، الذين كانوا يتحرقون للثار من هزيمتهم السابقة، متماسكين في ثبات واصرار. بالاضافة الى ان عبد القادر لم يحاول ان يدخل في معركة مواجهة. بل كان يستولي على الهضاب، والوهاد، والصخور، والانهار ويدافع عنها، طبقا لحاجات الساعة. وقد كانت الشجاعة والانضباط الفرنسي في غير محلهما

ضد اسلوب عبد القادر ، بالاضافة الى عدم معرفتهم للبلاد • فكانت النتيجة ان انهزم كلوزيل وتقهقر الى تلمسان مخلفا وراءه خسائر هائلة • وبعد ان ترك حامية في المدينة تحت قيادة الضابط كافينياك Cavaignac رجع هو بجيشه الى وهران ، بينما كان عبد القادر يطارده حتى الى ابوابها •

وعند عودته الى مدينة الجزائر عزى كلوزيل نفسه على كل حملاته الفاشلة باصدار بيان اعلن فيه ان الحرب ستنتهي • ومما جاء في البيان ان « عبد القادر قد ضرب ضربات قاضية وانه دحر ، وانه فر الى الصحراء حيث يخفي خيانته وتمرده » وفي ابريل سافر الماريشال كلوزيل الى فرنسا تاركا وراءه تعليمات الى الجنرال دارلانج في وهران باقامة معسكر حصين على التافنة استعدادا لفتح خط الاتصال مع تلمسان من هناك •

وخلال هذه الاثناء ضرب الجنرال بريغو Perregaux الى القبائل النازلة في وادي السف • ان هذه القبائل قد استمرت ، بتأثير من رؤسائها ابناء سيدي العريبي ، ورغم العقوبات التي نزلت بها ، في ترددها في طاعة السلطان ، فانهم لم يدفعوا الضرائب دون معاندة وشكوى متكررة ، ولم يساهموا بفرقة فرسانهم في جيش عبد القادر الا بعد احتجاج ونفور • وها هم الآن قد دخلوا في جانب في حلف مع الفرنسيين بدعوى تعرضهم لضغط كبير •

كان عبد القادر مشغولا كثيرا في الوقت الحاضر بحصار تلمسان وباجراءات دارلانج على التافنة ، وليس في وسعه الآن ان يوقف جولة بريغو العسكرية • ولكن العرب الذين نكثوا العهد ورحبوا بالجنرال الفرنسي سرعان ما احسوا بوقع غضب السلطان من موقفهم • ولم يكد الفرنسيون ينسحبون حتى نزل عليهم عبد القادر كالصاعقة • وفرض الضرائب الثقيلة على ثمانية عشر قبيلة منهم وسيقت مواشيهم • وقد اخذت قبيلة البرجية كمثال مريع فهلك منها عدد كبير وشرد الباقي ليجد المأوى حيث يستطيع •

وصل دارلانج بصعوبة كبيرة الى التافنة في 16 ابريل ، مع 3000 من المشاة وثماني قطع من المدفعية • وبعد ان أكمل اقامة المعسكر الحصين على ضفة النهر تقدم في 21 من الشهر لفتح الطريق الى تلمسان ، تنفيذا للتعليمات • ولكن عبد القادر ، الذي كان هو الآخر في مركز رئيسي بندرومة التي تسيطر أيضا على الطريق من التافنة الى تلمسان ثم الى وهران ، كان قادرا على ان يراقب تحركات العدو اينما اتجه • وسرعان ما نزل للمجابهة فأحاط رجاله العرب والقبائل ، بالفرنسيين واضطروهم الى ان يعودوا القهقرى •

... عبد القادر مدين في هذا النجاح الى جهوده التي لا تعرف الكلل والى
قيادته الحكيمة . فطالما استطاع ان يبقى المعسكرات الفرنسية في حالة
عن بعضها . كان الموقف [illegible] . غير انه لكي يحقق خطة هامة تهدد
غايه ان يحافظ على البلاد في حالة يقظة دائمة . ولتحقيق هذا الغرض
خلال الاسابيع الماضية ينتقل في جبال القبائل الممتدة حول المدينة .
قضى أياما شاقة وليالي مضنية داعيا ، واعظا ، خطيبا . ان [illegible]
[illegible] هز حماس اولئك الجبليين القساة صعاب المراس الى ذروة الحماس
حين آن الاوان وقادهم عبد القادر شخصيا دفعة واحدة [illegible] الخصم
الى الكمال [illegible] الحيوانات المفترسة لا الآدميين . كانوا
في الحال انقضاضا ويحيطون المشاة الفرنسيين وينقضون [illegible]
[illegible] . ثم يمرقون من صفوفهم وينهاطلون على أفواه المدافع .

حكومة الفرنسية فقد [illegible] في ارسال الامدادات ، بعد ان اصبحت
هذه المقاومة الطويلة [illegible] المتوقعة . ففي 6 جوان ، 1836 نزل
بوجو Bugeaud عند مصب نهر التافنة مع [illegible]
[illegible] مسرح [illegible] في تجديد محاولتهم لفتح طريق الى
[illegible] . وأخيرا نجحوا في [illegible] . فقد حارب عبد القادر معركة
[illegible] ضد القوات المغيرة على ضفاف الزقاق ولكنه في هذه المرة عاني
كاملة .

[illegible] لهذه الهزيمة عواقبها [illegible] على القبائل . فكثير من كتائب
[illegible] عائدة الى منازلها [illegible] المفاجىء الذي تعرض له
[illegible] احيانا . بعد الهزيمة . كان يمكن ان ينهك طاقات ارادة ضعيفة
[illegible] أقل من عزيمته صلابة . ولكن هذه الحساسيات لم تعد تؤثر
[illegible] طويل . فهو يعلم انه ، متى ابتسم الحظ ، يستطيع بتلويحة
[illegible] ان يعيد المترددين والثائرين عنه راكعين أمام قدميه .

[illegible] أن المسمى سيدي ابراهيم قد اختار هذه الساعة الحرجة
[illegible] بل ليدعي لقب سلطان ، فانه جرد سيفه من غمده وعلقه
وأقسم ان لا يغمده وان لا ينزل عن فرسه حتى يقطع رأس ذلك
وأسرع بمفرده تقريبا الى قبيلة بني عامر حيث كان يعلم ان الخائن
[illegible] في الحال . وبعد ان افاقت هذه القبيلة من دهشتها
هذا القرار الصارم ، سلمت الثائر سيدي ابراهيم الى عبد القادر

خائفة من أن يؤدى الرفض الى الاتهام بالتآمر معه • وفى الحال قطع راس الجانى •

وبنشاط عبد القادر الذى لا يعرف الكلل فى جميع الجهات وبيقظته الدائمة لتنفيذ نظام حصاره ، ضيق مرة أخرى الخناق الشديد على الفرنسيين• فقد كانوا اقاموا مركزا فى المناطق الداخلية، ولكنهم لم يكونوا قادرين لا على الوصول اليها ولا على الاتصال معها • وكانت رسائلهم تحجز وتقطع رؤوس حامليها بدون تمييز (1) • وليس هناك قبائل صديقة جاءت اليهم بالمؤونة •

وسواء كان الفرنسيون في وهران او فى التافنة فانهم كانوا لا يستطيعون الحراك الا فى فرق كبيرة • وفى هذه الحالة كانوا يحتاجون الى تموين ضخم ، وحيوانات تحمل الاثقال ، ووسائل للنقل • وكان أهل الدوائر والزمالة ، طلبا للامن تحت حصون وهران ، يعيشون على مؤونة مقترة يتصدق بها عليهم حاموهم من حين لآخر • أما فى تلمسان فان كافينياك كان يشترى القطط لمائدته بملغ اربعين فرنكا للقط الواحد •

وفى شهر نوفمبر ، 1836 شرع كلوزيل ، الذى كان قد عاد الى مباشرة عمله ، فى حصار قسنطينة التى كانت معقل احمد باى ، آخر ممثل للسلطة التركية فى الجزائر • وقد امتنع عبد القادر من اتخاذ أى اجراء قد يفسد التطور الكامل لتلك الخطة • ومنى نفسه بانه سيكون هو المستفيد فى النهاية سواء نجح الفرنسيون فى خطتهم أو فشلوا • ذلك انه شعر انه اذا انهزم احمد باى فانه سيتخلص ، من منافس خطير ، دون ثمن او تعب من جانبه ، وان القبائل العربية فى اقليم قسنطينة ستكون حينئذ حرة فى الدخول تحت لوائه • فاذا كان احمد باى هو المنتصر ، فان الفرنسيين قد يغادرون الجزائر بالمرة بعد ان انهكتهم بصعوبتها • وفى هذه الحالة شعر عبد القادر ان صراعا محققا وطويل المدى سينشب بينه وبين احمد باى على السيادة (2) •

ولكن حين فشلت حملة كلوزيل على قسنطينة (3) شعر عبد القادر ان ساعته هو قد حانت (4) فمن مقر قيادته فى المدية اصدر اوامره بهجوم كامل

---

1) استخدم الامير السيد حمادى السقال ، من اهل تلمسان ، لاطلاعه على مراسلات العدو مع خلفائه •

2) ظل احمد باى يحارب الفرنسيين الى سنة 1848 • وقد مات اسيرا فى مدينة الجزائر سنة 1852 انظر الفصل الخاص به فى كتابى « تاريخ الجزائر الحديث » •

3) نجح الفرنسيون فى السنة التالية (1837) بقيادة دامرمون الذى قتل اثناء الحملة وتولى بدله فالى Valée وقد منوا بخسائر جسيمة •

4) موقف الامير من الحملة على قسنطينة ومن الحاج احمد باى مازال فى حاجة الى وثائق اضافية

ضد كل المراكز الفرنسية بين الاطلس والساحل • أما فى اقليم وهران فلم يبق للفرنسيين ما يستحق الانتباه • وهكذا كان سهل متيجة تحت رحمته ، ونزلت الآلاف من العرب والقبائل مؤيدة بأهالى التيطرى ، كالسيل من الجبال محطمة ومشعلة النار فى المؤسسات الاستعمارية الفرنسية ، آسرة المستوطنين الفرنسيين ، وحاملة الرعب والفزع الى مدينة الجزائر نفسها •

ان الحالة التى أصبحت عليها الآن الحاميات الفرنسية كانت تثير الشفقة • فكل مهارة ادارة الميـــرة كانت تتمثل فى اتقاء رعب المجاعة الذى كان يخيم فى كل لحظة • ومن حسن حظ الفرنسيين انهم تخلصوا من حالتهم المؤلمة بالمضارب اليهودى العبقرى •

ان اليهودى دوران ، عميل السلطان عبد القادر ، الذى كان ذا مهارة ونفوذ كبيرين فى مدينة الجزائر ، طالما متع خياله بالحصاد الهائل الذى يمكـن ان يجنيه لو اعترف به المتصرف الوحيد فى المضاربات التجارية بين الطرفـين المتنازعين • ولهذا الهدف كان منذ شهور يحاول ان يقنع عبد القادر بـأن الفوائد التى سيحصل عليها من اطعام الفرنسيين ستفـوق كثيرا حتى مـن الوجهة العسكرية ، قيمة أى نصر يمكن ان يحققه عن طريق تجويعهم •

وبعد ان رخص له عبد القادر بمساومة الفرنسيين والحصول منهم على اكبر ربح ، توجه دوران بسرعة الى وهران وفتح المفاوضات مع الجنرال بـروسدار Broussard الذى كان عندئذ على قيادة الحامية •

وقد قال له دوران : «ان الفرنسيين فى حاجة الى القمح واللحم • والسلطان من جهته فى حاجة الى الحديد والرصاص والكبريت • فليبتع كل طرف مـا يحتاجه من الطرف الآخر وسيكون الجميع راضين • ويجب ان لا يخشى ابدا بان هذا الاجراء سيكون على حسابك ولصالح السلطان • فهو لن يظهر ابدا فى القضية • فاننى أنا الذى سأبيعكم القمح واللحم ، وأنتم ستبيعوننى أنـا الحديد والكبريت • ولن يعرف السلطان سوى عن طريق غير مباشر بان المواد الاولى لكم ، والمواد الاخيرة له • بل ان السلطان مستعد للسماح لكم باستئناف تموين تلمسان • ولكن ما دام هذا الامتياز بدون شك سيغضب ويثير سخط العرب ، الذين يحقدون على الوجود الفرنسى فى تلك المدينة ، فان السلطان لن يأخذ على عاتقه سوى كراهية ومسؤولية الترخيص به ، على شرط ان يطلق الفرنسيون سراح جميع الاسرى الذين سجنوهم اثر معركـة الـزقاق وان يعيدوهم اليه » •

وفي الحال قبل بروسار هذا الافراج ومرة أخرى نمنح الفرنسيون بحياة رغدة طويلة لم يعتادوها • أما عبد القادر فقد حصل بدوره من اعدائه ، الذي اضطروا لوضع رداء الاصدقاء، على مواد الحرب التي ستستعمل منذئذ ضدهم

والواقع ان هذا التعاقد الغريب (لان الظروف برهنت على ذلك) قد اعطى عبد القادر لا الوسائل التي تزيد من قوته الاعتدائية فقط ولكن . وفي نفس الوقت . قد رفع من سمعته ايضا • فهو يستطيع الآن ان يجيب بكل اعتزاز اولئك المغيرين المتعصبين الذين يأخذون عليه هزائمه وشكاوى عائلات بأسرها تطالب باستمرار بابنائها المفقودين الذين يتعذبون في سجون الفرنسيين بان الاسرى الذين سجنتهم أيدي المنتصر قد أعيدوا الى منازلهم ، وهم قادرون مرة اخرى على الاخذ بنصيبهم في الجهاد •

هذه هي الحالة عندما وصل الجنرال بوجو الى وهران قادما من فرنسا بتعليمات محددة ، اما أن يعقد الصلح مع عبد القادر واما ان ينتصر عليه • ولما كان راغبا اولا في الوصول الى المفاوضات معه ، فانه أرسل اليه الاقتراحات الآتية كأساس للتفاهـم :

1 ــ الاعتراف بالسيادة الفرنسية •

2 ــ تحديد منطقة نفوذه بنهر الشلف •

3 ــ دفـع الجزية لفرنسا •

4 ــ تسليم الرهائن كعربون وتنفيذ أية معاهدة مستقبلة يمكن الاتفاق عليهـا

وقد رد عبد القادر ، بواسطة عميله دوران ، بانه ما دام لم يواجه ابدا اى هزيمة نهائية وما دام قد عوض نفسه بسخاء على كل النكبات التي حلت به مؤقتا فانه لا يستطيع بحال من الاحوال ان يرضى بوضع أدنى من الوضع الذي اعترفت له به معاهدة ديميشال • وأضاف بأن العرب لا يمكن أن يقبلوا حتى ان يسمحوا بالعيش تحت سلطة المسيحيين ، ولو كانت سلطة اسمية ، وانه اذا كانت فرنسا ساعية لوضع العربي تحتها بالقوة فمعنى ذلك انها ستدخل حربا لا نهاية لها • وقال أيضا انه لم يدخل اقليم التيطري نتيجة لخطة خاصة به ولكنــه استدعى لذلك بطلب سكان ذلك الاقليم ، وانه لا شرفه ولا دينه يسمح له بالتخلي عن أولئك الذين وضعوا أنفسهم تحت حمايته، وأضاف بان من رأيه انه ليس من مصلحة فرنسا ان تحاول مد سلطانها على سكان

معارضين تماما لها ، ولكن مصلحتها هى أن تحصر نفسها ، بدلا من ذلك فى المشاريع التجارية فى المدن الساحلية • غير ان عبد القادر اعترف ، بواسطة صوت عميله . بأنه يرضى ان يسمح للفرنسيين باحتلال ميجة او سهول مدينة الجزائر ، باستثناء البليدة التى يتضح من وضعها انها تنتمى الى الجبال، واعترف أيضا بأنه لا يمانع فى أن يسلم اليهم كل المنطقة القريبة من وهران الواقعة بين بريدية والمقطع • وأعلن أنه مستعد ، بالاضافة الى ذلك ، ان يتخلى عن احتكار التجارة الذى اعترف له به ديميشال وان يسمح بحرية كاملة فى التجارة ، وان يضمن الامن ، وان يعوض الخسائر اذا وقعت ، لكل الفرنسيين الذين اختاروا أن يستوطنوا المناطق الداخلية • وأخيرا وعد بأنه لن يسلم أبدا أى ميناء معترف له به الى دولة أجنبية •

ومهما بدت هذه اللغة حادة واملائية فى عين الجنرال بوجو فانه فضل أن يتابع ، مهما كانت الظروف ، طريق التنازل على طريق أى مقاومة قد تؤدى الى استئناف النزاع ، وقد أنذرته حكومته بكل وضوح ضد منح عبد القادر أى توسع اقليمى جديد • بينما أصر عبد القادر على عدم التخلى عن أى جزء كان عندئذ تحت يديه • وهكذا رضخ بوجو وعرض على عبد القادر ، على مسؤوليته الخاصة ، اقليم التيطرى شريطة ان يقبل بالتبعية لفرنسا •

وقد صيغ الانذار التالى مع شروط تلك التنازلات الهامة ، وأرسل كل ذلك الى عبد القادر ، ان الحدود المعينة التى حضر فيها الممثل العسكرى للحكومة الفرنسية رجاله فى الجزائر تعتبر فى حد ذاتها شهادة مجد على الجرأة الناجحة للقائد الكبير (عبد القادر) الذى أفشل حتى الآن كل حملات الفرنسيين الموجهة ضده واحبط جميع خططهم فى الاحتلال •

وفيما يلى شروط بوجو :

1 ــ يعترف الامير بسيادة فرنسا •

2 ــ تحتفظ فرنسا فى اقليم وهران بحزام يمتد من عشرة الى اثنى عشر فرسخا عرضا مبتدئا من ريو سلادو Rio Salado ومنتهيا عند نهر السلف • أما فى اقليم الجزائر فانها تحتفظ بمدينة الجزائر وكل الاقليم الذى يحمل ذلك الاسم • وتترك فرنسا للأمير اقليم التيطرى واقليم وهران ، باستثناء الحزام المذكور •

3 ــ يدفع الأمير جزية سنوية في شكل قمح وماشية .

4 ــ حرية التجارة حرية كاملة .

5 ــ كل المقتضيات التي حصل عليها الفرنسيون،او قد يحصلون عليها، في البلاد ستكون مضمونة لهم .

وقد وصل هذا الانذار الى عبد القادر في المدية حيث كان قد فتح المفاوضات مع الجنرال دامريمون Damremont الحاكم العام الجديد للجزائر ، يحدوه امل واثق في نتيجة مرضية . لقد وجد نفسه الآن يفاوض اثنين ، كلاهما يريد ان يتعامل معه بشروط في صالحه وتتماشى مع توقعاته . حقا ان حماسهما في التعامل معه قد اصبح نوعا من التنافس بينهما .

ان بوجو قد طلب من حكومته معروفا خاصا وهو ان تسمح له هو وحده فقط بمجد التعامل مع عبد القادر . لذلك فانه حين علم ان دامريمون قد دخل في علاقات دبلوماسية مع السلطان العربي ثارت غيرته . وقد اتهم دامريمون الذي كان أعلى منه مقاما بالقيام بالتدخل غير المرخص به وغير المرغوب فيه في أ ور معقدة يتوقف عليه هو وحده ايجاد حل لها . وتلا ذلك مراسلات تبادل فيها الطرفان الفرنسيان الاتهامات . ثم أحيلت القضية على وزارة الحرب التي قررت أن تترك لبوجو الحرية الكاملة في التعامل مع عبد القادر دون تدخل أو اشراف .

وبمجرد ما سمع عبد القادر بهذا القرار رجع الى اقليم وهران ، وفي 12 ماي أرسل الاقتراحات الآتية ردا على انذار بوجو :

1 ــ يعترف الأمير بسيادة فرنسا .

2 ــ كل المسلمين القاطنين خارج المدن هم تحت سلطته الشرعية .

3 ــ تنحصر منطقة الفرنسيين غرب وهران في البلاد الواقعة بين بريدية والبحر وتمتد الى المقطع . وأما في منطقة الجزائر فان الفرنسيين سيحصلون على البلاد الواقعة بين تلك المدينة (الجزائر) ووادي بني عزة .

4 ــ يمنح الامير خلال هذه السنة فقط 20،000 مكيالا من القمح و 20،000 مكيالا من الشعير ، و 3 000 راس من الماشية .

5 ـ من حق الأمير ان يشترى ، فى فرنسا ، البارود ، والكبريت ، والسلاح •
6 ـ ان الكراغلة الذين يفضلون البقاء في تلمسان سيحتفظون باملاكهم، وسيكونون تحت سلطتنا وعليهم ان يمتثلوا لقوانين بلادنا •
7 ـ كل من يهرب من المنطقة الفرنسية او من منطقة الأمير يعاد مبادلة بطلب من الطرف المعنى •
8 ـ تتخلى فرنسا للأمير عن راشقون ، وتلمسان ، وقلعتها ، وعن المدافع ومدافع الهاون التي احتوت عليها القلعة قديما ، ويلتزم الأمير بنقل أمتعة الحامية الفرنسية (من تلمسان) الى وهران •
9 ـ التجارة ستكون حرة بين العرب والفرنسيين •
10 ـ يلتزم العرب باحترام الفرنسيين بينهم ، كما يلتزم الفرنسيون باحترام العرب بينهم •
11 ـ المزارع والممتلكات التي يمكن ان يكون الفرنسيون قد امتلكوها في متيجة ستكون مضمونة لهم وستكون لهم كامل الحرية فى التمتع بها (5) •

ونلاحظ انه فى الشروط السابقة لم يشر عبد القادر الى التنازل عن اقليمى التيطرى ووهران • فقد كان ينظر الى القضية على انها أمر مفروغ منه حيث انه لم يكن للفرنسيين فى الاقليم الاول اى ظل من السلطة ، أما بالنسبة للاقليم الاخير (وهران) فهم يعبرونه فقط كالطيور المسافرة مرفرفة من مدينة الى أخرى • ولكن مادام عازما على تدعيم قوته وعلى تقوية خطوط مواصلاته فانه اصر على جلاء الفرنسيين عن مدينة تلمسان وعلى تخليهم عن ميناء راشقون •

بل ان عبد القادر ذهب الى ما هو أبعد من ذلك • فلما كان يشعر بتفوقه ويرى المضايق التى اصبح الفرنسيون منحصرين فيها ، لم يتردد فى ان يطلب ان يكون كل مسلم مقيم فى منطقة فرنسية يجب ان يكون تحت سلطته الشرعية هو فقط • وهو فى هذا الطلب كان يسعى ان يطبق وينفذ مبدأ كان، فى نظره ، اولى من كل اعتبارات دنيوية ، لانه مبدأ قائم على ماهية القرآن الاساسية وهو انه لا يجوز لاى مسلم مهما كانت الظروف ، اذا أمكن ، ان يعترف عن طواعية أو يستسلم الى حكم مسيحى •

ان عبد القادر قد وصل ذروة المجد فى مهمته خلال هذه الفترة •

---

5) انظر الفصل التالى •

الفصل الثامن

(1837)

لا شيء يشهد للمكانة الممتازة التي كان عبد القادر يتمتع بها ، خلال هذا العهد ، اكثر من انه كان في وضع يتقدم فيه بتلك الشروط وتلك المطالب . وان المعنى الحقيقي الواضح لتلك الشروط والمطالب يظهر في وجوب الاعتراف به سلطانا على الجزائر ، بينما يعيش الفرنسيون ، كما كانوا ، في معاناة على هامش امبراطوريته ، مستفيدين فقط من ارباح التجارة مع رعيته .

وفي نفس الوقت يجب ان يكون واضحا ان عبد القادر كان على وعي تام بحالة الراي العام في فرنسا . فقد كان مشتركا بانتظام في الصحافة الفرنسية وكانت مناقشات البرلمان والمقالات الهامة عن الشؤون الجزائرية تترجم له . وكان يتتبع سياسة الحزب الليبرالي ، الذي كان يوافق ويؤيد من الصميم المبدا الذي طرحه الخطيب الرئيسي لذلك الحزب ، وهو السيد دوبان Dupin الذي استنكر مغامرة الجزائر على انها ارث مميت خلفه النظام السابق (نظام شارل العاشر) . ونادى بوجوب التخلي عن ذلك الارث « اذا كنا لا نود ان نرى آخر رجالنا وآخر ابنائنا يبتلعون ابتلاعا في الجزائر » .

وقد فهم عبد القادر ، من المعنى العام للمقتطفات التي كانت تقرأ له ، ان كثيرا من السياسيين البارزين في فرنسا كانوا ينظرون الى الاستعمار في افريقية (الجزائر) على انه حلم ، وانهم كانوا يعتبرون كل العمليات الحربية هناك اهدارا لكثير من الدم وكثير من المال ، وانهم كانوا يعتقدون ان سياسة فرنسا الحقيقية يجب ان تكون مجرد الاحتفاظ ببعض المراكز الساحلية بهدف منع القرصنة واقامة علاقات سليمة وشريفة مع اهالي البلاد . وعندما راى عبد القادر ، بالاضافة الى ذلك ، ان البرلمان الفرنسي قد استجاب عمليا لهذه

لهم قوة لمقاومة السلطة التى ستجعلهم حالا خاضعين لطاعة لا غبار عليها) • كانوا يبحثون فقط عن سبب ليلبسوا ثوب الدين وينضموا الى المتعصبين في دعوتهم التى لا معنى لها •

غير ان عبد القادر عزم ، بمهارة فائقة ونظرة بعيدة ، على سحب البساط من تحت اقدام هؤلاء المعارضين • فطلب السلام ، أو بالاحرى ، ارادة قبوله يجب في نظره ان ينظر اليه على انه عمل قومي • لذلك دعا الى مؤتمر عام يجتمع على ضفة نهر الهبرة ، في 25 ماى ، 1837 • وقد حضر هذا المؤتمر ، بناء على الدعوة ، كل شيوخ القبائل الكبار ، وزعماء الفرسان العسكريين ، والمرابطون المحترمون ، واعيان المحاربين في اقليم وهران •

وقد افتتح السلطان المؤتمر بالكلمات الآتية : « لا اريد ان اسمع احدا منكم يتهمني بالرغبة في عقد السلام مع المسيحيين • ان قضية السلام والحرب هى قضية انتم الذين تبتون فيها » • ثم تابع حديثه فشرح طبيعة المراسلات التى تمت بينه وبين بوجو ، والاقتراحات والعروض التى تقدم بها كل منهما للآخر • وفى الختام علق بعناية على كل مادة فى الشروط التى تقدم بها هو الى الجنرال الفرنسى فى 12 ماى •

وتلا ذلك مناقشة طويلة وعاصفة • فالمتعصبون واولئك الذين كانوا سريا ضد السلطان ، قد طالبوا بالحرب باصوات عالية عنيفة • غير ان المرابطين اسكتوهم بطريقة حكيمة تعتمد على التفريق بين سلام مقبول وسلام مطلوب وقد قالوا لهم بان القرآن لم يقر ابدا اهدار الدم بدون جدوى ، بعد ان استسلم الكفار ونادوا بوضع السيف فى غمده • ان الفرنسيين قد استسلموا وطلبوا الصلح ، وان السلطان قد املى شروطه الخاصة عليهم •

وقد نجح هذا المنطق • وقرر المؤتمرون باغلبية كبيرة ان الفوائد التى ستجنيها عامة الشعب من حالة السلام تبرر التنازل عن البليدة ، وسهل مدينة الجزائر ، الى الفرنسيين • ورأوا ان التوسع الطفيف فى الحدود التى اراد السلطان اصلا حصرهم فيها سوف لا يؤثر على العرب ، ما دام كل مسلم سيكون حرا فى الانتقال من المناطق الخاضعة لفرنسا الى المناطق الخاضعة للسلطان • ولكنهم اعلنوا ان طلب الحكومة الفرنسية للجزية هو امر لا يمكن قبوله •

ثم ارسل عبد القادر مندوبه سيدى سقال (2) الى مركز القيادة الفرنسية على التافنة بهذه التنازلات :

1 ــ التخلى عن البليدة ٠

2 ــ عدم المطالبة باية سلطة على المسلمين المقيمين فى المنطقة الفرنسية ٠

3 ــ بعض التوسع فى الحدود الفرنسية ٠

وفى نفس الوقت اعطى سيدى سقال صلاحية الدخول فى مفاوضات عن طبيعة الحدود المقترحة وتقديم التفسيرات الضرورية الاخرى ٠ ولما كان بوجو مقتنعا بان تاخيرا جديدا لن ياتى له بشروط افضل ، فقد وافق على كل شىء ٠ ونتيجة لذلك صيغت المعاهدة التالية ، المشهورة باسم (معاهدة التافنة) ووقعها الطرفان ، فى 20 ماى ، 1837 ٠

وقع الاتفاق على المعاهدة الآتية بين الجنرال بوجو قائد الجيش الفرنسى فى اقليم وهران والامير عبد القادر :

المادة الاولى

يعترف الامير عبد القادر بسيادة فرنسا ٠

المادة 2

تحتفظ فرنسا لنفسها ، فى اقليم وهران ، بمستغانم ، ومازغنان ، ونواحيهما : وهران ، وارزيو ، ومنطقة اخرى محددة كما يلى : من الشرق بنهر المقطع والسباخ التى يجرى فيها ، ومن الجنوب بخط يبدا من السباخ المذكورة مارا بالضفة الجنوبية للبحيرة وممتدا الى وادى المالح فى اتجاه سيدى سعيد ، ومن هذا النهر الى البحر سيكون تابعا للفرنسيين ٠ اما فى اقليم الجزائر فمدينة الجزائر ، والساحل ، وسهل متيجة محدودا من الشرق بوادى القدرة (3) فصاعدا ، ومن الجنوب بقمة السلسلة الاولى لجبال الاطلس الصغرى ممتدة الى نهر الشلف بما فى ذلك البليدة ونواحيها ، ومن الغرب بالشفة ، الى جبل مازغنان ، ومنه ، فى خط مستقيم الى البحر ، بما فى ذلك القليعة ونواحيها سيكون منطقة فرنسية ٠

---

2) لعله يقصد السيد حمادى السقال الذى سبقت الاشارة اليه والذى كان من اعوان الامير ٠

3) فى بعض الوثائق وادى خضرة ٠ انظر المقدمة ٠

المادة 9

تتخلى فرنسا للامير عن راشقون ، وتلمسان ، وقلعتها ، وكل المدافع التى كانت فيها قديما • ويتعهد الامير بنقل كل الامتعة الى وهران ، بالاضافة الى العتاد الحربى ، التابع للحامية (الفرنسية) فى تلمسان •

المادة 10

التجارة بين العرب والفرنسيين ستكون حرة • ويمكن لكل طرف ان يقيم ، مبادلة ، فى منطقة الآخر •

المادة 11

سيكون الفرنسيون محل احترام بين العرب ، وكذلك العرب بين الفرنسيين • والاسلحة والاملاك التى اقتناها الفرنسيون ، او التى يمكن ان يقتنوها ، فى المنطقة العربية ستكون مضمونة لهم ، وسيتصرفون فى مقتنياتهم بحرية ، ويتعهد الامير بتعويضهم عن اى خسارة قد يسببها العرب لهم •

المادة 12

يعاد المجرمون فى كلا المنطقتين مبادلة •

المادة 13

يتعهد الامير بعدم تسليم اى جزء من الساحل الى اية دولة اجنبية ، مهما كانت ، دون اذن فرنسا •

المادة 14

لا تجوز المعاملات التجارية للولاية الا فى الموانى الفرنسية •

المادة 15

تبقى فرنسا على ممثلين لها لدى الامير ، وفى المدن التى تحت سلطته ، لكى يعملوا كوسطاء لصالح الرعايا الفرنسيين ، فى كل الخصومات التجارية التى قد تنجم بينهم وبين العرب • ويتمتع الامير بنفس الامتياز فى المدن والموانىء الفرنسية •

التافنة فى 30 ماى ، 1837

(ختم الجنرال بوجو تحت النص الفرنسى)

(ختم الامير تحت النص العربى)

كان بوجو قد اتصل بتعليمات مشددة من حكومته ان يحصر عبد القادر في اقليم وهران ، وان لا يتخلى له ابدا عن اقليم التيطرى ، وان يصر عليه بدفع الجزية ٠

وفي رسالة الى وزير الحربية اعتذر بوجو له عن توقيعه على معاهدة تخرق تلك التعليمات ، هكذا :

« لكم ان تفترضوا انى سادفع الثمن غاليا على اتخاذى قرارا يتخالف مع تعليماتكم المتعلقة بالحدود التى يجب تحديدها للامير ٠ ولكن ذلك كان غير ممكن ٠ فلتكونوا مطمئنين فى ان السلام الذى وقعته هو افضل ، ومن المحتمل ان يكون اطول من اى سلام يمكننى تحقيقه عن طريق حصر عبد القادر بين الشلف والمغرب الاقصى » ٠

غير انه بهذه المعاهدة كان الفرنسيون محصورين فى بضع مدن ساحلية ، مع مناطق مجاورة ضيقة جدا ، بينما بقيت كل القلاع والمراكز الهامة فى داخل البلاد فى ايدى خصمهم المنتصر ٠ وبكلمة واحدة ، فان عبد القادر اصبح يملك بتلك المعاهدة ، ثلثى الجزائر ٠ وبالاضافة الى الصيت الذى زاده هذا الانتصار العظيم تاثيرا وسلطة ، اصبح الآن يتمتع بفائدة الظهور امام العالم كصديق وحليف لفرنسا ٠

ان الجنرالات الفرنسيين الذين توافدوا الواحد بعد الآخر فى سرعة خلال المراحل المختلفة للحرب ، كانوا ينشدون بدون جدوى اللقاء مع هذا لرئيس العربى الشهير الذى ، بينما كلف مواهبهم العسكرية غاليا ، اثار فى صدورهم مشاعر الاعجاب البطولى ٠ وقد كان هذا الامتياز من حظ الجنرال بوجو ٠

ففى 31 ماى ، 1837 وصل الجنرال الى الموعد المتفق عليه ، متبوعا بستة فرق عسكرية ، مع كل فرسانه ومدفعيته ٠ ولكن عبد القادر ما زال لم يصل بعد ٠ وقد مضت خمس ساعات فى انتظاره ، دون ان يظهر احد ٠ واخيرا ظهر ، حوالى الساعة الثانية بعد الظهر ، بعض العرب الواحد تلو الآخر ، حاملين معهم انواعا متعددة من الاعتذار : فالسلطان متوعك المزاج ، وهو قد بدأ السير متأخرا ، وهو كان يفكر فى طلب تأخير المقابلة الى اليوم التالى ٠ وهو لم يعد بعيدا ٠ وهو على وشك الوصول ٠

وفجأة جاء فارس ورجا الجنرال ان يتقدم قليلا ، لانه سيلتقي بالسلطان حالا . لقد تأخر الوقت ، ولما كان الجنرال يرغب في اعادة جنوده الى معسكرهم قبل سقوط الظلام ، فقد تقدم . وبعد ان سار اكثر من ساعة التقى وجها لوجه مع الجيش العربي الذي كان يكونا من 15,000 فارس في نظام محكم ، والذي كان في سهل يمور بالحركة . وفي هذه اللحظة تقدم منه البوحميدي على فرسه واشار الى السلطان حيث كان محاطا بكوكبة كبيرة من الحاشية على هضبة ليست بعيدة .

وفي خلال بعض الدقائق الاخرى اصبح في الامكان رؤية عبد القادر وحاشيته وهم يتقدمون نحو الجنرال . لقد كان منظرا مثيرا حقا . فهناك حوالي مائتي قائد عربي على سروج متبخترة ، يحيطون بسلطانهم الذي كان لباسه البسيط يثير الدهشة بالمقارنة الى مظهرهم الفخم ، المتلألىء بالاسلحة المصقولة التي كانت تبرق وتلمع في شمس الظهيرة . كان عبد القادر ممتطيا جوادا اسود هائلا يقوده بمهارة خارقة ، فمرة يجعله يقفز بالاربع في الهواء ، ومرة يجعله يمشي عدة ياردات على رجليه الخلفيتين . فعل عبد القادر ذلك بينما كان يتقدمهم خطوات الى الامام . وكان من الواضح انه يهدف من ذلك الى اثارة الاعجاب بفروسيته العالية ، وكان بعض العرب يجرون على جانبيه ممسكين بالركاب ، وبأطراف برنوسه .

وهنا تقدم الجنرال بوجو في سرعة كاملة . وعندما وصل الى الامير صافحه . وترجل الاثنان . ثم جلسا على العشب ودخلا في المحادثة التالية :

بوجو : « هل تعلم ان جنرالات قلائل فقط هم الذين يستطيعون ان يجسروا على عقد المعاهدة التي عقدتها معك ؟ ولكنني لم اخش من جعلك تتوسع ، وتضيف الى سلطتك ، لاني على يقين من انك ستستعمل هذا الكيان الكبير الذي اعطيناك في تحسين احوال الامة العربية ، وفي الابقاء على السلام وعلى حسن التفاهم مع فرنسا » .

عبد القادر : « انني اشكرك على عواطفك اللطيفة نحوي . واني بفضل الله ساجعل العرب سعداء . واذا ما انحل الصلح الذي بيننا فلن تكون غلطتي » .

ب ـ : « بخصوص هذه النقطة . فاني ضمان لك لدى ملك الفرنسيين » .

ع ـ : « انك لن تخسر شيئا بفعل ذلك : فلنا دين يجبرنا على احترام كلمتنا . ولم انقض عهدى ابدا » .

ب ـ : « اننى اعتمد على ذلك . وانى اقتناعا بذلك اتقدم اليك بصداقتى الشخصية » .

ع ـ : « اننى اقبل صداقتك . ولكن ليحذر الفرنسيون من الاستماع الى المتآمرين » .

ب ـ « ان الفرنسيين لا يؤثر فيهم الافراد أبدا ، وليس فعل الافراد هو الذى يحل الصلح ، ولكن الذى يسبب ذلك هو عدم تنفيذ المعاهدة ، او ارتكاب عمل عدائى عظيم . اما بخصوص اعمال الافراد المذنبين فسنكون حذرين منهم ، او سنعاقبهم مبادلة » .

ع ـ « حسنا ما عليك الا ان تنبهنى وسينال الجانى العقاب الذى يستحق » .

ب ـ « اننى أوصيك خيرا بالكراغلة الذين قد يختارون البقاء فى تلمسان »

ع ـ « كن مطمئنا من هذه الناحية . انهم سيعاملون كمواطنين » .

ب ـ « لقد وعدتنى ان تنقل قبائل الدوائر بين قبائل الحفرة انه يبدو لى ان البقعة المخصصة لذلك لن تكفيهم جميعا » .

ع ـ « انهم سيوضعون بطريقة لن يكون فيها خطر على السلام » .

ب ـ « هل امرت باستئناف العلاقات التجارية فى مدينة الجزائر وحول المدن ؟ »

ع ـ « لم افعل ذلك بعد . ولكنى سآمر بذلك حين تسلمنى مدينة تلمسان » .

ب ـ « يجب ان تعلم اننى لا استطيع ان افعل ذلك الا بعد ان يوافق الملك على المعاهدة . »

ع ـ « ماذا تقول ؟ أليست لك صلاحية التعاقد ؟ »

ب ـ « بلى ، ولكن المعاهدة يجب ان يوافق عليها . ان ذلك ضرورى لك كضمان . فلو كنت وحدى المسؤول على المعاهدة لكان فى استطاعة

اى قائد يخلفنى ان ينقضها، بينما سيكون خلفى مجبرا على احترامها اذا وافق الملك عليها » ٠

ع ـ « اذا لم تعيدوا الى تلمسان ، بناء على شروط المعاهدة ٠ فانـى لا ارى ضرورة فى التصالح : بل سنكون فى هدنة فقط » ٠

ب ـ « ذلك حق ٠ ولكن انت الذى ستكون المستفيد من الهدنة ٠ ذلك اننى لن احطم الانتاج الزراعى طالما دامت الهدنة » ٠

ع ـ « حطمه اذا شئت : فالامر سيان عندى ٠ اننـى ساعطيك رخصـة مكتوبة لتحطم كل ما تستطيع٠ان ما ستناله لن يعدو كمية صغيرة٠ اما العرب فيبقى لهم الكثير من الحبوب » ٠

ب ـ « اننى لا اعتقد ان كل العرب يشاركونك هذا الراى ٠ »

ثم سال عبد القادر عن المدة التى يستغرقها وصول الموافقة على المعاهـدة من فرنسـا ٠

ب ـ « حوالى ثلاثة اسابيع » ٠

ع ـ « ولكن ذلك امد طويل ٠ وعلى اية حال فلن نعيد علاقاتنا التجارية الا بعد وصول موافقة الملك على المعاهدة ٠ وعندئذ سيكون السلام نهائيا »

ب ـ « ان الذى سيكون الخاسر الوحيد من ذلك هـم الذيـن يدينـون بدينك ، لانك ستجردهم من تجارة هم فى حاجة اليها ٠ اما نحـن فنستطيع ان نحصل على كل ما نريد عن طريق البحر » ٠

ورغبة من بوجو فى عدم اطالة المقابلة نظرا لتاخر الوقت ، وقف للانصراف ٠ اما عبد القادر فقد بقى جـالسا واراد الدخـول فـى حديث مع مترجمه ، الذى كان واقفا الى جانبه ٠ وقد شك بوجو فى الغرض من ذلك ، فاخذه من يده بمودة وجذبه الى الامـام ، قائلا ، فى نفس الوقت :

« يا الله ! حين ينهض جنرال فرنسى يجب ان تنهض انت ايضا » ٠

وهكذا انتهى هذا الاجتماع الغريب ، الذى لم يزد الجنرال الفرنسى على ان ارضى به فضولا تافها ، لكن مغفورا (4) • اما عبد القادر فقد اعطاه ذلك الاجتماع ، الذى يتميز بالتأخير المقصود وسوء التفاهم الذى سبقه ، امتيازا هائلا بحيث ظهر فى نظر مواطنيه كشخصية عظيمة استطاع ان يبقى حتى زعماء الكفار ينتظرون رضاه وسروره • وبعد ان صافح عبد القادر الجنرال مرة اخرى قفز الى سرجه ، ثم تحرك الجيشان وتباعدا على انغام الموسيقى العسكرية ، بينما كان العرب يصيحون « يحيا سلطاننا عبد القادر • الله ينصره دائما » •

4) انظر ايضا « الوجه الآخر لمقابلة التافنة » ، لواية السويسرى فون مورالت وترجمة الدكتور أبى العيد دودو فى « المجاهد الثقافى » ، عدد 8 ، سنة 1969 ، ص 21 ـ 30 •

الفصل التاسع

(1838)

ان الحكومة الفرنسية قد رحبت بحرارة بمعاهدة التافنة التي اعتبرتها ضربة معلم في ميدان السياسة • اما الشعب الفرنسي فقد اعتبرها اهانة فالحكومة كانت تفخر بان عبد القادر قد تحول ، نتيجة المعاهدة ، من عدو الى حليف ، بينما راى الشعب تلك المعاهدة انها تسليم اجرامي لاقليم فرنسي الى سلطة منافسة • اما بالنسبة لعبد القادر فقد كانت هذه المعاهدة حجر الزاوية في الصرح الذى كان منذ امد طويل يشيده بمشقة ومثابرة •

ومنذ سنوات فرض على عبد القادر واجب مزدوج : من جهة كان عليه ان يوحد الجهود المبعثرة التي حوله فيهدىء الثورات ويجمع الخلافات ، ويقضي على التمردات • ومن جهة اخرى كان عليه ان يواجه بشجاعة الهجومات الكبيرة من عدو يمتاز عليه بالوسائل والمعدات التي تصعد بالحرب الى درجة العلم • ولما تخلص الآن من الضغط الخارجي فقد كرس كل جهوده للقضاء على المصاعب الداخلية •

لقد وقف الآن وجها لوجه امام شعب يرى تحريره من النير الاجنبي ايذانا بالفوضى المطلقة ، وليس له فكرة عن الحرية سوى انها تعني عدم المضايقة باية شكل من الاشكال ، شعب ، بينما كان يعترف بل ويطيع العبقرية التي ظهرت بينه حين تقوده ضد الخصم ، كان يرفض هذه العبقرية ويخافها حين تتوجه اليه بالتنظيم وتحديد المسؤوليات (1) • وهكذا كانت قبائل باكملها مستعدة الآن ، بعد ان تحررت من المناوشات المثيرة والواجبات الثقيلة

1) انظر مقدمة المترجم عن راى المؤلف في الشعب الجزائري •

والغرامات المتتالية ، ومن المخاطرات والمجازفات المستمرة نتيجة لحالة الحرب، مستعدة ان تستأنف ، كل في مجاله الصغير : حياة الانفصال والاستقلال .

ان هذه القبائل او الوحدات الديمقراطية الصغيرة لم تستطع ان نرى فائدة او فرصة من حكومة مركزية ، وكانت تتذمر من المساهمة في المصاريف الضرورية لتاييد هذه الحكومة . ذلك ان تلك الوحدات الديمقراطية لم تكن تفكر الا في مصالحها الفردية الانانية ، ولم تكن قادرة على ان تفهم ان استمرار استقلالها الذى حصلت عليه حديثا متوقف على مواصلة تلك التضحيات التي مكنتها من تحقيق الاستقلال .

ان التنظيم المحكم الذى كان عبد القادر يحاول تطبيقه ، والذى كان قد بدأ فعلا في تطبيقه ، والذى هو وحده الدعامة لسلطة قادرة على مقاومة الهجومات الخارجية بصفة دائمة (تلك الهجومات التي كان عبد القادر بنظرته البعيدة يعتقد ان وقفها لم يكن الا مؤقتا) كان بكل وضوح يتطلب تقوية بعض الواردات في المناطق الشاسعة التي اصبحت الآن تحت سلطته .

وقد منع قصر النظر والجشع العرب من ان يروا مثل هذه الضرورة . ورغم ان عبد القادر لم يطالب ابدا رعيته باكثر من دفع العشور والزكاة (اما الواردات الاخرى، بما في ذلك الضرائب الجمركية ، فقد منعها القرآن) . ومع ذلك فان المتمنعين كانت لهم حجتهم التي تجعلهم دائما على استعداد لسحب انفسهم من التزامات دفع الضرائب .

كانوا يقولون « اننا لا نريد تشريعا . اننا نستطيع ان ندير شؤوننا بانفسنا . فاذا استؤنفت الحرب فسيكون امام السلطان الوقت الكافي لدعوتنا الى دفع المساعدة المطلوبة . ولكن لماذا علينا ان ندفع ذلك في زمن السلام ؟ ان كون الاتراك كانوا دائما يجرون وراء المال كان امرا طبيعيا ومفهوما . فقد كان لكل تركي حريم يبلغ مائة امرأة ، الى جانب الفتيات الراقصات ، والغلمان المولدين ، وكل الاصناف التي تتطلب مصاريف مسرفة للمعيشة » .

وكانوا يقولون ايضا « ان اسم التركي كان ، وما يزال ، وسيظل ، ما دام الطاعون موجودا ، مرادفا للدناءة والفساد ، ولكن ماذا عسى عبد القادر ان يفعل بالمال ؟ فليس له اكثر من زوج واحدة ، وهو ، اذا لم يكن يخوض الحرب ، يقضي ايامه ولياليه في الدراسة والصلاة . ثم ان بساتينه في (كاشرو) قادرة على ان تمده باكثر مما يحتاجه من المصاريف » .

ان عبد القادر لم يتعب كثيرا مع هؤلاء المتفلسفين اذا كانوا بالقرب منه. فمذهبهم في مقاومته لم يتح له ان يكون اكثر من نظرية سخط . اما في المناطق البعيدة منه ، وهي التي لم يحصل عليها الا مؤخرا والتي لم يباشر فيها حتى الآن سوى سلطة موروثة عن اعماله العظيمة ، فان ذلك المذهب كان قد اخذ شكلا هاما وخطيرا في بعض الاجزاء .

ففي الاجزاء الجنوبية من اقليم التيطري رفض الناس رفضا قاطعا مطالبه الخاصة بالمساعدة المالية المعتادة . وكونوا لذلك جمعية لمقاومة دفع تلك المساعدة يترأسها المسمى ابن المختار (2) ، وهو رئيس هام من الصحراء ، قرب قصر البخاري . فبنو مختار ، وبنو نائل ، وبنو موسى ، وبنو عبيد ، والزناخرة كلهم شكلوا اتحادية كبيرة . وقد رأى عبد القادر ان عليه ان لا يضيع لحظة واحدة . لقد شعر ان عليه ان يقضي على المعارضة في الحال او يتخلى عن صولجانه .

وبعد ان جمع قوة من القبائل الموالية له في اقليم وهران بحيث وصلت الى 8،000 فارس و 1،000 راجل ، امر ابن علال ، خليفته في مليانة ، ان يلقاه في بلاد الزناخرة مع كل الجيش النظامي وغير النظامي الذي يقع تحت قيادته . وهكذا بلغت القوة كلها حين تجمعت 12،000 فارس ، و 2،000 راجل ، مع بعض قطع المدفعية .

وفي طريقه الى الموعد المتفق عليه مر عبد القادر بمدينة معسكر . وقد ارسلت اليه زوجه ، التي لم تره منذ شهور ، الرسل راجية اياه ان يعرج نحوها ، ولو يوما واحدا ، ولكنه اجابها ، بدون اكتراث ، بانه كان مزفوفا الى بلاده ، وواصل سيره . وهكذا كانت عظمة الغرض لدى عبد القادر ، وهكذا كان تاثير اخلاصه لواجبه الذي استحوذ على مشاعره . لقد حدث مرة ان مر عليه اكثر من سنتين دون ان يسمح لنفسه بوقت يذهب فيه لرؤية عائلته .

وقبل ان يلجأ الى القوة حاول عبد القادر طريقة الترغيب . فقد كتب رسالة الى القبائل النافرة دعاهم فيها ، باسم النبي ، ان يطيعوا القانون ،

---

2) هو محمد بن عودة زعيم اولاد مختار . وهذه القبائل تدعى ايضا اولاد مختار ، واولاد نائل، واولاد موسى ، واولاد عبيد . وكان ابن عودة يدعو الى السيد محمد بن عبد الله البغدادي الذي ادعى انه المهدي المنتظر ، وكان ينافس الامير .

وان يقتدوا بقبائل الشمال والغرب في الطاعة ، وان يحذروا كلام المغرضين الوبيل . وفي نفس الرسالة وعدهم بأنه سينسى الماضي اذا حسنت نواياهم وقدموا انفسهم اليه طائعين مع « خيول الطاعة » . وختم رسالته اليهم قائلا « لا يغرنكم كثرة مخاربيكم لانني قادر على هزيمتهم حتى ولو تضاعف عددهم، لان الله معي ولا اطيع سواه . ولا تخامرنكم الاماني بانكم تستطيعون الفرار مني لانني اقسم انكم في نظري لستم اكثر من كوب من الماء في يد عطشان. »

ولكن الرسالة لم تفد ، فتقدم عبد القادر للهجوم ، وقد دامت المعركة ثلاثة ايام . واخيرا انهزم الثوار وتفرقوا . غير ان بني عنتر ظلوا يحاربون عدة ايام اخرى خلف تحصينات اقاموها فوق مرتفعات ظنوها منيعة في معاقل قرب بوغار . ولكنهم قد انهزموا ايضا في النهاية فقد استسلم ابن المختار وجاء شخصيا لدى السلطان وطلب منه العفو . ولكن عبد القادر لم يكتف بمنحه العفو فقط بل عينه ، وهو مندهش لذلك ، خليفة له على القبائل المنهزمة. وهكذا اصبح ابن المختار منذئذ اكثر انصار عبد القادر اخلاصا له.

والنجاح، كالعادة ، ادى الى خضوع قبائل جديدة . فكل القبائل الواقعه على الحدود الجنوبية لاقليم قسنطينة ارسلوا ممثلين عنهم للسلطان داعين اياه للقدوم . ولم يمنعه من حمل لوائه الى جدران مدينة قسنطينة نفسها سوى اعتداله وحسن نيته بالاضافة الى التزامه المخلص بمعاهدة التافنة .

عاد عبد القادر الآن الى المدية ، وكان دخوله اليها دخول المنتصرين . وقبل وصوله الى ابوابها بعدة اميال ازدحم الطريق بآلاف الناس الذين قدموا من كل القرى المجاورة لكي يمتعوا انظارهم برؤية هذا القائد العظيم الذي كانت شهرته قد طبقت الآفاق . وكانت هذه الجموع تردد باصوات عالية « يحيا سلطاننا عبد القادر المنتصر ! » وكانت هذه الاصوات التي تسمع من بعيد تعلن اقترابه من المدينة . وعند وصوله هناك وجد في انتظاره جموعا اخرى متحمسة في استقباله . وكانت الزهور منثورة في طريقه والماء المعطر يرش على رأسه . واستمر عبد القادر في اتجاه المسجد الى ان دخله وصلى فيه وخطب .

وقد انهالت عليه الهدايا والعروض من جميع النواحي مدة اسابيع وجاء كبار الشيوخ والمرابطين وقضاة التيطري ، بل حتى من وهران ، يتقدمهم خلفاء المناطق ، لكي يقدموا التهاني الى السلطان المنتصر . وقد اعتقد الكثير

عندئذ ان عبد القادر قد وصل الى قمة عظمته · اما هو فقد كان يفكر في الاعتزال واللجوء الى الحياة الخاصة · ولكن كثيرا ما زال ينتظر الانجاز قبل ان يستطيع عبد القادر ان يتخلى عن المهمة التى كان قد أقسم على تحقيقها ·

التفت الآن عبد القادر بجميع قوته الى العقبة التى طالما اعترضت وهاجت روحه السامية · فهناك في جنوب الصحراء العظمى ، في منطقة الاغواط الواقعة حوالى مائتى ميل من وهران ، يقع بنو عراش المكونون من عشر قبائل قوية وكثيرة العدد ، فقد ظلوا حتى الآن بعيدين عن الاضطرابات والمعارك والنزاعات المثيرة التى كان مواطنوهم فى الشمال يخوضونها · وكان عبد القادر قد دعاهم عدة مرات ليرسلوا فرق فرسانهم اليه ، ولكن بلا جدوى ·

فقد كان رئيسهم ومرابطهم ، وهو الحاج محمد بن سالم التجينى ، يرفض تماما فكرة ان يكون هناك سلطان عربى فى الوطن · وبناء على ذلك لم يجب على رسائل عبد القادر اليه ورآها حطا من قيمته ان يستقبل اوا ر عبد القادر بدفع المساعدة الشرعية الى وكيله ، وما دام يعتقد انه كان منيعا فى حصنه ورماله والمسافة التى تفصله عن خصمه ، فقد تحدى عبد القادر · وزاد من ثقته وجوده فى مدينة محصنة على الطريقة العربية ، تدعى عين ماضى ·

ان عين ماضى طالما حاصرها الاتراك فى السابق ولكنهم كانوا فى كل مرة يفشلون · بل هاجم اخو التجينى ، سنة 1826 ، الاتراك انفسهم وهدد مدينة معسكر · وحينما جاء حسن ، باى وهران ، لنجدة معسكر كان اخو التجينى قد استولى على جزء منها · ولكن التجينى انسحب بقواته الى سهل اغريس ودخل مع خصمه ، فى معركة ، غير انه انهزم وقتل · وتقدم الباى حسن الى عين ماضى ولكن الحاج محمد ، الذى خلف اخاه فى رئاسة القبائل اضطره الى التقهقر · ومنذئذ اصبح الحاج محمد التجينى نوعا من الحاكم المستقل صاحب السيادة ·

وقد كانت عين ماضى تحتوى على ثلاثمائة منزل فقط ، ومع ذلك فقد كانت لها قصبتها او السراى ، وكانت محوطة بجدران كثيفة وابراج · وانتشرت من حولها البساتين التى كانت قادرة بدورها على الدفاع · والعين التى اعطت اسمها للمدينة (عين ماضى) كانت تدفع ماءها الرائق نحو القصبة بواسطة قناة خاصة · وكانت الآبار التى تجمع ماء المطر تكفى حاجة السكان ·

وقد كان عبد القادر ما يزال في المدية عندما قدم عليه رجل من الاغواط يسمى الحاج عيسى (3) ، مصحوبا بعدد من رؤساء بني عراش ، لكي يقدم اليه الهدايا و « خيول الطاعة » • واعلن الحاج عيسى انه ، نظرا للتاثير الذي يملكه على معظم تلك القبائل فان اغلبهم يرغبون في الاعتراف بعبد القادر سلطانا عليهم وان عليه فقط ان يظهر نفسه بينهم لكي يستقبلوه بحفاوة ، ولم يسع عبد القادر الا ان يفتخر بهذا الاعتراف الذي اعتبره شهادة على ما بلغ اليه اسمه من تأثير في منطقة الاغواط • لذلك عين الحاج عيسى المذكور خليفة له على الاغواط واعطاه منشورات لتوزيعها على بني عراش دعاهم فيها الى طاعة توابه ، ثم ودعه مطمئنا له بانه سياتي شخصيا لقبول عروض الطاعة •

لقد حان الوقت الآن لان يضرب عبد القادر ضربته القاضية ضد التجيني، ففي 12 جوان سنة 1838 توجه الى عين ماضي على رأس جيش قوامه 6،000 فارس ، و 3،000 راجل ، وستة مدافع هاوون ، وثلاثة مدافع ميدان ، وقد وصل الجيش الى عين ماضي بعد عشرة ايام من السير الشاق عبر رمال واسعة ، وكان حضور عبد القادر فجاة قد ادهش التجيني الذي لم يكن مستعدا لمواجهة الحصار • والذي لم يكن لديه الوقت حتى لغلق ابواب المدينة وتنظيم الستمائة عربي الذين كانوا في تلك اللحظة داخل السور •

حاول التجيني بعض الوقت ان يدافع عن البساتين بمناوشات اثناء الليل، واستطاع ، لمعرفته بالمواقع ، ان يعرقل تقدم العدو • ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل • فقد طوقهم جيش عبد القادر وجعلهم محصورين داخل الاسوار • ذلك ان السلطان قد امر بقطع جميع الاشجار ونصب المدافع في الامكنة التي خلت من الاشجار ، وهكذا بدا اطلاق النار • وفي اليوم الرابع اعلن المهندس الاروبي الذي كان يقود هذه العملية انه يمكن الاجتياز الى الداخل من الثغرات التي احدثت في السور • واجريت عملية احصاء لمجموعة من المهاجمين استعدادا للاجتياز ، ولكن الثغرات وجدت مسدودة في صباح اليوم التالي • واستمرت عملية فتح الثغرات وسدها دواليك •

وفي اليوم الخامس عشر تحدى عبد القادر خصمه التجيني ان يخرج لمبارزته أمام الجيشين اللذين يشهدان هذا اللقاء • واقترح عليه بأن مصير عين ماضي يتوقف على نتيجة المبارزة • ولكن التجيني بالرغم من فتوته

(3) هو الحاج العربي بن الحاج عيسى • وسياتي الحديث عنه •

وشجاعته فضل الحذر ورفض اللقاء • ولم يسع عبد القادر اذن سوى ان يبدأ الحفر • وفي الوقت المناسب وصلت الحفر الى السور • ولكـن التجيني رد بحفر من جانبه • وخلال ذلك وقعت عدة اشتباكات هامة •

وبهذه الطريقة استمر الحصار عدة شهور • فالمدافعون الشجعان كانوا ، خلال ذلك ، يقترون اقواتهم من مخازن القمح والشعير الصغيرة التي لا تكاد الآن تحفظهم من الموت جوعا • اما المحاصرون فقد كانوا متوقفين في تموينهم على القوافل التي تصلهم من الشمال ، ولكن حتى هذه القوافل كانت معرضة لهجمات المغيرين • ولذلك كان أكثر من 2 000 فارس يحمونها باستمرار اثناء مرورها في الصحراء•ولم يفد الحاج عيسى باى شيء ، وتبين انه لم يكن اكثر من محتـال •

واخيرا كان الجانبان يموتان عياء • ونفدت جميع ذخيرتهما • وكان قلـق عبد القادر شديدا • لقد سبق له في كثير من المناسبات ان واجه الصعوبات والمشاكل ولكن لم يسبق له أبدا ان دخل في صراع ، له عواقب هامة كهذا الصراع • انه يعلم انه اذا اعترف بفشله برفع الحصار فـان جميع الصحراء ستبقى خارجة عنه ، لذلك اعلن انه يفضل الموت حيث هو على الاستسلام •

وفي هذه اللحظات الحرجة اتصل عبد القادر ، دون انتظار ، ببعض امدادات جديدة من الذخيرة وثلاث مدافع حصار من حلفائه الفرنسيين (4) • وظهرت صعوبة ديلوماسية حول التفسير الحقيقي لبعض مواد معاهدة التافنة • وكان الحاكم العام يأمل ان يحصل على موافقة السلطان على تفسيره للبند المختلف عليه ، لذلك تكرم عليه بهذه المساعدة في وقت ضيقه • وقـد حولت هـذه المساعدة التي جاءت في الوقت المناسب ميزان القوة الذى كـان مـا يزال يتأرجح •

لقد استسلم التجيني ، وفي السابع عشر من نوفمبر 1838 وقعت معاهدة بينه وبين مصطفى بن التهامي ، صهر السلطان • وبمقتضى هذه المعاهـدة تعهد التجيني بالجلاء عن « عين ماضي » خلال ثمانية أيام وان يذهب مع عائلته واتباعه المقربين الى الاغواط • اما ابنه الاكبر فقد ظل رهينة في يد السلطان• وعندما انتهت المدة المحددة دمر عبد القادر المدينة كلها وسواها ارضا • وقد ارسلت قبيلتان من بني عراش ، كانتا بالقرب من المدينة ، العشور والزكاة

4) امر بذلك الحاكم العام الجديد ، الجنرال فالي Valée الذى خلف دامريمون الذى سبقت الاشارة اليه •

فى الحال الى عبد القادر . ولكن بقية القبائل ظلت على رفضها . لذلك كان عليها أن تواجه مصيرا رهيبا .

وارسل عبد القادر الكتاب التالى الى الحاج الطيب ، وكيله فى وهران ، معلنا نجاحه : « ان الله تعالى قد حملنا مسؤولية النظر فى صلاح المسنمين وتوجيه جميع أهل هذه البلاد الى شريعة سيدنا محمد . لقد توجهنا الى الصحراء لا للاضرار بالمسلمين الحقيقيين ولا لاخضاعهم وتخريبهم ولكن لايقاظ ايمانهم وجمع شملهم واقامة النظام بينهم .

« وكلهم استجابوا لدعوتنا واطاعوا بقدر ما تسمح به ظروفهم ، ولم يتحلف الا التجينى . وقد وجدنا أنفسنا وجها لوجه أمام الذين كان قد غرر بهم وزين لهم العصيان . فكانوا مستعدين لمحاربتنا . وناشدناهم حب الله ورسوله لكى ينضموا الينا . وذكرناهم لهذا الغرض بآيات من الذكر الحكيم . ولكن كل ذلك كان بدون جدوى . فيئسنا من رجوعهم الى الحق ومع ذلك خفنا ان تكون الرافة بهم سببا فى ضياع الهدف المنشود . وهذا الهدف هو جمع العرب جميعا على كلمة واحدة وتعليم الجاهل شريعة سيدنا محمد . ومنع انتشار الشرور بينهم ، وحفظهم من انتشار الفساد اليهم من بعض المدن ، وتمكنهم من العيش هم ونساؤهم واطفالهم ، فى سلام وامن .

« واذن فقد استعملنا حق سيادتنا ، وكنا على اية حال الطرف المعتدى عليه، ولذلك أمرنا جيشنا المنتصر بمحاربتهم . وكان الدين يفرض ذلك . ففروا أمام جيشنا . والتجأنا مرة أخرى الى حسن معاملتهم لعلهم يرعوون ، ولكنهم رفضوا ايضا . فقد اعلن التجينى انه يعتمد على حصانة اسواره وشجاعة اتباعه . ثم اعلنا عليهم الحصار الضيق . وعند ما وصل حفارونا الى اساس السور طلب السكان ، وهم فى ذعر شديد ، العفو والخلاص . ورغم انهم خدعونا أكثر من مرة فقد أجبنا طلبهم لان الله تعالى قال : « فاعفوا واصفحوا » واملنا هو ان الله سيتذكر موقفنا خلال هذه المناسبة ويعفو عنا للدماء التى حقناها والنساء اللائى حمينا عفتهن .

« وقد منحنا العفو لجميع السكان بشرط ان يخرجوا من المدينة ويذهبوا ليقيموا فى مكان آخر يقع عليه اختيارهم . وكلهم غادروا المدينة . فذهب التجينى وحريمه واطفاله الى الاغواط ، ولكن ابنه الاكبر ظل رهينة فى ايدينا . وفقنا الله بالنصر الدائم وحفظنا من كل سوء . أيها المسلمون . صلوا الى الله من اجل سلطانكم . فهو لا يعمل الا لصالحكم . فافرحوا وادعوا الله

تعالى ان يقويه ويثبت اقدامه ، وثقوا في عفوه الكريـم • اقرأوا مـن سورة « آل عمران » قوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير • تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي مـن الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب » ايهـا المسلمـون • لا تتخذوا الكفار اولياء لكم ، بل اتخذوا اولياءكم من بين المؤمنيـن الحقيقييـن فقط » •

عاد عبد القادر الى مدينة معسكر • ولكن تحدي بني عراش له وموقفهـم العدائي منه ، وهم الذين بلغ بهم الامر ان هاجموا قوافله ، قد اثار سخطـه الشديد عليهم • وكان لديه بالاضافة الى ذلك ، براهين قاطعة على اتصالهـم بالفرنسيين • وبناء على حكم القرآن فانهم يستحقون الموت على تصرفهم • وبعد ان اعطى جنوده فترة استراحة دامت عدة اسابيع اعلن عن القيـام بحملة : وهكذا امر 5،000 فارس ، والفرسان فقط ، ان يكونوا على استعداد لتنفيـذ المهمـة •

وفي اليوم الموعود اجتمع ذلك العدد من الفرسان في سهل اغريس • ولم يكن احد يعلم طبيعة ولا اتجاه الحملة • لقد كان الفصل ابان اشتداد الشتاء• امر عبد القادر ان يحمل كل فارس معه كيسا من القمح وآخر من الشعير لا غير • ولم يكن مطلوبا منهم ان يصحبوا معهم لا بغـالا ولا خيامـا • وعنـد الغروب ظهر عبد القادر ممتطيا صهوة فرسه وقاد قواته في خبب نشيط في اتجاه الشمال الغربي •

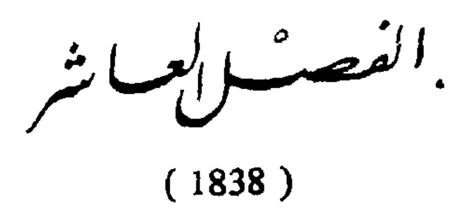
ولكن سرعان ما نزل الظلام • فحمل اربعة رجال كانـوا في الطليعـة المصابيح التي كانت مركزة في اسنة رماحهم • كانت المصابيح مضاءة ولكن مقدمتها كانت مغطاة فكانت ترسل اشعتها الى الوراء فتضيء كامل الركب • وفجأة تغير اتجاه السير وتحول الركب نحو الجنوب الشرقي • ولم يكـن الاتجاه الاول سوى خدعة • وفي منتصف الليل وصل الـركب الى جـدول فترجل الجميع واطعموا الخيول • وفي نفس الوقت قام عبـد القادر ورجالـه بطحن القمح وجعلوا منه عجينا وتناولوه طعاما • وبعد استراحة دامت ثلاث ساعات امرت الفرسان باستئناف السير • ومرة اخـرى ساروا فـي خبب نشيط دام ، مع بعض الركض احيانا ، الى منتصف النهـار • ثـم توقفـوا لاستراحة اخرى قصيرة استأنفوا بعدها السير كالسابق الى حوالي منتصف

الليل · ولم يتناولوا هذه المرة ايضا سوى الطعام وبعض الراحة واستمروا كذلك مدة اربعة ايام وليال ·

وفي فجر اليوم الخامس ظهرت لهم خيام بني عراش منتشرة عبر الافق · لقد كان هناك اكثر من عشرة آلاف خيمة تغطي السهول · وكان الناس ما يزالون نائمين · ولم توقظهم من نعاسهم سوى صرخة عالية وطويلة · وعندما اندفعوا ليتبينوا ماذا جرى ، رأوا ، وهم في حالة فزع ، كوكبة من الفرسان تنقض عليهم كالاعصار ·

كانت صرخات الذعر تردد : « عبد القادر ، عبد القادر · » وكانت النساء والاطفال يركضون هنا وهناك صارخين · اما الرجال ، الذين كانوا مندهشين وحائرين ، فقد كادوا يفقدون شعورهم · بعضهم جرى غريزيا الى سلاحه · وآخرون خفوا الى خيولهم · ولكن العاصفة كانت قد اخذتهم قبل ان يكون لديهم الوقت للتجمع والتنظيم · وبينما هم كذلك كان عبد القادر يصرخ في فرسانه وهو يقودهم في الهجوم : « لا تتعرضوا للحريم · اما اولئك الكلاب فعاملوهم بما يستحقون » ·

كان عبد القادر وفرسانه يسوقون امامهم بني عراش كقطيع من الغنم ، يطلقون النار عليهم ويطاردونهم من جميع الجهات · وبذلك حققوا ولاء اهم شيوخهم · وقد تاثر عبد القادر بحالتهم التي تثير الشفقة وبوعودهم المؤكدة لاخلاصهم المستقبل ، فعفا عنهم من العقاب الشديد · ولكن جميع بني عراش اجبروا على دفع مؤخرات خمس سنوات ، حالا وفي عين المكان ، من العشور والزكاة ، وعلى تقديم مساعدة تقدر بـ 4،000 بعير و 30،000 رأس من الغنم · وقد كان هذا انذارا لبني عراش فاصبحوا منذئذ اكثر اتباع عبد القادر اخلاصا له ، وظلوا كذلك الى آخر لحظة ·



(1838)

ان السهولة التى احتل بها الفرنسيون مدينتي معسكر وتلمسان قد اقنعت عبد القادر بضرورة وجود مراكز بعيدة عن ايدى الفرنسيين • والخطة التى اعدها لمشروعه هذا والتى حققها كان لها هدف مزدوج : مقاومة الاعتداء الفرنسى وتدعيم سلطته الخاصة على العرب • وهذه الخطة تدل بوضوح على عبقريته العسكرية • ولا ادل على ذلك من كلمات عبد القادر نفسه التى وجهها فيما بعد الى الجنرال « دوماس » (1) الذى اقام ثلاث سنوات لديه كقنصل لفرنسا • فقد قال له :

« لقد اقمت على حدود التل ، عددا من الحصون كلفتنى اموالا طائلة بينما كنت اواجه صعوبات جمة • وكان الهدف من اقامتها هو اشعار قبائل الصحراء المضطربة بالسلطة والابتعاد عن هجوماتكم • ولكنكم قد حطمتم هذه الحصون فيما بعد • لقد كانت تقع من جهة الغرب فى سبدو ، وفى سعيدة بالنسبة لجنوب تلمسان ، وفى تاقدامت بالنسبة لجنوب معسكر ، وفى تازة (2) بالنسبة لجنوب شرق نفس المدينة (معسكر) ، وفى بوغار بالنسبة لجنوب مليانة ، وفى بلخورط (الواقعة جنوب ـ شرق مدينة الجزائر) بالنسبة للمدية ، واخيرا فى بسكرة بالنسبة لجنوب قسنطينة •

« لقد كنت مقتنعا فى الواقع انه متى استؤنفت الحرب فان على ان اترك لكم كل المدن الواقعة فى الخط الوسط للاطلس ولكن سيكون من المستحيل عليكم، على الاقل لمدة طويلة، ان تصلوا الى الصحراء لان النقل الذى يثقل كاهل جيشكم

---

1) انظر عنه الفصول التالية •

2) وهى غير تازة المغربية • ويذكرها بعضهم طازة •

سيعرقل تقدمه · ولكن المارشال بوجو قد برهن على انني كنت مخطئا · ومع ذلك فانني عندما اعددت مشروعي لم يكن لدى غير تجربتي مع اسلافه ·

« ولكنكم كنتم ، حتى امام النظام الذى اتبعه المارشال بوجو ، ستجدون صعوبات لا يمكنكم التغلب عليها الا بمشقة في محاولتكم الوصـــول الى خط دفاعي الحقيقي ، لو ان العرب قد رضيت باقتراحي في هـــدم وتخريب مـدن المدية ومليانة ومعسكر وتلمسان · وهي درجات السلم التي بفضلها صعدتم تدريجيا الى ما انتم عليه الآن ·

« ان بعضهم كان يقول ان الفرنسيين سيعيدون بسرعة بناء ما هدمت · وكان آخرون يقولون ، وهم يحكمون على النتائج فقط ، ان هـــدم ما كلـف بناؤه ثمنا باهضا هو عمل فظيع · ولكن كلا الطرفين مخطيء · لقد كان على ان اتبع خطتي الخاصة · وبناء على هذه الخطة ، فان تاقدامت كانت ستصبح مدينة كبيرة ، وهمزة وصل للتجارة بين التل والصحراء · وقد سر العرب بموقعها ، وجاؤوا اليها في غبطة لانها تمنحهم فرصا كبيرة للربح ، وبالاضافة الى ذلك كانت تاقدامت شوكة في عين قبائل الصحـــراء المستقلـة · فهم لا يستطيعون الهروب مني ولا الترحيب بي · وقد سيطرت عليهم بمجرد التحكم في حاجاتهم البدنية · فما دامت الصحراء لا تنتج الحبــوب فهم مضطـرون ان يأتوا الى للتموين ، لقد بنيت تاقدامت فوق رؤوسهم ، وعندما شعـــروا بذلك سارعوا الى عرض طاعتهم ·

« والواقع انه منذ هذا الوقت كان باستطاعتي دائما ان افاجئهم بفرساني غير النظاميين (القومية) (3) ، واذا لم اتمكن من حمل خيامهـــم معي فقـد كنت على الاقل اسوق مواشيهم · وكانت العقوبات القاسية التي طبقتها على بعض القبائل النائية قد جعلت البقية تدرك بسرعة ان لا امل في الهـــروب مني ، وهكذا انتهوا جميعا الى الخضوع الى سلطتي ، ودفـــع العشور والزكاة بانتظام · بل لقد كان من عادتي ان ارسل من يحصى مواشيهـــم ، دون ان ينبسوا بكلمة ·

« وليس في الصحراء سوى اربعة مراكز لم تصلها بعد سلطتـــي ، وهـــي ميزاب ، وورقلة ، وتقرت ، ووادي سوف · اما اولاد سيدي الشيخ (4) فقد

3) تنطق بالقاف المعقوفة ، وتعني الفرسان الاحتياطيين او غير النظاميين

4) مجموعة من القبائل في الجنوب الغربي من الجزائر وجزء من الجنوب الشرقي للمغرب · وقد قاموا بعدة ثورات ضد الفرنسيين منها ثورة 1864 وثورة 1881 بقيادة الشيخ بوعمامة ·

اعترفوا جميعا بسلطتي . حقا لقد منحتهم بعض الامتيازات وسمحت اليهم بدفع ضرائب منخفضة ، ولكنهم كانوا قبيلة من المرابطين ، ومن واجبي ان اعاملهم بدرجة خاصة من الاكرام . واما اهل القصور (مجموعة من القرى في الصحراء) فهم لا يدفعون لي الا القليل ، وليس يهمني ان اكون متصلبا معهم . وهم ينظرون الى موقفي هذا منهم على انه رفق بهم لفقرهم . ولكن كنت ، في وقت لاحق ساجعلهم هدفا لاوامري واحضرهم تحت طاعتي الكاملة » .

وتاقدامت ، التي بناها عبد القادر على انقاضها القديمة ، هادفا من ذلك الى جعلها عاصمة لمملكته ، كان قد بناها الرومان . وهي تقع على مسافة ستين ميلا جنوب – شرق وهران . واذا حكمنا من الانقاض الباقية منها فاننا ندرك ان محيطها كان يبلغ عشرة اميال . وهي تضم معبدين كبيرين . وخلال عهد الازدهار العربي في الجزائر ، كانت تاقدامت مركزا للحكومة ولها مدرسة ثانوية ، وقد انتجت علماء وشعراء . ولكن الحروب التي جرت بين حكام القيروان ، وفاس ، عند نهاية القرن العاشر ، قد ادت الى القضاء عليها وتخريبها نهائيا .

واول حجرة لتاقدامت الجديدة وضعها عبد القادر في شهر ماي 1836 ، وهو نفسه الذي وضع خطة التحصينات التي كانت ستحيط بها ، وقد دفع جوائز الى كل القبائل الواقعة على مسافات محددة ، بشرط ان ترسل العمال للمساعدة في بناء الحصون . فاحضر سكان معسكر السلال والمجارف والمعاول ، وارسلت المدية ومليانة الاجبان والفواكه المتنوعة . وقد كانت هذه التموينات ، بالاضافة الى الخبز الابيض الجيد والى وجبات اللحم احيانا ، هي اطعمة واجور العمال . وسرعان ما شيدت المنازل وظهرت الشوارع وهطل عليها السكان . فقد حلت بها وسكنتها عائلات عربية واندلسية وكرغلية من معسكر ومازغنان ومستغانم . وتحولت سراديب الرومان القديمة الى مخازن للذخيرة والكبريت وملح البارود والنحاس والرصاص والحديد ، ولكل الآلات والادوات والاواني التي اشتراها مولود بن عراش من فرنسا بمبلغ اربعة آلاف جنيه استرليني ، وكان مصنع البنادق ينتج ثماني بندقيات يوميا ، وهو عمل من انتاج صناع فرنسيين جيء بهم من باريس بأجور حرة . وهناك دار لسك العملة الفضية والنحاسية التي كانت قيمتها تتراوح بين خمسة شيلنات الى بينسين (5) . وكان احد وجهي العملة

5) عملات انكليزية . والشلن الواحد فيه 12 بينس ، والبينس يقدر بحوالي دورو عندنا .

تحمل العبارة : باسم الله ، نعم المولى ونعم النصير ، وعلى الوجه الآخر العبارة : ضرب في تاقدامت بامر السلطان عبد القادر · واخيرا كان هناك اثنا عشر مدفعا وستة مدافع هاوون تطل مكشرة من الحصون · وهكذا كان الدفاع عن المدينة كاملا ·

كان عبد القادر يشرف على كل الاعمال برقابة شخصية مستمرة · وقد وصف السيد دى فرانس De France الذى كان احد المساجين عندما كانت تلك الاعمال فى اوج نشاطها ، ما رآه فقال : « بعد زيارة الانقاض جئنا الى استحكام كان عبد القادر يقيمه على بعد حوالى مائتى خطوة من قلعته (يعنى تاقدامت) · وقد اقتربنا من السلطان الذى كان متكئا ، صحبة كاتبه ابن عبود (؟) ومولود بن عراش ، على مرتفع من تراب القى به العمال حديثا من خندق كانوا يحفرونه باجتهاد ·

« كان لباسه من البساطة بحيث لا يميزه المرء من العمال الا بصعوبة · وكان يضع على راسه مظلة كبيرة مصنوعة من سعف النخيل · وكان محيط حافة المظلة ، التى كانت مخيطة بخيوط من الصوف ومزينة بالعذبات ، يبلغ ثلاثة اقدام · اما المظلة نفسها فقد كان علوها قدما ونصفا على الاقل ، وكانت تبدو كأنها نفق منته بهامة ·

« وعندما مررت بالسلطان حيانى بجلال فريد وبابتسامة مدهشة تميز بها ، واشار الى بيده للجلوس · وقد لاحظت له قائلا : اذا حكمنا من الانقاض فان المدينة لا شك كانت فيما مضى واسعة ومزدهرة · فاجابنى : نعم لقد كانت جميلة جدا وعظيمة جدا · فسألت : هل يعود عهد تأسيسها الى زمن سحيق ؟ فاجابنى : ان تاقدامت مدينة عريقة فى القدم ، فسألت هل تعتقد اننى ساكتشف اى حجر عليه كتابات قديمة ؟ فاجابنى : انك سوف لا تجد شيئا ، لان هذه المدينة لم تكن ذات يوم مسيحية · ولقد كانت احدى اوائل المدن التى بناها العرب · وكان اجدادى السلاطين ، الذين كان مركزهم تاقدامت ، يحكمون من تونس الى المغرب الاقصى · ثم سألنى السلطان رأيى فى بناء التحصينات · فاجبته بانها تظهر لى جيدة فى موقعها وفى هندستها · وكان من الواضح انه استفاد ، فى بناء تحصيناته ، من نظرة نقدية الى تحصيناتنا الخشبية · ويبدو انه قد سر كثيرا من جوابى ·

« ثم استأنف حديثه معى قائلا بحيوية : اننى ما زلت آمل ان اعيد الى تاقدامت ماضيها المجيد · واننى سوف اجمع القبائل فيها حيث ستكون فى

مأمن من هجومات الفرنسيين . وعندما تكون كل قواتي قد اجتمعت فانني سوف انزل من هذه الصخرة الشماء ، كما ينزل النسر من عشه ، لكي اطهر مدن الجزائر وعنابة ووهران من المسيحيين . ولو انكم راضون حقيقة بهذه المدن لتركتكم تعانون فيها ، لان البحر ليس من شأني ، وليس لي سفن . ولكنكم تريدون ايضا الاستيلاء على سهولنا ومدننا الداخلية وجبالنا . بل انكم طمعتم حتى في خيلنا وخيامنا وابلنا ونسائنا . انكم تركتم بلادكم الخاصة واتيتم لتاخذوا الارض التي وضع فيها محمد (عليه الصلاة والسلام) شعبه . ولكن سلطانكم ليس فارسا ولا مرابطا ، وان خيولكم ستعثر وتسقط عن جبالنا لانها ليست ثابتة الاقدام كخيولنا ، وان جنودكم سيموتون مرضا، وحتى اولئك الذين سينجون من المرض سيسقطون برصاصنا » .

ولو ان عبد القادر اعطى الوقت لانجاز اهدافه ، لجعل من تاقدامت ليس فقط مركز سلطة ولكن مركزا علميا ايضا . فقد كان يخطط لانشاء مكتبة ومدرسة ثانوية . واذا استخدمنا تعبيره هو « فان الله لم يشأ ذلك . فالكتب الذي احضرتها من كل اجزاء الشرق لهذه المكتبة اخذت مني عندما استولى ابن الملك على زمالتي (6) . ومما زاد في سوء حظي انني كنت قادرا على تتبع طابور الجيش الفرنسي ، اثناء عودتهم الى مدينة المدية ، باوراق الكتب الممزقة المبعثرة ، تلك الكتب التي كانت قد كلفتني كثيرا من الوقت والجهد لجمعها » .

وخلال سنوات 1838 و 1839 دفع عبد القادر خططه الاصلاحية الى الامام بسرعة فائقة . فجيشه وشرطته ومدارسه ومحاكم قضائه المحلية كلها كان قد اعدها ونظمها باحكام ، كما اكمل حصونه . وكانت مصانعه ، التي كان يديرها اروبيون ، تعمل باتقان في أهم المدن الخاضعة له . وفي تلمسان كان احد الاسبانيين يشرف على مصهر للمدافع ينتج (يوميا) اثني عشر وستة مدكات مدفع . وكان احد الفرنسيين الاختصاصيين في علم المعادن ، يدعى السيد دي كاس De Casse قد انشأ في مدينة مليانة ، مصنعا للبنادق وآخر لانتاج البارود . وكان الحديد يحضر من منجم بالقرب من مليانة . وكانت المنسوجات ذات النوع الرفيع ، تصنع ايضا . وكانت مناجم ملح البارود والكبريت والحديد والنحاس محل عمل متواصل . وكان الاروبيون قد استدعوا للاقامة في البلاد ، مع حق التملك بحرية . وكانت الارض تبدو

6. الزمالة (جمعها زمول) مجموعة من القبائل المتنقلة . انظر الفصول التالية .

وكأنها تستيقظ من غفوة طويلة • وكانت روح الحضارة الاروبية تتسرب في كل مكان على الجماهير الهامدة ، مضيئة الاماكن المظلمة ، شاقة طريقهـا الى مراكز الجهل والخرافات •

وكانت قوات عبد القادر غير النظامية ، خلال الفترة الاولى من عمله ، قـد بلغت حوالى 60،000 جندى • وكان هذا العدد يشمل جميـع الوحدات التى كانت القبائل تمده بها فى حالة الطوارىء • ولكن من النادر ان اجتمع ثلث ذلك العدد فى وقت واحد بغرض القيام بحملة عسكرية • اما الفرسان غـير النظاميين والاكثر تفوقا فلم يتوفروا لديه •

ولكن عبد القادر سرعان ما اكتشف عدم كفاءة هؤلاء المحاربين امام جيش منضبط لدولة عسكرية كبرى كان عليه ان يواجهها • وتجنيد جيش نظامى من بين شعب لم يعرف التجنيد الاجبارى حتى ايام الحكم التركى ، شعب تثور طبيعته حتى من مجرد فكرة التجنيد الاجبارى ، هو تجربة خطيرة تحتاج الى حنكة وحذر كبير • وان خطة من هذا النوع لا يمكن اعلانها فى شكل امـر صريح ، ولكن فقط فى شكل اقتراح وتلميح •

وبناء على ذلك ، وجهت الدعوة الودية التالية واعلنت فى كل المدن والدوائر وهى « ان كل من يرغب فى ان يلبس لباسا انيقا وان يصبح ابنا للسلطان ، عليه ان يأتى ويلتزم بذلك • فانه يحصل على راتب محترم وسيعفى مـن كل شيء » • وقـد لبى بعض الشبـان ، الذيـن انجذبـوا بطـريقـة الاعلان ، النداء وقدموا أنفسهم للتجنيد • وهكذا شرع فى تكويـن جيش نظامى دون ان يشعر بذلك احد تقريبا •

وقد وصف عبد القادر تنظيمه العسكرى هكذا : « بالاضافة الى القـوات التى كانت ترسلها الى القبائل الخاضعة لى وقوات خلفائى ، التى كانت تشكل قوة احتياطية ضخمة ، رغم انها مؤقتة ، ما دمت لا استطيع ان احتفظ بالجنود بعداء عن قبائلهم مدة طويلة ــ كان لدى مؤخرا جيش نظامى مكون من 8 000 جندى ، و 2 000 فارس او صبائحى ، و 240 مدفعا • وكان عندى عشرون مدفع ميدان ، دون ذكر مخزن كبير من المدافع ، الحديدية والنحاسية ، التى خلفها الاتراك ، والتى كان كثير منها فى الواقع غير صالح للاستعمال •

« وبهذه الطريقة كان فى استطاعتى ان امد كل خليفة من خلفائى بالـف جندى ، و 250 فارسا ، وبمدفعين او ثلاثة ، وبثلاثين مدفعيا • وكان جنودى

المشاة يجندون من المتطوعين فقط ، ولكنهم كانوا اكفاء اذا اخذنا في الاعتبار وسائلي المالية والاسلحة التي كانت تحت يدي • ولو ان الوقت قد سنح لي لاستعملت اخيرا الطريقة الفرنسية في تجنيد الجنود • ولم يكن ديني ليمنعني من ذلك لانه يجوز للسلطان ان يلتجيء الى التجنيد ليحافظ على شرف رايته وينقذ بلاده من الاعتداء المسيحي •

« وكان مدربو جيشي النظامي من المشاة هم جنود « النظام » من تونس وطرابلس ، بالاضافة الى الفارين من الجيش الفرنسي • وقد ازداد هؤلاء الفارون الى ان اصبحوا اخيرا يكونون كتيبة خاصة بهم ، وقد حاربوا ضد مواطنيهم بكل شجاعة واقدام لا يكاد الجندي المسلم يزاحمهم فيهما • ولقد وزعتهم على خلفائي •

« اما النظاميون من فرساني ، فقد رفضوا ان يوضعوا تحت المدربين • فقد كانوا في اسلوبهم الحربي تقودهم شهامة مستقلة تمنعهم من الاعتراف بسيد يخضعون له • انهم كانوا يعلمون انهم لا يساوون شيئا عند الاصطدام ، ولكنهم كانوا يعتقدون انهم بدون منازع في الاشتباك الفردي وفي الكمين وفي المفاجاة وفي المناوشات الخفيفة • ولم يكن الهروب في نظرهم حطا من قيمتهم، حتى أمام قوة اصغر منهم ، لان هروبهم لم يكن في الغالب سوى خدعة • وكان المبدأ الذي علمتهم اياه هو ان يضروا بالعدو بقدر ما يستطيعون دون تعريض انفسهم للضرر •

« كل جيشي النظامي كان مسلحا ببنادق فرنسية او انكليزية • وقد حصلت على هذه البنادق كغنائم بعد المعارك ، او من الجنود الفرنسيين الفارين، او بالشراء من المغرب الاقصى • وكل عربي ضبط مع بندقية فرنسية في حوزته كان عليه ان يبيعها الى بمبلغ يصل الى جنيهين انكليزيين ، ثم ان هذا العربي يحصل لنفسه على بندقية محلية بطرقه الخاصة ، اما من الاسواق المحلية او من قبائل الصحراء التي تاتي الى التل وتغرق البلاد باسلحة من تونس ، ومن تقرت ، ، ومن ميزاب ، ومن اولاد سيدي الشيخ ، ولقد كنت اضع بارودي الخاص في تلمسان ومعسكر ومليانة والمدية وتاقدامت • كما اشتريت كمية كبيرة من المغرب الاقصى حيث اشتريت ايضا احجار الصوان التي كانت بلادنا مجردة منها تماما • وكان الكبريت يأتيني من فرنسا • اما ملح البارود فقد كنت اجده في كل مكان •

« واثناء وقت السلام كانت المدن الفرنسية الساحلية تمدني بالرصاص،

كما ان المغرب الاقصى قد امدني منه بكمية هائلة ، ثم انـي فتحت منجما للرصاص في جبال الونشريس ، ولكن كل هذا كان يكلفني كثـيرا • لذلك كنت لا اوزع من مخازن الدولة على العرب الا بمقدار ضئيل ، لانهم يبذرون البارود بدون تفكير اثناء احتفالاتهم والعابهم • ولـم أشذ عن هذا المبدا الا بالنسبة لاولئك الذين كانوا يحاصرون المعسكرات الفرنسية او في ميدان القتال عندما تنقص الذخيرة • ففي هذه الحالة كنت اوزع الكرطـوش فـي عين المكان •

«ومن جهة اخرى عينت لدى حكومة كل خليفة من خلفائي خياطين وصانعي الدروع والسروج لكي يصنعوا ملابس جنودي ويصلحوا اسلحتهم ويحافظوا على عدة خيولهم • كما وزعت مثل هؤلاء العمال على القبائل لكي يجعلوا اهلها متاهلين ومستعدين لاجابة ندائي في اية لحظة • ولكـي اوفـر المصـاريف لادارتي حيث كان علي ان اخلق كل شيء من العدم ، رغم اني قيدت نفسي بالضرورة فقط ، كان لابد من فرض ضرائب ثقيلة » •

« لقد امرت خلفائي ان يراقبوا شخصيا كل ما يتعلق بهذه المهمة الخطيرة• كانوا يقومون بجولة مرتين في السنة ، مرة في الربيع لجمع الزكاة واخرى اثناء الحصاد لجمع العشور • وخلال جولاتهم كان عليهم ان يراقبوا وينظموا ادارة الاغوات (7) ، وان يوافوني بتقارير عن اية شكوى ضدهم ، كما كان عليهم ان يشرفوا على الاعمال التي تجري في املاك الدولـة • وكان يتبـع خلفائي في جولاتهم فرقة نظامية وفرسانهم (الصبائحية) • ذلك انه مـن عـادة العـرب رفض دفع الضرائب اذا لم يروا استعراض القوة وكم كـان من الصعب علي عندما تحل بي الهزيمة ، ان اجعلهم يدفعون الضرائب مـن جديد • فقد كان لسان حالهم عندئذ « ان السلطان مشغول بالمسيحييـن • فهو لا يستطيع فرض الضرائب علينا • دعنا لا ندفع اليه ، بل دعنا نر ما يحدث » • وما كان يحدث فعلا هو انهم كانوا في النهاية يـدفعون كل شيء ، مـع المتأخـرات ، ولكنهـم لـم يتعظوا ابدا • فالعرب لا ينظرون دائما الا الى اللحظة التي هم فيها •

« وفي الوقت الذي كنت اطلب فيه من القبائل ما هو ضـروري لتأييـد الدولة،كنت اسعى بقدر الامكان ان اجعل مصالحهم تتلاءم مع مصالح الدولة•

---

7) جمع آغا وهو مسؤول ناحية ، وتحته مجموعة من القواد ، وتحت هؤلاء مجموعة من شيوخ القبائـل •

فقد اعطيت الامر الى خلفائى ان يقبلوا ، بدل الضرائب والغرامات ، المواد الاستهلاكية والبغال والابل ، وبالاخص الخيول . وكنت استفيد من هذا كله ، فاركب فرسانى على الخيول ، واجعل من البغال والابل وسائل للنقل. اما المواد الاستهلاكية فقد كنت امون بها جنودى او املا بها مخازنى .

« وازدادت مصادر دخلى ايضا عن طريق الغزوات التى كنت اقوم بها كلما لجأت القبائل الى السلاح لحل خلافاتها . لقد عزمت على ان اكون الوحيد الذى يحتكم اليه لحل هذه الخلافات . وقد جعلتها قاعدة لا تقبل النقاش وهى ان لا تطلق رصاصة واحدة بدون اذنى . وكانت الخيول والبغال او الابل التى لم تمتد اليها يدى بعد ، توزع على القبائل بواسطة عملاء ياخذون اجورا كافية ، ومع ذلك كانوا تحت رقابة مشددة لمنع الغش » .

« ولقد فعلت خيرا حين فكرت فى المستقبل ، ذلك ان عدد الخيول التى كان على ان اعوضها فى فرقة فرسانى النظامية كان مرتفعا كثيرا . ولم يكن هناك فارس من هؤلاء لم يقتل سبعة او ثمانية خيول تحته ، او اصبحت غير صالحة للاستعمال . بل لم يكن من النادر ان نجد فرسانا فقدوا ما بين اثنى عشر الى ستة عشر حصانا . فابن يحيى ، ذلك الجندى الهمام الذى فضل موتا محققا على ان يعيش بعد هزيمتى ، خلال معركتى الاخيرة مع المغاربة (ديسمبر ، 1847) ، فقد ثمانية عشر حصانا قتلت كلها تحته . وقد بلغت المنافسة درجة كبيرة فى هذا المجال حتى ان اى فارس يقضى سنة دون ان يكون له حصان جرح او قتل تحته ، كان ينظر اليه باحتقار » .

« وكلما كان فى استطاعتى كنت ايضا اعوض الخيول التى كانت تفقدها وحدات فرسانى غير النظاميين (القومية) فى المعركة . وقد بلغ ما عوضتهم به فى هذا الصدد اكثر من 6،000 حصان . ولكن عندما لم يكن فى استطاعتى مؤخرا تعويضهم بالخيول ، اذنت لهم فى اخذ جملين ، او ثلاثين رأسا من الغنم ، او بغل جيد ، بدل الحصان . فكانوا يبيعون هذه الحيوانات ويشترون بثمنها ما يريدون ركوبه . غير انى لم استطع اخيرا ان امدهم حتى بهذه التعويضات . ولكى اعطى فكرة عن استهلاك الخيول ، اقول اننى خلال سنة واحدة اعطيت 500 حصان لغرابة وهران وحوالى نفس العدد لحاجوط فى سهول مدينة الجزائر. وفى نفس الوقت هناك كثيرون لم احاول ابدا تعويضهم، اما لان اصحابهم اغنياء واما لاننى لم اعد املك الوسائل .

« وكانت الاغنام والابقار التى تدفع بعنوان الزكاة تعطى للقبائل ، تحت

اشراف القواد · وكان واجب هؤلاء المسؤولين ان يحسبوها وان يعينوا لها رعاة ، وان يطعموها ويعتنوا بها · وكانت هذه الحيوانات ، التى توجد فى مقر حكم كل خليفة ، تستخدم لسد تكاليف الضيوف ، ولمعونة الفقراء ، ومساعدة الطلبة،ولتموين جيشى الذى كان ياكل اللحم مرتين فى الاسبوع· وبهذه الطريقة استطعت ان اقيم نظاما كاملا لادارة الضرائب فى كل ولاية (خلافة) · ولكن عندما استؤنفت الحرب لم استطع ان امنع الغش ، وقد اغتنم العرب في كل مكان فرصة انشغالى ، ولم يستطع سوى خليفتين ان يحافظا على النظام الذى اقمته الى آخر لحظة وهما البوحميدى وابن علال ، وقد كان الناس يخشون كلا منهما لصرامته ·

« ولم تكن الاحتياطات التي ذكرتها تكفى لتموين جيشى فى كل المجالات التى دعاه واجب الحرب للعمل فيها · لذلك امرت ، تفاديا لوضع حمل جديد على الاهالى قد يؤدى بهم الى السخط على ، باقامة مخازن للحبوب تحت الارض في كل ولاية (خلافة) ، وكانت هذه المخازن ، التى كانت تحت مسؤولية قائد كل قبيلة والتى كان العدو لا يستطيع العثور عليها ، تحتوى على الحبوب التى تدفع كعشور ، او من اراضى الدولة والتى كان يحرثها عمال تارة بالقوة وتارة بالاجر » ·

« وبهذه الطريقة برهنت للعرب ، الذين من طبيعتهم الشك ، اننى لم آخذ شيئا من الضرائب لمصلحتى الشخصية · لقد جعلتهم يدفعون للصالح العام فاجابونى · والواقع ان هذه المخازن هى التى اجلت سقوطى ، ذلك ان اكتشافها وتخريبها من الفرنسيين قد ادى الى سقوطى · فعندما جردت من مخازن تموينى اصبحت مضطرا الى فرض مطالب جديدة على القبائل · ولما شعرت هذه القبائل بالضغط الشديد من الجهتين ارتخى حماسها للجهاد ·

« اما بالنسبة الى ، فاية مناسبة لى ، ان الجأ الى الخزينة العامة لدفع مصاريفى الخاصة ، فالى اللحظة التى وضع فيها الفرنسيون أيديهم على أملاكى القليلة ، لم امس قط اى شيء مما اعطانى العرب للمصاريف العامة · وعندئذ لم آخذ الا ما كان ضرورة مطلقة · فملابسى كانت تصنعها نساء بيتى ، ودخلى القليل كان يكفى لحاجات اسرتى · بل حتى الفائض القليل الذى ترك لى كنت اصرفه فى مساعدة الفقراء والمسافرين ، وبالاخص المحتاجين من اصحابى فى السلاح الذين كانوا قد جرحوا اثناء الجهاد ·

« وبذلك كان فى استطاعتى باستمرار ان انادى العرب للتضحيات

الكبيرة ، لانني أريتهم ان الزكاة والعشور والغرامات والمساعدات ، وكل مواردي في الحقيقة ، كانت مكرسة فقط لخدمة الصالح العام • وعندما استئنفت الحرب سنة 1839 دعوت العرب لمنحي قرضا كبيرا ، غير انهم استجابوا ببطء وفي الحال بعت في المزاد كل مجوهرات عائلتي في اسواق معسكر معلنا على الملا ان دخلها سيرسل الى الخزينة العامة • فجاء القرض حينئذ بسرعة ، وكان الامر يتعلق فقط بمن يدفع اولا » •

وعندما بدا عبد القادر في تكوين جيشه النظامي وضع ونشر تنظيمات عسكرية تحتوى على آخر التفاصيل المتعلقة بالانضباط والرواتب وملابس جنده • وكانت هذه التنظيمات تقرأ مرتين في الشهر لمختلف الوحدات ، وكانت تتخللها الوصايا والوعود للسلوك الطيب•ويكفى ان نورد منها كمثال ما يلي : « من الضروري ان يكون القائد شخصيا شجاعا ومقداما ، وان يكون من اسرة محترمة، ليس محلا للانتقاد الاخلاقي ، محافظا على دينه ، صبورا ، حليما ، حذرا ، حاضر البديهة ، ذكيا في ساعة العسر والخطر ذلك ان القائد بالنسبة لجنوده هو بمنزلة القلب للجسم ، واذا كان القلب عليلا فلا فائدة من الجسم •

« والجندي الذي ينقض على صفوف العدو ، فيغلب ويجرد خصمه من السلاح ، او يدعو الجنود للصمود عندما يكونون على وشك الهزيمة ، ويمنع بمثاله وحضور عقله وقوع الفشل والانكسار ، سيعلق له السلطان شخصيا الوسام امام الجيش كله وتعلن بطولته بدق الطبول » •

وهذا الوسام يختلف في مظهره حسب جدارة مستحقه • فهو يتكون من يد فضية او فضية مموهة بالذهب ممتدة الاصابع • وعدد الاصابع الممتدة يشير الى عدد مواقف البطولة التي وقفها الجندي • وكل اصبع ممتد يجعل البطل مستحقا لراتب اضافي يبلغ شلينا واحدا شهريا • وفي وسط الوسام كتبت عبارة « ناصر الدين » • وكان الوسام يلصق لا على الصدر ولكن على احد جانبي راس البرنس • وكان الوسام يمنح ايضا للمدنيين الذين قاموا بخدمات ادارية عظيمة •

وكانت بدلة الجندي تتكون من سروال ازرق داكن مع حمرة ومن معطف سي له غطاء للراس وطاقية وشاش صغيرين • وكان راتبه يبلغ تسعة فرنكات شهريا • وعلى الكم الايمن لكل قائد خيطت العبارة التالية : « الصبر والمثابرة مفتاحا النصر » • وعلى الكم الايسر : « لا اله الا الله محمد رسول

الله » • وعلى الكتف الأيمن للآغا ، بدل الشارة العسكرية (عند الاروبيين)، كتبت العبارة : « لا شي يفيد كالورع والشجاعة » وعلى الكتف الايسر . « لا شيء يضر كالجدل والعصيان » •

وكان جميع ضباط الجيش يحملون عبارات مكتوبة على بدلاتهم تعبر عن نفس الاتجاه • فالصبائحية او الفرسان النظاميون كانوا يلبسون بدلات بنية فقط• وكان قوادهم يحملون عبارة : «ثق في الله ورسوله ــ جاهد وانتصر»• وكان المدفعيون يحملون عبارة « انا لا اوجه الطلقة بل الله هو الذى يوجهها »• وهكذا كان الدين ، بواجباته وسلطانه ، قد وضعه عبد القادر عاليا لا فى جيشه فقط ، ولكن فى كل ادارته ، باعتبار ان الدين اساس ضرورى ومدعم للجهد الانسانى •

والالماع التالى الى نفسه ، وهو الذى انهى به تنظيماته العسكرية ، وضعه امام ضباطه وجنوده كمثال لتقليده والمنافسة من اجله • وليس هناك اية مبالغة فى تعبيراته : « ان الحاج عبد القادر لا يهتم بهذه الدنيا ولا يأخذ منها شيئا سوى ما يسمح به دينه • فهو لا يحب الثروة ولا الغنى • وهو يعيش بكل بساطة وقناعة ، وهو دائما يلبس ثيابا بسيطة ، وينهض فى منتصف الليل ليسلم روحه وارواح اتباعه الى الله ، وهو لا يجد لذته الحقيقية الا فى الصلاة والصوم لعل الله يغفر له ذنوبه •

« والحاج عبد القادر لا يعرف الفساد • فهو لا ياخذ ابدا شيئا لنفسه من الاموال العامة • كل الهدايا التى تحضر اليه يرسلها الى الخزينة العامة ، لانه لا يخدم نفسه ولكنه يخدم الدولة • وهو لا ياكل ولا يشرب ولا يلبس الا ما اذن به الدين • وعندما ينتصب للقضاء يسمع الشكاوى بصبر جميل ، وهناك ابتسامة دائمة على وجهه لتشجيع اولئك الذين يقتربون منه • وقرارته هى دائمًا طبقا للقرآن الكريم • وهو يكره الرجل غير المستقيم ويكرم الرجل الذى يعمل طبقا لمبادىء الدين ويؤدى واجباته •

« ومنذ نعومة اظفاره تعلم ان يركب بدون معلم اكثر الخيول شرودا • ولم يدر ظهره ابدا لعدو ، بل كان ينتظره بثبات • واثناء التقهقر كان يحارب كما يحارب الجندى العادى ، وحدا جنوده بكلماته وبمثاله ، ومشاركا لهم فى جميع الاخطار ، وهو، فى شجاعته وايثاره وورعه، يدمع جميع العيون ويذيب القلوب القاسية عندما يقف للوعظ • وجميع الذين ينصتون اليه يصبحون مسلمين صالحين ، وكان يفسر اغمض الآيات القرآنية والاحاديث النبوية

دون ذكر الكتب ولا العلماء • وبذلك جعل العلماء العرب والطلبة يعترفون به سيدا ومعلما لهم • ضاعف الله من مروءته وحكمتــه وعلمه وفهمه وشرفــه ومجده ونجاحه الف مرة » •

الفصل الحادي عشر

(1838 - 1839)

اصبح عبد القادر يرى نفسه الآن مؤسس امبراطورية ٠ ان عبقريته القوية النشيطة قد نجحت في منح الالتحام والوحدة لعناصر كانت على جانب كبير من التخاصم والاختلاف ٠ فقد خضعت لصولجانه العظيم مآت القبائل٠ وكان المرء يلاحظ في كل مكان النتائج الطيبة للنظام والحكومة الصالحة ٠ وكانت علاقاته الخارجية تشهد على قوة سلطته وعظمة شهرته ، فحكام وولاة المغرب الاقصى ومصر وتونس وطرابلس كلهم كانوا يتسابقون الى كسب احترامه والاعجاب به ٠ وعلماء مكة والاسكندرية كانوا يرقبون ، بفرحة قدسية وبامل كبير ، اعمال رجل كان يظهر ان القدرة الالهية قد اختارته لاحياء امجاد الاسلام الغابرة ٠

ولما كان عبد القادر يتقد غيرة لتحقيق مهمته العظيمة على اكمل وجه ، فانه لم يضع ساعة واحدة ، نهارا او ليلا ، في التخطيط والترتيب وتنفيذ مشاريع جديدة للتقدم والاصلاح ٠ لقد كان الهدف الاسمى والاشمل لعبد القادر هو جعل عرب الجزائر شعبا واحدا ، ودعوتهم للمحافظة التامة على دينهم ، وبعث روح الوطنية فيهم ، وايقاظ كل قدراتهم الهامدة ، سواء للحرب ، او للتجارة، او للزراعة، او للاخلاق والتعليم، ثم تتويج ذلك كله بطابع الحضارة الاوروبية٠

ان نشاطه العجيب وحيويته وتفكيره الخلاق قد جعلته يتغلب على صعوبات كان يبدو من المستحيل التغلب عليها ٠ وان سيفه المنتصر ، سواء في ضربه العدو من الخارج او خصومه من الداخل ، قد برهن على طاقة لا تقهر لارادة تنفذ ما تشاء ٠ وقد قرر الآن ان يجعل غيره يرى انه يستطيع تحقيق الانتصارات بدون جنود وافتكاك اكاليل الغار دون ان تلوث بالدماء ٠ ان عبد القادر المحارب والخطيب والدبلوماسي ورجل الدولة والمشرع تكمن اسرار

قوته فى عظمته العقلية • فرسائله وخطبه واحاديثه كلها تحمل طابعها الخاص فى الجدة والاصالة • والحق ان بيانه الطبيعى الذى اغنته الدراسة وانضجه التفكير وارتقت به مهابته الفذة كان له وقع السحر •

لقد كسب اقليمى وهران والتيطرى وسهول الصحراء بقوته العسكرية • ولكن القبائل الكبرى ، تلك القطعة الساحرة من جبال جرجرة ، التى كانت تمتد شرقا من مدينة الجزائر الى بجاية ، هى الآن مسرح لانتصاره الباهر ، وهو الانتصار الذى كسبه بسلطته المعنوية • ان السكان الاشداء لهذه المنطقة طالما تحدوا كل محاولة لاخضاعهم • لقد كانوا يشكلون وحدات مستقلة لا يربطهم الا حبهم الشديد للحرية • لذلك حافظوا على عاداتهم وتقاليدهم وقوانينهم وسط حكومات متقلبة قامت وسقطت من حولهم •

وكان من الواضح ان هذا المربض للجنود سيعطى عبد القادر ، اذا ما كسبه الى جانبه ، عنصر تأييد لا يتراجع ، بل ، اذا ما اقتضت الضرورة ، سيكون له عونا على الزحف ضد عدوه • لذلك قرر عبد القادر ان يحقق وحده باللين والاغراء ما عجز عن تحقيقه الآخرون بقوة السلاح • وهكذا ظهر فجأة، فى سبتمبر ، 1839 ، فى برج حمزة متبوعا بخمسين فارسا فقط • وكان ابن سالم ، خليفته المخلص ، الى جانبه ، واذا ما سال بعضهم عما يقترح عبد القادر فعله ، كان الجواب « لنكسب تأييد جرجرة ! » وكان ذلك بداية الحماسة •

قطع الركب المرتفعات الاولى بسرعة • وكان منظر هذه الكوكبة الصغيرة من الفرسان ، منحدرة الى اعماق الوديان والشعاب او صاعدة مرتفعات تكاد تكون عمودية،قد اثار العجب والاستغراب بين الجبليين الذين كانوا ينظرون من اكواخهم الى هذا المنظر الغريب •

ولكن سرعان ما انتشر الخبر بان عبد القادر كان هناك • وتجاوبت الصخور ذلك الاسم السحرى • فتداعى السكان من كل جانب لتحية ضيفهم الشهير • وكان العدد الذى تجمع حول خيمته منهم يقدر بالآلاف ، وكان مدخل الخيمة قد غص بالشيوخ والمرابطين ، واشتد الزحام حول الخيمة ، وجعل بعضهم يتسلل بخشونة ويرفع اطراف الخيمة لاشباع فضوله • ولكن مرافقى الامير قد ردوهم قائلين لهم : « عودوا الى الوراء ، انكم ستدوسون سيدنا » • وعندما رأى عبد القادر خيبة آمالهم قال لمرافقيهم بلطف : « دعوهم

يقتربوا ، دعوهم يقتربوا • انهم اشداء صلاب مثل جبالهم • اعذروهم ، فانتم لا تستطيعون تغيير طباعهم في يوم » •

وعندما طلب عبد القادر رؤية زعماء الاهالي ، كان الجواب : « اننا نطيع امناءنا ومرابطينا » • وعندئذ تقدم الامناء لتقديم الولاء والترحيب • وقد سأل عبد القادر عمن فيهم يمثل الجميع ، ولكن جوابهم كان هو ان « ليس عندنا زعيم واحد نمنحه كل الصلاحيات • ان امناءنا الذين اختيروا بالانتخاب الشعبي هم الذين يعبرون عن ارادتنا العامة » • فكان هذا حقا جواب أناس يغارون على حريتهم • وهنا امر عبد القادر بافساح المجال وطلب الجمهور المتراص ان يجلس • فتكونت بذلك دائرة كبيرة • ووقف هو في الوسط ، والسبحة في يده •

والآن ، وفي خطبة من خطبه المثيرة التي تقنع العقل وتذيب قلوب كل الذين يستمعون اليه ، طلب عبد القادر من مستمعيه ان ينضموا تحت لوائه • وقال لهم انه لم يات اليهم كالاتراك ليفرض نفسه عليهم بالقوة ، بل جاء اليهم كحاج بسيط معتمدا على قضية الحق التي يدافع عنها ، قضية الله ورسوله • لقد هزم الكفار ، الذين جاءوا لاحتلال ارضهم ، اكثر من مرة ، وكان كفاحه ضدهم مجيدا ، مجيدا من اجل الاسلام • ان كل غرب الجزائر قد اطاع اوامره ، واذا شاء فانه من السهل عليه ان يخضع شرق البلاد بغربها ، وان يقلب بساط غربها على شرقها ، تماما كما يقلب البساط الذي يقف عليه •

واستمر عبد القادر في مخاطبتهم قائلا : « واذا قلتم لي ان الشرق اقوى من الغرب ، فان جوابي هو ان الله قد بعث لي بالنصر لوضوح الاهداف التي تقودني وتوجهني • والى جانب ذلك فانتم تعلمون ما نص عليه القرآن الكريم من ان « النمل يغلب الفيلة وان الجنذان تقتل الاسود • » (I) وتاكدوا انني لو لم اقف بشدة في وجه الفرنسيين المعتدين ، ولو لم اظهر لهم ضعفهم وعدم قدرتهم ، لانقضوا عليكم انقضاض البحر الهائج ، ولرأيتم عندئذ ما لم يخطر على قلب بشر سواء في الماضي او في الحاضر • ان الفرنسيين قد تركوا بلادهم ولم ياتوا الا لاحتلال ارضنا واسترقاق اهلها • غير انني

I) لم نهتد الى اصل هذا الكلام الذي يقول عنه المؤلف انه من القرآن • وهناك آيات متعددة تتحدث عن البعوضة والنمل والفيل والذباب ولكن ليس في هذا المعنى الذي اورده • ولعل اقرب الى هذا المعنى قوله تعالى : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة » وقوله تعالى : « وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » •

ساكون لهم الشوكة التي وضعها الله في اعينهم ، واذا ساعدتموني فسارميهم في البحر ٠

« واذا لم تساعدوني فانهم سيسترقونكم ويدوسون حرماتكم ٠ فاشكروا الله اذن على انني انا عبوهم الالد ٠ اسيقظوا يا اهل جرجرة ٠ وانتبهوا من غفلتكم ٠ وثقوا ان ليس في قلبي سوى الرغبة في سعادة وصلاح ورفاهية جميع المسلمين ٠ ان كل ما اطلبه منكم اليوم هو الطاعة والوفاق والمحافظة التامة على قوانين ديننا المقدس ، لكي ننتصر على الكفار ٠ ولا اطلب منكم لتعضيد جيشنا سوى ما فرضه الله العلي القدير ٠

« انني لا ارغب في تغيير تقاليدكم ولا في ابطال قوانينكم واعرافكم ٠ ولكن القيام بالعمليات الحربية تتطلب مسؤولا ٠ انني ادعوكم الى الجهاد في سبيل الله ٠ فاختاروا رئيسا عليكم ٠ انني اقترح عليكم ابن سالم ٠ فاذا اخترتموه فسيكون لكم كالبوصلة في ساعات الخطر والعسر ٠ وان الله شاهد على ما اقول ٠ واذا لم يلامس قولي هذا مكانا في قلوبكم فسياتي يوم تندمون فيه ، ولات ساعة مندم ٠ انني احاول اقناعكم بالتي هي احسن لا بالقوة ٠ وانني ادعو الله ان يهديكم الى سواء السبيل » ٠ وعندما انتهى عبد القادر من خطبته انطلقت صيحة عامة تقول « اعطنا ابن سالم ٠ اعطنا ابن سالم ٠ خذ منا الزكاة ٠ خذ منا العشور ٠ وقدنا ضد الكافرين ٠ اننا ابناؤك وجنودك وخدمك ! » ٠

وبعد ان ولى ابن سالم خليفة له على جرجرة وسط الافراح والتهاليل ، واصل عبد القادر مسيرته السلمية خلال هذه الارض الكريمة ٠ لقد كانت مسيرته سلسلة من الافراح مدة ثلاثين يوما ٠ فكلما عرف السكان مكان توقفه هرعوا اليه ببساطتهم وحماسهم حاملين « ضيفتهم » التي كانت عبارة عن قصاع كبيرة من الارز المغطى بقطع اللحم ٠ وكل منهم كان يضع قصعته امام خيمة السلطان ويصر على ن يتناول السلطان منها قائلا له « كل انها ضيفتي ! » ولكي يتفادى عبد القادر جرح العواطف كان مضطرا ان يذوق من كل قصة على حدة ٠

ان هذه الرحلة القصيرة كانت تكفي لجعله معروفا ومكانا للاحترام ٠ فلطف وبشاشة اخلاقه ، وشهرة ورعه ، واسمه المعروف كعالم ، ولقبه

المبجل كحاج ومرابط ، وسمعته الطائرة كمحارب شجاع ، وبيانه الساحر كخطيب ، كلها قد جعلت دعوته لا تقاوم • ولم يكن هناك احد رآه وسمعه من بين اولئك الجبليين الاشداء الاحرار يستطيع ان يتخلص من قوة هذه المؤهلات الخارقة مجتمعة • وقد جعله شعراؤهم موضوعا لاغانيهم • وودعهم عبد القادر ، فلم يتخلص من الحاحهم الودى الكريم الا بصعوبة • واخيرا غادرهم • ان عبد القادر قد نجح فى كسب جرجرة الى جانبه • وكان فى استطاعته ان يتمثل بقول قيصر « جئت ، فرأيت ، فانتصرت » •

وما دام عبد القادر لا يكل فى مساعيه من اجل ايقاظ الشعور الوطنى للعرب وتوحيده وتوجيهه ، فقد اسس منذ البداية نظاما للتعليم العام بين جميع القبائل • وقال فيما بعد ان « واجبى كحاكم ومسلم ان اؤيد وابعث العلوم والدين • لذلك فتحت المدارس فى المدن وبين القبائل • وفى هذه المدارس كان الاطفال يتعلمون الصلوات ويحفظون تعاليم القرآن وفروضه ، ويعرفون جيدا القراءة والكتابة والحساب •

« وكان الذين يريدون ان يواصلوا تعليمهم بعد ذلك ، يرسلون الى الزوايا والمساجد حيث يتعلمون بدون مقابل • وهناك ايضا يجدون الطلبة على استعداد لتعليمهم التاريخ وعلوم الدين • لقد خصصت للطلبة رواتب على حسب معارفهم ودرجاتهم • وكان يظهر لى ان العلم هام جدا فعملت على تشجيعه ، حتى لقد عفوت اكثر من مرة على اناس مجرمين محكوم عليهم بالموت لمجرد انهم طلبة • انه يلزم للمرء وقت طويل فى بلادنا ليصبح على درجة كبيرة من العلم ، لذلك لم تكن لدى الشجاعة على اضاعة ثمار احتاجت الى سنوات من الجهد فى يوم واحد • ان الساكن فى كوخ قد يقطع نخلة لا تريحه ولكن كم سنة يجب عليه ان ينتظر قبل ان يكون فى استطاعته ان يذوق ثمار نخلة اخرى يغرسها !

« ولكى اساعد الطلبة على دراستهم بذلت اقصى الجهود فى المحافظة على الكتب والمخطوطات من الضياع • وكان هناك اكثر من سبب يحدونى الى بذل هذه الجهود ، ذلك انه بالنسبة الينا يلزم المرء عدة شهور لكتابة نسخة واحدة • ومن اجل ذلك اعطيت اوامرى المشددة فى جميع المدن والقبائل ان يبذلوا عناية قصوى فى المحافظة على المخطوطات ، وقد اشتملت اوامرى على ان كل من وجد يتلف او يفسد مخطوطا تجب معاقبته معاقبة شديدة •

« ولما كان جنودى يعرفون مدى اهتمامى بهذا الموضوع فقد كانوا يحرصون

على احضار كل ما تقع عليه ايديهم من مخطوطات اثناء الغزوات وكانوا يقومون بذلك بعناية فائقة • ولكى اشجع غيرتهم وتحمسهم فى هذا المجال كنت دائما اعطيهم جوائز كبيرة على ذلك • وشيئا فشيئا جمعت مجموعة ضخمة من هذه المخطوطات ووضعتها فى اماكن امينة فى الزوايا والمساجد واوكلتها الى الطلبة الذين كانوا موضع ثقتى •

« وبنفس الهمة التى وضعت بها نظام التعليم العام اسست نظام القضاء• فقد خصصت للقضاة رواتب شهرية ، بالاضافة الى علاوات يأخذونها لقيامهم ببعض الواجبات الاخرى • كان النظام الذى اريده يقوم على ان ممثلى القضاء يجب ان يظهروا فى كل مكان بل ان يتبعوا جيشى فى مسيرته • ان الاتراك كانوا يحكمون بالموت تبعا للنزوة وبغلظة ، ولكننى لم اسمح باى تنفيذ للاعدام الا بعد حكم مطابق لشريعة الله التى لم اكن سوى منفذ لها •

« لذلك اينما ذهب جيشى كان مرفوقا بقاض ومساعدين ، احدهما (وهو رئيس الشرطة) كان ينفذ الاحكام • ولم يكن الناس ينظرون اليه باشمئزاز على فعله ذلك ما دام ليس هو فى الواقع المنفذ للقتل بل القانون • ولا شك ان كثيرا قدعانوا من نظامى هذا ولكن لم يعان احد بدون حكم شرعى • وجميعهم قد ارتكبوا نوعا ما من الجرائم او خانوا دينهم • ان شريعتنا صريحة فى ان كل من اعان العدو ببضائعه فقد احل بضائعه ، وكل من اعانه بسلاحه فقد احل حياته •

« وبفضل يقظة خلفائى واغواتى وقوادى ، وبفضل المسؤولية التى حملتها القبائل عن كل الجرائم والسرقات التى ترتكب فى مناطقها ، فان الطرق اصبحت آمنة تماما • وكانت يقظة الشرطة قد جعلت الناس آمنين مطمئنين وبعبارة اخرى ، فرغم وجودى بين شعب يعيش تحت الخيام ، وكان لذلك من الصعب ان يدار وان يوجه لاتساع المساحة التى كان منتشرا فيها ، فقد استطعت ان اصل الى عهد اصبحت فيه سرقة الخيول بالليل غير معروفة ، وأصبحت المرأة تستطيع ان تخرج وحدها دون ان تخاف الاهانة • وعندما يعلق الناس على هذه النتيجة الكبيرة ويطلبون السبب كان العرب يجيبون « ان مصائد السلطان منصوبة وليس هناك حاجة لنصب مصائدنا الخاصة »•

« وفى نفس الوقت ادت اصلاحاتى الى الارتفاع بالروح العامة • فالعهر قد حورب بشدة • ولو شاء الله لانتهيت باعادة العرب الى طريق القرآن الذى ابتعدوا عنه كثيرا • لقد منعت منعا باتا استعمال الذهب والفضة فى

ثياب الرجال لانني كنت اكره التبذير والتحلل الذى يؤدى اليه ، ولم اتسامح الا بتزيين الاسلحة والسروج • اليس من واجبنا ان نعز وان نكبر ما ساهم كثيرا في سلامتنا ؟ اما النساء فان الحظر لم يشملهن • ان الجنس الضعيف يحتاج الى تعويض لان الرجل في امكانه ان يتمتع بجميع انواع اللذائذ التي يرغب فيها : الحرب والصيد ، والاشغال الفكرية والحكومة والدين والعلوم •

« وقد كنت اول من ضرب المثل بلبس ثياب بسيطة ببساطة ثياب اكثر خدمي تواضعا • وما فعلت ذلك خوفا من تمييز نفسي امام ضربات قنابل العدو ، ولكنني فعلته لانني كنت ارغب ان لا افرض على العرب الا ما افرضه على نفسي ، وان اظهر لهم انه من الافضل امام الله ان نشترى سلاحا وذخيرة وخيلا للحرب من ان نكون مغطين بزينة جميلة وغالية ولكن غير مفيدة •

« اما الخمر والميسر فقد منعتهما تماما ، كما منعت التدخين • وليس معنى ذلك ان ديننا يمنع التدخين ولكن جنودى كانوا فقراء ، ولذلك كنت حريصا على ان ابعدهم عن عادة معروفة بزيادة الفقر ، وقد اوصلت بعض الناس الى ترك عائلاتهم في فقر مدقع وبيع حتى ثيابهم لاشباع نهمهم في التدخين • حقا لقد بقي بعض الناس يدخنون، ولكن ذلك كان في مناسبات فقط ، وفي سرية ايضا • ان هذه الخطوة كانت كسبا كبيرا • اما المرابطون والطلبة وكل من له علاقة بالحكومة فقد ابطلوا عادة التدخين تماما • وعلى اية حال فان هذا يظهر الى اى مدى نجحت في كسب الطاعة •

« هذا ما كان من امر نجاحي في التنظيم • واذا اخذنا في الاعتبار الوقت القصير الذى كان علي ان احقق فيه كل ذلك ، فان اصلاحاتي لم تكن قليلة الاهمية • وعلى اية حال فقد برهنت على مدى ما كنت أريد تحقيقه ، ولكن ابن ملك الفرنسيين جاء بجيش من قسنطينة ، وعبر ، دون ان يعطيني ادنى اشارة ، المنطقة التي كانت ، بدون منازع ، منطقتي بمقتضى معاهدة التافنة، وتحارب مع جيش خليفتي ابن سالم ، في بني هني ، وهكذا كان السبب في استئناف الحرب » •

كان عبد القادر قد استطاع ان يواصل وينجز خططه الاصلاحية بمراقبته الشخصية المستمرة التي لا تعرف الكلل • وكان دائم الحركة يفتش جنوده، ويزور مخازنه الحربية ، ويتفقد مدارسه ، ويدير القضاء • وكان يبدو ان

سلطان العرب الشاب يجسم مبادىء التقدم ، وانه ، كعبقرية مباركة ، كان يزرع بركات المعرفة والامن والرضى اينما حل وارتحل ٠

وكلما شاع انه قد حل بمنطقة ما ، هرع الناس لزيارته زيارة مجاملة واحترام متنافسين فى كرمهم المتنوع نحوه ٠ وكل قبيلة كانت تاتى اليه يتقدمها قائدها على صهوة جواد٠ ويتلو ذلك الرجال والنساء والاطفال يتقدمون مثنى مثنى حاملين فوق رؤوسهم الطبق الوطنى (الكسكسى) ، وكان اغنياء العرب يشكلون صفا على حدة حاملين الخرفان المشوية المتبلة على العصى ٠

وعند وصول الموكب الى خيمة السلطان ، التى كان يقف امامها دائما ثلاثون حارسا زنجيا ، تصفف قصاع الكسكسى على الارض وتنصب عصى الخرفان المشوية فى صف ايضا فى انتظار ان يعطى السلطان اشارة قبول العرض ، وعندئذ يصبح ذلك الطعام اكلا سائغا لحاشيته واتباعه ، ثم ياتى شيوخ القبائل ويقبلون يد السلطان ، ويكون كل منهم قد احضر معه ضريبة قبيلته او يستظهر ببيان دفعها الى الخليفة الذى تقع القبيلة المعنية فى منطقته٠ وبعد ذلك يجىء دور عامة الناس الذين يدخلون ويؤدون فرض الطاعة ٠ واذا صادف ان كان اليوم يوم جمعة فان عبد القادر كان يتقدم ويصلى بالناس ٠

وكلما كان عبد القادر مستقرا فى مكان معين فانه كان الوحيد الذى يقوم بدور القاضى ٠ فكان باب خيمته مزدحما كمدخل بلاط الملوك ٠ وهناك كان يستمع الى الشكاوى ويحكم فى المظالم ٠ وكان فيما يخص القضايا الجنائية يقرر بدون استئناف ٠ وكان دائما يستشهد بالقرآن وياخذ منه احكامه وكانت احكامه بالاشارة لا بالنطق ٠ فاذا رفع يده فان السجين يعاد الى السجن ٠ واذا مدها افقيا فان السجين يعدم ٠ واذا خفضها نحو الارض فان السجين يجلد ٠ اما القضايا المدنية فتحال على العلماء ٠ وكل الاحكام كانت تصدر طبقا للقرآن الذى يخضع عبد القادر لنصه وروحه خضوع اجلال وتقديس ٠ لقد كان القرآن فى الواقع دليله فى حياته الخاصة والعامة ٠

واخيرا نجح عبد القادر فى اقامة جهاز حكومة كانت ، بحكم الانسجام بين مختلف اجزائها ، تعد وعدا طيبا بالنجاح والدوام ٠ والسلم الادارى البسيط الذى خلفه فى هذا الجهاز كان يتماشى تماما مع حاجة قومه الادارية وعواطفهم الوراثية ، فالموظفون العامون كانوا قلة ، واجورهم كانت معتدلة، ومجال نشاطهم كان محددا بدقة ٠ واذا كانت سلطاتهم غير محدودة ، واذا

كانت يدهم تمتد بلا حدود الى المداخيل العامة ، فان يقظة رئيس الدولة كانت تمنع من وجود الطغيان او الفساد او سوء التصرف .

ملأ عبد القادر كل المناصب الهامة برجال نبلاء بالميلاد تقديرا منه للنتائج المثمرة التى تعطيها النظرة الصحيحة للتكوين الطبيعى للمجتمع ، واعتبارا منه لتكريم العرب الغريزى للنسب والدم . ولكن اولئك الرجال الذين وقع عليهم الاختيار كانوا فى نفس الوقت يمتازون بالشخصية القوية والسمعه النظيفة ، اى انهم كانوا امثلة تحتذى وحكاما يطاعون . وبذلك شاع بين كل الطبقات ، من قمة المجتمع الى قاعدته ، شعور عال بالواجب والاحترام الذاتى، كما بعث العمل بالدين والفضيلة والشرف والاخلاق التى كانت قد اصيبت اثناء السيطرة التركية الغاربة .

ان عبد القادر قد انجز عمله الآن ، فقد هزم الفرنسيين . ووقع معاهدة سلام مشرف . وكانت مملكته مثالا للنظام والترتيب . وكان يامل ان يكون فى امكانه الآن القاء الصولجان . لقد لبى نداء بلاده وها هو الآن قد حقق ما اختارته من اجله . لذلك طلب ان يسمح له ان يعود الى العزلة والاعتكاف، الى حياة الدراسة والتامل التى لم يتركها الا على مضض . وفى هذا المضمار كتب الى سلطان المغرب ، فبعد عبارات التكريم الضرورية لمخاطبة السلاطين واصلت الرسالة هكذا :

« ان شعب الجزائر متحد الآن . وان علم الجهاد قد طوي . فالطرق آمنة وعامرة . والعادات السيئة قد قضى عليها ، واى فتاة تستطيع ان تعبر البلاد وحدها ، ليلا ونهارا ، من الشرق الى الغرب ، دون خوف على نفسها . وقد يلتقى الرجل بقاتل اخيه فلا يجرؤ على الانتقام منه بل يحتكم الى القضاء. وان كتاب الله وسنة رسوله هما فقط اساس الاحكام . والمواد الضرورية لجيشنا كثيرة ، الى جانب الرجال الذين يملاون صفوفه . كل ذلك يعود الى الى تاييد الله الذى جاءنا من دعواتكم ورضاكم عنا . ولو لا ذلك لكنت اضعف الناس على انجاز كل هذا .

« اننى لم اتقدم لتولى مسؤولية الحكومة بمحض الطموح ، او الرغبة فى السلطة والجاه ، او حبا فى ثروات الحياة الدنيا ، ولكن (والله وحده يعلم اسرار القلوب) لاحارب فى سبيل الله ولاحقن الدماء بين المسلمين ، ولاحمى املاكهم ، ولامهد البلاد ، كما تقتضى ذلك الغيرة على الدين والوطنية . ومنذ تحملنا المسؤولية ونحن بالمرصادا ليلا ونهارا متنقلين فى طول البلاد وعرضها،

في السهل والجبل ، مرة نقود المعارك واخرى ننظم شؤون الدولة • ونحن الآن نرجو من سموكم ان ترسلوا احد ابنائكم او احفادكم او خدامكم لتولى سلطات الحكم لان البلاد الآن موطدة وليس هناك معارضة من اية جهة • وساكون اول من يعمل تحت من ترسلونه وان اسخر كل امكانياتي الضعيفة الى اقصى حد لذلك ، وان اساعده بالرأى والنصيحة •

« انني اثق في ذلك الاعتبار والسماحة ، التى تميزكم ، من انكم ستقبلون رجائى فى اعفائى من الحمل الذى يزن ثقيلا على عاتقى • وانني ارسل الى مقامكم بعض الهدايا التى كان ملك الفرنسيين قد ارسلها الى والتى لم ابق منها عندى سوى بندقيتين صغيرتين • كما ارسل اليكم بعضا من افضل البغال فى الجزائر • ان عددها ، بالاضافة الى عدد الاشياء الاخرى ، يوجد مفصلا فى مرفق داخل هذه الرسالة •

« اننا نرجوكم ان تقبلوا عذرنا ونامل فى رضاكم وسروركم • وسيحمل اليكم الهدايا المذكورة اخى الذى وكلته عنى ليتشرف بمقابلة مع سموكم ، وليحمل اليكم تقدير وتاكيد اخلاص ابنكم وخادمكم •

عبد القادر بن محيى الدين

« اكتوبر 1838 ، محرم 1254 »

ان الكلمات التى كتبها بروغام (2) Brougham عن واشنطن قد تنطبق بحق على عبد القادر فى هذا المنعرج العظيم من حياته : « محارب منتصر حيث اعظم المحاربين يياسون • وحاكم ناجح امام صعاب فى طريق لم يجربه احد من قبل • ولكنه المحارب الذى لم يصلت سيفه من غمده الا عندما دعا القانون الاول لبلادنا الى اصلاته ، والحاكم الذى رغب ، باذب وبلا مباهاة ، بعد ان ذاق طعم السلطة العليا ، ان ينتقل الكاس من يده ، لا لانه سيعانى من عدم بل شفتيه منه ، ولكن لان ذلك هو ما يتطلبه واجبه المقدس نحو بلاده ونحو الله » •

---

2) لعله يقصد السياسى والمصلح البريطانى اللورد هنرى بروغام (1778 ـ 1868) الذى اشتهر فى السياسة ولعب دورا فى اصلاح التعليم والغاء الرق

ولكن السلطان عبـد الرحمان ، في رده التقديري العالي ، رفض حتى ان يسمع لحظة واحدة هذا التخلي عن الحكم من شخص اظهر كفـاءة عظيمة فـي القيادة والتنظيم والتجديد وانقاذ بلاده • ودعا عبد القادر ، باسم الاسلام ، ان يظل كما كان بطل جهاد ، وان يكمل عمله الشريف ، وان يوسع وينجز رسالته واخيرا طلب من السلطان الشاب ان يرسل اليه قميصه لكي يعلقـه في مسجده الخاص كاثر مقدس !

الفصل الثاني عشر

(1839)

لم يكد حبر معاهدة التافنة يجف حتى ظهر فيها الخلل وسوء التفسير . لقد كان من الواضح ان اجراء اسرع به الجنرال بوجو الى خاتمة مرتجلة وغير ناضجة ، لمجرد ان يكون فى استطاعته ان يرسل بالجنود الذين كانوا تحته فى وهران للمشاركة فى الحملة على قسنطينة،لا يمكن ان يكون له نتيجة اخرى غير تلك النتيجة (1) .

وقد عبر الجنرال بوجو عن رأيه ، عند دفاعه عن موقفه فى مجلس النواب الفرنسى اثناء جلسة 1838 ، فقال : « ان كثيرا قد قيل عن النقص والخلل الذى جاء فى تفاصيل معاهدة التافنة . وانى بصراحة اعترف ان هناك حقا بعض الخلل . ولكنى اعتقد ان اهمية هذا الخلل مبالغ فيها ، وليس هناك سوى خلل واحد له عواقب ، وهو عبارة « على مسافة تقطع على وادى القدرة Kuddra وما وراء » . ان هذه العبارة (وراء) قد تعنى امتداد الحدود الى اقليم قسنطينة . حقا ان هذا التعبير (وراء) غامض . ولكن يجب أن لا تنسى اننى كنت فى سباق مع الزمن . فقد كان هناك زورق يخاوى فى انتظار ما ارسله من بريد . وكان من الضرورة القاطعة ان اختم المفاوضات بالحرب او بالسلام » .

ولكن من الواضح هو ان الشك الذى كان معلقا فوق التفسير الحقيقى لهذه العبارة فى النص العربى ، هو الذى ابقى الباب مفتوحا لما لا نهاية له من التخاصم وسوء التفاهم ، والذى انتهى بالغاء المعاهدة دفعة واحدة . ان هذه المعاهدة كانت حقا قد صيغت بسرعة ودون تقدير لعواقبها ، وهذا هو

(1) انظر الملاحق .

الذى جعل عبد القادر يلاحظ الى بوجو ان الفرقة الفرنسية التى مرت من ارزيو الى مستغانم،دون معارضة من عبد القادر ، قد خرقت المعاهدة وانتهكت حرمة ترابه ، وقد كان ذلك بعد عدة ايام فقط من توقيع المعاهدة• والواقع ان شكوى عبد القادر كانت فى محلها ما دامت المعاهـدة لـم تشر الى حـق المـرور •

وكثيرا ما تحدث المشاكل من سوء الترجمة • وفي العلاقات الدبلوماسية بـين عبـد القـادر والسلطات الفرنسية حدث ذلك اكثر من مرة • ولـو ان الفرنسيين اكتشفوا ذلك لترتبت عليه تعقيدات خطيرة • ولكن عبد القادر كان على العموم راضيا بما كتبه بالعربية بينمـا كانت السلطات الفرنسيـة راضية بما كتبته بالفرنسية ، واكتفى كل طرف بما عنده دون اثارة اسئلة•

ومن الممكن ان نضرب مثلا على ذلك • ان الفرنسيين كانوا دائما يجعلون فى اعلى قائمة شروطهم اعتراف عبد القادر بسيادة فرنسا ، بينمـا لم يقـع لعبد القادر ان يعترف بذلك حتى فى الاحلام • ولو فعل ذلك لفقد سلطتـه، ولكن ما كتبه عبد القادر بالعربية والذى كان متمسكا به هو بدقـة ما يـلى . « ان الامير عبد القادر يعترف ان هناك سلطانا فرنسيا وانه سلطان عظيم » • اذن الفرق شاسع بين التعبيرين وبين المقصدين ايضا •

اما بخصوص حدود المناطق بين الطرفين فان هذه القضايـا قد اصبحت على اهمية كبيرة ، وكان عبد القادر آخر شخص يتنازل عن نقطة من النقط اذا كان يشعر ان العدل والصالح العام يقتضيان عدم التنازل •

ان النص الفرنسى للبند الثانى من معاهدة التافنة يصرح ان فرنسا تملك فى اقليم الجزائر « مدينة الجزائر والساحل وسهل متيجة ممتدا نحو الشرق الى وادى القدرة وما **وراءه** • » (2) هكذا ترجم الفرنسيون الكلمـة العربيـة **فوقه** • ان السرة التى خلقها الفرنسيون والتى قطعوهـا فى النهاية بـدون تثبت بالسيف كانت هذه : انهم اعطوا انفسهم حدودا ومع ذلك لا يريـدون اية حدود • وكل جهودهم لحمل عبد القادر على التناقض مع نفسه بقبـول تفسيرهم كانت غير مجدية •

---

2) يستعمل صاحب (تحفة الزائر) عبارة « وما فوقه » بدل « وما وراءه » • ج ا ، ص 177 •
وقد ترجمت عبارة Onwards بما وراءه او فصاعدا بدل وما فوقه او الى قدام •

ولما كان السلطان العربي يرى ان محاولة الفرنسيين كانت عبثا ، وفضل في النهاية أن يتحدى خصمه بدلا من التضحية بمصالح رعاياه واخوانه في الدين ، فان الفرنسيين قد رموه بالتمرد وبنقض العهود وبالطموح غير المحدود ، وعاملوه معاملة من كان يتنازع السلطة مع المالكين الشرعيين للارض، وليس معاملة محارب ، كما كان الحال فعلا ، ضد معتدين جاؤوا الى بلاده مدعين انه ليس لهم خطط في التوسع وواعدين بتحقيق هدفهم الوحيد الذى جاؤوا من أجله ثم ينسحبون ٠

وفي ضوء معاهدة كان كل طرف يقرأها ويفهمها كما يشاء تصبح العلاقات السياسية والتجارية ، التى قد تدوم الى وقت ما او التى تكون محل ثقة ، غير ممكنة ٠ ولكن المحاولات لايجاد طريقة للتفاهم كانت ضرورية ٠ وكانت مسؤولية الدخول في مفاوضات مع عبد القادر حول الموضوع قد القيت على عاتق الماريشال فالى Valée الذى اصبح الحاكم العام في مدينة الجزائر في 30 نوفمبر ، 1837 ٠

وقد طلب الماريشال التعليمات من الوزارة الفرنسية ٠ فجاءه الجواب بسيطا وبالجملة : التمسك بمبدأ امتلاك الجزائر ٠ « يجب ان يكون المفهوم من عبارة (وادى القدرة **وما وراءه**) كل البلاد الواقعة في اقليم الجزائر والواقعة وراء وادى القدرة الى اقليم قسنطينة ، وان وضوح الدليل ، مستقلا عن الاعتبارات السياسية ، لا يسمح بأى تنازل عن هذه النقطة ٠ وما دمنا اسياد اقليم قسنطينة فاننا لا نستطيع ان نبقى بدون طرق ارضية تصلنا به »٠

وارسل الماريشال هذا الرد الى عبد القادر مع تعقيبات من عنده هكذا . « ان فرنسا تنازلت لك عن كل اقليم وهران باستثناء المناطق المنصوص عليها وكل اقليم التيطرى القديم دون استثناء ، واخيرا كل اجزاء اقليم الجزائر الواقعة غرب الشفة ٠ ولكن يجب ان لا يكون لك اى ادعاء الى اى جزء من اجزاء هذا الاقليم (اقليم الجزائر) الواقعة شرق ذلك الوادى ٠ اما بخصوص اقليم قسنطينة فيجب ان لا يكون هناك اى التباس لان المعاهدة لم تذكره حتى بالاشارة ٠ وبالاضافة الى ذلك فان هذا الاقليم كان عند توقيع المعاهدة ، تحت حكم احمد باى » ٠

وقد رد عليه عبد القادر بما يلي : « يمكن ان لا تكون هناك صعوبات بخصوص اقليم قسنطينة ٠ ولكن ليس الامر كذلك بخصوص اقليم الجزائر ٠ تذكروا ما حدث عند المعاهدة ٠ لقد كنت ارغب في حصركم في سهل مدينة

الجزائر • ولكن الجنرال بوجو رجانى أن أمد هذا الحد فرضيت • ولذلك تنازلت لكم عن الارض الممتدة الى وادى القدرة من ناحية الشرق ، والى البليدة ، بدخولها ، من ناحية الجنوب • فالتعبير (الى وادى القدرة وما فوقه) يجب ان يكون له قيمة • واذا لم يكن الامر كذلك فلماذا ادخل ذلك التعبير فى المعاهدة ؟ واذا كانت تعنى اى شىء فيجب ان تعنى انكم محدودون من الشرق كما انكم محدودون من الغرب •

وأنتم ، لكى تبرروا تفسيركم ، اقمتم حجتكم على ضرورة وجود اتصال ارضى بين قسنطينة ومدينة الجزائر ، ولكنكم تعرفون فى نفس الوقت ان قسنطينة لم تكن تحت ايديكم عندما وقعت المعاهدة • ونتيجة لذلك فانه من الواضح انكم لا تستطيعون ان تحجزوا لانفسكم قطعة من الارض فى انتظار حدث مازال لم يقع • والى جانب ذلك ، هل هو امر خارق للعادة ان تكونوا قد فعلتم مع الحدود الشرقية نفس ما فعلتموه مع الحدود الغربية ؟ •

« ان ارزيو ومستغانم تخصانكم ، ومع ذلك لم تطالبوا ولم تملكوا قطعة الارض الواقعة بين هاتين المدينتين • فلا تدعونا نغرق انفسنا فى التفسيرات • ولنحافظ على النص ، ولنقل بصراحة ان كل اجزاء اقليم الجزائر الواقعة بين الشفة من الغرب ووادى القدرة من الشرق وأول سلسلة جبلية من الجنوب هى لى » •

غير ان الماريشال اجاب : « ولكن تفسيركم مخطىء ، لانكم تنسون كلمة **وراء** التى هى ايضا فى المعاهدة • فعبارة (الى وادى القدرة **وما وراءه**) تعنى بكل وضوح ، عند توقيع المعاهدة الى نهاية حدود اقليم الجزائر فى ذلك الاتجاه ، ولكن ما دمنا قد استولينا منذئذ على قسنطينة فان تلك العبارة اذن تعنى الآن الى **حدود تونس** » • (اصل)

ورغم هذا الربت بمخلب الاسد فان عبد القادر قد رد ببرودة عالم منطقى • فقد كتب الى الماريشال : حقا ان كلمة **وراء** تعنى شيئا • غير ان الكلمة العربية **فوق** ، التى ترجمتموها **بوراء** لا تعنى شيئا بالمرة • ودعنا نقم بتجربة ، خذ عشرين عربيا من اختيارك واسألهم على معنى كلمة **فوق** فاذا قالوا بان التفسير الطبيعى لهذه الكلمة يمكن ان يعنى ، بكل التخريجات ، **وراء** ، فاننى سأقبل تفسيرك • وفى هذه الحالة خذ كل الارض الواقعة بين وادى القدرة واقليم قسنطينة • ومن جهة اخرى اذا قرروا ان الكلمة التى ترجمتموها **بوراء** لا

تعنى الا **فوق** ، فاقبل الاقتراح الذى أتقدم به اليك ، وهو اننى أعطيكم كحدود من جهة الشرق القمة الاولى للجبال التى تطل **فوق** وادى القدرة ».

ولكن الماريشال رفض بحذر هذا الامتحان . وكان يمكنه اعلان الحرب فى الحال ، ولكن الحرب مع عبد القادر ليست امرا هينا يلجأ اليه بدون تقدير . ثم ان شعورا آخر للتغلب على الصعوبات كان قد ظهر . وقد كان عبد القادر منهمكا فى تنظيم دولته ، وكان السلام ضروريا له . وكان الحذر والاطراء والمداجاة او هذه العيوب والكدرات والمضايقات قد تلطف او تنهك روحه الصلبة . ولكن كل هذه الانواع جربت معه وفشلت فى التأثير عليه .

وفى نفس الوقت كان عبد القادر يركز نفسه فى كل مناطق جنوب التيطرى . وبحركة سريعة وقوية تشل وتخضع الخصم وضع عبد القادر يده الحديدية على القبائل الواقعة على حدود اقليم قسنطينة ، تلك القبائل التى عرفت بتآمرها ، والمشكوك فى تآمرها مع الفرنسيين . وبكل شجاعة احتل الاراضى المتنازع عليها وراء وادى القدرة . وبالاضافة الى ذلك جعل هذه الاراضى مسرحا لنموذج من اعماله الصارمة التى لا تعرف المساومة ، نحو الذين خانوا الدين .

فهناك مجموعة من الكراغلة كانت قد استوطنت هناك حديثا واثقة فى أمن الفرنسيين وحمايتهم . وكان قائدهم التركى قد نصبه الفرنسيون . وقد دعاهم عبد القادر الى قطع علاقتهم الخائنة مع الفرنسيين ، ولكنهم رفضوا ، وكان الفرنسيون يمدونهم بالسلاح والذخيرة لكى يقاوموا . ولكن عبد القادر نزل عليهم وسحقهم وقطع راس القائد العميل . وفى الحال اعلنت كل قبائل مقاطعة سباو الواسعة خضوعها . وقد عين عبد القادر أحمد بن سالم ليكون خليفته عليهم .

ووسط هذا النجاح كان عبد القادر مهددا بمنافس له . فأحمد باى كان قد لجأ الى جبال أوراس بعد هزيمته فى قسنطينة . وكان قد بدأ يثير قبائل الزاب . وكانت بسكرة ، عاصمة الزاب ، فى يد احد خصومه الالداء وهو فرحات بن سعيد . وكان هذا قد طلب من الفرنسيين مساعدته على الدفاع عن بلاده ضد احمد باى ، واعدا لهم انه اذا نجح فانه سيخضع للسلطة الفرنسية . غير ان الفرنسيين كانوا باردين نحوه ، ولذلك تحول الى عبد القادر .

وقبل ان يدخل عبد القادر منطقة الزاب بقوة السلاح رأى من المناسب ان يعلم الحاكم الفرنسي فى قسنطينة بنواياه • وقد أخبره بأنه كحليف وصديق لفرنسا فانه ذاهب لوضع حد لبعض الاضطرابات التى وقعت هناك وانقاذ البلاد من الفوضى • وأوضح انه قد أقدم على هذه الحملة لصالح فرنسا نفسها ما دامت الاضطرابات كانت قوية جدا فى اقليم يقع تحت يد الفرنسيين وان هذه الاضطرابات قد تنتشر الى أماكن اخرى •

وبعد هذه المراسلة مع الحاكم الفرنسي أمر عبد القادر خليفته على مليانة ، ابن البركانى (3) ، ان يجمع قواته وان يزحف على بسكرة • وقد استقبله فرحات بن سعيد بصدر رحب • وهاجما معا أحمد باى الذى فر أمامهما ونجا بنفسه نحو الصحراء • وكان فرحات يعتقد ان عبد القادر سيسميه خليفة له على الزاب • ولكن بدلا منه عين عبد القادر احد رجاله ، وهو ابن عزوز (4) فى ذلك المنصب • وهذا ما اغضب فرحات الذى بدأ فى الحال اتصالاته مع الفرنسيين • غير ان مراسلاته معهم قد اكتشفت من قوات عبد القادر واصبحت خيانته بعد ذلك واضحة • ولذلك اعتقل وارسل الى تاقدامت مكبلا بالقيود •

اصبح عبد القادر الآن صاحب سيادة مطلقة على ثلثى الجزائر • وان المناطق التى احتلها اخيرا والتى تقع فى جنوب شرقى اقليم الجزائر كانت ذات فائدة كبيرة للفرنسيين لان معسكرهم فى قسنطينة كان يعتمد فى موادة الغذائية عليها ، وكانوا يشعرون بعد ذلك الحادث ان عبد القادر يمكنه فى اية لحظة ان يوقف التموينات •

ولما كان عبد القادر واعيا ان تحركاته الاخيرة ستوقظ غيرة السلطات الفرنسية فى الجزائر ، ان لم تدق اجراس الخطر لديها ، فانه قد قرر ان يصفى الجو بينه وبين الحكومة الفرنسية مباشرة • ذلك انه بعد توقيع معاهدة التافنه ارسل اليه لويس فليب هدية ضخمة من الاسلحة الغالية • وكان عبد القادر كعادته قد وجه هذه الهدية الى سلطان المغرب • وكان يقدر الاسلحة حق قدرها ، ولكنه بارسالها الى السلطان استطاع ان يرد جميلا كريما من شخص يعتمد كثيرا على صداقته واعانته •

وردا على هدية لويس فيليب وجه عبد القادر ميلود بن عراش واليهودى دوران الى باريس ليردا التحية • وقد اخذا معهما ستة أحصنة عربية مسومة،

---

3) ابن البركانى خليفته على المدية وليس على مليانة •
4) يعنى الحسن بن عزوز ، ثم عين بدله محمد بن الصغير بن الحاج •

هدية الى ملك الفرنسيين • وكان تقديم هذه التحية السلمية هو الهدف الظاهر من مهمتهما • ولكن التعليمات السرية التى اخذاها كانت توصى بتخفيف اى توتر قد يوجد لدى الحكومة الفرنسية ضد سيدهما ، وبتوضيح تحركاته الاخيرة بطريقة تترك انطباعا حسنا لديها ، وبالحصول ، اذا امكن على موافقتها على نسخته هو للمادة المتنازع عليها فى معاهدة التافنة •

ولكن الماريشال فالى كان على علم بكل تفاصيل هذه المهمة • والواقع انه دبر طريقة يلتقى فيها مع ابن عراش مدة نصف ساعة ، قبل سفره ، فى مدينة الجزائر • وخلال هذه المقابلة بدأ الماريشال فى الحال يناقش المعنى الحقيقى للمادة المتنازع عليها • ولما تكهن بالهدف الاساسى للسفارة المزعومة كتب الى حكومته محذرا لها من اعطاء اى تنازل قد يتدخل فى سير مفاوضاته الخاصة مع عبد القادر • ونتيجة لذلك لقى الوفد العربى فى باريس كل حفاوة ، وكانت الاحصنة التى أحضرها محل اعجاب وتقدير ، ووفرت لاعضاء الوفد وسائل زيارة كل الامكنة السياحية فى باريس ، واذا استخدمنا العبارة الفرنسية الشائعة عندئذ فان اعضاء الوفد كانوا « أسود » اليوم • ولكن كلما اقتربوا من موضوع المادة المتنازع عليها اغلقت افواههم بعبارة تهرب او بكلمة شكر •

وبعد عودة الوفد الى مدينة الجزائر اثر المهمة التى لم تثمر ، دعا الماريشال فالى أعضاءه الى مقابلته • وقد اخرج الماريشال من جيبه نسخة من المعاهدة التى تظهر فيها الارض المتنازع عليها فى حوزة الفرنسيين ، وفى مقابل ذلك حصل عبد القادر على منطقة بنى جاد ، وحمزة ، وونوغة ، بينما اعفى من دفع مكاييل القمح والشعير التى تعهد بدفعها فى المعاهدة • وقد أعلن له ابن عراش انه لم يكن مفوضا للتفاوض •

ولكن ابن عراش كان تحت الحاح شديد ، لذلك رضى ان يضع ختمه الخاص على الوثيقة ، لكى يظهر انه شخصيا لا يعارض فى الحل المعروض • ولكنه رفض قطعيا ان يكون ذلك تعبيرا منه عن راى سيده ، ولكى يخفف الفرنسيون من حدة الموقف اقترحوا ان يرسلوا لجنة الى السلطان عبد القادر • وتوجهت اللجنة نحو هدفها • وعند وصول اعضاء هذه اللجنة الى مليانة رفض الخليفة هناك ان يسمح لهم بالمرور دون اذن من عبد القادر • اما ابن عراش فقد اظهر المرض ولاذ بالفرار الى معسكر •

عاد الماريشال الى وسائله الخاصة · فسعى الى استرضاء الامير ببعض العروض الصديقة · وارسل اليه مدافع وذخيرة لمساعدته على حصار عين ماضي · وقد وصلت هذه المساعدات في الوقت المناسب ، والواقع انها كانت قد غيرت ميزان الاحداث الذى كان مايزال متأرجحا · ولكن الماريشال لم يحصل على تنازلات · فقد كان عبد القادر يعتقد انه على حق ، وليس هناك شيء يجعله مخطئا ·

وعاد عبد القادر الى تاقدامت في العاشر من شهر يناير ، 1839 · وكان مبعوثه ، ابن عراش ، الذى كان يرتعد خوفا وشكا فى الاستقبال الذى سيستقبله به عبد القادر ، قد جاء ليقدم تقريرا عن مهمته · وعندما علم عبد القادر ان ابن عراش قد وضع خاتمه الخاص على وثيقة تتنازل عن كل ما دافع عنه طويلا وآمن بأحقيته ، استشاط غضبا · وقد صاح قائلا : « ابدا، ابدا ، لن اصادق على معاهدة تمنح الفرنسيين جسرا ارضيا بين قسنطينة ومدينة الجزائر لاخسر بذلك كل الثمار التى جنيتها نتيجة قصر نظرهم بجعل مدينة الجزائر محاطة بحلقة مكونة من البحر والشفة وجبال الاطلس الصغرى الواقعة مباشرة فوق وادى القدرة ·

ان تردد الحكومة الفرنسية قد منعها حتى الآن من اتخاذ خطوة حاسمة لحل هذا النزاع العويص · فهى مرة تعلن عن حصر الوجود الفرنسى فى عنابة ومدينة الجزائر ووهران ، ومرة تعلن تاكيد حقوقها فى داخل البلاد بقوة السلاح · وفى نفس الوقت كان عبد القادر يوسع سلطته كل ساعة · فاين كان سينتهى كل هذا ؟ ان المشكل الرئيسى لا يمكن ان تفاديه وقتا اطول،وقد قررت الحكومة الفرنسية في النهاية ان تتحرك · وهى لا تستطيع ان تصل عبد القادر نفسه ، ولكن عملاءه كانوا بين يديها · فقررت ان تعامله من خلالهم ·

كان من حق عبد القادر ، بمقتضى معاهدة التافنة ، تعيين من يشاء من العملاء واقامتهم لدى السلطات الفرنسية فى كل الامكنة التى يحتلها الجيش الفرنسى ، وقد اصبح هؤلاء العملاء تحت ضغوط مختلفة ، تارة تتجاهلهم السلطات الفرنسية اعتباطيا ، واخرى تواجههم بشتى الاهانات المدروسة · وذات مرة اراد بعض السكان المسالمين ان يذهبوا ويحلوا بالمناطق التابعة لعبد القادر ، وهو اجراء ضمنته معاهدة التافنة الى جميع المسلمين ، ولكنهم ، ملوا بقسوة وارغموا بعنف على البقاء داخل المناطق التابعة للفرنسيين ·

وهناك صانع عجلات فى مدينة الجزائر كان عبد القادر منذ مدة يستعمله ليصنع له حمائل البنادق اغلقت السلطات الفرنسية دكانه واطردته من المدينة ٠

ان البند السابع من المعاهدة ينص على ان السلطات الفرنسية تمد عبد القادر بكل نوع من انواع الاسلحة والذخيرة ، او المواد الحربية التى قد يحتاج اليها ، بسعر الشراء ٠ وكان عميله فى مدينة الجزائر قد اعطى التعليمات الواضحة لتسهيل مثل هذه الصفقات ٠ وكان هذا العميل مفيدا لسيده لجلبه له الميكانيكيين الفرنسيين من باريس ، لكى يشرفوا على مشاريعه الداخلية المختلفة ، كل ذلك طبقا للمادة العاشرة من المعاهدة ٠ غير ان هذا العميل اعتقل فجاة ووضع فى القيود وارسل الى فرنسا ٠ فما كان من عبد القادر الا ان لفت نظر المارشال فالى الى هذا التصرف الذى يسيء الى حقوقه الشرعية٠غير ان الرد كان ان المارشال له صلاحيات غير محدودة وانه فى امكانه ان يفعل ما يشاء ٠

وكان قنصل عبد القادر فى مدينة الجزائر ايطاليا يدعى قرافينى Garavini الذى كان فى نفس الوقت يقوم باعمال قنصلية الولايات المتحدة الامريكية٠ وكان قرافينى يقوم بمهمته المزدوجة ، طيلة سنتين ، دون ان يتعرض له احد بسوء ٠ غير انه اخبر الآن ان الحكومة الفرنسية ترفض ان تعترف به فى مهمته الاولى (كعميل للامير) ٠ وكان عبد القادر قد رجع من عين ماضى عندما اخبر بهذا الاجراء ٠ لذلك كتب فى الحال الرسالة التالية الى المارشال فالى :

« من امير المؤمنين ، المدافع بالسلاح عن دين الله ، الحاج عبد القادر بن محيى الدين (اسكنه الله فسيح جناته) الى حاكم مدينة الجزائر ، السلام على من اتبع الهدى ٠ اما بعد ٠ فان قنصلنا ، قرافينى ، قد اخبرنا انه لم يعد مسموحا له بالقيام باعمالنا ، وقد كتبتم له رسالة بعث الى منها نسخة وقرأنا هذه الرسالة وفهمنا ما فيها ٠ انها تشترط عليه ان يترك خدمتنا وتعلن انكم ترغبون ان يحل فى مكانه ممثل عربى ٠

« اولا ، اننا لم نستطع ان نجد العربى الذى يمكنه القيام بوظيفته بطريقة مرضية لامتينا، وتوسيع مصالحهما المشتركة٠ان قرافينى رجل حكيم ومجرب، وهو لا يقوم الا بما يراه فى صالح الطرفين ٠ ثانيا ، ان فرنسا ليس لها الحق

في ان تفرض علينا ان نسحب قنصلا ضد ارادتنا ورغبتنا · اننا نحن وحدنا الذين نرى ما الاصلح بنا · فاذا اردتم ان تعينوا عربيا قنصلا لكم عندنا فلكم ذلك ، فسوف لا نعترض عليه ، لماذا اذن تتدخلون فى اختيارنا لقناصلنا؟ فهل نحن نتدخل فى اختياركم ؟ ان تصرفاتكم قد خرقت مبادىء الشرف المقدسة التى يجب ان تقودنا فى تصرفاتنا نحو بعضنا ·

« انه يبدو انكم ترغبون فى رؤية الفوضى تعود مرة اخرى الى المناطق المحيطة بمدينة الجزائر ووهران · ان الافراد الذين رغبوا فى الالتحاق بمناطقنا والاقامة فيها لم يمنعوا من ذلك بطريقة اعتباطية فقط بل ارغموا على دفع الغرامات ورموا فى السجن ، وعندما احتج قنصلنا ، قرافينى ، على هذا الاجراء انفتم من الرد عليه ، لانه ليس لكم ما تقولون له · ان هذا التصرف يعبر عن عنف موقفكم · انه يظهر انكم ترغبون فى اثارة سوء التفاهم بيننا وبين الحكومة الفرنسية · لقد اخترنا مسيحيا من بلادكم انتم ، ومع ذلك رفضتموه !

« ومهما يكن الامر ، فما دامت اعرافنا قد اهينت ، وما دمنا قد عوكسنا فيما نراه مفيدا لمصالحنا ، ما دامت هناك دلائل واضحة على الحط من شاننا ، فاننا مستعدون لاستئناف الحرب متى تشاؤون · ان كل الناس يعلمون ان اختيارنا قد وقع على قرافينى · وسوف لا نختار غيره · فاكتب اذن الى وزارتك ، اننا قد قررنا الاحتفاظ بقنصلنا قرافينى · ونحن فى انتظار جواب فورى ·

« اننا نامل ان ترسل فرنسا رجلا اكثر اعتدالا لتولى القيادة في مدينة الجزائر ، رجلا يجعلنا نتمتع بثمار السلام ، رجلا تقوم اعماله على العدل والعقل · لقد كان املنا هو ان طريقة تصرفكم لن تكون كطريقة بعض الرجال المخطئين الذين سبقوكم · ولكنكم اذا اخترتم ان تسيروا فى الطريق الذى سار فيه هؤلاء فان الله قادر على نصرنا على اعدائنا وعلى كل اولئك الذين يريدون ان يتعرضوا لنا بالظلم والعدوان · فقد قال الله تعالى : « دع الظلم يسقط على راس صاحبه » · (5) وقال أيضا « من الافضل أن تكون مظلوما

---

5) الاقرب الى هذا المعنى هو قوله تعالى : « ولا يحيق المكر السيء الا باهله » ·

من ان تكون ظالما» . (6) اما ما يتعلق بنا فاننا لن نتزحزح شعرة عن المعاهدة، اذا التزمتم انتم بها » .

وكل ما حصل عليه عبد القادر من ترضية ردا على هـذا الاحتجاج القوى الحى هو ان الحكومة الفرنسية قـد فهمت ان المادة الخامسة عشـر تعنـى ان القناصل الذين يعينهم الامير سيكونون من العرب كما ان القناصل الذيـن تعينهم الحكومة الفرنسية سيكونون من الفرنسيين .

ان اتساع معانى معاهدة التافنة جعلها تبدو ، فى عين السلطات الفرنسية، بدون حدود ، تماما كما كانت قوة تفكيرهم الخاصة . ولكنهم ، مـع ذلك ، كانوا ابعد ما يكونون عن هدفهم . فعبد القـادر لا يمكـن التاثير عليـه لا بالمداهنة ولا بالتهديد . وهكذا فشلت كل خططهم ، وواجهت جميع المسائل بين الطرفين طريقا مسدودا .

---

6) لم نهتد الى اصل معناه ، ولعل الاقرب اليه هو معنى الحـديث الشريـف : لان تلقى الله مظلوما خير من ان تلقاه ظالما .

الفصل الثالث عشر

(1839)

رغم فشله المتكرر فان المارشال فالى قد قرر ان يحاول مرة اخرى الحصول من عبد القادر على الموافقة على تفسير حكومته للمادة المتنازع عليها · ففى شهر فبراير ، 1839 ، ارسل الضابط دى صال De Salle فى مهمة الى مقر السلطان ، الذى كان عندئذ في مليانة · وكان الهدف هو محاولة اقناع عبد القادر باعلان موافقته على المعاهدة الاضافية التى كان قد وقعها عدوه ابن عراش ·

ومع ان استمرار السلام كان حيويا لعبد القادر، لكى يكمل عمله التنظيمى، فان التنازل عن المناطق المتنازع عليها كان بالنسبة اليه مستحيلا معنويا وسياسيا · فمن الناحية السياسية كان غير ممكن لان المناطق المعنية ستعطى الفرنسيين ، لو تنازل لهم ، طريقا حرا للاتصال بين اقليمى قسنطينة والجزائر ، وستجعل بذلك وجودهم فى المناطق المحتلة اكثر ترابطا ، وستزيد كثيرا من قوتهم العدوانية · اما من الناحية المعنوية فقد كان التنازل مستحيلا ايضا لانه لم يكن فقط مرفوضا لدى فكرته عن الشرف ان يخضع ، تحت الضغط او الاغراء ، بينما يعتقد انه على حق ، ولكن اساس شعبيته ، التى نالها بنجاحه فى حصر الفرنسيين تدريجيا داخل حدود ليست ابعد من طلقة رصاصة من قلاعهم الخاصة ، سيكون مهددا بالخطر اذا ما قبل ما عرض الفرنسيون عليه الآن ·

ان عبد القادر كثيرا ما اضطر الى تهدئة كثير من المتسائلين القلقين مؤكدا لهم بان فرنسا لن تجرؤ ابدا على اجتياز الحدود المحددة لها فى سهل مدينة الجزائر · فالرؤساء العسكريون والدينيون لم يرضوا بعقد السلام ، عند

اجتماعهم في الهبرة ، الا بعد الباكيد القوى على هذا الشرط • ومهما كانت ميول عبد القادر الشخصية ، فانه لا يستطيع ، دون رضاهم ، ان يصغى الى اى تعديل فى المعاهدة •

وبالاضافة الى ذلك فقد نشر الحزب المتعصب شائعات مغرضة ومثيرة مفادها ان عبد القادر كان يدفع سرا جزية الى الفرنسيين ، وانه رخص للكفار أن يستوطنوا أرض الاسلام المقدسة ، وان التسامح مع هذا الامتهان لحرمة الاسلام تجعل من عبد القادر غير منسجم مع ادعائه بانه سيرمى بالفرنسيين فى البحر قبل ان يمر وقت طويل •

ولما وجد عبد القادر نفسه في هذا الموقف الحرج قرر ان يدعو جميع الشخصيات الرئيسية في دولته الى اجتماع ثان ، طالبا منهم ، مرة ثانية ، ان يحكموا في الخلافات الناشبة بينه وبين الحكومة الفرنسية • وقد اخطر المبعوث الفرنسى بهذا القرار ودعى الى حضور الاجتماع ، مع حرية الاعلان عن اقتراحاته هناك • وقبل المبعوث الفرنسى الدعوة ، رغم ان امله كان ضعيفا فى الحصول من مجلس حرب السلطان على التنازلات التى عجز ضغط حكومته عن الحصول عليها من السلطان نفسه •

وعلى كل حال فان طريق العمل الذى لجأ اليه عبد القادر كان الطريق الوحيد الذى يمكن ان يؤدى الى حل سلمى للخلافات • كان المارشال فالى دائما يعزو اصرار عبد القادر الى شهامته وطموحه الفردى ، وقد اضيف الى مشاعر الخيبة لدى المارشال من رفض عبد القادر لكل وسائل التفاهم ، مشاعر اخرى ذاتية من ان العراقيل كانت نتيجة نزوة شخصية لخصمه • وكان عبد القادر يهدف من دعوته للاجتماع ثانية الى ابعاد ذلك الوهم عن المارشال ، ان لم يكن اغراؤه بتبنى طريقة جديدة للعلاقات بينهما • ولكن المارشال سيكتشف انه لم يكن يناضل ضد عواطف فردية ولكن عواطف شعب باسره •

وقد اجتمع مجلس الحرب • وتكلم فيه المبعوث الفرنسى • ولكن القرار الجماعى كان هو ان « الحرب اولى من التنازل عن المناطق المتنازع عليها » وعاد دى صال الى مدينة الجزائر ليخبر عن نتيجة مهمته • اما عبد القادر فانه ، دون انتظار التواءات سياسية اخرى من المارشال ، كتب فى الحال الى جهات اعلى ، ووجه الرسالة التالية الى ملك الفرنسيين : « الحمد لله وحده •

من عبد الله الحاج عبد القادر بن محيي الدين ، امير المؤمنين ، الى سعادة لويس فيليب ، ملك الفرنسيين ، اطال الله حكمه وجعله سعيدا ومجيدا •
اما بعد • فانه منذ ظهور الاسلام كان المسلمون والمسيحيون في حرب • وقد كان هذا يعتبر واجبا مقدسا لدى الطرفين ولكن المسيحيين ، بعد ان نسوا دينهم ومبادئه ، اصبحوا ينظرون الى الحرب مجرد وسيلة للتوسع الدنيوى •

« اما بالنسبة الى المسلمين الحقيقيين فهم على النقيض من ذلك ينظرون الى الحرب ضد المسيحيين على انها مجرد التزام دينى • وهل هناك اهم من هذا الالتزام حينما جاء المسيحيون للاعتداء على ارض اسلامية ! وبناء على هذا المبدأ فقد حدت عن القواعد التى نص عليها كتابنا المقدس ، عندما وقعت معكم ، انتم ملك المسيحيين ، منذ سنتين ، معاهدة سلام ، وبالاخص عندما بذلت كل جهودى لتدعيم هذا السلام بكل الوسائل التى كانت لدى • انكم تعلمون الواجبات التى يفرضها القرآن على كل حاكم مسلم • اذن ، الواجب عليكم شكرى على ما قمت به شخصيا لتخفيف صرامة احكامه نحوكم •

« ولكنكم الآن تطلبون منى تضحية تتناقض تماما مع دينى مما يجعلنى لا استطيع قبولها ، وتظنون انكم على حق فى فرضها على كضرورة • انكم تدعوننى ان اتخلى عن قبائل اعلنت خضوعها الى ، وجاءت الى بنفسها لتدفع التزاماتها التى فرضها القرآن ، وتوسلت الى ، وما تزال تتوسل ، ان اكون حاكما عليها ، لقد اجتزت شخصيا اراضيها **التى هى فى الواقع وراء الحدود التى نصت المعاهدة على انها لفرنسا** (اصلى) فهل تريدون منى الآن ، ان آمر تلك القبائل ، بناء على معاهدة اخرى ، ان تخضع لنير المسيحيين ؟

« لا • اذا كان الفرنسيون اصدقائى فعليهم ان لا يرغبوا فى شىء يحط من قيمة حليف لهم فى اعين شعبه • وليس من المناسب لهم ان لا يتركوا لى من اجل بضع قبائل منكودة قليلة الاهمية لهم ، سواء كانت تحت حكمهم او تحت حكم غيرهم ، الا الاختيار الرهيب وهو اما الرمى بالقانون عرض الحائط واما التنكر لسلام كلانا يرغب فيه الى ابعد الحدود •

« غير ان البعض قد يقول لكم ان هذه الاعتبارات التى تفرض على المطالبة بتلك القبائل ستفرض على ايضا المطالبة بعرب متيجة ووهران وقسنطينة • غير ان الواقع ليس كذلك ، لان هؤلاء العرب قد بقوا وما زالوا مع الفرنسيين بناء على ارادتهم الخاصة • وقد احتفظت لنفسى بحق اعطاء اللجوء الى الذين اصبحوا لا يطيقون منهم البقاء تحت الحكم المسيحى • اما القبائل المذكورة ،

والتي ليست بدوية ولكنها مرتبطة بالارض ، فانها تطلب مني ان احكمها ، ثم ان عددها كبير جدا بحيث لا استطيع ان اعطيها اراضي تحل فيها تعادل تلك التي قد تتخلى عنها ·

« فيا ملك الفرنسيين المعظم ! ان الله قد اختار كلا منا ان يحكم بعضا من مخلوقاته · وانكم في مكانة اعظم من مكانتي بحكم عدد وقوة وثروة رعاياكم· ولكنه قد اوجب على كلينا جعل شعبينا سعيدين · فتأملوا اذن معي اوضاعنا، وستدركون ان سعادة شعبينا معا تتوقف عليكم انتم فقط ·

« ان ممثليكم يقولون لى « وقع ، واذا لم توقع فان رفضك يعني الحرب » حسنا ، انني لن اوقع ، ومع ذلك فاني اريد السلام ، ولا شيء غير السلام · ولكي تكون المعاهدة مفيدة لرعاياك فانه من الضرورى ان يخافني ويحترمني رعاياى · بيد انهم في الوقت الحاضر يرون انني قد سلمتهم، طوعا واختيارا، الى حكم المسيحيين ، وبالتالى لن تكون لهم ثقة فى ، وسيكون من المستحيل على ان اجعلهم يحترمون ادنى مواد المعاهدة ·

« كيف يمكن ان تخافوا ـ انتم يا سلطان الامة الفرنسية ـ من بعض التنازلات لامير شاب لم تبدا سلطته في التدعيم والتنظيم الا الآن وتحت ظلكم ؟ اليس الاجدر بكم ان تحموني وان تكونوا رحماء نحوى ، نحوى انا الذى اعدت النظام بين قبائل كانت لا تكف عن التقاتل ، انا الذى اسعى كل يوم الى تربية الذوق لديها لتقدير الفنون والمهن الحرة ؟ اعينونى ، بدل ان تحرجونى ، وسيجازيكم الله على صنيعكم ·

« ان الحرب ، اذا ما استؤنفت ستكون السبب في قطع التجارة التى كان يمكن ان تجنى منها البلاد فوائد جمة ، كما انها ستكون حربا عوانا الى النهاية · ولست غبيا فادعى انني استطيع ان اقف وجها لوجه ضد جيشكم، ولكنني استطيع ان اناوشه بدون هوادة · ولا شك انني ساضطر الى التراجع عن بعض المناطق ، ولكن ستكون الى جانبي خبرتى بالبلاد ، وحنكة وحماس شعبى العربى ، وفوق ذلك كله ستكون معى يد الله الذى ينصر المظلوم ·

« واذا كنتم،على العكس من ذلك،ترغبون فى السلام، فان بلدينا سيكونان كانهما بلد واحد ، حيث يتمتع كل فرد من رعاياكم بالامن التام بين القبائل، وسيختلط الشعبان اكثر فاكثر على مر الايام ، وسيعود لكم الفضل فى ادخال الحضارة التى يدعو اليها المسيحيون الى بلادنا ·

« انني على يقين من انكم ستفهمون قولي جيدا ، كما انني واثق من انكم ستستجيبون لما اطلب ، وما اطلبه هو ان لا تعتبروا رفضي توقيع معاهدة جديدة رغبة مني في استئناف الحرب ، بل اعتبروه رغبة مني في تدعيم مبادىء المعاهدة الاولى وتاكيد لصداقة مخلصة بين امتينا ٠

« وارجو الله ان يهديكم الى جواب جدير بمقامكم وبقلبكم الطيب » ٠

ان صيغة الجد التى تكاد تتسم بالضراعة لهذه الرسالة البسيطة المباشرة تدل بكل وضوح على قلق عبد القادر من المظهر الذى اخذته العلاقات بينه وبين الفرنسيين ، كما تدل على الاهمية الكبيرة التى يعلقها هو بالذات على استمرار السلام ٠ وفي 31 ماى ، 1839 سقطت وزارة مولى Molé ووصلت تقارير كاذبة الى مدينة الجزائر تقول ان تيير Thiers قد خلفه وان المارشال جيرار Gerard قد تولى وزارة الحربية ٠

وفي الحال بادر عبد القادر بالكتابة الى الملك مرة اخرى وارسل في نفس الوقت رسالتين الى الوزيرين المذكورين ، ضمنهما لغة قوية وطريقة في المناقشة لايمكن ان تصدر الا عن عقل يباركه ويدعمه صواب المبادىء التي يؤمن بها ، معتمدا بايمان لا يتزعزع ، على عدالة قضيته ٠

رسالة الى الملك

« لقد كنت كتبت اليكم ثلاث رسائل عبرت لكم فيها عن كل افكارى ، وليس منها واحدة قد تشرفت بجوابكم ٠ ولا شك انها جميعا قد احتجزت في الطريق ، لانى اعلم انكم من اللطف والكرم بحيث لا يمكن ان اتصور انكم اطلعتم عليها دون ان تستجيبوا لطلبى فتعربوا لى عن مشاعركم الحقيقية وميولكم ٠ ولعل هذه الرسالة ، التى هى آخر محاولة ، ستحظى بنجاح افضل ! ولعل هذا التوضيح لما يجرى فى افريقية سيلفت انتباهكم ويقود الى نظام من شانه ان يؤدى الى سعادة وصلاح الشعبين اللذين جعلهما الله تحت رعايتكم واهتمامكم !

« ان سلوك ممثليكم معى كان غير عادل ٠ ولا استطيع ان اعتقد بانكم على اطلاع عما يجرى ، لان لى ثقة كبيرة فى عدلكم تجعلنى استبعد ذلك ٠ ان هناك مساعى تريد التاثير عليك لتجعل منى عدوا لك ٠ لا ، فما ذلك الا خديعة لك ، لانى لو كنت حقا عدوا لك لوجدت كثيرا من الاسباب التى تدعونى لاستئناف الحرب ٠

« ومنذ ان رفضت توقيع المعاهدة الجديدة التى قدمها الى السيد دى صال De Salle باسم المارشال فالى Valée (وقد كنت شرحت لكم فى رسالة سابقة دواعى هذا الرفض) ، وممثلوكم فى الجزائر يرمونني بكل انواع العسف والظلم • فقد اعتقلوا جنودى ورموا بهم فى السجن دون سبب شرعى ، واصدروا الاوامر بمنع استيراد الحديد والنحاس والرصاص الى بلادى ، واساءوا معاملة وكلائى فى مدينة الجزائر ، وهم يجيبون على اكثر رسائلى اهمية بمجرد الرفض ويعيدونها بخيلاء الى فرسانى الذين حملوها اليهم ، وهم فى نفس الوقت يتجسسون على الرسائل التى تكتب الى من مدينة الجزائر •

« ومع كل هذه المعاملة يخبرونك اننى عدو لك • انهم يقولون اننى اريد الحرب باى ثمن ، نعم انهم يقولون ذلك عنى انا الذى يرغب بكل وسائله ان يقلد مثال امتكم المثابرة على العمل ، انا الذى بالرغم من الخصومة بيننا سهلت وصول كل منتوجات بلادى الى اسواقكم ، انا الذى احطت نفسى بالاوروبيين لكى ابعث الحياة فى الصناعة ، والذى اصدرت اوامرى الصارمة بان تجاركم وحتى رجال العلم منكم لا يسمح لهم فقط بالسفر فى امن متناه خلال بلادى بل امرت ان يستقبلوا ويعاملوا بكرم وحسن ضيافة •

« ولكنهم قد يخبرونك ان الامير لم ينجز بعد الشروط الاولى التى فرضتها عليه معاهدة التافنة • واننى اجيب على ذلك باننى فقط اجلت تنفيذ هذه الشروط لان ممثلكم بوجو هو الذى لم يف بالتزاماته اولا •

« أين ما نصت عليه المعاهدة من تموينى بالبنادق والبارود والرصاص والكبريت ؟ لماذا ما زلت ارى فى وهران شيوخ الدوائر والزمالة الذين اعطيت الوعد الصريح بنقلهم الى فرنسا ؟ هل يعتقد بوجو اننى لم احتفظ بالمعاهدة الخاصة ، وهى المعاهدة الوحيدة التى تهمنى ، والتى كتبها كاملة بيده هو نفسه ووقعها بختمه ؟ هل يمكننى الاعتقاد لحظة بأن وعودا مكتوبة بخط ممثل ملك الفرنسيين هى وعود غير صالحة ؟ •

« اننى اعترف اننى كنت انظر باحترام الى المسيحيين الفرنسيين ، وعندما لم يفوا بوعدهم معى خاب ظنى فيهم • وما دمت لا املك الاتصال المباشر بكم فقد رفضت التوقيع على معاهدة اخرى •

« اجل ، ان ممثليكم العسكريين لا يريدون الا استئناف القتال والتوسع في الاحتلال · انني على يقين ان هذا ليس هو مرادكم · فانتم لم تنزلوا بسواحل افريقية لتفنوا اهلها او تطردوهم من بلادهم ، بل تريدونهم ان ياخذوا بأسباب الحضارة · لقد جئتم لا لتجعلوا منهم امة من العبيد بل لتغرسوا وسطهم روح الحرية التي اصبحت اقوى شعار عرفت به امتكم التي اجازت به كثيرا من البلاد الاخرى ·

« فهل بقوة السلاح او بنقض العهود سيحقق وكلاؤهم هذا الهدف ؟ ان العرب اذا اقتنعوا انكم آتون لمهاجمة دينهم واحتلال بلادهم فان كرههم سيقوى اكثر من أى وقت مضى · انهم سينفصلون عن سلطتي وسلطاني وحينئذ ستنمحى الى الابد جهودنا المشتركة في الحضارة ·

« انني ارجوك واتوسل اليك باسم الله الذى هو خالقنا جميعا ، ان تحاول من جديد فهم هذا الشاب العربي الذى وضعته القدرة الالهية رغما عنه على رأس شعب بسيط وجاهل والذى يقال لك عنه افتراء انه امير طموح· اعلمه بنواياك ، وفوق ذلك كله راسله مباشرة ، وسيبرهن لك على حسن تصرفه وعلى ان ما قيل لك عنه كان محض افتراء · منحك الله ضوء الهداية لتحكم شعبك بالحكمة » ·

اما الرسالة التي بعث بها الى السيد تيير فقد صاغها عبد القادر في العبارات الآتية : « انني اهنى فرنسا على عودتك الى الوزارة · ان الاعمال الكبيرة التي عرفت بها في السابق والاهتمام الذى كنت دائما تعطيه لمشاكل الجزائر تجعلني احييك بغبطة ·

« ان مواطنيكم الذين حولى قد اعلموني ان مركزكم يجعلكم تسهرون على مصالح وسعادة فرنسا · ان هناك جزءا من افريقية قد اصبح فرنسيا · وانني اشعر انه من واجبي ان اتكلم اليكم عن الاخطار التي تهدد مصالح البلدين ·

« فيا مستشار ملك الفرنسيين ، انه من اجل استنارتكم ومن اجل روحكم الانسانية ان تعملوا على تقوية وتدعيم السلام بين فرنسا والجزائر اللتين تطلبانه كلاهما ·

« ان الروح الاستبدادية لممثل حكومة محترمة ، والفشل في تنفيذ معاهدة من جانب قد ادى الى فشل مماثل من الجانب الآخر ، والمطامع الشرهة غير

المحدودة لبعض الناس الذين لا يهدفون الا الى مجالات جديدة للاستغناء والاثراء ، كل ذلك اصبح يهدد باراقة الدماء الفرنسية والعربية ، في الوقت الذي نرغب جميعا ، كما اعتقد ، في سلام يوفر للعرب النتائج القيمة للتقدم والحضارة ويوفر لفرنسا المجد باعتبارها هي التي منحت ذلك •

« انك عظيم من اجل فرنسا ، فكن ايضا كذلك من اجل افريقية، وسيباركك البلدان • ان نفوذك لدى ملك انت وزيره ، ونصائحك لأمير شاب جاهل تماما بتعقيدات السياسة الاروبية ، هي المواد التي بها يمكنك ان تشيد تمثالا من المجد لامتك وآخر من السعادة والاعتراف لامتي •

« ساعدك الله واضاء امامك طريق الهداية ورعاك في المكانة السامية التي انت جدير بها ! » •

اما رسالته الى المارشال جيرار فلم تكن اقل من سابقيتها في ابعادها • فقد سار فيها هكذا :

« منذ علمت بان ملك الفرنسيين القوى قد اختاركم وزيرا للحرب استبشرت ، وكان وراء استبشاري سبب • فقد شعرت ان رجلا ليس له ما يضيف الى مجده العسكرى لا يمكن ابدا ان ينظر الى الاحتلال الفرنسي لافريقية على انه هو الميدان الوحيد للظهور العسكرى • ان رجلا مثلك ، يعرف كيف يدير الحرب ، يجب ان يعرف ايضا كيف يصنع السلام ويتمتع بثماره •

« ان هذا السلام مهدد الآن • ومن اجل ماذا ؟ من اجل بضعة فراسخ من الارض ومن اجل طريق غير عملي لوعورة مسالكه الطبيعية • اليس لفرنسا ما يكفيها من المجد العسكرى ، اليس لها ما يكفيها من الارض ، حتى تبحث لها عن اراضي اخرى على حساب نفوذى لدى العرب الذين تعهدت ان ابقيهم تحت طاعتي ؟ •

« ان ديني يمنعني من نقض التزاماتي • فلماذا اذن تريدون ، بدون ضرورة ، ان تخفضوا من قيمتي في عيون اهل ملتي بطلبكم مني ان اتخلى لكم وان اضع تحت الادارة الفرنسية اهالي اشعر ان من واجبي ، طبقا لتعاليم شريعتنا ، ان ادعوهم الى الجهاد ؟ دع اولئك الذين يريدون اجبارى على ذلك ان يحاولوا فهم ديني والواجبات التي يفرضها على • فلعلهم عندئذ يعترفون لى بالتضحيات التي اقدمها للمحافظة على السلام •

« انني اكتب اليك اذن لالفت نظرك الى تعسفات ادارة محلية لا يمكنني ان اعتقد بانها تعمل حسب رغبات فرنسا وطبقا لتعاليم ملكها • ان الفرنسيين

اعظم من ان يلجأوا الى المضايقات الخسيسة التى تتعرض لها رعيتى باستمرار فى علاقتها مع ممثليكم فى مدينة الجزائر ٠ ان كرامتى قد اجبرتنى على وقف هذه العلاقة جزئيا ٠ وحينما رأيت انهم راغبون فى أخذ منتوجات أراضينا ، بينما هم يرفضون امدادنا بالحديد الضرورى لفلاحتها ، قلت لهم بيعوا ، لكن لا تشتروا بعد اليوم ٠ فالله الذى قد اعطانا الاراضى قد وضع ايضا فى جبالنا كل المعادن التى يرفض ان يمدنا بها دعاة الحضارة المزيفون ٠

« اننى ادعو الله ان يوفقكم الى استعمال نفوذكم القوى لدى الملك لتأييد رغبتى فى السلم ٠ كما ارجو ان يتاح لكم ولابنه المبجل زيارة هذه البلاد للاطلاع الشخصى وللاجتماع بالرجل الذى ينظرون اليه خطا على انه عدوّكم٠ وعندئذ فانكم لن تجدوا فى سوى الاخلاص والرغبة فى الصالح العام وستساعدوننى ، بنفوذكم وعبقريتكم ، سواء بالحضارة او بالسلاح ، على تلطيف روح التعصب لدى الاهالى الذين هم مايزالون فى بداية الطريق الذى يجنون منه ثمرات السلام والعمل المنتج ٠

« نصر الله جيوشكم ما دامت تحارب من اجل قضية عادلة » ٠

لقد كانت هذه كلمات كريمة ، كلمات جديرة بالتسجيل ٠ لقد كانت كريمة لعظمة ندائها ، وكريمة فى دلالتها على الكفاح البطولى ، هزت ومزقت صدر رجل واع بسلطانه متحرق لتنفيذ خطط كبرى ، ومتأرجح بألم ، فى نفس الوقت ، بين قلق عصبى لتمديد السلام الذى سيمكنه من ان يظهر للعالم دولة اسلامية فى ازهى ايامها من التقدم والازدهار ، وبين عزم صارم على التخلى حتى عن هذه الرغبة الداخلية والتنازل عن المستقبل الباسم ، اذا كانت تلك الإهداف لا تتحقق الا بالخضوع الذليل ، ولو مؤقتا ، الى تلقينات متغطرسة من اناس تجاوز طموحهم ابعد الحدود ٠

ان تلك الكلمات التى كتبها عبد القادر لم تجد كلها ، كما قد نتصور، آذانا صاغية من حكومة كانت تتخبط فى التيه وغير قادرة على تحقيق نواياها السرية فعمدت الى اتخاذ اى اجراء قد يخلصها من وضعها المحرج ولو كان ما تتخذه غير منسجم مع مبدا الوفاء بالعهود ٠

وهكذا ، بينما كان عبد القادر مايزال يحلم بامكانية تحقيق خطط واهداف تؤدى الى التوفيق بين مبادىء الاسلام وثمرات الحضارة الاروبية ، كان عدوه

اليقظ القوى يهيء خطة جديدة كانت تستهدف تحطيم جميع ما كان عبدالقادر يريد تحقيقه ورميه فى الهواء ٠

حقا ان كلا الفريقين كان يريد السلام ٠ ولكن بينما كان احدهما يريده كتجربة مؤقتة كان الآخر يصر عليه كمبدا حيوى ٠ كلاهما ايضا كان ملتزما لشعبه بوعود والتزامات لا يمكن معها التراجع ٠ فعبد القادر قد تعهد بابقاء الفرنسيين تحت رحمة سيفه كلما وقع منهم اعتداء لا مبرر له ٠ وقد كانت وجهة نظره واضحة ولا تقبل التأويل ، وكانت تحمل فى طياتها قوة وبساطة الحق ٠

اما الحكومة الفرنسية ، من جهتها ، فقد اعلنت لمجلس النواب ، رسميا وافتراء ، ان الصعوبات التى أثيرت حول معاهدة التافنة قد تم تفسيرها لصالح فرنسا ، وان امتلاك المنطقة المتنازع عليها اصبح منذئذ لا غبار عليه ٠ ان القلم قد سال بسهولة وراء هذه الكلمات ورددتها الافواه بحرية ٠ ولكن استعمال السيف كان ضروريا لتثبيت هذه النتيجة المنتظرة ٠

ان حالة الشك والتردد قد بلغت الآن اقصى حدودها ، وإن عهد العبارات الودية ، والتملصات ، والصداقة الفارغة ، والتحالف المنافق ، قد انتهى ٠ وهكذا اصبح التعايش بين عبد القادر وفرنسا على ارض الجزائر غير ممكن ٠ وبعد التحرر من التزاويق الدبلوماسية المتشابكة وقف المتصارعون من جديد وجها لوجه مستعدين للنزول الى الميدان ٠

الفصل الرابع عشر

(1840 - 1839)

بينما كان المارشال فـالى يطلع حكومته على فشل جهوده التى بذلها لاقناع عبد القادر بالاستجابة الى عروضه ، قدم بعض الاقتراحات التى كان يراهـا مناسبـة ٠

فقد قال ان « الحكومة اما ان تتخذ موقفا دفاعيا محتجة ضد احتلال الامير للمنطقة المتنازع عليها ، تاركة للوقت وعلاقات الصداقة ان تلين من موقف الامير ، واما ان تهاجمه فى الحال ، واما ان تضع قوة فى المنطقة المتنازع عليها معلنة للامير ان هذا الاجراء ليس اجراء عدوانيا ، ولكنه مجرد احتلال مشترك ريثما يقع الاتفاق على حل نهائى للموضوع » ٠

وقد قبلت الحكومة الفرنسية الحل الاخير مع تعديل ، وهو انه بدل الاحتلال الدائم لمنطقة حمزة وما جاورها يكتفى بعبور قوة فرنسية للمنطقة ، فـاذا اعترض الامير على ذلك تقدم اليه التفسيرات الضرورية ٠

وكان الدوق دى اورليانز Orléans قد وصل اخيرا الى مدينة الجزائر ٠ ولكى تعطى للمشروع السابق درجة اكبر من الاهمية تقرر ان الدوق نفسه هو الذى يشرف على تنفيذه ٠ وكان من المقرر ان تتحرك قوة فرنسية مـن ميلة ، فى اقليم قسنطينة ، مارة بمضيق (باب الحديد) ، عابرة المنطقة المتنازع عليها ، متقدمة منها الى مدينة الجزائر ٠ واعطيت هـذه الخطة كـل السرية الضرورية للمناورة فى الحرب ٠

وبدأ التحرك نحو بجاية ٠ فاسرع القبائل اليها للدفاع عن بلادهم ضد العدوان٠وغادر المارشال فالى والدوق مدينة ميلة فى الثامن عشر من اكتوبر،

1839 ووصلا مدينة سطيف ، من اتجاهين متعارضين ، في الحادى والعشرين منه • فاسرع القبائل ايضا للدفاع عن انفسهم • وطلب شيوخهم مقابلة المسؤولين الفرنسيين • وعندما قابلهم كبار الضباط الفرنسيين استظهروا لهم بجوازات سفر تحمل خاتم عبد القادر ، تسمح للقوات الفرنسية بالمرور ، فرضي الشيوخ بذلك • لقد كانت هذه الجوازات مزورة ، وكان ختم عبدالقادر قد زور ! •

وبدلا من دخول جبال القبائل ، عادت القوة التي تحركت نحو بجاية القهقرى ، وبعد ان انضمت الى قوة المارشال تقدمت معه نحو باب الحديد • كانت المنطقة جبلية وصعبة • ولكن شيوخ القبائل الذين قاموا بوظيفة المرشدين • كانوا مغتبطين بتسهيل تقدم اصدقاء وحلفاء سلطانهم • وبفضل هذه الظروف المواتية ، مرت القوة الفرنسية ، التي كانت تقدر بحوالى 000 5 رجل ، عبر المضيق الهائل لباب الحديد دون طلقة واحدة • فلو كان عبدالقادر هناك بقوة لا تزيد على 500 رجل لما كان في استطاعة الفرنسيين دخول باب الحديد او لما كان في استطاعتهم الخروج منه •

وفي اليوم التالى مر الفرنسيون وسط قبيلة بني منصور التي باغتتهم كما لو نزلت عليهم من السماء • وفي اليوم الحادى والثلاثين من الشهر المذكور وصلت القوة الفرنسية بنى ينى • وهناك تبادل الفرنسيون والقبائل اخيرا اطلاق النار • ولم يكن لابن سالم ، خليفة عبد القادر في تلك المنطقة ، الوقت الكافى للاستعداد لمواجهة تقدم الفرنسيين ، لذلك اندهش عندما سمع بتقدمهم ، وبدأ في استعدادات متأخرة وبدون جدوى ضد المعتدين • وفي اول نوفمبر دخل الدوق والمارشال مدينة الجزائر دخول المنتصرين واستقبلوا فيها استقبال الفاتحين • وقد دامت الاحتفالات بهذا الحادث اربعة ايام كاملة ، واقيم احتفال ضخم في ساحة باب الواد تكريما لابطال باب الحديد ، وشربت نخب حماسية على شرفهم • وقدم الى الدوق رسميا اكليل من سعف النخيل كان قد قص وظفر في مجاز باب الحديد نفسه • لقد اعتقد الفرنسيون الآن انهم قد احتلوا الجزائر •

وكان المارشال الفرنسي يعتقد ان عبد القادر قد يكتب ، عند سماعه بهذا الخرق غير المتوقع للاتفاق ، رسالة غاضبة او رسالتين ، وان توضيحات ستقدم اليه ، وان القضية ستنتهى عند هذا الحد • وقد صدق ظن فالى ، فاخبار مرور الفرنسيين بباب الحديد قد وصلت عبد القادر وهو في تاقدامت•

وخلال ثمان واربعين ساعة ، راكبا فرسه ليلا ونهارا ، وصل مدينة المدية. وفي اليوم الرابع من نوفمبر ارسل البرقية التالية الى المارشال فالى :

« لقد كنا في سلام . وكانت الحدود بين بلادى وبلادك محددة بوضوح عندما عبر ابن الملك مع قوة عسكرية من قسنطينة الى مدينة الجزائر . وكان هذا دون اعطائى ادنى اشارة ، او حتى الكتابة الى بكلمة تشرحون فيها سبب هذا المرور غير الشرعى بمنطقتى . ولو اخبرتمونى بانه يرغب فى زيارة بلادى لقررت اصطحابه بنفسى او لارسلت احد خلفائى ليقوم بذلك ، ولكنكم تجاوزتم ذلك فاعلنتم ان كل البلاد الواقعة بين مدينة الجزائر وقسنطينة لم تعد تحت سلطتى . فخرق المعاهدة جاء منكم . ومع ذلك ، وحتى لا تتهموننى بنقض العهود . فانى انذركم باننى سأستأنف الحرب . فاعدوا اذن انفسكم . وحذروا كل مسافريكم ، ومعسكراتكم ، ومحطاتكم . وبعبارة اخرى اتخذوا جميع الاحتياطات التى ترونها ضرورية » .

وكان ابن سالم خليفة عبد القادر قد كتب يطلب تعليمات جديدة عن كيف يتصرف ، فكتب اليه عبد القادر كلمات مواسية ومشجعة ، هكذا :

« ان خرق الاتفاق قد جاء من المسيحيين! ان العدو امامكم . اجمعوا امركم واستعدوا للمعركة . ان الدعوة الى الجهاد قد وجهت الى كل مكان . وانت رجل هذه الجهات . واننى اضعك هناك لتمنع دخول العدو .

« احذروا البلبلة . اربطوا احزمتكم وكونوا مستعدين لكل شيء . كونوا على مستوى الحوادث . وتعلموا الصبر فوق كل شيء . لا تدعوا للضعف الانسانى مجالا بينكم . انها محن ارادها الله . وان هذه المحن قد خالطت مصير كل مسلم صالح تعهد ان يموت من اجل دينه . وسيكون النصر ان شاء الله حليف خطاكم . والسلام من عبد القادر بن محيى الدين » .

وبكلمات مشابهة متينة المضمون وجه عبد القادر امره بالعمل الحالى الى خلفائه الآخرين . فقد كتب اليهم :

« ان الكافر قد جبهنا بالخيانة . وان الدليل على خيانته واضح كالنهار . لقد عبر بلادى دون اذنى . فاجمعوا شملكم واربطوا احزمتكم استعدادا للمعركة . انها على الابواب . وان الخزينة العامة غير غنية . وانتم انفسكم لا تملكون النقود الكافية تحت ايديكم لتواجهوا الحرب . فاجيبوا اذن حالما

تتلقون الاوامر بضريبة اضافية . كونوا عجلين فـي عملكـم وسارعـوا الى الانضمام الى فى المدية حيث انتظركم » .

كان فالى لا يصدق ان كل الآمال فى الاتفاق قد ذهبت بدون رجعة . وكان اكثر من ذلك لا يصدق ان عليه ان يدخل فى صراع غير مستعد له كلية . فقد كان المستعمرون (الكولون) الفرنسيون فى سهول مدينة الجزائر بدون ادنى دفاع . وليس هناك اية احتياطات قد اتخذت لضمان امنهم وحمايتهـم كانما كانت جرأة عبد القادر المخيفة وسرعته ونشاطه امورا لم يشعر بها او لم يعرفها الفرنسيون حتى الآن . وحتى عندما كانت العاصفة تتجمع بسرعـة فوق الجبال ، امام عينى فالى كان يرضى نفسه بالكتابة الى حكومته وبارسال دوران Durand اليهودى فى مهمة الى المدية حاملا رسالة الى عبد القادر وقد ختم هذا الخطاب بالكلمات الآتية :

« كن صبورا قليلا . اننى اتوقع الاوامر من باريس . فما زال فى الامكان ايجاد حل مرضى للمشكل » .

وفى نفس اليوم الذى وصل فيه دوران الى المدية ، اى فى الرابع عشر من نوفمبر ، 1839 ، كان حلفاء عبد القادر ، الذين اجتمعـوا بناء على اوامـره ، يعقدون مجلسا عسكريا كبيرا ، برئاسة السلطان نفسه . ادخل دوران الى المجلس وقرئت رسالة المارشال بصوت عال . وقد تـلا ذلك مناقشة حـادة انتهت باعلان الحرب جماعيا ، فقال دوران :

« انكم على خطا . ان فرنسا بلد قوى . وقد كانت لكم تجربة مع جيشها . وانكم تعلمون مدى قوتها واتساع مواردها . انكـم ستهزمون » . فتساءل عبد القادر متعجبا « اذن الى متى ، هل سنستمر فى تحمل اهانات المسيحيين الى ما لا نهاية له ؟ لقد قدموا لنا الدليل تلو الدليل على عدم وفائهم ».

لكن دوران قال « اننى اؤكد لك انك مخطىء ان تغضب من عمـل صغير . انه ليس لدى الفرنسيين رغبة فى تخييب ظنك او فى النزاع معـك . واذا كان ابن الملك قد عبر ارضك فانه لم يفعل ذلك سوى للقيام برحلة متعة » .

وقد تاجل المجلس الى اليوم التالى . لكن عبد القادر ودوران بقيا منفردين.

حاول دوران الآن ان يقنع سيده بالاخطار والمخاوف التى قد تتهدده اذا ما غامر بنفسه فى حرب اخرى . وقد اطنب فى الحديث عن عدم نضج الجيش

الذى تحت قيادة عبد القادر، وعلى ضعف موارده، وعلى الاضطرابات الداخلية التى كانت تعوق حركته في اغلب الاحوال ، كل ذلك فـى مقابـل القـوة العسكرية والانضباط ووحدة وتركيز الهدف التى جعلت الفرنسيين ينتصرون على كل عقبة ·

فقال عبد القادر « اننى اعلم كل ذلك،ولكن حلفائى ينادون بالحرب وبصوت عال · وان شعبى قد اصبح يعتبرنى كافرا لاننى ما زلت لم اعلـن الحـرب · حقا اننى لا ارغب فى الحرب ، ولكن الفرنسيين هم الذين يقودوننى اليها »·

واجتمع المجلس من جديد · ومرة اخرى نادت جميع الاصوات ، باستثناء صوت واحد ، بالجهاد · فقال عبد القادر ، « ليكن ذلك ، ما دامت هذه هـى رغبتكم ، ولكنى اقبل المسؤولية بشرط واحد · انكـم ستتعرضـون للتعب والمشقة والمحن والخيبات · وقد تقنطون او تتعبون من الحـرب · فاقسموا لى اذن على القرآن الكريم انكم لن تتخلوا عنى ابدا ما دمت احمل راية الجهاد » · فاقسم له جميع الشيوخ والخلفاء ·

وفى الثامن عشر من نوفمبر 1839 اعلن عبد القادر رسميـا الحـرب عـلى الفرنسيين وضمن ذلك الرسالة التى وجهها الى المارشال فالى :

« من الحاج عبد القادر امير المؤمنين الى المارشال فالى · السلام على مـن اتبع الهدى · لقد اتصلت باول وآخر رسائلك · وقد قراناهـا وفهمنـا محتواها · لقد سبق لى ان اخبرتكم بان جميع العرب ، من ولاسة (ولهاصة؟) الى الكاف (1) مجمعون على الجهاد ، وقد بذلت كل مجهوداتى لتهدئتهم لكن بدون جدوى · ويجب على طبقا ، لشريعتنا · ان اخضع للاجماع · واننـى اعمل بوفاء لكم حين اخبركم بما يجرى · فارسلوا الى قنصلى الذى هو فـى وهران ، ويمكنه ان يعود الى اسرته · وكونوا مستعدين · فالمسلمون جميعا قد اعلنوا الجهاد · ومهما حدث فانكم لن تستطيعوا اتهامى بنقض العهـود · ان قلبى صاف ولن تجدونى اعمل خلافا للعدل ·

كتب مساء الاثنين بالمدية فى الحادى عشر من شهر محرم سنة 1255 (18 نوفمبر ، 1839) » ·

« تعقيب · عندما كتبت الى الملك رد بانك تتولى البت فى جميع الامـور

---

1) يقصد من حدود المغرب الى حدود تونس ·

سواء السلام او الحرب · وقد اخترت الحرب كما اختارها جميع المسلمين · وها انا انذرك ، فاجب بما تعتقد انه مناسب · فالكلمة اليك وليس لانسان آخر » ·

ان البرق قد لمع من السحاب وان العاصفة قد انفجرت · تلك هي خيوط القصة التي شملت اجراءات عبد القادر ، وهي انه في خلال بعض الساعات ومن فوق مرتفعات بني صالح راى شعبه ، عربا وقبائل ، قد غطى سهول مدينة الجزائر ، بينما كان هو يراقب من فوق مرتفعات بني صالح · وكانت افواج جديدة تنضم الى ذلك الحشد قادمة من مختلف الجبال المجاورة · وغصت مضائق وشعاب الاطلس بالفرسان والمشاة · لقد انحدروا وكانهم انهيارات الثلج الضخمة صوب سهول مدينة الجزائر ·

كان خليفتا المدية ومليانة قد عبرا نهر الشلف يتقدمان جنودهما ، واحاط ابن سالم بجيشه من القبائل بالمراكز والمستعمرات الفرنسية المنعزلة من الشرق · وجاء اهل حاجوط هائجين من الغرب · وفي الحال هوجمت وخربت المستعمرات والمؤسسات الزراعية ، والمزارع النموذجية والمراكز المنتشرة الفرنسية بهذا الطوفان الذى لا راد له ولا هوادة معه · وقد غطى دخان القرى المنحرقة الجو فاظلم · وتعرض المستعمرون الفرنسيون الى مذابح في معظم هذه القرى · وعندما هرب هؤلاء المعذبون من بعض القرى الأخرى طوردوا الى ابواب مدينة الجزائر نفسها ·

وفي مدينة الجزائر ساد الذعر وذاع كالعاصفة الهوجاء · وهدد الأهالي هناك بالثورة · وملات الاشاعات ، التى كان الخيال يفخمها فيجعلها حقيقة ، صدر كل انسان بالخطر والذعر · وكانت اكثر الاشاعات خيالا واستحالة تقبل وتصدق كانها حقائق مسلمة · من ذلك ما اشيع ان عبد القادر كان يتقدم على راس قوة تبلغ 30،000 رجل ، مسبوقا بطليعة تبلغ 5،000 رجل لتلغيم اسوار المدينة · ونتيجة لذلك جلا الناس عن منازلهم الواقعة في الضواحى ، واخلي منزل المارشال فالي ، الذى كان واقعا في حي مصطفى باشا (2) ونصبت الحواجز في الطرقات · واستمر الخوف والذعر في ازدياد طيلة اسابيع ، وكان الضباط الفرنسيون يفحصون الافق بمجاهرهم (تلسكوبات)، وكانوا مضطرين ان يظلوا اياما متفرجين بائسين على مناظر الخراب المنتشرة

---

2) سمى على اسم مصطفى باشا ، داى الجزائر من 1795 الى 1805 ·

امامهم · وقلت المواد الغذائية من الاسواق · وضاعفت المجاعة من مشاعر الياس والخوف ·

وهنا حام عبد القادر ، كالنسر المارق من عشه ، فوق ميدان الاشلاء · وكان متبوعا بقوة من القبائل · ان هؤلاء المحاربين الاشداء الذين هزهم بدعوته اياهم الى الجهاد ، قد اقسموا له ان يحملوه منتصرا الى قلب مدينة الجزائر · وكان عبد القادر قد حدد حتى اليوم الذى يشرب فيه فرسه من ماء باب الواد ، معتمدا على جرأتهم واخلاصهم · ولكنه قرر ، قبل ان يقودهم ضد الحصون المنيعة للمدينة نفسها ، ان يجرب عزيمتهم وثباتهم ضد قلعة بودورو ·

لقد هاجم القبائل هذه القلعة بكل حماس وقوة ، ولكن قنابل المدافع التى نزلت على صفوفهم قد ملاتهم بخوف غير معتاد · فترددوا وانحلت عراهم وعادوا القهقرى ثم تشتتوا · وقد شعر عبد القادر ان صيده قد افلت من قبضته · وفي نوبة من الحزن والغضب قال متعجبا منهم وهو ينظر الى صفوفهم المتخاذلة : « هؤلاء اذن هم القبائل الفخورون بانفسهم ! اخزاهم الله ، وخيب دعاءهم ، وجعلهم أذلة بائسين ، وانزلهم منازل ادنى من اليهود الاذلاء (3) » · ثم عاد الى قمم الجبال التى نزل منها ·

واخيرا استيقظ المارشال فالى على الحالة التى اصبح فيها · وبسرعة عززت ودعمت القوات الفرنسية فى مدينتى البليدة وبوفاريك على اقدام جبال الاطلس · كما ارسلت وحدات عسكرية تقدر ببضعة آلاف لحماية ما بقى من المستعمرات المخربة · ووجهت برقيات مستعجلة الى الحكومة الفرنسية تطلعها على تفاصيل الاحداث الاخيرة · فاعلنت الحكومة بتباه اتباعها لسياسة لا تقبل المساومة ولا التراجع · كما اعلنت ان الجزائر قد اصبحت « منذ الآن والى الابد مقاطعة فرنسية » ·

---

(3) لا ندرى مدى صحة النص الذى نقل عنه تشرشل هذه العبارات · وعلى اية حال فان هذا لا ينسجم مع راى الامير فيهم الذى عبر عنه فى قصيدته اللامية التى تبلغ 49 بيتا ، والتى جاء فيها على الخصوص :

ان غيرهم بالمال شح وما سخا ... جادوا ببذل النفس دون تعلل

ووصلت التعزيزات العسكرية بسرعة الى مدينة الجزائر ، وارتفعت القوة الفعلية التي اصبحت تحت تصرف المارشال فالي الى 30،000 محارب • وكان عليه ان يستخدم هذه القوات بطريقة تجعل منها رادعا دائما لعدوه الذى لا يعرف الكلل ولا التقاعس • وبذلك تخلى عن النظام الذى اتبعه اسلافه والذى يقوم على الهجوم المفاجىء يتلوه انسحاب مفاجىء • وكانت خطته الجديدة في الهجوم تقوم على ثلاثة عوامل هي :

1) الاستيلاء على المراكز التي اقامها عبد القادر وتخريبها ، بما في ذلك مخازن اسلحته ، ومستودعات تموينه ، ونحوها •

2) مهاجمة وسحق جنده النظامي الذى يعتبر العمود الفقرى لقوته •

3) الاحتلال الدائم للمقاطعات الآهلة بالقبائل العربية الرئيسية لكي تقتنع بعدم قدرة سلطانها على الدفاع عنها او حمايتها ، وبالتالي تحطيم سلطته ونفوذه بينها •

كان عبد القادر في هذه الاثناء صاحب سيادة حقيقية على كامل الجزائر باستثناء المدن الساحلية • وكانت وهران والتيطرى له بمقتضى المعاهدة واعترفت بسلطانه القبائل الممتدة جنوب اقليم قسنطينة • واغلب الصحراء خضعت لحكمه • وكانت قوة فرسانه نظريا تبلغ 70،000 فارس ، رغم انه عمليا لا يستطيع ان يعتمد سوى على الوحدات العربية التي يسيطر عليها خلفاؤه مباشرة ، او التي كانت يده تمتد اليها بسهولة • اما قواته المحاربة فقد كانت تقدر بـ 30،000 فارس نظامي وغير نظامي ، و6،000 من المشاة النظاميين •

وقد ركز المارشال فالي قواته في البليدة ، على اقدام جبال الاطلس الصغرى، استعدادا للقيام بهجومه الاول بالتحرك نحو المدية ومليانة • وعبرت قواته نهر الشفة في السابع والعشرين من افريل سنة 1840 • وهناك ظهرت فرسان عبد القادر في عدد كبير • وسار الجناح الايمن للجيش الفرنسي نحو بحيرة ، لكنه لم يصل اليها • غير ان عبد القادر اسرع بقواته الى المساحة الوسطى وعبرها واختفى • وهكذا اصبح سهل مدينة الجزائر معرضا لضرباته، واعتقد في بعض الاوقات انه كان يتقدم في ذلك الاتجاه جارفا كل شيء امامه، ولكن تلك الحركة لم تكن سوى خدعة منه • فقد كان هدف عبد القادر ارغام فالي عن التخلي عن التقدم في سهل وادى الشلف واضطراره الى الدخول الى الجبال عن طريق مضايق المزاية • وقد نجح في ذلك •

لقد عمل عبد القادر خلال شهور ليلا ونهارا ليجعل تلك المضائق الهائلة اكثر عظمه باستخدام كل وسيله من وسائل الفن • فقد اعلن ان الجيش الفرنسي يجب ان يلاقي هنا حتفه•وعليه حفر كل مرتفع او هضبه بالخنادق• ووجت اعلى القمم بمعاقل تحتوى على بطاريات ثقيله • وبجوار هذه المعاقل وضع عبد القادر مشاته النظاميين ، فكانت هناك فرق المديه ومليانه ومعسكر وسباو وناقدامت وعلى راسها ضباط فرنسيون كانوا قد فروا من جيشهم • وانصب العرب والقبائل من كل جهة وقبعوا في المخابىء والجحور مستعديـن لاطلاق النار من عل على القوات الفرنسيه عندما تدخل ، بخطى ثقيلة حازمه ، الممر الضيق المعلق وسط منحدرات الجبال •

قسم فالى قواته الى ثلاث كتائب ، وكان على راسها دوفيفيى Duvivier ولا مورسيير Lomorcière ، ودوتبول D'hutpoul غير ان الفرنسيين، امام دهشه العرب ، غادروا الطريق وراحوا يقفزون في الوهاد • وتغلبوا على المهاوى والاشجار والصخور • ووصلوا الخنادق ببطء لكن بثبات • وفجأة غطى المنظر ضباب كثيث • لقد انطلق البارود ولم يتوقـف • وكـان يلمـع ويتطاير خلال الاسلحة المغطاة بالضباب كانه بريق في بحر لماع • ثم انقشع الضباب • والتقى المحاربون وبدا القتال بينهم بالسلاح الابيض • واستبسل العرب والقبائل وصمدوا في الدفاع عن مخابئهم • لكن الفرنسييـن صعدوا مستعينين بالشجيرات والاغصان والفروع • وكان يظهر انهم قد تغلبوا على كل الصعاب التي واجهتهم •

لكن ما زال المعقل الكبـير • ان عبد القادر قد قام الآن شخصيا بحـركة اخيرة • فقد اجتمع حوله جنوده النظاميون وافواج القبائل • وتقدمت طوابير الفرنسيين الى الامام • فكانت دقات الطبول وطنين الابـواق تتصادى فـي كل مكان • واحتار العرب امام حضور خصمهم في كل مكـان • وبعـد ان وجدوا انفسهم مهاجمين من الامام ومهددين من الخلـف تـرددوا وانحلت عزيمتهم وفروا•وانقض لاموزسيير بقوات الزواف (4) التى معه ، وشانقرنيى Changarnier والفرقة الخفيفة الثانية من المشاة ، على الخنادق • وهكذا رفرف العلم المثلث على اعلى قمم الاطلس •

تراجع عبد القادر الى مليانة • وحين وصوله اليها وجد سكانها على وشك الجلاء عنها • فوقف في مدخلها وانتضى سيفـه وهـدد ان يضرب بـه اول

---

4) فرقة من الاهالى والفرنسيين • واصلها الزواويون ، نسبة الى جبال زواوة •

الخارجين منها ، وبذلك توقف الرعب الذى ساد المدينة ، وعاد الناس الى اماكنهم • وفى نفس الوقت ، دخل المارشال فالى مدينة المدية فوجدها مهجورة ونصف محروقة •

قام عبد القادر بآخر محاولة لمحاربة الفرنسيين طبقا لمبادىء فن الحرب الاوروبى ، ففشل • لذلك لم يكرر المحاولة ابدا • واعطى الى خلفائه وشيوخه الاوامر بان لا يحاربوا الفرنسيين ثانية فى جمع كبير ، بل عليهم ان يقتصروا على مضايقتهم ومطاردة اجنحتهم واعقابهم ، وقطع خطوط اتصالاتهم، والوقوع على معداتهم ووسائل نقلهم ، والتراجع الخادع ، ونصب الكمائن ، والهجوم المفاجىء لاذاعة الارتباك والحيرة والدهشة فيهم •

وبعد ان ترك فالى قوة فى المدية تحت دوفيفيى استعد للعودة الى السهول• وتقدم نحو مليانة التى جلا عنها عبد القادر فى الحين • ولكن حين خرجت منها القوات الفرنسية ومرت بمضائق الجبال استانف عبد القادر بسرعة سيطرته على الموقف ، واضطر تلك القوات بهجمات متلاحقة ليلا ونهارا ، ان لا تبرز من وضعها الخطير الا بعد ان خلفت وراءها فرقة كاملة ابيدت تاركة ، بالاضافة الى ذلك ، المعدات والجرحى •

وقد اصبح الآن من الضرورى على الفرنسيين اعادة تموين قواتهم فى المدية ومليانة • وكلف شانقرنيى بهذه المهمة الخطيرة فقام بها بمهارة وجرأة بينما كانت قواته تتعرض الى وابل من الرصاص • وما دامت القوات الفرنسية المرابطة فى المدينتين محاصرة من عبد القادر فانها قد عاشت حياة شظفة وعانت صعوبات لا توصف • فقد كان العرب والقبائل يحتلون كل المناطق المجاورة • وكانوا يهاجمون القوات الفرنسية الباحثة على العلف • وكانت اكثر الهجمات الفرنسية جرأة وقوة للخروج من الحصار ، لم تترك اى وقع على صلابة العرب والقبائل التى لا تقهر ، رغم انها كانت تخيفهم فى اللحظة الاولى • وخلال شهر اكتوبر من سنة 1840 اوشك معسكر مليانة ان يختفى تحت عدة عوامل مجتمعة وهى المجاعة والحمى ، والغربة • فمن 1،500 رجل ، مات منهم 750 ، ودخل منهم 500 المستشفى ، والباقون ، الذين اصبحوا هياكل متحركة ، لا يكادون يمسكون ببنادقهم •

ان عبد القادر لم يوقف تقدم الفرنسيين بقبضته الحديدية فى جبال التيطرى فقط • بل انه تركهم دائما تحت رحمته ، من حدود المغرب الى

حدود تونس ، عائقا او ملغيا عملياتهم بجهوده التي تكـاد تكون فوق طاقـة الانسان • وكان عبد القادر دائما على السرج ، وكانت تحركاته دائما مفاجئة وسرية ، فهو اليوم يحارب الفرنسيين ، وهو في الصباح التالي على مسافـة مائة ميل لاما شعث قبيلة عربية حائرة وباعثا فيها الامل • لذلك كان يبدو انه ، بنظامه الحديدي ، قد تخلى عن الراحة والاستجمام ، فكانما قد اصبـح جسمه شيئا روحانيا بالروح التي كانت تتقد فيه •

الفصل الخامس عشر

(1842-1841)

ان الصراع الحقيقي والحاسم قد بدأ سنة 1841 ، فقد قدر الفرنسيون ، الذين كانوا معتمدين كلية على تفوقهم في الانضباط والموارد ، ان هذا الصراع سينتهي خلال بضعة شهور • ولكن بفضل وسائل المقاومة التى جندها واحسن استخدامها قائد عظيم تحدى الفرنسيين ، فان هذا الصراع قدر له ان يستمر، مع مجالات النجاح المختلفة ، ستة اعوام •

تولى الجنرال بوجو Bugeaud منصب حاكم عام الجزائر فى الثانى والعشرين من شهر فبراير ، 1841 • وقد نظر عبد القادر الى هذا التعيين على انه علامة خير ، فاعتقد ان بوجو لن يواجه صعوبة كبيرة فى التفاهم مع شخص اعترف له هو نفسه ووافقه على المطالبة بسلطات الحكم • ان احد اسلاف عبد القادر المشهورين وهو عقبة بن نافع الذى ارسله الخليفة معاوية فى نهاية القرن السابع بعد ان قاد جيشه العربى المنتصر من الاسكندرية الى المغرب الاقصى ، كان ، قد وقع معاهدة مع امبراطور القسطنطينية المسيحى يصبح هو بمقتضاها الحاكم الفعلى فى المناطق الداخلية ، بينما رضى الامبراطور بالاحتفاظ بالمدن الساحلية •

ان هذا هو الحل الذى كان عبد القادر دائما يأمل بإعزاز ان يراه يتحقق بينه وبين الحكومة الفرنسية • وكان يعتقد انه ليس من المستحيل اغراء الحاكم العام الجديد ان يقبل تأييد وتبنى مثل هذا الحل للصعوبات الراهنة • ولكن التصريح الاول لبوجو قد أظهر له الحقيقة • ذلك ان الجنرال اعلن ان آراءه عن الشؤون الجزائرية قد تغيرت كلها • فقد رفض فكرة الاحتلال الفرنسى المحدود ونادى بتوسيعه • وعلى هذا الاساس فان كل قوة تعترض ذلك يجب سحقها •

والواقع ان الحكومة الفرنسية قد درست بامعان قوة خصمها العنيد ، لذلك وضعت تحت تصرف بوجو 85 000 رجل · وقد قدروا ان هذه القوة الضخمة كفيلة بالاسراع لا بهزيمة عبد القادر فقط ولكن بمطاردته خارج الميدان ·

ولكن الصعوبة الكبرى ليست في هزيمة عبد القادر بقدر ما هي في اللحاق به ، فالفرنسيون كانوا اقوى منه ولكنه كان اخف منهم · وهم يتحركون في طرق ممهدة في طوابير طويلة مثقلين بالمدافع ، وسيارات الاسعاف ، والمعدات· اما هو فبعد ان يرى هدف هجوم عدوه ، يتفاداه مؤقتا ، ثم يقع عليه عندما يكون في ورطة متخبطا في الشعاب ضائعا في الوهاد · ويحق للفرنسيين ان يقولوا مع الرومان : ان الطابع الصعب وغير المتوقع لارض المعركة قد عاق تحركات جنودنا ·

ان بوجو قد اوقف تكتيك اسلافه · فالطوابير المتنقلة في مختلف الاتجاهات اجبرت عبد القادر على توزيع قواته وابقته في ريب وحيرة ، ووقع التخلي عن المعدات الثقيلة والمدافع الكبيرة · والانسحاب الذي كان الى الآن غير مسموح به اصبح جائزا · بل حتى ادارة التموين قد وقع التخلص منها ·

وقد كان للعرب مزية واحدة كبرى على الفرنسيين · وهي انهم كانوا يجدون المواد الغذائية اينما حلوا · ان مخازن الحبوب المنتشرة تحت الارض في مختلف الجهات ، قد اعطتهم موردا لا ينضب · اما الفرنسيون فقد كان عليهم ان يحملوا معهم مواد تموينهم · وهكذا كان الفرق جديا وهاما · ولكن لامورسيير قد حل المشكل حين قال : « ان العرب لا يحملون تموينهم معهم ، فلم نحن ؟ » ولذلك فانه منذئذ اصبح يبقى في الميدان شهرا ·

اصبح رجال لامورسيير يحملون معهم بعض المطاحن اليدوية الصغيرة · وعندما يصلون الى مكان معين من البلاد ينتشرون هنا وهناك على مسافات قصيرة تصل احيانا فرسخا واحدا · واثناء تقدمهم كانوا ينقبون الاراضي امامهم بسيوفهم وحربات بنادقهم · فيضربون الصخور التي كانت تغطي مخازن الحبوب والتي لم تكن مغطاة الا بطبقة خفيفة من التراب · وهكذا إكتشفت مخازن الحبوب التي كان العرب يخفونها على عدوهم ، ومن جهة اخرى ضمنت الغارات الحصول على الغنم · وتحول القمح الى دقيق عن طريق المطاحن اليدوية · وبهذه الطريقة اصبحت القوات الفرنسية تمون نفسها في المكان الذي توجد فيه ·

كانت عمليات بوجو العسكرية تقوم على مبدئين : الصيانة والاعتداء • لقد كانت الاهداف الرئيسية لتكتيكه تتلخص فـي اعـادة تموين حامياته التى لا تكاد تقوم بنفسها وسط اعداء نشطين يحوطون بها من كل جانب ، وفـى الاحتفاظ بـالقبائـل العربية ، التى استسلمت لسلاحه ، تحـت سلطتـه ، باعطائها تنظيما محكما تحت مسؤولين فرنسيين وبارهاب اخريات منها عن طريـق غارات مرعبـة واحراق مهول لانتاجها ، واخـيرا فـى ضرب قـوة عبد القادر ، دون هوادة ولا تردد ، عن كل اجزائها الحيوية باحتلال مراكزه القوية وتخريب مخازن اسلحته،وتحطيم حصونه، املا فى ارغامه على التراجع عن طريق الضغط المتواصل ، الى الصحارى القاحلة •

وافتتحت حملة سنة 1841 بمحاولة اعادة تموين مدينتى المدية ومليانة • وقد كانت خسائر الفرنسيين ، قبل تحقيق ذلك الهدف ، فادحة ، ذلك ان عبد القادر قد نازعهم كل بوصة اثناء تقدمهم • وكان بوجو قد ذهب الى اقليم وهران • ومن مستغانم قاد شخصيا حملة ضد تاقدامت • وعند وصوله اليها فى الخامس والعشرين من شهر ماى ، وجدها مهجورة بينما كانت اجزاء منها تحترق • ثم تلا ذلك تخريب بوغار وسعيدة وتازة •

وقرر عبد القادر ، طبقا لنظامه الجديد ، الا يضيع قواته بلا طائـل فـى محاولات الدفاع عن قلاعه • لذلك تخلى عنها جميعا • وكان جيشه النظامى اكثر فائدة ونجاحا فى استخدامه لعرقلة الفرنسيين اثناء تقدمهم ، او فـى الاحتفاظ بولاء القبائل التى ظهر عليها التردد • وقد اصبحت المدن المحصنة ، بالنسبة لاسلوب الحرب الجديد الذى دعى عبد القادر لمواجهته ، حملا ، بـل حملا ثقيلا ، كان يشعر بفرح فى التخلص منه •

والرسالة التالية التى ارسلها عبد القادر الى الجنرال بوجو خـلال هـذه الفترة تكشف عن هوية مرسلها وتبين باعجاب ابتهاج الروح التى كـانـت تقوده خلال عهد كان كل شىء فيه يشير الى نهايته البائسة المحققة :

« ما الذى دفع بفرنسا ، التى تقول عن نفسها انها امة قوية ومسالمة ، ان تأتى الى بلادنا وتعلن الحرب علينا ؟ اليس لديها ما يكفيها من الاراضى ؟ اى ضرر تستطيـع ان تأخذنـا عليه بالمقارنة الى ما تبقى لنـا ؟ انهـا ستمضى ونتراجع ، ولكنها بدورها ستضطر الى التراجع ، وعندئذ سنعود •

« وانت ، ايها الحاكم العام ، اى ضرر تستطيع ان تنزل بنا ؟ انك فـى المعارك تخسر من الرجال مثلما نخسر ، وجيشك ينقص سنويا بالامراض •

فاى تعويض تظن انك تستطيع تقديمه الى ملكك وبلادك مقابل خسائرك الضخمة في الرجال والاموال ؟ انه لا يعدو قطعة من الارض واحجار مدينة معسكر !

« انك تحرق وتتلف حرثنا ، وتنهب مخازن حبوبنا • وماذا يعني بالنسبة الينا ضياع سهل اغريس ، الذى لم تتلفوا حتى جزءه العشرين ، عندما نزال نمتلك كثيرا من السهول الاخرى ؟ ان الاراضى التى تاخذها منا ليست سوى قطرة ماء اخذت من البحر • وسنحاربك عندما نرى ان ذلك مناسب ، انك تعلم اننا لسنا جبناء •

« اما اعتراضنا للقوات التى تجرها وراءك فسيكون حماقة • ولكننا سنطاردها ، وننهكها ونشتتها ، وسيكمل الطقس البقية • وهل تتوقف الموجة عن الصعود والتضخم عندما يلامسها طائر اثناء طيرانه السريع ؟ تلك هى صورة مروركم بافريقية » •

ان للفرنسيين كل الحق فى الاحجام عن العمل الذى امامهم • ان الخسائر التى منوا بها من جراء الكر والفر ، والمعارك المتواصلة ، والحرارة القاتلة قد جعلت جيشهم يوشك على الفناء • وقد كان على بوجو ان يعلن فى نهاية سنة 1841 ان من بين الستين الف رجل الذين لديه لا يوجد سوى اربعة آلاف قادرين على خوض المعارك •

ومرة اخرى لجات الحكومة الفرنسية الى مشاريع السلام للخروج من المشكل • فقالت اذا رفع عبد القادر الحصار عن الحاميات الفرنسية والقى السلاح ظاهريا (وكان من المفهوم ، فى نفس الوقت ، ان قوة من 30،000 ستاخذ مرتباتها سريا) فان فرنسا ستعترف له بكل حقوقه السابقة ، وستعاد اليه كل الاراضى التى كانت له • ولكن عبد القادر ضحك من هذه المقترحات • فقد اجاب « دع الفرنسيين يحتفظوا بالمدن • هل ستعطيهم المدن الطعام ؟ اننى ما دمت اسيطر على داخل البلاد وفى استطاعتى ان اهاجمهم وان اعطل قوافلهم ، فان وضعى سيكون اكثر تفوقا من وضعهم » •

وان كون عرض السلام قد جاء اولا من الفرنسيين انفسهم قد اكد لعبد القادر عزمه على محاولة ضرورات الحرب • لقد ارغم الفرنسيين فى الماضى مرتين على التفاوض معه ، وكان ذلك قبل ان توجد حصونه ومخازن اسلحته وان العناصر التى كونها عندئذ ما تزال الى جانبه حتى بعد ان فقد تلك المراكز

بل الواقع انها اكثر فعالية من ذى قبل ، وقد نظمت القبائل العربية واصبحت تتحرك بدافع واحد ، كما اصبحت تنبسط او تنقبض طبقا لامر القيادة ، وكانت تهاجم عند اقل الخطر وتختفى عندما تشعر بتتبع العدو لها • هذا هو المبدا الجسيم ، ولكنه دائم التقلب ، الذى اصبح منذ الآن الاساس لعمليات عبد القادر •

وقد اصبح الهدف الاول لبوجو هو كسر حلقات هذه السلسلة المترابطة وتحطيم السلطة التى تجعلها مجتمعة ، وذلك بانشاء مراكز عمل دائمة فى قلب المجتمعات العربية القبلية ، وبارسال حملات سريعة متتالية انطلاقا من هذه المراكز لكى يتيح لجيشه ان يثبت حضوره دائما وسط العرب •

كما تقرر اعتبار اقليم وهران منذئذ مسرح العمليات الاساسى باعتباره القاعدة التى يستمد منها عبد القادر قوته • فاحتل لامورسيير مدينة معسكر، واحتفظ بيدو بتلمسان ، وكان شانقارنيى يراقب الحدود الغربية لسهل مدينة الجزائر ، وهدد دوتبول التيطرى • وهؤلاء جميعا كانوا رجالا واعدين قادرين مقدامين ناجحين طموحين ، ولكن كان مقدرا لهم ان يجربوا ، فى زمن لاحق ، تقلبات الحظ •

وقد ارسلت ثلاثة طوابير كانت تتحرك من وهران ومستغانم نحو القبائل الواقعة فى المنطقة الواسعة الممتدة بين البحر والاطلس ، بالاضافة الى تلك التى تقع فى اتجاه الصحراء • كان الطابور الاول تحت قيادة بوجو شخصيا وكان يتقدم محاذيا لسهل وادى الشلف ، ثم التقى بالطابور الثانى الذى كان تحت قيادة شانقرنيى الذى كان قد بدأ سيره من البليدة • أما الطابور الثالث الذى كان يقوده لامورسيير فقد كان يهدف الى رد عبد القادر على الاعقاب نحو الجنوب ، لكى يعزله عن القبائل التى كان بوجو وشانقرنيى يهاجمانها •

وهنا بدات تلك القصص المدهشة ، المثيرة فى وقعها ، السامية فى عظمتها، تلك القصص العجيبة من الجسارة والعبقرية التى طبع بها عبد القادر صراعه المجيد الذى كان يخوضه وحده بشخصيته الخارقة •

كان لامورسيير ، الذى كان ينفذ بحماس التعليمات المعطاة اليه وهى مطاردة السلطان والقبض عليه ، دائم الافتخار بمتابعة آثار هدفه ، وفجأة سمع ان عبد القادر كان امام مدينة معسكر • وعندما اعد خطته للوصول بسرعة الى ذلك المكان عرف ان عبد القادر قد مر قريبا من مؤخرة طابوره وانه كان يقوم بغزوة ضد قبائل البرجية •

وعادت المطاردة ، ولكن عبد القادر من جديد عبر الشلف بمناورة جريئة وسريعة تاركا خصمه خلفه فى حيرة ، ومر بين قوات بوجو والبحر • وسرعان ما استرجع مكانته بين القبائل التى فرت منه فى ذلك الاتجاه وقام بغزوة اخرى سريعة فى جنوب مليانة ، ثم اسرع نحو الصحراء حيث ظهر بكامل قوته ، فى نفس الوقت الذى كان الفرنسيون قد رجعوا الى قواعدهم يائسين من العثور عليه •

وباللجوء الى طبيعة المفاجأة ، والتسرب بين طوابير العدو ، والمروق فى مقدمتهم ، والحومان على اجنحتهم ، والهجوم على مؤخرتهم ، وبايمانه بهدفه وعزيمته القوية ، وبكونه مرة فى الجبال ، واخرى فى السهول ، وباضعاف اكثر التجمعات العسكرية العلمية وضعضعتها ، عوض عبد القادر بقدرة فائقة وسائله الضعيفة واستطاع ان يجد توازنا بينها وبين الظروف المعاكسة العديدة التى كان يواجهها •

وبعد ان ترك لخلفائه فى وهران القيام بمهمة الحرب غير النظامية التى ارتضاها لنفسه واتبعها بدون تردد ، توجه عبد القادر الى جبال ترارة على حدود المغرب الاقصى ، وقد استطاع بيدو Bedeau بمهارته العسكرية وحنكته الدبلوماسية ان يفرض الطاعة على كثير من قبائل الحدود • ورأى عبد القادر ان طرق اتصالاته مع المغرب قد اصبحت مهددة • ومن المعروف انه كان يحصل من المغرب على معظم اسلحته وملابسه وذخيرته لا على انها ، كما كان يشاع خطأ ، هدايا فخمة ومجانية من السلطان عبد الرحمان ، ولكنه كان يحصل عليها بالطرق التجارية العادية •

ومن القبائل التى خضعت للجنرال بيدو قبائل ندرومة التى كانت قد عرفت بولائها التام لعبد القادر ، وكان ظهور عبد القادر بينها قد استثار حماسها واخلاصها القديم • فطلبت منه المغفرة واستأذنته فى ان تغسل العار فى ميدان الشرف ، وتبع ذلك بنو سناسن وغيرهم من قبائل الحدود التى انضمت مرة اخرى تحت لوائه • ومن هذه القبائل كلها استطاع ان يكون لديه ، بالاضافة الى جيشه النظامى ، حوالى 3،000 فارس ، و 5،000 راجل ، وهى قوة تكفى لمواجهة العدو •

وخلال شهرى مارس وافريل سنة 1842 اصبحت هضاب ووديان جبال ترارة وندرومة ، وضفاف التافنة والزقاق ، مسرح الاشتباكات بين عبد القادر والجنرال بيدو • وقد كان مصير الحملة يتأرجح عندما استدعى عبد

القادر الى ضواحي مدينة معسكر • ورغم احتياطات صهره مصطفى بن التهامي والبركاني ، وسيدى مبارك (I) ، وهم اشهر قواده ، فان لامورسيير كان اكثر نجاحا فى عملياته • فبعض القبائل قد دخلت تحت طاعة الفرنسيين ، بل ان جزءا كبيرا من بنى هاشم ، قبيلة عبد القادر نفسه ، قد سرت اليه هذه العدوى وانضمت ايضا • وكان لامورسيير يتصور ان عبد القادر كان منشغلا كثيرا بالجنرال بيدو ، فوسع هو حملاته نحو الصحراء • وقد اغتنم عبد القادر هذه الفرصة فاثبت من جديد سلطته وقوى نفوذه بين القبائل التى التجأت الى العدو حول معسكر • ولكنه على كل حال قد ميز بين القبائل التى تخلت عنه خيانة وبارادة وبين التى فعلت ذلك اضطرارا ، فحيثما ثبت له الدليل على التواطؤ مع الفرنسيين وعلى الاتصالات الخائنة معهم ، والمشاركة النشيطة الى جانبهم ، فان عقوبته كانت قاسية ولا رحمة فيها • حقا لقد كانت هناك امثلة رهيبة ، فى بعض الاحيان ، طبقت على القبائل التى تحالفت عن اختيار ووعى مع الكافر ، والتى جلبت على نفسها اقسى العقوبات عن استحقاق بحكم تعاليم القرآن الواضحة فى معاملة الخونه لدينهم وربهم •

وقد عاد لامورسيير مسرعا عندما سمع بظهور عبد القادر من جديد فى ميدان العمليات الذى ظن انه قد وطده لفرنسا • ولكن كان عليه ان يحارب من جديد لاستعادة المنطقة التى كان قد كسبها • ومما اثار استغرابه ان القبائل التى كانت قد انظمت اليه حديثا أصبحت الآن متحالفة ضده • وقد حارب بشجاعة وسط جميع العقبات وكان يحاول ان يسابق سيفه سيف عبد القادر الذى كان السبب فى هذه المعركة غير المتوقعة ، فقد سمع ان عبد القادر قد حل بقواته بتاقدامت ، فتوجه هو ايضا اليها •

والواقع ان لامورسيير قد وصل الى تاقدامت ، لكن فى الوقت الذى سمع ان عبد القادر كان يطارد شانقرنيى فى اتجاه مليانة • وكان شانقرنيى ، معتمدا على غياب خصمه الشهير ، معتكفا هناك على اخضاع بعض القبائل النافرة ، وهو عمل سهل بالمقارنة الى غيره • وذات يوم وجد نفسه قد تورط فى مواجهة قوة ضخمة من العرب والقبائل ، فرسانا ورجالة ، نظاميين ، وغير نظاميين يقودها عبد القادر شخصيا ، ومقدمة بجرأة على القتال •

I) هم على التوالى خلفاؤه على معسكر والمدية ومليانة •

وظلت المعركة مستمرة بلا توقف طيلة يومين وليلتين • وكان المقاتلون في صراع مميت ، يدا بيد ، ورجلا برجل ، بالبنادق والسيوف واليطقان والسنكي • وفجأة توقف القتال • ان عبد القادر قد سحب قواته واختفى ، وكان الفرنسيون في درجة كبيرة من الاعياء فلم يتبعوه • وبعد يومين وصلتهم الاخبار بانه قد خف الى سهل متيجة وهاجمه ونشر الرعب حتى وصل الى أبواب مدينة الجزائر نفسها •

وبعد ان قام عبد القادر بهذه العملية استدار نحو اليمين وصعد جبال الاطلس وتسرب الى جبال الونشريش الواقعة خلف التيطرى ، ثم وصل الى الصحراء • وكان في كل مكان حل به يقضى وقته في استشارة الشعب وجمع شمل القبائل وتنظيم الفرق العسكرية • وبعد ان قطع مسافة حوالى ثلاثمائة فرسخ عاد بقوة جديدة وحيوية اكثر صلابة لمهاجمة القوات الفرنسية في مدينة معسكر تحت قيادة لاموريسيير حيث نصب الحصار حولها رغم قسوة الشتاء •

ورغم هذه الجهود الباهرة ، التى كانت ايضا من بعض الوجوه ناجحة ، والتى كانت اكثر من اى وقت مضى ضرورية للمحافظة على مكانته التي تهدف الى تحقيق عمل مزدوج وصعب وهو افشال خطط اعدائه الخارجين الخطرين ، ووقف انتشار روح التخلى عنه من الداخل ، فان عبد القادر قد بدأ يشعر انه يحارب ضد عدو محظوظ • ذلك ان كل مراكزه الثابتة قد تعرضت للغزو وخربت • كما ان القطنة ، مسقط راسه ، قد هوجمت وخربت ، واصبح اعضاء اسرته الخاصة منبوذين • ومما زاد الطين بلة ان عائلات اكثر اتباعه اخلاصا اصبحت باستمرار عرضة ، رغم يقظته القوية ، لزيارات فظة من غرباء ممقوتين مرتدين ثيابا خشنة ، ومن الجنود الكفرة الذين اعتدوا على حرمات الحريم بسخرية لاذعة وانتهاك انتقامى شنيع •

لذلك اضطره واجب الدين والانسانية ان يواجه بسرعة امتحانا عسيرا وطارئا • فقد قرر ان يبعد عن مسرح الحرب كل اولئك الذين لا يمكنه التخلى عنهم والذين لا يستطيع عند الحاجة ان ينقذهم • وهكذا انشأ (الزمالة) •

ان هذه المنظمة الجديدة الفريدة كانت عبارة عن مجمع من المنازل الخاصة • لقد كان العرب يرسلون الى الزمالة ، باعتبارها مأمنا وملجأ مشتركا ، أشياءهم الثمينة ، وقطعان ماشيتهم ، ونساءهم واطفالهم ،

وشيوخهم وعجزتهم · وبذلك اصبحت الزمالة عبارة عن عاصمة ضخمة متنقلة تقدر باكثر من 20،000 نسمة · وكانت تتبع تحركات عبد القادر سواء في تقدمه نحو المناطق المتمدنة او في تراجعه نحو الصحراء ، حسب حظوظه في النجاح او الفشل ·

وعندما تكون الزمالة في الصحراء تضيع الخيام الكثيرة في الافق البعيد· اما عندما تكون في التل فانها تملا السهل وتغطي منحدرات الجبال · وكانت الزمالة منظمة حسب ترتيب عسكري محكم · فالدوائر (2) التي كانت خيامها تختلف عددا بناء على قوة كل منها ، كانت موزعة على أربعة مخيمات كبيرة · وكل دائرة تعرف مكانها · وكل رئيس له مركز معروف ووظيفة معينة ، طبقا لمكانته او الثقة التي يوحي بها ·

ولم يدخر عبد القادر وسعا في تشجيع الهجرة والدعاية لها · ولذلك كان العدد يزداد يوميا بحكم الدوافع الانسانية القوية ، وقد ادى هذا الى توحيد القبائل العربية تدريجيا ودون شعور ، وتجمعها حوله تربطها اقوى الوشائج الانسانية · وعين عبد القادر اربع قبائل كانت مهمتها مراقبة وحماية وارشاد الزمالة اثناء تحركاتها · كما عين جندا نظاميا لحراستها · وكلف اليهود رسميا بتقديم قروض من النقود الى المحتاجين منها ·

والواقع ان الزمالة قد اصبحت في الاخير وسيلة مراقبة قوية ضد هروب بعض القبائل · ذلك انه عندما يغريهم الفرنسيون بالوعود المعسولة قائلين لهم : « هلموا الينا فاننا سنحميكم » كان هناك صوت خفي يوشوش في آذانهم قائلا : « ان لدى نساءكم واطفالكم وقطعانكم ، فاحذروا ! » وبذلك اصبحت الزمالة ، التي كان عبد القادر اولا قد انشأها كاجراء محلي، اصبحت في يديه محركا سياسيا قويا له تأثير عظيم ·

---

(2) الدوائر جمع دائرة والمقصود بها هنا مجموعة من البيوت ذات النسب المشترك ولو من بعيد·

الفصل السادس عشر

(1842 - 1841)

لقد كان الوقت شهر مارس سنة 1841 ، وكان الليل باردا مظلما وعاصفا، وكان هناك اكثر من الف موقد يتقد في المنازل والخيام والمعسكرات • وكان الناس يناقشون بحماس ماضي العمليات العسكرية ومستقبل خطط الحرب ، وكان الضباط الكبار يفحصون الخرائط بعناية، وكان الجنود يشربون انخابهم المعتادة من اجل الحب والنصر ، وكان القسس يقرأون كتب الصلوات ، وكان اسقف مدينة الجزائر قد انهى لتوه صلاة نصف الليل • وفجأة دخلت عـليه امرأة شابة ، تجر طفلة صغيرة من يدها ، ورمت بنفسها عند قدميه وصرخت في صوت يائس قائلة : « زوجي ، والد طفلتي ! » ان زوجها كان قد اختفـى اثناء اعصار الحرب المخيف الذى عصف بسهل مدينة الجزائر • ولكنه كـان آمنا ، انه لدى عبد القادر •

ان هذا الاسقف الصالح طالما استنكر بدون جدوى المعاملة السيئة التي يتعرض لها الاسرى الفرنسيون على يد العرب ، وكان غالبا ما اقترح اجراءات لمساعدتهم ، ولكن الكبرياء والشرف الوطني الفرنسي قـد منعـا حتى الآن اجتياز الحاجز المستحيل الى تحقيق مشاريعه الخيرية • اما الآن بعد ان هـزه واثاره المنظر الذى امامه فقد قرر ان يحطم الحاجز المفروض عليه وان يكتب الى عبد القادر واثقا من انه سيجد في صدره الرحب استجابة لندائه ، فقال :

« انك لا تعلمني • ان عقيدتي تقوم على خدمة الله ، وان احب في ذاته كل الناس ، ابنائه واخواني ، فلو كنت قادرا على امتطاء صهوة الفرس لما اخافني لا ظلام الليل ولا زمجرة العاصفة ، ولحضرت بنفسي امام باب خيمتك ولصرخت بصوت لن تستطيع ، اذا لم تخني معرفتي لك ، ان تقاومه ، مناديا لك ان تعيد

الى أخي البائس الذى سقط تحت يديك القويتين ، ولكنى لا استطيع ان احضر بنفسى ٠

« فدعنى اذن ارسل اليك احد اتباعى ، ولتقم الرسالة التى يحملها اليك والتى كتبتها على عجل مقام ذلك النداء الشفوى الذى كنت سأوجهه اليك والذى كان الله سيباركه لانه صادر من اعماق قلبى ٠ اننى لا املك لا الذهب ولا الفضة لاقدمهما اليك فداء ٠ والتعويض الوحيد الذى ستناله على عملك هو صلوات مخلصة واعتراف صميم بالجميل ٠ بارك الله فى الراحمين ومنحهم الرحمة والغفران » ٠

وقد رد عبد القادر بسرعة بالعبارات التالية : « لقد اتصلت برسالتك وفهمت ما فيها ، انها لم تثر استغرابى ، لاننى كنت قد سمعت عن روح الصلاح فيك ٠ ولكن اسمح لى ان الاحظ لك بأن العنوان المزدوج الذى ترفعه، وهو خدمة الله وخدمة اخوتك البشر ، يفرض عليك ان لا تطلب منى حرية فرد واحد فقط ولكن حرية جميع المسيحيين الذين وقعوا فى الاسر منذ استئناف الحرب ٠

« بل هناك ما هو اكثر من ذلك ٠ الا تكون اكثر جدارة بالمهمة التى تتحدث عنها ، المهمة المزدوجة ، اذا انت لم ترض بالحصول على نعمة الحرية لمائتين او ثلاثمائة مسيحي فقط ، ولكن تسعى للحصول عليها ايضا بطريقة متساوية لاولئك المسلمين الذين مازالوا يعانون فى سجونكم » ٠

وفى سيدى خليفة وقع تبادل الاسرى الشهير فى 21 ماى ، 1841 ٠ وكانت هذه الحادثة ثمرة خالدة لاتصال وجهود قلبين كريمين ٠

وكان الاسقف قد احتفظ ببعض اليتامى العرب الذين مات اهلهم فى السجون الفرنسية ٠ وكان يتوقع ان يتلقى احتجاجا على ذلك ٠ ولكنه بدلا من ذلك تلقى ، وهو مستغرب ومندهش ، هدية ووصية ٠ فقد كتب اليه سلطان العرب صاحب العقل المتحرر : « اننى ارسل اليك قطيعا من الماعز مع جديانها التى مازالت ترضع ٠ وبذلك ستكون قادرا لفترة طويلة على اطعام اليتامى الصغار الذين تبنيتهم والذين فقدوا أمهاتهم ٠ وارجو ان تعذرنى على هذه الهدية لانها متواضعة جدا واقل مما يجب » ٠

ان العناية الكريمة والعاطفة الرحيمة التى ابداها عبد القادر نحو الاسرى ليس لها مثال فى تاريخ الحروب ٠ فكبار الضباط المسيحيين عليهم ان يجلسوا

عند قدميه وان يتسمحوا بهما لانحطاطهم فى المعاملة • ولا شك ان الاسرى الذين سقطوا فى ايدى العرب كانوا كثيرا ما تعرضوا لاهانات سجانيهم القساة ولا سيما عند ما يسقطون فى ايدى قبائل ساخطة على الفرنسيين للآلام والمعاناة التى تعرضت لها على ايديهم • ولكن روح المعاملة الطيبة التى بثها السلطان قد حلت محل القسوة ، رغم انها عمليا كانت بطيئة • وهكذا تقلصت الوحشية وظهرت الرحمة وانتصرت الانسانية •

والواقع انه كلما كان عبد القادر حاضرا كان الفرنسيون الواقعون فى قبضته يعاملون كضيوف لا كأسرى حرب • فقد كان كثيرا ما يرسل اليهم سريا كميات من النقود ، تختلف قيمتها من خمسة الى عشرين دولارا ، من جيبه الخاص • وكان يوصى بهم ان يكسوا ويطعموا جيدا • بل لقد ذهب عبد القادر الى ابعد من ذلك فمكنهم من تلبية حاجاتهم الروحية •

وبصدد هذا الموضوع كتب بطل الفكرة الاسلامية الذى لا يعرف المساومه الى اسقف الجزائر كلمات تستحق ان تكتب بالذهب ، قائلا : ارسل قسيسا الى معسكرى • فسوف لا يحتاج الى شىء ، وسوف اعمل على ان يكون محل احترام وتبجيل لانه سيكون له وظيفة مزدوجة وهى انه رجل دين وممثل لك •

« وسوف يصلى يوميا بالمساجين ، ويواسيهم ويتراسل مع عائلاتهم • وبذلك يكون واسطة فى الحصول لهم على النقود والثياب والكتب ، وبعبارة احرى كل ما قد يحتاجونه او يرغبون فيه مما نخفف عنهم شدة الاسر • وكل ما سوف نطلبه منه ، عند وصوله لدينا ، ان يعد وعد شرف لا يتغير بان لا يتعرض فى رسائله الى الحديث عن معسكراتى وحركاتى العسكرية » •

ويبدو ان مجرد منظر السجين كان يثير فى صدر عبد القادر اسمى العواطف وانبل المشاعر العزيزة على الطبيعة الانسانية • فقلبه ، الذى عرف بالقساوة والجسارة ساعة الخطر ، كان يتسع وينعم حتى ليصبح فى نعومة قلب امرأة أمام مصير الاسير المظلم المخيف ، كالزهور التى لا تتأرج وتبعث شذاها الا فى ظلال الليل •

وذات يوم أحضر أمام عبد القادر سجينان فرنسيان فقالا له : « ايها السلطان ، اننا نرغب ان نصبح مسلمين ، واننا مستعدان ان تعتنق دينك » • فأجابهما : « اذا كنتما تفعلان ذلك عن طيب خاطر ، فأهلا وسهلا بكما • ولكن اذا كنتما تفعلان ذلك شعورا منكما بالخطر اثناء الحالة التى انتما عليها فانكما مخطئان • فلو ظللتما مسيحيين ، كما انتما الآن ، فلن يحدث لكما اى ازعاج

ولن تمس شعرة من رأسيكما • فكرا فيه، سيحدث لكما لو عدتما الى اهليكما بعد ان تخليتما عن دينكما • الن يعاملوكما كما يعامل الكفار المجرمون ؟ وكيف تأملان ان تستفيدا من المناسبة اذا ما حدث تبادل الاسرى ؟ » •

وهنا صاح سجين فرنسي كان يتقد بالغضب من مجرد الاشارة الى الردة بحضور عبد القادر قائلا : « اما بالنسبة لى فلن اتخلى عن دينى • قد تقطعون راسي ، ولكنكم لن تقدروا على جعلى ارتد عن دينى ! » •

فرد عليه عبد القادر : « هون عليك فان حياتك محرمة على • اننى احب سماع هذه اللهجة • انك رجل شجاع ومخلص وتستحق تقديرى • فانا احترم الشجاعة فى الدين إكثر من الشجاعة فى الحرب » •

وذات مرة طلب قائد مغربي شهير ان يرى السجناء الفرنسيين • وعندما لاحظ من بينهم نافخ بوق سأله ان ينفخ نفخة ، ففعل • فسأل القائد المغربى عن معني ذلك ، فأجابه النافخ بان يخبر السلطان عبد القادر بانه عندما يسمع ذلك الصوت فان من الافضل له ان يطلق العنان لفرسه ويهرب » • وشعر القائد بانه قد أهين فطلب معاقبة السجين • ولكن عبد القادر قال « لا ، لا ، يجب ان نكون كرماء ورحماء مع أسرانا » •

وكان عبد القادر شديد الاباء من رؤية السجينات • ذلك ان التفكير فى ان تصبح المرأة ضحية للحرب كان فى حد ذاته مصدر قلق دائم له • وذات يوم احضر له فرسان احد خلفائه اربع فتيات كغنيمة هامة • فأدار وجهه اشمئزازا • وقال فى سخرية : « ان الاسود تهاجم الحيوانات القوية ، اما ابناء آوى فتتسقط على الضعيفة منها » •

وصادف مرة ان كان عبد القادر واتباعه فى شدة من امرهم • وكان من الصعب الحصول على الغذاء • واثناء ذلك حدثته نفسه عن الاربع والتسعين سجينا فرنسيا الذين كانوا منطرحين فى معسكره وهم فى اشد حالات البؤس ، فأطلق سراحهم جميعا بدون فدية او مقابل • بل انه امر بمرافقتهم الى المراكز الامامية حيث سلموا الى رفاقهم وهم مندهشون من هذا التصرف الكريم •

ان هناك عددا لا يحصى من الاعمال الباهرة التى لا يعرفها الا الضباط الفرنسيون الكبار الذين اجتمع بهم او الذين تراسل معهم ، والتى تشهد كلها على سمو همته • وقد قال احد الضباط الفرنسيين الكبار بعد ذلك :

« لقد كان علينا ان نخفي هذه الاشياء بقدر ما نستطيع على جنودنا ، لانهم لو اطلعوا عليها لما كان في استطاعتنا ابدا ان نجعلهم يحاربون عبد القادر بنفس الاندفاع والحماسة » ٠

كان بعض الفنيين الفرنسيين قد وقعوا ، باذن من الحاكم العام ، عقودا مع عبد القادر للقيام ببعض الاعمال في المدن الاربع التي كان بصدد بنائها ٠ وكان الاتفاق يقتضي ان يحصل كل منهم على 3،000 فرنك ٠ لكن الحرب استؤنفت قبل أن تنتهي عقودهم ، بل أن حوالى نصف العمل مازال لم ينته ٠ فطلبوا الاذن لهم في العودة ٠

لكن عبد القادر لم يعطهم رخصة العودة فقط ، بل انه اعطاهم عهد الامان وحامية ترافقهم وسط القبائل التي كانت كلها مسلحة وتنادي بصوت عال بالدم الفرنسي ٠ وفي الحدود تسلم الفنيون الفرنسيون كل الحساب المتفق عليه ٠ وبذلك تسلموا من السلطان حساب عمل هم في الواقع لم ينتهوا منه٠

وكان قواد عبد القادر وممثلوه في مختلف المناطق والنواحي الواقعة تحت سلطتهم ملتزمين في معظم الاحيان ، عن ارادة واقتناع بمعاملة ودية ومهذبة وكريمة نحو الاسرى من خصومهم ، ايمانا منهم بالمثل الذي ضربه عبدالقادر واتباعا له واستيحاء منه ٠ ومن هؤلاء ابن سالم وابن حامدي (1) ، ومنهم ايضا سيدي مبارك (2) ، ذلك الرجل الذي كان انعكاسا ساطعا لروح عبد القادر والذي كان اسراه يتبرعون ، عند اطلاق سراحهم ، بالسلاح تكريما له ٠

ولكن كل تلك الاعمال الطيبة التي تهدف الى التلطيف والتخفيف من العناء الذي لا يوصف لليائسين والمبعدين عن ذويهم ، لا تكاد تقارن الاعمال التي قامت بها والدة السلطان ، للا الزهرة (3) ، تلك المرأة الوديعة المهذبة ٠ فقد قامت بحماية كل النساء السجينات ، كما لو كانت تفعل ذلك عن حق وراثي ٠ وكانت العناية واللطف اللذان اسبغتهما عليهن عظيمين وفي نفس الوقت مثالين يحتذيان ٠ فقد كن يقمن في خيمة قريبة من خيمتها ٠ وكان اثنان من حراسها الزنوج يحرسان ابواب الخيمة ٠ ولم يكن يسمح لاحد

1) لعله يقصد البوحميدي خليفته على تلمسان ٠
2) يعني ابن علال خليفته على مليانة ٠
3) يكتبها تشرشل : ليلى Leila والصواب : لاللا اي السيدة ٠

بالاقتراب منهن بدون رخصة · وفى كل صباح كن يتناولن من يديها هى شخصيا هدايا من الزيت والزبدة واللحم ومواد اخرى لطعامهن · واذا اصاب احداهن مرض فانها تحضر لها ، بحنان الامومة ، الشاى والسكر والقهوة ، وكل شىء تظن انه قد يخفف عنها الالم ويوفر لها الراحة ·

وذات يوم احضرت شرذمة من المساجين الفرنسيين ووضعت مؤقتا بالقرب من خيمتها · فخرجت لتراهم · وقالت وهى تنظر اليهم بعين رحيمة : « ماذا جئتم تفعلون فى بلادنا ؟ لقد كانت هادئة ومزدهرة · فنشرتم فيها خراب الحرب · لا شك ان هذه هى مشيئة الله ، والله قوى عزيز ، وان خفاياه لا يعلمها الا هو · لعلنا ذات يوم ، فى ساعة الوئام والتفاهم ، نستطيع ان نردكم الى منازلكم وعائلاتكم » · ان هذه الكلمات الآملة ، التى تنعش الصدور وتضمد جراح الاسرى البائسين ، والتى كانت تبدو لهم كخيوط النور البعيدة لحريتهم المستقبلة التى كانت ترفرف فوق سجنهم ، تظهر ، فى جملة واحدة ، قيمة والدة عبد القادر ·

ان عبد القادر ، بانسانيته ، قد فعل اكثر من مجرد افتتاح عهد جديد فى معاملة الاسرى بين العرب ، فهو الذى بفضله اصبحت حياة الجنود تنقذ فى الميدان ويؤسرون بدل ان يقتلوا · ذلك ان كلمة « اسير » فى حد ذاتها لم تكن معروفة لدى قبائل العرب المتوحشة · فعادتهم ، التى اصبحت تقريبا غريزة ، كانت تقوم على الا هوادة ، وعلى قتل كل الذين سقطوا فى ايديهم ، وعلى حساب الموتى من خصومهم طبقا لعدد رؤوسهم الدامية وهى تتأرجح على جانبى الجياد واستلام الجوائز على ذلك ·

فمن كان اول من الغى هذه الاعمال الفظيعة ؟ ومن منع ، بكل الشدة التى تسمح بها الظروف ،عادة اضافة رؤوس الاسرى الذين اخذوا احياء ، سواء كانوا جرحى او غير جرحى ، الى رؤوس القتلى الذين سقطوا فى ميدان القتال؟ ومن الذى اعطى الجائزة مضاعفة بل مثلثة على كل اسير جىء به حيا سليما ، بدل منح الجوائز من اجل كل عمل دموى فظيع ؟ مرة اخرى ، ليعلم العالم المسيحى والعالم المتحضر على الاطلاق ان ذلك الرجل هو عبد القادر ·

ولم يكن عبد القادر يقوم بذلك دون خطر ثورة عامة ضده ، ومع ذلك اصر وصمم على الاتجاه الجديد الذى شرع فيه · فقد واصل سيره الى الامام ، غير مبال بالتهديدات ولا مهتز للاخطار الى ان حقق الثورة المعنوية التى كان يمليها عليه الدين والانسانية · وفى بداية هذا الاصلاح ساله احد جنوده بجسارة :

ـ كم ستدفع مقابل الاسير ؟
ـ ثمانية دولارات ٠
ـ وكم ستدفع مقابل رأس مقطوع ؟
ـ خمسة وعشرين ضربة فلاقة على الاقدام ٠

وذات يوم رغب عبد القادر ان يحضر امامه خمسة اسرى كانوا منذ اسابيع في الاسر ٠ وسرعان ما احضر الخليفه ، الذى عهد اليه بثلاثة منهم ، اسراه٠ ولما كان هذا الخليفة يخشى اسئلة السلطان عبد القادر فقد التفت الى الاسرى الثلاثة وقال لهم :

ـ هاكم ، خذوا هذه البرانيس ، وضعوها على اكتافكم ٠ ان السلطان قد دعا الى حضوركم ٠ فاذا سالكم ايه اسئلة فاجيبوا بانكم على احسن ما يرام وانكم لا تحتاجون الى شيء ٠

ـ حسنا ، ولكن اذا سالنا ما اذا كانت هذه البرانيس ملكا لنا ؟
ـ قولوا انها لكم منذ وقت طويل ٠
ـ حسنا ٠
ـ الويل لكم ان شكوتم من اى شيء ٠ هيا اتبعونى الى السلطان ٠

وبعد ان اعطى الخليفة هذه التحذيرات ٠ تابع سيره رفقة الاسرى الثلاثة الى خيمة السلطان ٠ كان عبد القادر جالسا في احدى الزوايا محاطا بكبار القوم والمرابطين ٠ وكان استقبال الاسرى محاطا بهيبة مقصودة ٠ وقد حافظ السلطان وقومه على صمت غامض ٠ وتقدم الاسرى مسبوقين بالحاج مصطفى، (4) صهر السلطان ٠ وقد سال عبد القادر :
ـ أيكم نافخ البوق ؟
ـ انـا
ـ خذ هذه الرسالة ، انها لك ٠

وبينما اخذ السجين يقرا الرسالة بدات وجنتاه تتالقان والدموع تترقرق فى عينيه ، وفرائصه ترتعش من الدهشة ٠ لقد كانت رسالة من ضابطه الفرنسي يخبره فيها انه قد منح وسام الشرف (ليجون دونور) لشجاعته ولتضحيته من اجل امن ضابطه في عمليات 22 سبتمبر ، 1843 ٠

---

4) يعنى مصطفى بن التهامي ٠

ثم اشار اليه عبد القادر ان يتقدم • فتقدم نافخ البوق بضع خطوات وقام عبد القادر بنفسه بوضع الوسام المذكور على صدر الاسير • ثم التفت الى صهره وقال :

ـ انني أرى ثلاثة أسرى فقط • وقد كانوا خمسة • فأين الاثنان الآخران؟

ـ لقد ماتا

ـ منذ متى ؟

ـ منذ إمد طويل

ـ هل ماتا من المرض ؟

ـ لقد قتلناهما •

فاستغرب السلطان ونظر الى صهره بحدة قائلا :

ـ قتلتموهما !

ـ لقد حاولا الفرار •

ـ وهل ذلك مبرر لقتلهما ؟ ان ذلك فظيع ، وظلم ، ودناءة • فلو ان الفرنسيين قتلوا قومي من العرب الذين بين ايديهم ، ماذا تقول عن ذلك ؟

ـ كلاب المسيحيين •

ـ كفى • اخجل ! سوف لا اسمع بعد اليوم بهذه الاعمال • هل تفهم ؟ يجب ان يكون هذا هو الاخير • اعط للاسرى ثلاثين فرنكا وضعهم في معسكري ، واسهر على ان يعاملوا معاملة حسنة » •

ومن هذه اللحظة عزم عبد القادر على إصدار مرسوم وطني عن معاملة الاسرى • ذلك انه بالرغم من اليقظة الدائمة فان بعض الامثلة المعزولة من الوحشية ما زالت تحدث • فدعا الى مجلس عظيم ضم كل الخلفاء والاغوات والقواد ورؤساء القبائل حتى وصل عددهم ثلاثمائة شخص • وقد وقف عبد القادر امام المجلس والقى خطبة كان موضوعها آية قرآنية يلوم فيها محمد صهره عليا على قتل خمسمائة كافر بعد ان استسلموا (5) •

---

5) يبدو ان تشرشل مخطيء فيما ذهب اليه • وعلى اية حال فاننا لا نعرف ان الامام عليا قد ارتكب هذا الحادث وقد سالنا بعض العارفين فنفوا ذلك إيضا •

وبعد ان طبق عبد القادر هذه الآية على حالة الاسرى من الجنود الفرنسيين اصر بشدة على انه يجب منذ اليوم الا يقتلوا او يمثل بهم عبثا • وفى بيان مؤثر يقنع السامعين اظهر وحشية ودناءة وعدم جدوى قتل الاسرى ، ثم طلب اصدار مرسوم مضمونه ان كل فرنسى ، سواء قبض عليه فى الميدان او غيره ، يجب اعتباره سجينا ومعاملته بطيبة فائقة ، الى ان تحين الفرصة لتبادله •

وقد لقى اقتراح السلطان تأييد اغلبية المجلس • وصيغ فى الحال القرار التالى ، ثم جعلت منه مآت النسخ ووزعت على مختلف المدن والقرى والخيام الواقعة فى بلاد السلطان :

« لقد تقرر ان كل عربى يحضر جنديا فرنسيا او مسيحيا ، آمنا سالما ، فانه سينال جائزة قيمتها ثمانية دولارات على الذكر وعشرة على الانثى •

« وكل عربى فى حوزته فرنسى او مسيحى فانه يعتبر مسؤولا عن حسن معاملته • وهو منذ الآن مأمور ان يقود سجينه ، دون تاخير ، اما الى اقرب خليفة اليه او امام السلطان نفسه ، وان لم يفعل ذلك فانه يواجه اقسى انواع العقوبات ، اما اذا فعل فانه ينال الجائزة الموعودة •

« وفى حالة شكوى السجين من اى نوع من سوء المعاملة على يد آسره العربى فان هذا العربى يفقد حقه فى الجائزة » •

وقد حدث مرة ، ومرة فقط ، بعد نشر ذلك القرار ، ان علم عبد القادر ان احد جنوده النظاميين قد ضبط وفى يديه راس احد الفرنسيين • فساد الغضب وجه عبد القادر وكتب فى الحال الى الخليفة الذى حدثت الحادثة فى منطقته يامره ان يحضر الجانى الى مقر قيادته • وقد عزم على ان يجعل من ذلك مثالا لغيره • لذلك دعا جميع كتائبه النظامية سواء منها المشاة والفرسان، والوحدات غير النظامية من الفرسان ، ووحدات القبائل المجاورة لمشاهدة ما كان ينوى القيام به •

وفى اليوم والساعة المحددة كان الجميع تحت السلاح • ووقف عبد القادر محاطا بقواده العسكريين والمدنيين • وقيد الجانى الى الامام ، كما وضع راس الفرنسى امام السلطان • فسال عبد القادر موجها كلامه الى السجين : « هل كان صاحب هذا الراس ميتا او حيا قبل ان تقطع راسه ؟ •

ـ ميتا

ـ اذن فانك ستضرب مائتين وخمسين جلدة لعصيانك اوامرى • ان هذه العقوبة ستعلمك انه من الجبن والقسوة ان تمثل بالميت ، ما دام لم يعد عدوا لاحد •

وطرح الجندي ارضا ونال جزاءه • ثم نهض وبدا في الانصراف ظانا ان عقوبته قد انتهت • لكن السلطان ناداه قائلا :

ـ انتظر قليلا • ان لدى سؤالا آخر لك • اين كانت بندقيتك عندما كنت تقطع راس الميت ؟

ـ لقد وضعتها على الارض •

ـ اذن ستنال مائتين وخمسين فلقة اخرى جزاء اهمال سلاحك فى الميدان •

وبعد العقوبة الثانية ، كان الجندى التعس لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه • فتقدم منه بعض الناس وحملوه بعيدا •

لكن السلطان قال له مرة اخرى :

ـ ليس بهذه العجلة • ان عندى سؤالا آخر القيه عليك • بعد ان قطعت راس الميت ، كيف تصرفت لكى تحمل البندقية والراس في نفس الوقت ؟ •

ـ لقد حملت البندقية في يد والراس في اليد الاخرى •

ـ معنى ذلك انك حملت بندقيتك بطريقة تمنعك من استعمالها • اعطوه مائتين وخمسين فلقة اخرى •

والواقع ان هذه الشدة كان لها نتائج ايجابية • فالفرنسيون لم يعودوا يخشون الوقوع احياء في ايدى العرب • فاذا اسروا فانهم كانوا يقادون بعناية تامة الى مقر اقرب خليفة • وعند وصولهم هناك كانوا يفحصون فحصا دقيقا لكن مهذبا ، وكانوا يسالون فقط عن الكتيبة التى كانوا فيها ومتى وكيف اسروا وما اذا عوملوا معاملة طيبة من آسريهم •

وبعد ان تكتب بياناتهم بدقة وتسجل يرسلون الى مراكز معينة مخصصة لاستقبال الاسرى • لقد كانت العادة ان يرسل الرجال الى تازة او تاقدامت ، اما النساء فقد كن ، بلا استثناء ، يرسلن الى الزمالة حيث تعتنى بهن وتراقبهن والدة السلطان •

وما دام عبد القادر لم يكن راضيا عن تحسين وضع اسرى الحرب الذين لديه ، فقد قرر، زيادة على ما تقدم ، ان يدفع بمبدا احترام الانسانية خطوات اخرى الى الامام ، بتنظيم تبادل منتظم للاسرى من الجانبين • وقد كان كثير الالحاح والاخلاص فى الموضوع مع كبار الضباط الفرنسيين الى درجة ان السابقة التى وقعت فى سيدى خليفة كان يمكن ان تتوسع وتصبح نظاما جاريا به العمل ، ولكن الحاحه كان بلا طائل ، لان الجانب الآخر لم يستحسه •

الفصل السابع عشر

(1843)

في الواقع ان عبد القادر كان في هذه المرحلة اكثر انشغالا باخضاع رعاياه وبقائهم على ولائهم له منه بمقاومة الفرنسيين · ذلك ان هؤلاء حاولوا جهدهم بكل الوسائل ، بالوعود ، بالرشوة ، بالتهديد ، باجراءات مثالية في القسوة ، ان يسيطروا على القبائل العربية وان يجعلوا منها حلفاء وقوات احتياطية · وكانت كل غارة يقوم بها الفرنسيون تتبعها بالتاكيد غزوة من عبد القادر · وكان كلا الطرفين يحاول ان يفرض سلطته بالارهاب · ولكن بينما كان احدهما مدفوعا بشهوة الاحتلال الجامحة كان الثاني يريد تخليص بلاده من شرورها وجعلها في الاخير عظيمة وقوية ·

لقد علم الفرنسيون مدى اهمية الزمالة · فاصبحوا يرون فيها الخلية الحقيقية لنفوذ عبد القادر · وكانوا يؤكدون انها كانت مخزنا لثروة طائلة· لذلك اصبحت الهدف الاساسي لنشاطهم · فمن كبار ضباط الجيش الى عقداء الوحدات العسكرية كلهم كانوا حريصين على اكتشاف الغنيمة الضخمة وكانوا يبذلون نشاطا حماسيا للاستيلاء عليها ·

وفي ربيع سنة 1843 افتتح لاموريسيير الحملة باحتلال تاقدامت · وكان عبد القادر يراقب تحركاته الاخرى ، بقوة تقدر بـ 1،500 فارس ، من حراج السرسو المجاورة · وقد علم من الجواسيس ان هدف لاموريسيير هو الزمالة· لذلك ظل عشرين يوما في كمين ، مانعا منعا باتا كل الاتصالات به حتى لا يكتشف امره · وكان هو ورفاقه يعيشون طيلة تلك الفترة على ثمار البلوط· اما الخيل فقد كانوا يطعمونها من ورق الاشجار · ومما ضاعف من قسوة المحنة انهم عاشوا هذه التجربة خلال شهر رمضان ·

وذات يوم قدم على عبد القادر ضباطه وعلى وجوههم فرحة غامرة ٠ لقد وجدوا قطيعا من الغنم ٠ وقد آن للسلطان على الاقل ان يتناول وجبة طعام دسمة ٠ لكنه قال لهم « خذوها الى جنودى الذين يكادون يموتون جوعا » وعاد هو الى وجبته العادية من ثمار البلوط ٠ ان عبد القادر كان يتبع بدون وعى مثال النبى داود عندما نظر الى مياه بئر بيت لحم وقال « اليست هذه دماء الناس الذين عرضوا حياتهم للاخطار ؟ ورفض ان يشرب منها » ومثال الاسكندر الاكبر عندما رفض قنينة الماء قائلا : « اذا شربت وحدى فان رجالى سيكتئبون ، » ومثال سيدنى (1) Sidney الذى تخلى لرفيقه الجريح، فى ميدان زوتفن Zutphen عن جرعة ماء باردة ، ملاحظا بذكاء وبراعة « ان حاجة هذا الرجل اليها أشد الحاحا من حاجتى » ٠

وقد قاد لامورسيير قواته مرتين بحثا عن الزمالة ولكن عبد القادر رده على عقبه فى كليهما ٠ ولكن الخيانة كانت تعمل عملها ٠ فالشيخ عمر بن فراح (2) ، الذى كان من بنى عياد ، عرض خدماته على الفرنسيين لارشادهم الى المكان الذى تعسكر فيه الزمالة بالضبط ٠ وفى الحال وضعت الخطة ٠ ولم يكن هناك خوف من عبد القادر،لانه كان منشغلا بمراقبة تحركات لامورسيير٠ وقد اختيرت الكتيبة المعسكرة فى المدية للقيام بمهمة البحث عن الزمالة ، وكلف الدوق دومال D'Aumale (3) بتنفيذ الخطة ٠

وفى العاشر من شهر ماى ، 1843 ، غادر دومال مركز بوغار على راس جيش قوامه 1،300 راجل و 600 فارس ومدفع ميدان ٠ وقد اعلن الشيخ عمر ان الزمالة توجد فى الكوجيلة التى وصلها الفرنسيون فى الرابع عشر من الشهر المذكور ٠ ولكن الزمالة كانت قد غادرت هذا المكان ٠ ولم يعرف مكانها الجديد ٠ وظل الفرنسيون يبحثون عنها ضائعين حائرين غير متاكدين٠ وقد هبت عليهم ريح السموم العاتية فارهقت الجنود واعيتهم اعياء شديدا ٠ فتوقفوا وكوموا اسلحتهم ٠ وتقدم دومال الى الامام بعض الاميال متبوعا بفرسانه فقط ٠

---

1) لعله يقصد فيليب سيدنى (1554 ـ 1586) الذى كان جنديا وسياسيا وشاعرا انكليزيا

2) يكتبه تشرشل Ferrath ويسميه صاحب (تحفة الزائر) عمر العيادى دون اضافة عبارة ابن فراح ٠

3) هو ابن الملك لويس فيليب ، وقد تولى منصب الحاكم العام ، وسياتى الحديث عنه ٠

وفى فجر اليوم السادس عشر منه جاء الشيخ الخائن راكضا على فرسه معلنا ان الزمالة كانت عند نبع طاقين. وفى الحال اعطى دومال اوامره بالسير نحو المكان المذكور . لكن الشيخ انذره قائلا ان مهاجمة الزمالة بمجرد 600 فارس يظهر له من الجنون . وطلب من الدوق اما ان يعود الى جيشه واما ان ينتظر الى ان يلحق به . لكن الدوق رد عليه بشهامة قائلا : « ليس هناك امير من سلالتى قد تراجع ابدا » ثم اعلنت الابواق عن التقدم .

ووصل فرسان دومال الزمالة . وانتشروا وجاسوا خلال ذلك البحر من الخيام ، وبسرعة شردوا اهلها الحيارى الخائفين ، شيوخا واطفالا ونساء . واطلق الحرس ، الذى كان تعداده 500 جندى نظامى فقط ، النار دفعة واحدة وفر . وحاول فريق من بنى هاشم بشجاعة وقف التيار لكن الفرنسيين اكتسحوهم . وكان النصر الكامل حليف الفرنسيين فى اقل من ساعة .

ان مناظر الفوضى والياس التى جرت خلال تلك الفترة القصيرة — كالمحاولات الجنونية للهروب ، ويأس المقاوم ، وبؤس المتروك ، وهرج ومرج عدد ضخم من الابل والخيول والبغال والثيران والاغنام ، وهى تقفز هنا وهناك كأنها امواج بحر هائج — قد خلدها الفنان العبقرى هوراس فيرنى Horace Vernet (4) . ان فن الرسام وحده هو الذى يستطيع ان ينصف ذلك المنظر الهائج الذى ليس له مثال والذى لا يمكن تقريبا تصوره .

ومع ذلك فان اراقة الدماء كانت نسبيا قليلة . وكانت مكاسب النصر تتمثل غالبا فى عائلات اكبر قواد عبد القادر نفوذا ، ما عدا عائلته الخاصة التى تمكنت من الفرار . غير ان الغنيمة كانت عظيمة . فقد كانت تتالف من آلاف الحيوانات من مختلف الانواع ، ومن مكتبة عبد القادر الخاصة المكونة من اندر المخطوطات العربية والتى كانت فخمة التجليد ، وكانت قيمتها تقدر بـ 5،000 جنيه استرلينى ، ومن صندوقه العسكرى الذى كان يحتوى على ملايين الفرنكات ، ومن صناديق خلفائه وقواده التى وضعوها فى الزمالة حفظا لها والتى كانت محشوة بالنقود الذهبية والفضية والحلى الثمينة .

وملا الجنود الفرنسيون اكياسهم بالدولارات والقطع الذهبية الكبيرة وحشوا جرابهم بالجواهر والماس . ولم يكن صوت القيادة مسموعا وسط

---

4) رسام فرنسى (1789 — 1863) زار الجزائر عدة مرات واشتهر برسم المعارك . ومن بينها لوحته عن معركة وادى ايزلى بين المغاربة والفرنسيين سنة 1844 .

تلك الفوضى العامة • لذلك كان كل احد ياخذ ويتشبث بالغنيمة التى رماها الحظ السعيد بين يديه •

وصلت اخبار الاستيلاء على الزمالة الى عبد القادر بينما كان ما يزال مختفيا فى حراج سرسو ، وقد هزته الصدمة بعض الوقت • وبسرعة حدد مدى سوء حظه وراى فى قانون القدر القاسى ما ينبىء بسوء الطالع وبمستقبل مظلم ملىء بالنكبات • وبعد ان صرف السيار الذى حمل اليه الاخبار تراجع الى خيمته بضع ساعات حيث ظل يتعبد ويصلى •

وفى نفس الوقت تجمع قواده وضباطه ورجاله فى وحدات خارج خيمته • كان بعضهم صامتا ومطرقا ، وكان آخرون قد اطلقوا العنان لصب اللعنات ان كثيرا منهم قد فقد كل شيء ، فنساؤهم واطفالهم قد اخذوا اسارى ، ولعلهم لن يلتقوا بهم مدة سنوات او لعلهم لن يلتقوا بهم ابدا • وقد ملات الخيالات المضطربة هذا الظل الاسود من الغيب بارهاب طاغ • راى اولئك المنكوبون الثائرون ان لا امل فى المستقبل • ولم يعطهم ظلا من العزاء الا شعورهم بان سلطانهم كان ما يزال بينهم •

وبينما هم كذلك خرج عبد القادر من خيمته ، فتجمهروا حوله • كانوا يتأملون نظرات عينيه • وقد أراد بعضهم ان يخاطبه لكن الكلمات ذابت فى شفتيه • ولم يستطع احد ان يغامر فيسبر غور العمل الذى سيقدم عليه عبد القادر بعد الصدمة العميقة • ولكن السحابة قد انقشعت ، وشعت على سرائره بسمة مطمئنة ، وقال : « الحمد لله • أن كل تلك الاشياء التى كنت أقدرها حق قدرها والتى كانت عزيزة على قلبى والتى شغلت عقلى كثيرا ، لم تزد على ان عاقت حركاتى وحولتنى عن الطريق الصحيح • اما فى المستقبل فسأكون حرا فى محاربة الكفار » •

ثم رجع الى الحديث عن اولئك الذين سقطوا فقال : « لماذا علينا ان نحزن وان نشكو ، اليس كل الذين احببناهم وفقدناهم هم الآن فى الجنة ينعمون » • وفى اليوم التالى كتب الى خلفائه : « ان الفرنسيين قاموا بغارة ضد الزمالة • ولكن علينا ان لا نفقد الشجاعة فنحن سنكون منذ الآن اخف حملا وافضل استعدادا للحرب » •

وبذلك ارتفع عبد القادر فوق الاحداث ، ونجح فى تسكين المياه التى كانت تتعكر من حوله • فمن احلك الظروف التى حلت به وجد الامل والحماس من اجل المستقبل •

وفي وقت لاحق ، حين كان عبد القادر يذكر هذه النكبة ، عبر عن نفسه بهذه العبارات : « عندما هاجم الدوق دومال الزمالة كان اهلها لا يقلون عن 60 000 نسمة • ولكنه لم يحمل معه سوى عشرهم • لقد كانت الزمالة تمتد من طاقين الى جبل عمور • فاذا صادف ان اضاع العربي اسرته فيها فانه يظل باحثا عنها يومين احيانا قبل ان يجدها • وحيثما حلت الزمالة تجف مياه الآبار والجداول • لقد أقمت قوة خاصة من الشرطة لمنع تلويث المياه او تبذيرها من قطعان الماشية • ورغم جميع احتياطاتي فان كثيرا من افرادها هلكوا من العطش •

« ان الزمالة تحتوي على عمال فنيين في الدروع والسروج والحياطة ، وكل صنعة كانت ضرورية لاقامتها وتنظيمها • وكانت تقام فيها سوق عظيمة يؤمها عرب التل • اما عن الحبوب والقمح والشعير فقد كانت تجلب الينا أو نرسل في جلبها من قبائل الشمال •

« وكان نظام التعسكر محترما من الجميع ومنظما تنظيما دقيقا • فعندما اضرب خيمتي يعرف كل احد المكان الذي يشغله • لقد كان معي ثلاثمائة او اربعمائة جندي نظامي ، الى جانب الفرسان غير النظاميين من بني هاشم الاغريسيين الذين كانوا مخلصين الى اخلاصا خاصا • ولم يكن من السهل الوصول الى • ولم افعل ذلك حفظا على أمني الشخصي ولكني شعرت بضرورة انجاز عمل الله ، وقد وضعت ثقتي فيه لتقوية وحماية الذراع الذي يحمل لواءه •

« وفي الوقت الذي فاجأ فيه الفرنسيون الزمالة • كنت قرب تاقدامت ، اراقب الحامية الفرنسية بوهران التي كانت قريبة مني ، والتي كنت اعتقد ان علي ان اخشاها بالدرجة الاولى • كان معي 500 I او 600 I فارس • وكان ابن خروب (5) مع فليته ، وابن علال في الونشريس ، ومصطفى بن التهامي بين بني ورغة ، ولكن لم يقع لي ابدا ان اخشى نكبة ، كالتي حدثت ، من جهة المدية ، ولم يكن احد من خلفائي يراقب تحركات ابن الملك •

« ولكن رغم ذلك كله فقد كنا لن نفاجأ بالحادث لو ان الله لم يطمس عيون شعبنا • فقد اعتقد اهل الزمالة ، عندما رأوا جنود الصبائحية مقدمين

---

5) يقصد ابن الخروبي الذي كان خليفته على سطيف ونواحيها • وقد كان كاتبا للامير ، وهاجر الى المشرق وحج وعاش في دمشق وبروسة مع الامير ، ومات في دمشق سنة I279 هـ •

ببرانيسهم الحمراء ، ان هؤلاء هم جنودى غير النظاميين عائدين • بل ان النساء قد رفعن اصواتهن بالزغاريد ترحيبا واحتفاء بهم • ولم يشعرن بخيبة الامل الا بعد اطلاق النار • ثم تلا ذلك حالة فوضى لا توصف شلت جميع جهود الذين حاولوا ان يدافعوا عن انفسهم •

« ولو كنت حاضرا لكان علينا ان نحارب من اجل نسائنا واطفالنا ، ولعاش الفرنسيون يوما لن ينسوه • ولكن الله اراد غير ذلك • ولم اسمع بالنكبة الا بعد ثلاثة ايام من حدوثها • ولكن الفرصة عندئذ كانت قد ضاعت » •

ان قوة الفرنسيين الصغيرة منعتهم من اخذ اكثر من 3 000 اسير • ولكن كان من بين هؤلاء عائلات عدد من خلفاء عبد القادر • اما بقية الزمالة فقد تفرقت في مختلف الاتجاهات•وقد وقع بعضها في ايدى القبائل العربية التى سلبتها ما كان عندها • ولحق لامورسيير بالبعض الآخر •

وكان في طليعة المطاردين للزمالة مصطفى بن اسماعيل الذى جعل نفسه معروفا خلال الحرب بغيرته الشريرة التى كان يساعد ويوجه بها تحركات الفرنسيين ضد السلطان عبد القادر والتى كانت تدفعه الى عرقلته ومعارضته• ولكن هذا الخائن لقى الآن المصير الذى يستحقه • فعندما كان يجتاز منطقة فليته هوجم واطلقت عليه النار وقطع رأسه • وقد حمل رأسه الى مركز قيادة عبد القادر الذى تفرس فيه برهة بنظرة رضى وصفح ، ثم بامتعاض امر به ان يرمى إلى الكلاب •

وقد كانت المهمة الاساسية التى اصبحت تواجه عبد القادر هي استعادة نفوذه وبعث الثقة العامة في قومه باعادة تنظيم الزمالة • ولكن كل جهوده كانت بلا جدوى • فالآثار المعنوية لهزيمتها والاستيلاء عليها لا يمكن التغلب عليها • وكانت الاخبار تصل الى عبد القادر يوميا عن فرار قبائل كبيرة وذات نفوذ كما ان الوحدات العربية قد اصبحت الآن تملأ صفوف أعدائه بل انها تمشى علانية ضده •

ومع ذلك فقد تلت نكبات اخرى اعمق اثرا • ففى الوقت الذى كان فيه عبد القادر في اشد الحاجة الى اكثر خلفائه كفاءة قضى عليهم القدر القاسى • انهم لم يستطيعوا ان يتابعوا مهمتهم لانهم اما وقعوا في الاسر او قضوا نحبهم في ميدان الشرف • وعندما جرد عبد القادر من هذه الحلقات الضرورية فقدت دولته التماسك • فاقاليمه البعيدة سقطت ضحية للفرنسيين الذين نشروا

أعلامهم المنتصرة في كل مكان • ولكن قلب الاسد والارادة الحديدية مازالتا على العهد ، وقد تحدتا القدر أن يأتي باسوأ مما عنده •

فاقليم وهران قد اصبح مسرحا لصراع يكاد يكون فوق طاقة الانسان • ان عبد القادر الذى كانت معه فرقة من حوالى 000 5 من الجنود المختارين المخلصين ، قد جعل نفسه حاضرا في كل مكان • فهو مرة ينزل على بعض القبائل التي نكثت العهد ، واخرى كان يعترض طريق الطابور الفرنسي • لقد كان دائما في المعركة ، يقود اطلاق النار ، مندفعا الى اكثر نقط القتال كثافة ، وكان يشجع ويلهب ويحمس الفرقة الصغيرة التي كانت معه بمثال البطولة الذى كان يقوم به • لقد سقط من حوله اشجع اتباعه ، وقتلت جياده تحته ، وتخرق برنسه بالرصاص • ومع ذلك ظل يحارب بشجاعة وبلا هوادة دافعا عنفوان المعركة الى الامام •

وذات مرة فوجىء عبد القادر على حين غفلة منه • ففي الثاني والعشرين من سبتمبر ، 1843 ، كان معسكرا بالقرب من زاوية المرابط سيدى يوسف على راس فرقة من المشاة و 500 فارس غير نظامي • وبينما هو كذلك وشى به جاسوس الى لامورسيير الذى لم يكن يبعد عنه سوى ستة فراسخ • فقاد لامورسيير شخصيا اليه الكتيبة الثانية من صيادى افريقية • وكان الجميع في زهو وثقة بالقبض عليه وقطعوا المسافة بسرعة اثناء السير ليلا • ووصلوا المكان المعين في غبش الفجر •

وصحا عبد القادر من نومه على صرخات : « الفرنسيون ! الفرنسيون ! » وكان لا يجد الوقت حتى لامتطاء فرسه • وكان يمكنه ان يهرب ، لكن الموت كان افضل عنده من العار المزدوج : الغفلة والهروب • ونهض مشاته الى اسلحتهم وتقدموا ، بأمر منه ، وهم يطلقون النار جزافا • وتجمع فرسانه على صوته ، ثم عندما بدأ ينقشع الدخان شيئا فشيئا تسرب الى صفوف الفرنسيين وباغتهم وفرقهم بقوة الصدمة والمفاجأة ، وبعد عدة دقائق من القتال المرير قاد جميع قواته في انتظام محكم وابتعد •

ان بني عامر قد انضموا الى الفرنسيين ، وهم نفس بني عامر الذين كانوا قد لوحوا بأربعة آلاف سيف في الهواء ، استجابة لدعوة البطل الشاب عندما دعاهم للجهاد ، بل هم انفسهم الذين فتحوا امامه بشجاعتهم الفائقة طريق المجد والسلطان ، وقد قرر عبد القادر ان يهاجمهم ، فنزل عليهم بكل القوات التي كانت لديه واندفع وسط خيامهم وقتل عددا منهم ، وحمل معه غنيمة

ضخمة • وقد حاولت الفرقة الفرنسية التى كانت تعسكر وسطهم ان تعترض تقدمه لكن بدون جدوى • ولكن احد القواد العرب ، الذى كان سابقا احد اتباعه ، تجاسر على جعله هدفاً له فركب اليه واطلق عليه النار مباشرة • غير ان الرصاصة اخطاته • فاستدار عبد القادر اليه واردى الخائن قتيلا برصاصة من بندقيته •

ورغم هذا النجاح المؤقت لجهوده التى لا تعرف الونى ، فان عبد القادر كان يعرف جيدا ان جميع محاولاته لاستعادة سلطانه وترميم الصرح المنهار لخطوطه ، ستكون غير مجدية وخيالية ، وبدون اعطاء شكل اكثر استقرارا ودواما لجهوده وطاقاته • لقد كان يرى الآن بوضوح ان الجزائر قد اصبحت مغلقة فى وجهه ، وانها كميدان معركة لم يعد من المحتمل ان تقدم لوضعه اية نتيجة ايجابية ، رغم مقاومته التى لا تنقطع وغزواته المظفرة • فقد شعر عبد القادر ان اللعبة قد ضاعت من يديه ، بدون مساعدة خارجية •

ان الزمالة الضخمة لم تعد تتجاوز دائرته الخاصة التى لا تكاد تصل الى 1 000 نسمة • وكانت تجوب الارض ضائعة فى شقاء ويأس • وقد كان عليه ان يكون مستعدا لجهود جديدة كلما اراد ان يضعها فى مكان آمن ، لذلك عندما كان يقودها الى مكان بعيد عن الخطر اعترض طريقه لاموريسيير من جديد • وتلا ذلك قتال مرير • وكانت النسوة تحمس المحاربين بزغاريدهن واصواتهن • وكان عبد القادر واتباعه يحاربون على مرأى ومسمع من زوجاتهم واطفالهم فابدوا شجاعة واستماتة لا توصف • ودارت الدائرة من جديد على خصم عبد القادر العنيد • ونجح هذا فى قيادة الزمالة الصغيرة فى أمان الى بوك شيكة على حدود المغرب الاقصى •

كانت العلاقات السياسية بين انكلترا وفرنسا فى هذه الاثناء تهدد بالخطر • وقد اعتقد عبد القادر ان الفرصة سانحة له • فأرسل سفارة الى ملكة بريطانيا وفى رسالة كتبها اليها فتح امامها امكانية الاستحواذ على الجزائر • وقال فيها ان كل المدن الساحلية ستترك لسيادتها الكاملة ، ومن جهة اخرى فان العرب يطلبون منها الاعتراف باستقلالهم الوطنى • واوضح عبد القادر ان تحالفا عظيما بين الانكليز والعرب سيقيم جدارا لا يمكن اجتيازه فى وجه التوسع الفرنسى فى افريقية • وقد وضعت الرسالة المذكورة بين يدى رئيس الوزراء

البريطاني . وطلب سفير عبد القادر مقابلة الملكة لكن طلبه رفض . وحصل السفير على وعد بارسال الجواب على الرسالة لكن ذلك لم يتحقق ابدا (6) .

ومن جهة اخرى فان السفارة المذكورة قد كلفت بتسليم رسالة ثانية من عبد القادر الى السلطان العثماني عن طريق وزارة الخارجية البريطانية . وقد عرض فيها عبد القادر انه مستعد للاعتراف بسيادة خليفة آل عثمان في مقابل نجدة ترسل منه اليه حالا . ووجهت الرسالة الى وجهتها لكن بدون نتيجة(7).

ومهما كانت توقعات عبد القادر من الجهات التي كتب اليها ، فان اعتماده الاساسي كان على تأييد وتعاون سلطان المغرب . فمنذ سنوات كان السلطان عبد الرحمان قد اظهر لعبد القادر كل تبجيل وتقدير ، ومنحه الهدايا المتعددة، واطراه وداهنه بطريقة ذكية . ولكن صداقته توقفت هناك . فخلال مقاومة عبد القادر كلها لم يتقدم اليه عبد الرحمان ابدا بأي عرض بالمساعدة المادية مجانا ، كما ان عبد القادر لم يتنازل ابدا الى طلب هذه المساعدة .

ولكنه الآن اضطر الى طلب المساعدة منه تحت الحاح الحاجة الماسة والشعور العميق بالواجب الديني . فقد ترجى السلطان المغربي مستعملا لذلك اكثر العبارات الحاحا واستعجالا ، ان يسخر كل موارد وقوات دولته لخدمة القضية المشتركة . واظهر في ترجيه منه الخطر المشترك فقال اذا احتل الفرنسيون الجزائر كلها فاين يمكن ان يكون امن المغرب ؟ ذلك انه من السهل ايجاد مبررات للاعتداء على الثانية كما كان من السهل ايجاد المبررات للاعتداء على الاولى . ومن حجج عبد القادر ان القبائل العربية التي ضعفت عزيمتها مؤقتا ستنهض من جديد على رؤية الجيش المغربي ، وستوحد صفوفها من جديد بحماس مشتعل حول الاعلام المغربية .

ولم يكتف عبد القادر بتحدي العواطف السياسية والدينية للسلطان المغربي فعزم على كسب انضمامه اليه ، ان لم يكن التحالف معه ، باللجوء الى عمل يعبر عن الولاء الشخصي . ذلك ان عددا من قبائل الحدود المغربية كانت منذ امد طويل ثائرة ضد سلطانها . فهاجمها عبد القادر واخضعها

---

6) حول علاقة الامير بالانكليز انظر دراسة الاستاذ عبد الجليل التميمي « تأملات عن علاقة عبد القادر بالباب العالي

7) انظر نفس المصدر .

وارسل زعماءها الثائرين مكبلين الى وجدة ، كما ارسل في نفس الوقت رسالة شخصية الى السلطان عبد الرحمن يعرض فيها خدمته عليه •

وكان رد السلطان المغربي شاكرا لكن متحفظا • اذ لم يحمل اليه اى تشجيع ، وعندما وجد عبد القادر ان جهوده نحو السلطان عبد الرحمن غير مثمرة جمع حوله عددا قليلا من الاتباع المخلصين واختفى معهم عدة شهور في الصحراء ، مقررا ان يعتمد على جهوده الخاصة في استعادة مكانته وتثبيت نفسه •

وعندما تخلص الفرنسيون من حضور عبد القادر تصوروا ان عملهم قد انتهى•فانسحابه من الميدان كان بالنسبة اليهم رمزا سارا لتنازله وانهزامه• وقد هنأ المارشال بوجو حكومته على هذه النتيجة الباهرة فقال : « بعد حملة الربيع (1843) كان يمكنني ان اعلن بان احتلال الجزائر واخضاعها قد انتهى• غير انني فضلت ان اذكر ما هو ادنى من الحقيقة • ولكني الآن ، وبعد معركة الحادى عشر من هذا الشهر التى قضى فيها على بقية مشاة الامير والتى قتل فيها اول واشهر خليفة له (8) ، فانى اعلن على الملا وبكل جرأة ان كل قتال جدى قد انتهى • حقا ان عبد القادر قد يقوم ، بحفنة الفرسان الذين ما يزالون معه ، ببعض الحركات المباغتة المعزولة على الحدود ، ولكنه لن يحاول أبدا اية حركة هامة من جديد » •

---

8) يقصد ابن علال خليفته على مليانة •

الفصل الثامن عشر

(1845 - 1844)

لم ينظر سلطان المغرب الى اقامة مملكة عربية فى الجزائر بمنظار العاطفة الدينية فقط ولكن ايضا بمنظار التقدير لفوائدها التجارية ، وعملا بمبادىء القرآن التى لا تقبل التعديل زادت حكومة سلطان العرب الشاب حجم التجارة والمداخيل لدولته (اى لدولة عبد الرحمن) ٠

فى السابق كانت القوافل الغنية المتنقلة بين فاس واجزاء افريقية الجنوبية تمر بالجزائر كما تمر ببلاد عدوة ٠ فقد كان يرافقها حرس كبير لحمايتها من الاستغلال ٠ وكثيرا ما كانت تتعرض للهجوم والسلب مع ازهاق عدد كبير من الارواح ، وكان عليها ان تهرب من العرب ومن الترك ٠ واذا كان فى استطاعتها ان تفر من عداوة العرب المكشوفة فقد كانت تتعرض للابادة بالطمع المتناهى والابتزاز الوقح من الترك ٠ اما الآن فان القوافل كانت تعبر الجزائر كلها فى امن وطمانينة ٠ وليس عليها ان تدفع حق المرور فى الداخل ولا ضريبة جمركية فى الحدود ٠ فقد كان عبد القادر يرى ان اقامة ادارة جمركية امر شاذ ومكروه ٠ فالزكاة الشرعية والعشور ، والمروانة عند الاضطرار (ضريبة حرب غير عادية) ، هى كل ما يسمح له به ضميره ان يفرض على رعاياه ، ان الصناعة تزدهر بالطرق الطبيعية ، ولذلك لم يتعرض التبادل التجارى الى اى عرقلة ٠

يضاف الى كل هذه الاعتبارات التقدير والاحترام الشخصى ، بل الاعجاب الذى يكاد يصل حد العبادة والذى كان السلطان المغربى يخص به زعيم الجهاد الذى كان فى وقت ما منتصرا مظفرا ، فقد كان جميع السكان المغاربة، الذين كانوا سريا يتشوقون الى ان يقادوا ، فى تحالف مع عرب الجزائر ،

ضد الكفار ، يتوقعون ان نداء عاليا وصارما للسلاح سيعلن عاجلا او آجلا انضمام المغرب الى القضية المشتركة وسيعطي دعما وقوة جديدة الى جهود عبد القادر التي وان كانت قد بدأت تضعف فانها جهود نبيلة تتميز بالاستماتة والبطولة .

غير ان السلطان عبد الرحمن ، مهما بلغ من الاحساس نحو مبادىء دينه، فانه كان لا يقل حساسية واهتماما باستقرار عرشه هو . ان الطرف المعتدى قد اكتسح بانتصار كل العراقيل التي وضعها في طريقه الترك والعرب على السواء . والقوة التي رفعت اعلامها المنتصرة في مدينتي الجزائر ومعسكر قد تحملها ايضا الى فاس . وان اي تاييد لعبد القادر من السلطان عبد الرحمن قد يؤدي بهما معا الى الانهيار . وبعد ان وازن السلطان المغربي بين ميوله الشخصية ومخاوفه السياسية راى ان ينقذ ضميره وعرشه بفعل لا شيء .

ولكن من سوء حظ هذه التقديرات الذكية من جانب السلطان المغربي ان طبيعة وضع عبد القادر كانت تجعل التصادم العدائي بين فرنسا والمغرب لا مناص منه . وكانت عواطف السكان المغاربة تتقد تدريجيا وتزداد اعجابا بالبطل الذي لا يقهر والذي شرف بلادهم بجعلها ملجا لامجاده الكثيرين ونكباته المبررة وآماله الواسعة . ولا تحتاج هذه العواطف المتأججة الا الى شرارة لاشعال نار تصادم واسع الانتشار لا يمكن اطفاؤه .

وكان عبد القادر قد جعل من حدود المغرب ، بعض الوقت ، قاعدة غزواته في الجزائر . وكان ينسحب الى الارض المغربية دون مضايقة . ولكي لا يتعرقل الفرنسيون بتلك الطريقة قرروا ان يضعوا فرقة عسكرية كبيرة في الجزء الذي ينطلق منه عبد القادر من الحدود المغربية . ولكن خط الحدود كان غير محدد بوضوح . فهناك جزء منه يمكن ان يكون محل نزاع . وهذا الجزء القابل للنزاع هو الذي احتله الفرنسيون بجسارة .

واسم المكان الذي عسكر فيه لاموريسيير وبيدو هو لاللامغنية الذي سمي كذلك تخليدا لامراة مرابطة اشتهرت بورعها وتقواها ، وما تزال بقاياها في ضريح اقيم لها رسميا في عين المكان . وفي لاللامغنية حفر الفرنسيون الخنادق ، وعلقوا معداتهم ، ودخنوا غلايينهم ، وغنوا اغانيهم .

وقد كان تدنيس المكان المحترم على درجة من الفظاعة والوحشية بحيث لا يمكن غض النظر عنه ولا احتماله . وانطلقت صرخة الغضب عبر كامل الدولة

المغربية • فايقظت السلطان الذى كان مترددا فى مقبعه الشائن واضطرته الى ان يختار بين ان يجد نفسه وسط أمواج من العصبية التى ليس لها مرد او ان يرسل فى الحال جيشا الى مكان الحادث لتاكيد الشرف الوطنى والثار للدين الرسمى الذى اهين اهانة مخزية •

وفى الثانى والعشرين من شهر ماى ، سنة 1844 طلب القناوى ، القائد المغربى لمعسكر وجدة ، من الفرنسيين ان يجلوا عن لاللامغنية • ولكن الفرنسيين سخروا من الطلب • وفى الثلاثين منه تقدم بعض الجنود المغاربة من المعسكر الفرنسى ، واطلقوا العنان لحماسهم الجامح مشجعين من قائدهم الذى كان شريفيا متعصبا مرتبطا بالدم مع عائلة السلطان • ووصلوا الخطوط الفرنسية وهم يصرخون ويلوحون بايديهم ويهددون • واطلقوا النار على الخنادق الفرنسية• ونشر لاموروسيير وبيدو الاعلام الفرنسية وتقدما ضدهم• ولكن العدو سرعان ما انهزم وتفرق وعاد ادراجه الى وجدة •

وفى الحادى عشر من شهر جوان وصل المارشال بوجو الى لاللامغنية • واقترح لقاء بينه وبين القناوى ، وتمت الترتيبات لذلك • وحدد موعد اللقاء فى الحادى عشر من الشهر المذكور • وظهر سوء النية من الجانبين • فكل طرف جاء المكان المتفق عليه بقوة كبيرة من الجيش • وبحضور هذه القوات تقدم كل طرف نحو الآخر ، مصحوبا بعدد من الحراس •

ولم تكد المحادثات تبدا حتى شوهد الفرسان المغاربة يتقدمون ويكونون حلقة حول مسرح المحادثات • ووسط صياح الاهانة والتحدى جردوا سيوفهم واطلقوا النار من بنادقهم • وانسحب بيدو بشهامة مترفعا عن محاولة المعاملة بالمثل • ولكن الجزء الاكبر من العدو اقتحم ، فى اضطراب ، مفسرا الاعتدال بالضعف • ونظم الفرنسيون صفوفهم استعدادا للمعركة ، وانتظروا قليلا وصول الدعم ، ثم ردوا على التحدى بقيادة بوجو نفسه • واثر ذلك تلاقى الجمعان فى مشادة عامة ، ومرة اخرى انهزم المغاربة واجبروا على الفرار •

وقد قرر بوجو، الذى كان مندهشا من هذه التصرفات الخائنة ، ان يحتل وجدة نفسها • فكتب الى القناوى طالبا توضيحا على ما جرى • ولكن رد الاخير كان مجرد مراوغة وتهرب • وعندئذ ارسل الجنرال الفرنسى انذاره الاخير • وفى هذا الانذار ذكر بوجو ان عبد القادر هو العقبة الوحيدة لاستعادة السلام بين فرنسا والمغرب • وبذلك اصبحت عبقرية رجل واحد تجعل العلاقات معلقة بين دولتين • وقد كتب الجنرال بوجو يقول : « إننا

نرغب ان تكون لنا نفس الحدود التي كانت للاتراك ثم لعبد القادر من بعدهم.
اننا لا نريد ان نأخذ شيئا منكم . ولكن يجب ان نصر على ان لا تأووا عبد القادر بعد الآن ، وان لا تمنحوه المساعدة او التأييد ، وأن لا تنعشوه بعد ان يكون قد اوشك على الهلاك ثم تطلقوه ضدنا من جديد . ان عملا كهذا ليس من الصداقة الحقة . اننا نخوض حربا ، وانكم كنتم تقومون بالحرب ضدنا على هذا المنوال منذ سنتين .

« اننا نطلب منكم ان تحصروا دائرة عبد القادر وكبار مساعديه في غرب الدولة وان تفرقوا جيشه النظامي ، المشاة منه والفرسان . ونطلب منكم ايضا ان ترفضوا منذ الآن السماح بهجرة قبائلنا الى مناطقكم ، وان تعيدوا الينا حالا اولئك الذين هم فعلا قد لجأوا اليكم .

« واننا نلزم انفسنا بالمعاملة بالمثل نحوكم في صورة ما اذا حدث مثل ذلك بالنسبة الينا . وهذا هو ما يمكن تسميته حقا التطبيق العملي لمبدا الصداقة الحقيقية بين امتين . وبهذه الشروط سنكون اصدقاءكم ، وسنشجع تجارتكم وسنكون في صالح حكومة مولاي عبد الرحمن بقدر ما نستطيع . اما اذا تصرفتم غير ذلك فسنكون اعداء لكم . فأجب في الحال وبدون تملص لانني لا أفهمه » .

ولكن هذا الانذار لم يات بنتيجة . فقد تراجع الجيش المغربي الى داخل البلاد . واحتل بوجو مدينة وجدة ، رغم ان ذلك كان مؤقتا . وهذا النزاع الذي نشب على الحدود سرعان ما انتشر الى اعلى المستويات الدبلوماسية . وفي شهر جوان سنة 1844 ارسلت الحكومة الفرنسية قطعة من الاسطول الى الساحل المغربي بقيادة الامير دى جوانفيل De Joinville لتدعيم مطالبها الرسمية . وتلقى المارشال بوجو التعليمات بالشروع في العمليات الهجومية من البر . وقد اضطر ضرب طنجة وموقادور بالقنابل ومعركة وادى ايزلى Isly السلطان المغربي الى الرضوخ لآراء القوة المحتلة . ان فرنسا لم تطالب بارض ولا بتعويض حتى ولا بتكاليف الحرب . ان كل ما الحت في طلبه من السلطان عبد الرحمن هو **ان يخلصها من عبد القادر** (اصلي) . وقد نص البند الرابع من معاهدة السلام ، التي كانت قد صيغت ووقعت من الطرفين ، على ان « عبد القادر يعتبر خارجا عن القانون في جميع انحاء الدولة المغربية وفي الجزائر . ونتيجة لذلك ستطارده القوات الفرنسية من الجزائر والقوات المغربية من المغرب ، الى ان يطرد من هناك او يقع في قبضة

قوات احدى الدولتين • ففي حالة وقوع عبد القادر فيايدى القوات الفرنسيه تتعهد حكومة جلالة ملك الفرنسيين ان تعامله باحترام وكرم • وفى حالـه وقوعه فى ايدى القوات المغربية يتعهد جلالة سلطـان المغرب باجبـاره عـلى الاقامة ، مستقبلا ، في احدى مدن الساحل الغربى لدولنه ، الى ان تتوصل الحكومتان الى اتخاذ اجراء يمنعه من استئناف القـتال وتعكير الهـدوء فـي الجزائر والمغرب » •

وعندما بدا النزاع بين المغرب وفرنسا عاد عبد القادر الى دائرتـه حيث يراقب من هناك تطور الاحداث • وقد اتبع السلطان عبد الرحمن التقاليـد باستدعائه الى فاس • ولكن دعوة اخرى تختلف فى طبيعتها تمام الاختلاف عن الاولى ، وصلت عبد القادر من العاصمة المغربية • ان السكان المغاربـة كانوا يتنزون غضبا ويفورون مقاومة من هزيمة جيشهم ، واهانة الفرنسيين لهم باملاء الشروط عليهم ، والفشل المرير لجميع آمالهم البعيدة • لذلك كانوا بجميع صفوفهم ثائرين ضد العجز والضعف الجبان لسلطانهم • وكلهم طالبوا بعبد القادر •

فقد اتصل عبد القادر برسائل من اعلى المستويات في الدولـة ، ومـس الموظفين العسكريين والمدنيين ، ومن الطبقات التجارية ، وكلها تخبره بقرار الادارة العامة ، وترجوه ان يأتي لانقاذ الدولة المغربية من انهيـار وخـراب محقق ، وتدعوه الى تولى عرش اجداده •

ولو كان عبد القادر مجرد مغتصب عادى للسلطة لما كلفه الامر الآن اكثر من مد يده والاستيلاء على صولجان المغرب • ولكن دافعه الحقيقى كان الوطنية وليس الطموح • لقد رفع السلاح من اجل حرية واستقلال الجزائر • وكانت كل افكاره وعهوده وصلواته ، وكل طاقاته البدنية والعقلية موجهة ومكرسة لخدمة وطنه الاصلى • وليس هناك دعوة للعظمة تستطيع ان تجعله يحيد عـن مجال عمله الشرعى ، لقد كان يكره ان يضع على راسه تاجا مستعارا •

ومما قاله هو فيما بعد « لقد رفضت عرضا مغريا وجه الى بطريقة اجماعية ليس فقط لان دينى يمنعنى من مضرة حاكم اختاره الله وعينه ، ولكن ايضا لاننى بعد ان عرفت المغرب بمشاكله الداخلية ، شعرت ان ذلك سيقتضى منى على الاقل اثنتى عشرة او خمس عشرة سنة ، لا لكى احكم مثل مولاى عبـد الرحمن ولكن لكى يكون فى استطاعتى ان افرض القانون وان اجعل حكومتى محترمة » •

وخلال ربيع سنة 1844 قام عبد القادر بتسرب سريع الى اقاليم التل حتى وصل الى تيارت ، مغتنما فرصة تركيز الجيش الفرنسى على الحدود المغربية. وكان فى كل مكان حل به يدعو القبائل الى الجهاد ويستدعى زعماءها الى الاجتماع به ، ويطلب منها المساهمة بالفرق العسكرية.ولكن حضور الوحدات الفرنسية فى جميع الاتجاهات كان قد ارعب واذهل الروح الوطنية . فلم تجد نداءاته سوى استجابات ضعيفة . ورجع الى دائرته وهو فى اعمق حالات القنوط .

وفى شرود طويل وقلق كان عبد القادر يتأمل حالته ، ويدرس امكانياته ويبحث فى ضميره . وكان يسال نفسه : هل انا فعلت كل شىء يفرضه على حب الوطن والاخلاص للدين ؟ هل من السابق لاوانه التخلى عن كل امل ؟ هل اليأس جريمة ؟ ونظر الى دائرته التى لم تعد تتكون سوى من عائلته وبعض مائت من اتباعه المخلصين ، والتى كانت مؤونتها متوقفة على الحظ وحده حتى بخصوص وسائل العيش ، وعندئذ اعترف ان النهاية قد اقتربت .

ولكن ذهنه انقدح من جديد . وحضرت امام خياله فكرة عظيمة ، وهى ان يجمع كل قبائل الجزائر التى لا تستطيع ان تحتمل العيش تحت نير الكفار وان يقودها فى قافلة كبيرة نحو مكة . وسيصادق خلال هذه الرحلة كل الذين يرحبون بهم كاصدقاء اثناء مرورهم باراضيهم ، ولكنه سيمر على اجساد اولئك الذين سيعترضون طريقهم كاعداء .

وتساءل : « أى عربى يستطيع أن يقاوم مثل هذه القوة ، او لا تهزه هذه الفكرة الهائلة ؟ واى منظر مدهش يمثله شعب كامل متخليا طوعا عن البلاد التى كسبها اجداده بسيوفهم ، منذ اثنى عشر قرنا ، رافضين ان يتعايشوا فيها مع العدو اللدود لدينهم ، منظر شعب كامل يعيد الوية النبى محمد ، فى مهرجان ضخم وعظيم ، غير ملوثة ولا ملطخة ، الى منبع امجادها القديمة !

وبينما كان يفكر فى هذه الخطة العملاقة ، ظهرت امامه ظروف جديدة مرة اخرى دعته الى أن يعاود الجهود . وبدت له ذكريات قديمة ، فالنداءات المثيرة التى كان خلفاؤه الاوفياء يرسلونها اليه من وقت لآخر ، والتاييد الجديد الذى كان احيانا ياتيه بانضمام انصار آخرين اليه . وخفق قلبه واستجاب لذلك لاقتناعه الداخلى من ان اسمه ما يزال يملك النفوذ ، وراى ان حضوره قد يبعث النشاط ويلهب آلاف المشاعر التى غرقت الآن فى اللامبالاة والياس .

كل هذه العوامل الحت عليه في ان يقوم بحملة اخرى محفوفة بالاخطار ، رغم التناقضات المخيفة التي تعترضه ٠

فمن مضائق جرجرة كتب ابن سالم المعروف بولائه وفروسيته الى عبد القادر الذي طال غيابه عنه : « كيف انك لم تكتب الينا منذ وقت طويل ؟ ان توقيعك ، كما تعلم جيدا ، ينعش فينا الآمال ٠ وانني اؤكد لك ان وجودك نفسه قد اصبح محل شك ٠ وقد اصبح من الشائع ان والدتك هي التي تكتب باسمك ٠ ان الفرنسيين يستعدون لمهاجمتي ، وانني لا استطيع ان اعرف مدى اخلاص القبائل ، ولكنني اكاد اكون جازما انهم سرا على ملة المحتل ٠ فاذا اخرت حضورك الينا فان نكبة البركاني (1) ستكون لا شيء بالمقارنة الى ما يمكن ان يحل بي ٠ لذلك ارجوك ان تجيبني بخط يدك شخصيا » ٠

وقد اجابه عبد القادر فعلا بما يلي « اتصلت برسالتك التي تفيدني ان خبر موتي قد انتشر في المناطق الشرقية ٠ ليس هناك احد ينجو من الموت ٠ تلك مشيئة الله ٠ ولكن اجلي والحمد لله لم يحن بعد ٠ وما زلت ممتلئا حيوية ونشاطا ٠ وما زلت آمل ان اهاجم بقوة اعداء ديننا ٠ وان الرجال لا يعرفون الا بمثل هذه الاعمال ٠ فكن دائما كما اعرفك هادئا صبورا ثابتا والله سيجازيك ٠ وسأقدم اليكم بمجرد ان تحل مشاكلي في الغرب » ٠

وما دام غيابه قد طال اكثر فاكثر وتوالت النكبات الواحدة تلو الاخرى في كل مكان وبسرعة كبيرة ، فان خلفاءه الثلاثة في الشرق الجزائري قد عقدوا مشاورات عن افضل الاجراءات التي يمكن اللجوء اليها في مثل هذه الظروف الحرجة ٠ ولم يكن سلطانهم معهم ليرفع معنوياتهم ويبعث النشاط في نفوسهم المنهارة ٠ وعند افتراقهم عانق ابن علال زملاءه قائلا : « الله يجمعنا في الآخرة ، لان املي ضعيف في اننا سنجتمع في هذه الدنيا من جديد » ، فرد عليه ابن سالم ، الذي كان قد اتصل حديثا برسالة عبد القادر التي تسليه وتعزز جانبه ، قائلا « لا تيأس ٠ فانني واثق من اننا ثلاثتنا سنجتمع في الجزائر » ٠ فقال ابن علال بكآبة « قد يكون ذلك صحيحا اذا استسلمنا الى المسيحيين ، وهو امر حرمه الله علينا » ٠

وبعد ذلك بقليل كان خلفاء الشرق الثلاثة بدون اخبار من عبد القادر اثر قطع الجيش الفرنسي لجميع الاتصالات ٠ وقد ارسل ابن سالم عددا من زعماء

---

1) لعله يشير الى هزيمة البركاني على يد الفرنسيين والتجائه الى المغرب ٠

القبائل ليجمعوا المعلومات عن تحركات عبد القادر · واثناء ذلك قادهم الحظ السعيد ، بدون توقع ، الى العثور على عبد القادر نفسه · وقد استقبلهم بود وكرم · واستمع فى شغف الى تقاريرهم عن حالة الحرج التى يعيشها خلفاؤه الاوفياء وعن حماسهم ، مع ذلك ، الذى لا يفتر · وكان عبد القادر اثناء ذلك هادئا مبتهجا رغم الصعوبات التى هو فيها · وقد عزاهم بكلمات التطمين والتثبيت · وعندما عزموا على العودة اعطاهم فرسا مجللا بالزينة هدية لابن سالم ، مع الرسالة التالية :

« كن صبورا فى المحنة لان ذلك هو محك النفوس الكبيرة · شجع المسؤولين معك واعنهم وساعدهم · وتحمل اخطاءهم عند الراى · وجرب مدى طاقاتهم واحتمالهم بالعطف والتقدير · ان هذه الحالة لا يمكن ان تدوم الى الابد · اننى آمل ان اكون معكم قريبا وعندئذ سنصل الى افضل الحلول· وفى نفس الوقت ارجو ان تقبل الفرس الذى ارسلته اليك ، فقد كان هدية اهداها الى مولاى عبد الرحمن · وقد يكون مناسبا لك » ·

ان القبائل العربية قد اصبحت تنظر ، بدرجات مختلفة ، بعين الرضى الى حالة الهدوء النسبى الذى جاء بعد تلك السنوات الطويلة من النزاع المرير، لانها هى التى كانت تعانى خلالها ايا كان المنتصر · ولكن اقامة النظم الفرنسية تدريجيا بينها ، ولا سيما طريقة التعالى والشدة التى طبقت بها هذه النظم ، بالاضافة الى الحضور المستمر للمسؤولين الفرنسيين الذين كانوا غالبا متميزين بتلك العجرفة والظهور بمظهر المشمئز المتشامخ الذى عرف به الاروبيون عامة فى مخالطاتهم مع الشعوب الشرقية ، كل ذلك قد ادى الى يقظة مشاعر الكره والتعصب الغافية فى تلك القبائل ·

وما دامت المشاعر قد كانت هكذا مستعدة لمعاودة المقاومة ، فان مبعوثى بعض الجمعيات الدينية السرية التى كانت موجودة بين تلك القبائل ، قد وجدوا آذانا صاغية · وقد اكدوا لهذه القبائل ان يد الله كانت على وشك ان تتجلى لهم ، واعلنوا لها ان **مولى الساعة** (اصلى) الذى طالما توقعه كل المؤمنين الصالحين المخلصين قد ظهر ، وانه قد دخل الميدان · وكانت الصيحة التى اطلقها هؤلاء المتعصبون تقول « الويل لاولئك الذين تخلفوا شكا او خوفا » ·

ان طريقة « الدرقاوة » ، التى اشتهر اهلها قبل كل شىء بغيرتهم الجنونية الطاغية ، قد وجدت آلة لتنفيذ رغبتها ، وسرعان ما استعملتها · ففى شهر

مارس سنة 1845 رفع محمد بن عبد الله ، الملقب بومعزة ، لواء الجهاد في منطقة الظهرة وسهل الشلف • ان هذا النبي الجديد كان يدعو من مكان الى آخر معلنا « انني انا الذي كان مقدرا لي في النبوءات ان اظهر في الساعة المذكورة ، ساعة الخلاص » وقد تعهد انه سيخلص الجزائر من الفرنسيين في خلال سنة واحدة •

ان هذا المدعي كان له معزة (التي منها جاء لقبه بومعزة) ، كما كان لسير توريس (2) Sertorius كلبته ، وهو يزعم انه كان يتلقى الاتصالات السماوية عن طريقها • وقد وعد كل الذين آمنوا برسالته لا غنائم المسيحيين فقط ولكن ايضا اسلاب كل المسلمين العاصين • وبهذه الوسيلة جمع حوله بضع مائت من الاتباع الذين فاجأ بهم وهاجم بعض المراكز الفرنسية • وقد ادى نجاحه الى تنافس المتنافسين • فحينما تقدم الفرنسيون وجدوا امامهم بومعزة • ولم يستطيعوا ان يهدئوا من هذا الهيجان الا مؤقتا ، ومؤقتا فقط • ذلك ان شخصية اعظم من بومعزة كانت على وشك معاودة الظهور على المسرح •

ورغم ان عبد القادر لم يكن مشاركا في الحركة التي ادت اخيرا الى اثارة القبائل فانه راى ان الطريق قد اصبح معبدا له • لذلك عزم على جني الحصاد الذي كان قد بذر ، فنزل الى سهل التافنة وهاجم وقضى على حامية فرنسية في سيدي ابراهيم (3) • وفي هذه المعركة قطع الجزء الاسفل من اذنه اليمنى وطاش مع الرصاصة التي احترمته • وقد كان هذا الجرح هو الجرح الهام الوحيد الذي أصيب به •

وهناك فرقة فرنسية اخرى القت له سلاحها من تلقاء نفسها دون اطلاق رصاصة واحدة . في عين تموشنت وكان عدد الاسرى قد بلغ 600 شخص • وكانوا جميعا قد احضروا امامه • فعزاهم ببعض الكلمات المواسية على نكبتهم ، وقال لهم : لا تيأسوا أبدا من المستقبل ، فلن تحدث لكم مضرة • ان مشيئة الله قد قررت ان تسقطوا في يدي ، والله قادر على ان يحكم بتحريركم » •

وكانت اخبار هذا النجاح قد انتشرت بسرعة في الخارج ، وضخمت الاشاعات اهميتها • فخفقت كل القلوب فرحا • وسرعان ما كانت رسائل عبد القادر تقرأ وتنتقل من يد الى يد • وفي هذه الرسائل كان العرب يخبرون

2) قائد وسياسي روماني قتل سنة 72 ق م •
نفس العنوان صدر في باريس سنة 1905م •
3) تعرف هذه الواقعة بمعركة سيدي ابراهيم ، وللجنرال بول ازان P. Azan كتاب يحمل نفس العنوان

ان يكونوا مستبشرين لان سلطانهم سيكون قريبا بينهم ، وكانت هذه الرسائل ترجوهم ان لا يسمحوا لاى حركة جزئية وعشوائية ان تقضي على الهدف المشترك . كما اتصل خلفاء عبد القادر بالتعليمات الخاصة بهم . فقد كتب اليهم السلطان قائلا : « على الجميع ان ينتظروا الاشارة بصبر ، ثم يهجموا على العدو هجوما ماحقا » .

وقد احس الفرنسيون بقدوم العاصفة ، واعترفوا بعبقرية عبد القادر . ان الخطر قد اصبح على الابواب . وكان لامورسيير وكافينياك Cavaignac وبيدو يلحون على الحكومة فى المزيد من التعزيزات . وطلبوا عودة بيجو فى الحال . وبناء على ذلك غادر المارشال بوجو فرنسا ووصل الى الجزائر فى الخامس عشر من اكتوبر سنة 1845 . وقد احضر معه تعزيزات جديدة . وخلال اسبوع نزل الميدان على راس قوة من 000 120 رجل عازما على وقف العاصفة الخطيرة بحركة قوية فى الوقت المناسب .

كان هناك اربعة عشر فرقة كبيرة ، كل فرقة مزودة بمشاتها وفرسانها ومدافعها ، تجرف الارض جرفا فى جميع الاتجاهات ، بعضها كان يعمل بتناسق ، وبعضها كان يعمل باستقلال ، ولكنها جميعا كانت تسحق كل مقاومة فى طريقها ، حيثما ظهرت ، بالنار والسيف ، فكان السكان يذبحون بلا رحمة ، والمنازل تحرق بلا هوادة ، والحصاد تشعل فيه النيران ، والفارون يختنقون احياء فى الكهوف . وقاد سانتارنو St. Arnaud « الطابور الجهنمي » واحست الجزائر من جديد بثقل وقوة الحضارة الاوروبية ، ولكنها الآن كانت غير ملطفة بتلك الرحمة التى كان من المفروض ان تكون خاصية لها .

الفصل التاسع عشر

(1847 - 1845)

لما كان عبد القادر منتشيا بانتصاره الاخير وشغوفا لتحقيق الآمال التي أيقظها هذا الانتصار في كل جهة وصلتها اخباره ، حمل الويته الى سهول معسكر في شهر اكتوبر سنة 1845 ، وقد وجد ترحيبا جديدا لا يقل حماسة عن الترحيب الذي لقيه في بداية مقاومته • فكل القبائل التي كانت قد استسلمت الى الفرنسيين انضمت اليه • وخرجت الحامية الفرنسية في معسكر ضده لكنها ردت على اعقابها بخسائر فادحة ، واصبحت معسكرات الفرنسيين في سعيدة وتازة محاصرة حصارا مضيقا •

ولكن اجزاء اخرى من البلاد تحتاج الى حضوره • وكانت سياسته تقوم على عدم مواجهة الفرنسيين بقوة كبيرة لان ذلك كان غير ممكن لحاجته الى القوات النظامية من المشاة ومن المدفعية ايضا، ولو فعل غير ذلك لاثار روح التمرد في كل انحاء البلاد• وكان هدفه من هذه السياسة ابقاء الفرنسيين دائما في صف المدافع بظهوره السريع الخاطف في مناطق كانوا يظنون انها اصبحت خاضعة لهم ، واحياء الصراع بينه وبينهم حيث يظنون انه انتهى ، ثم اعاقة جميع الاجراءات الموجهة ضده بسرعة تحركاته •

وبعد ذلك تقدم الى تاقدامت بقوة من 000 6 فارس ، وبدأ يستعد للنزول الى سهل الشلف ، وقد بلغه ان بني صهيب ، وهم قبيلة هامة وكثيرة العدد تقع على مسافة مائة وخمسين ميلا الى الجنوب ، كانت على وشك الانضمام للفرنسيين • ونتيجة لذلك اجل الاتجاه نحو سهل الشلف وهاجم القبيلة المذكورة فجأة بقوة من 000 5 فارس ، وقد قبض على زعمائها وسيقت مواشيها وافرغت خزائنها •

ولكن تحركات الفرنسيين فى نفس الوقت اضطرته الى تعديل خططه • فلم يكن خبر وجود عبد القادر فى التل يعرف حتى ركزوا كل جهودهم فى ذلك الاتجاه • وبناء على ذلك تحركت كل من قوات لامورسيير وبيدو ويوسف ومارسى Marcey وكانت الاوامر قد صدرت ان اى قوة تعثر على عبد القادر تطلق النار انذارا بذلك وان على القوات الاخرى ان تسارع الى المكان لتقديم المساعدة •

وكان لامورسيير اول من لقيه ، بالقرب من تيارت ، فى اول ديسمبر ، 1845 وكان عندئذ يرافق هجرة عدد من القبائل التى كانت تنسحب ، تحت قيادته، الى الصحراء • وطبقا للاتفاق اطلقت النار • فأسرع الى عين المكان بيلو ويوسف وبوجو ، ولكن عبد القادر الذى كانت تخدمه دائما خلية ماهرة من الجواسيس والذى كان بارعا فى الاستفادة منها نجح فى افشال هذا التحالف وحول مقر عملياته ، فى خلال ثمان واربعين ساعة ، الى منطقة الونشريس •

وقد تبعه كل من بوجو ولامورسيير ويوسف وسانتارنو فى سرعة لاهثة وتمكنوا من جديد من العثور على آثار عبد القادر • ولكن خصمهم الذى كان موجودا فى كل مكان قد افلت منهم حيثما تبعوه وقادهم الى مداورات ومناورات غير مجدية ، خلال اسابيع ، فى سهل الشلف •

وفى احدى المناسبات كاد يتمكن من سحق الجنرال الثالث (يوسف) • ففى الثالث والعشرين من شهر ديسمبر التقى بيوسف شخصيا ، بالقرب من نميلة ، فتظاهر بالهروب • فوقع يوسف فى الفخ وتبعه بقوة من 2 000 فارس، وبعد ان ابتعد عبد القادر بالفرنسيين بعض الوقت استدار فجأة وواجههم بقوة من 500 فارس غير نظامى • وسقطت الامطار سيلا منهمرا • ولم تنطلق الاسلحة النارية الفرنسية • وكانت خيلهم منهكة القوى • وضاعوا فى مجاهل الارض وكادوا يستسلمون لولا الظهور غير المتوقع لكتيبة من المشاة التى هرعت لنجدتهم •

وفى نفس الليلة تسرب عبد القادر بين قوات لامورسيير وبوجو وقام بغزوة ضد بنى الزدامة الواقعين بين تاقدامت ومعسكر ، واستطاع ان يسبق ماشيتهم وان يغنم كثيرا من القمح والشعير ، ثم تراجع بدون اذى الى الصحراء• وهناك جاءت اليه عدة قبائل بالضريبة المعتادة •

وقد غادر عبد القادر الصحراء فى فبراير سنة 1846 متبوعا بعدد من بنى حسن • ومر . دون ان يشعر به العدو ، بوادى يسر شرقى المدية ، وبعد

ان قام فى طريقه بغزوة ضد بنى هيدورة الذين خدموا الفرنسيين ، وصل جرجرة حيث القبائل كانوا واقفين على استعداد لانتظار اوامره · وبقوة بلغت 5 000 محارب تجمعت بطريقة تكاد تكون سحرية ، نزل الى سهل متيجة وهاجم وضرب المستعمرات الفرنسية هناك وتقدم حتى وصل على بعد اربع ساعات فقط من مدينة الجزائر نفسها · كل ذلك كان بينما الضباط الفرنسيون يبحثون عنه فى أعالى التل ·

وفى السابع من فبراير كان عبد القادر معسكرا تحت اقدام جرجرة · وبينما كان منهمكا فى صلوات منتصف الليل سمع الفرنسيين يأمرون باطلاق النار · ولم تكد تمر لحظة اخرى حتى كان الفرنسيون عنده ، فامتطى فرسه بسرعة ونادى رجاله للتجمع · واحاط به القناصة Chasseurs من كل جانب فاشتبك معهم وحده ، وسقط من تحته جوادان ، فحارب على القدمين · واستمر كذلك الى ان اصبح غير متميز لتداخل الاشتباك فاستعان بظلام الليل ولاذ بالفرار ·

وفى الثامن والعشرين منه عقد عبد القادر مجلس حرب كبير فى برج بورنى (1) · وقد حضر المجلس نواب من كل قبائل جرجرة · ونوقش موضوع الحرب بحرارة · وقد ظهر احيانا ان الاغلبية كانت فى صالح استمرار الحرب، وخلال ذلك وصلت الانباء بان بوجو كان يتقدم نحوهم بقوة كبيرة · فرجحت كفة المعتدلين فى المجلس · فقد اعلنوا ان كلا من الهجوم والدفاع مخاطرة · كما اعلنوا ان الحذر افضل من حماس غير مثمر · وفى ذلك الضمان الافضل للحفاظ على حرياتهم ·

وغادر عبد القادر جرجرة · وخلال بعض الساعات كان بالقرب من بيبهان · وهناك ، وفى السابع من شهر مارس ، فاجأ وهزم وسلب الدوائر الفرنسية Douairs بقوة من حرسه الشخصى تبلغ 2 000 فارس · وقد كانت الغنيمة ضخمة · فكل بغال وابل القبائل لم تكد تكفى لنقلها · ودخلت القافلة الكبيرة وحراسها مضائق جبل عمور فى تحرك سريع نحو مناطق اولاد نائل فى الصحراء ·

وفى الثالث عشر منه ، بينما كان عبد القادر على راس سبعين رجلا فى مؤخرة القافلة هاجمه من جديد الجنرال يوسف الذى كان قد علم بالاتجاه

---

(1) او بوغنى ·

الذى اخذه فتعقبه بسرعة كبيرة • وقد صادف ان كانت القافلة تمر بارض مكشوفة مما اعطى للفرنسيين فرصة غير عادية • وكان عبد القادر واضحا على فرس ابيض ، وكان مرة يطلق النار واخرى يعبىء سلاحه ، وبذلك اوقف العدو عند حده ، وقد حارب رجاله حرب استماتة حتى سقط منهم اربعون قتيلا ، وبعد ساعتين من القتال المرير وبعد أظهار شجاعة فائقة اختفى عبد القادر عن الانظار فى شعبة •

وكان الفرنسيون مندهشين من بطولته ، وفى زمن لاحق عندما كان عبد القادر فى باريس موضع فضول واعجاب الجميع ، حكى له الجنرال الفرنسى ، الذى كان على راس القيادة فى ذلك اليوم الذى لا ينسى ، الانطباع الذى تركه على كل الذين شاهدوا سلوكه البطولى فى لحظة كان يشير فيها كل شىء الى انه قد انتهى • فقد قال له الجنرال يوسف عندئذ : « لو ان احد ضباطنا قام بالعمل الخارق من البطولة الذى قمت به لارسل اليه الامبراطور وسام الشرف » •

اصبح عبد القادر يأمل ان يجند قواته من بين قبائل الصحراء • ولكن الفرنسيين اعترضوا مهمته • فاينما حل وجدهم حاضرين • فاولاد نائل وبنو صهيب وبنو حسن الذين طالما مون نفسه من مواردهم والذين اعتاد ان يجد فيهم الملجأ فى ساعة العسر ، قد خضعوا جميعا الى الخصم الدائب • وحيثما حل عبد القادر وجد الفتور والقنوط • بل ان حضوره قد بدأ ينظر اليه على انه علامة عن سوء الطالع ومقدمة للخراب •

وقد زار اولاد سيدى الشيخ ، وهم قبيلة كبيرة وقوية فى اقصى جنوب الصحراء • واجتمع حوله رؤساؤهم ومرابطوهم ، وشاطروه التاسى والعزاء• وأكدوا له عواطفهم الصادقة ، وعرضوا عليه كرما مؤقتا ، ولكنهم تضرعوا اليه ان لا يعرضهم لنكبات الحرب التى تعرض قبور اوليائهم الطاهرين الى دنس الكفار ، وقد تقبل عبد القادر هذه الرغبة بالهدوء والاستسلام • ثم رجع الى دائرته التى كانت على وادى ملوية فى المغرب ، مرفوقا باتباعه الاوفياء •

وصل هناك فى الثامن عشر من يوليو سنة 1846 ، وقد وجد ان قصة مرعبة قد حدثت اثناء غيابه • ذلك ان الاسرى الفرنسيين ، الذين اعتقلوا فى حوادث سيدى ابراهيم وعين تموشنت التى جرت خلال سبتمبر ، 1845 ، كانوا قد ارسلوا الى الدائرة وكانوا قد قدموا الى والدة السلطان وعوملوا معاملة طيبة ولقوا ترحيبا يضمن لهم الامان ، وليس هناك شىء قد ادخر للتخفيف من

وضعهم المؤلم . وطالما كاتب عبد القادر بوجو في شأن تبادل الاسرى ، لكن عرضه قد قوبل بالسخرية ، ذلك هو وضع الاسرى عندما غادر عبد القادر الدائرة لحملته الاخيرة .

كانت الدائرة ، التى كانت معها دائما فرقة صغيرة من الحراس ، تحت سلطة البوحميدى . وفى العاشر من ابريل ، سنة 1846 وصل مصطفى بن التهامى ، صهر السلطان ، من الصحراء وتولى القيادة . وكان قد غادر عبد القادر ثلاثة ايام بعد المعركة المظفرة مع الجنرال يوسف فى جبل عمور ، واحضر معه عددا من الجرحى والمعطوبين . ووجد عند وصوله ان الدائرة قد انخفض عددها كثيرا بالهروب منها والوفاة والحرمان . واصبحت المواد الغذائية نادرة . ولم تعد القبائل المغربية المجاورة تموتها الا بالدفع مقدما، ولم يكن هناك نقود الا قليلا او لا شيء اطلاقا . وأمام هذه الحالة أصبح المائتان والثمانون سجينا يثيرون الحيرة والارتباك .

واثناء هذه الازمة وصلت تقارير الى مصطفى بن التهامى تقول ان الجيش المغربى ، الذى لم يكن على مسافة بعيدة ، كان على وشك التقدم وانقاذ الاسرى وليس لابن التهامى قوة كافية لمقاومة هذا المشروع اذا ما تحقق . وقد طغت على عقله فكرة هذا العار الذى سيلطخ شرفه ، واذا ترك الفرقة الصغيرة التى كانت معه تحارب المغاربة لابعادهم فان ذلك سيؤدى الى اراقة دماء اسلاميه ، وربما تراق هدرا ، من اجل الكفار . واذا سلمهم بدون مقاومة فكيف يستطيع النظر فى وجه عبد القادر بعد ذلك ؟ لذلك قرر التخلص منهم . وفى الليلة الرابعة والعشرين من ابريل قتلوا جميعا باستثناء عشرة ضباط منهم (2) .

واول ما فعله عبد القادر عند وصوله الى الدائرة ، فى الثامن عشر من يوليو ، هو السعى الى تبادل الاسرى الباقين ، ولكن مساعيه فشلت ، مثل مساعيه الاخرى فى هذا المجال . على ان تحريرهم قد تم فى النهاية بفدية قدرها 30،000 فرنك . وقد شعر عبد القادر ان سمعته التى كانت نقية من مثل هذه الاعمال المشينة ، تقتضى ان يكتب الرسالة التالية الى ملك الفرنسيين :

« بسم الله الرحمان الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد .

2) يرى صاحب (تحفة الزائر) ان ما ارتكبه ابن التهامى يعود الى خلاف بينه وبين البوحميدى من جهته ومحاولة ردع بنى عامر الذين اخذوا فى التوجه الى المغرب افواجا من جهة اخرى. انظر ج 1 . ص 302 . اما الامير فيلقى التبعة على الفرنسيين انفسهم .

من امير المؤمنين السيد الحاج عبد القادر بن محيى الدين ، منحه الله رضاه فى الدنيا والآخرة ، الى سلطان المسيحيين وقائد الجيوش الفرنسية ، الملك لويس فيليب ، زاد الله سلطانه عزة وحقق آماله فى كل ما يتعلـق بسعادة شعبه ، وساعده بالاخص على تشجيع الذين يتبعون الصراط المستقيم ، وعـلى بلبلة الذين يحيدون عنه ٠

« اننى اريد ان الفت انتباهكم الى اننا كنا دائما على استعداد لقبول شروط السلام ٠ بل لقد كنا قبلنا شروطا اعتقد انه من المناسب فرضهـا علينـا ٠ وابتهجنـا ان نكـون على حسن تفاهم معكم ٠ وكان تحالفنا قد تدعم بحسن النية ٠ وكانت معاهداتنا تحتوى على موافقتكم الشخصية ٠ كما اكدنا مشاعر الصداقة المشتركة بتبادل الهدايا ٠

« هذا هو وضعنا الى ان قام بعض الاشخاص ذوى النفوذ فى الجـزائـر بالاصغاء الى الاشاعات المغرضة الهادفة الى وقف الانسجام والتفاهم الذى حل بيننا وصورونا على اننا مذنبون واحق باللوم ، بينما الواقع عكس ذلك وهو اننا نحن الذين لنا كل الحق فى التظلم من الاعمال التى قاموا بهـا نحونـا ٠

« لقد كتبت اليكم عدة مرات ، رسميا وسريا ، ولكن اسىء فهم نواياى ، بدون تمييز ، لدرجة ان العواقب الوخيمة وجدت المجـال فسيحا لها فـى الجزائر باسرها ٠

« وخلال حملتنا الاخيرة فى شرق البلاد ، واثناء المعارك العـديـدة التى خضناها ، اذن الله لكثير من الاسرى بالسقوط فى ايدينا ٠ وقـد اغتبطنـا بذلك لانه يعطينا القوة على التبادل ، ففى السنة الماضية لم نستطع ان نخلص المساجين المسلمين من ايديكم لاننا لم نكن على استعداد لنعرض عليكم اقتراحا مناسبا لكم بهذا الشأن ٠ ولكننا فى السنوات السابقة كنا قـد ارسلنا الى المارشال بوجو اكثر من مائة سجين بدون عوض ٠

« وفى الفترة الاخيرة ، عندما كان لدينا عدد من رعاياكم كتبنا اكثر مـن مرة الى اولئك الذين يمثلونكم نقترح عليهم تبادل الاسرى ، غير اننا لم نتصل بجواب ٠ بل ان كل رسلنا قد زج بهم فى السجون ٠ وتلك خيانة غريبة على التقاليد الفرنسية ٠ هذا بالاضافة الى ان الرسل بـين الاطراف المتنازعـة يعتبرون دائما محايدين ٠

« وبعد ذلك بقليل شاع بين العرب ان المساجين الفرنسيين سينقذون بالقوة • وعلم ان الوكلاء الفرنسيين قد عرضوا كمية كبيرة من النقود على كل من يأتي بالمساجين الى المراكز الامامية الفرنسية • بل لقد اشيع ايضا ان سلطان المغرب قد اخذ على عاتقه تحرير المساجين رغما عنا • وبذلك اصبح وكلاؤكم السبب الرئيسي في الحادث الفظيع (3) الذى وقع لرفضهم المستمر التفاوض من اجل تبادل الاسرى •

« اننا لم نميز ابدا بين الاسرى ورجالنا بخصوص الطعام والمأوى • وحالما رأينا ان بين الاسرى رجالا ذوى مراتب وشرف يزدرون باللجوء الى الفرار ، ميزناهم عن غيرهم بما يناسبهم • وقد كانوا معترفين بالجميل • واقترحنا ان نطلق سراحهم • وان القائد كونيور Cognord يعرف جميع الترتيبات التي كانت تتخذ لتحريرهم • وهو يعرف ايضا اننا لم نتصل باى رد على رسائلنا ، وان الصمت الساخر كان السبب في قطع التفاهم بيننا وبينكم » •

وختم عبد القادر رسالته بدعوة عاجلة الى تحرير بعض الاسرى المسلمين واعلان صريح على انه لا علم له اطلاقا ولا علاقة له بأى اجراء ، مهما كان نوعه يخالف العدل والدين • وقد ظلت هذه الرسالة ، كجميع سابقاتها ، بدون جواب •

وخلال غياب عبد القادر الاخير عن الدائرة ، عبر تدريجيا عدد من القبائل العربية الحدود ووضعوا رحالهم داخل الحدود المغربية ، وقد منحهم السلطان المغربي الارض للاقامة فيها ، غير ان غيرة الفرنسيين قد استيقظت • فقد كانوا يخشون ان المهاجرين سيصبحون في النهاية خلية لقوة مقاتلة ضدهم • كما ان المذبحة الاخيرة زادت من قلقهم • فدعوا السلطان عبد الرحمان ان يظهر حالا بالعمل اخلاص نواياه ، وطلبوا منه ان يطرد عبد القادر من ترابه بدون تأخير •

وفي نفس الوقت شرع عبد القادر ، الذى لم يكن يأمل سوى في عدم التعرض للاذى ، في زرع الاراضي القريبة من وادى ملوية لتغذية الدائرة • وقد كتب اليه بومعزة يدعوه الى الانضمام اليه لاستئناف المقاومة ، ولكن عبد القادر رفض هذا الاغواء • ومهما كان المستقبل مليئا بالمغيبات ، فانه لم يطلب الآن سوى الراحة والهدوء ، ولكن لم يسمح له ان يتمتع بهاتين

(3) اشارة الى حادث قتل الاسرى •

المتعتين ، فقد اتصل برسالة من مولاى عبد الرحمان يطلب فيها منه الانسحاب حالا بدائرته من الحدود المغربية ·

وقد جمع عبد القادر انصاره وقرأ عليهم الرسالة ، فاعلنوا بالاجماع انه من الخزى الرضوخ الى مطلب شخص جبان خان دينه ووقع معاهدة مخزية مع الكفار · وقالوا : « لقد اقسمنا اليمين ان نقاوم الى الموت ، واننا مستعدون لاتباعك الى اى مكان تختار ، ولكننا لن نتبعك الى الجزائر» · ونقل عبد القادر هذه الآراء الى عبد الرحمان ، واعدا فى نفس الوقت ان لا يهاجم الفرنسيين ، وقال بانه سينتظر فى الدائرة حكم الله باستسلام ·

اعطيت التعليمات سريا الى القبائل المغربية ان تضايق وتؤذى الدائرة · ولذلك رفضت ان تبيعها المواد الغذائية ، وهاجمت اجزاءها التى كانت تخرج للفلا ونهبتها ، فما كان من عبد القادر الا ان وجه الى عبد الرحمان نداء قويا ضد هذا التصرف ، ولكنه لم يتلق لا جوابا ولا اصلاحا للحالة · ومع ذلك تحمل هذا الوضع بصبر ستة اشهر · ومرة اخرى كتب الى السلطان المغربى محذرا اياه من انه اذا استمر هذا الوضع فانه سيجد نفسه مضطرا الى النار لحقوقه ولنفسه ·

وباسم الدفاع عن النفس استأنف عبد القادر موقفه العدائى · فكانت قواته المكونة من 200 1 فارس و 800 راجل تحرس المنطقة من جميع الجهات · وكان المغيرون المغاربة يردون على اعقابهم ويطاردون الى خيامهم ، وكانوا يحضرون الى الدائرة ويعاقبون · وبهذه المواقف القوية تحسن وضعه وتهاطلت عليه المواد الغذائية · بل ان اكثر من قبيلة مغربية طلبت الانضمام الى الدائرة · وحيثما حل عبد القادر شخصيا كان يجد ترحيبا بالخضوع والطاعة اليه · وكانت قوته المادية فى ازدياد كل ساعة · وقد ارسلت قبيلة بنى حميان الكبيرة ذات النفوذ الواسع تأييدها الى عبد القادر ·

وذات ليلة ، بينما كانت الدائرة ماتزال فى عين الزور ، تسرب رجل ، دون ان يراه الحراس ، الى خيمة عبد القادر ، وكان السلطان منهمكا فى القراءة · وعندما سمع صوت الاقدام رفع رأسه فرأى زنجيا طويل القامة قوى البنية واقفا امامه وفى يده خنجر ، وفجأة رمى الرجل بالخنجر على الارض فارتمى عند قدميه ، وقال : « لقد جئت لاطعنك ، ولكن منظرك قد جردنى من سلاحى ، فقد بدا لى اننى رايت هالة النبى حول راسك » ·

ووقف عبد القادر ببطء ودون ان يظهر عليه أى تأثر ، ووضع يده على راس الزنجي وقال : « لقد دخلت خيمتى قاتلا ، وان الله الذى قادك الى التوبة عن عملك الشرير قد حكم ان تخرج منها بريئا ، فاذهب اذن وتذكر ان خادم الله قد عفا عنك » .

وفي شهر يوليو من سنة 1847 كانت الدائرة معسكرة في وادى اسلاف ، على حدود قبائل الريف واثناء ذلك اصبحت فجأة مهددة بقوة كبيرة تحت قيادة مولاى هاشم ، ابن اخي السلطان عبد الرحمان والقائد الحمراء . وقد بدا الامير المغربى بارسال قوة قوية استطلاعية لكن مدافعي الدائرة في المراكز الامامية اعادوها فى الحال على اعقابها . اما عبد القادر فقد ارسل الى الامير هاشم يطلب تفسيرا ومبررا لهذا العمل العدائى فى وقت السلام . فاتصل بجواب فيه عنجهية وسخرية . وفى نفس الليلة نزل عبد القادر على المعسكر المغربى فجأة وهزم اهله تماما وفرقهم . وقد قتل اثناء ذلك القائد الحمراء ، ونجا مولاى هاشم بحياته .

وغنم عبد القادر من ذلك كمية ضخمة من الحقائب والنقود بلغت 2.000 جنيه بالعملة الانكليزية . ونظر عبد القادر وقواده بمشاعر مختلطة من السخرية ومن الانتصار الى المعاطف والبرانس الفاخرة التى حشا بها الامير المغربى عدة صناديق بهدف توزيعها على شيوخ قبائل الريف واغرائهم بمثل هذه الهدايا ان ينضموا اليه . وعندما عاد الى الدائرة وجد ان بنى قلعية قد اغتنموا فرصة غيابه وأغاروا على معسكره وحملوا معهم جميع الابل ، فلم يسترح لحظة واحدة ، بل طارد هؤلاء اللصوص ، وقتل منهم حوالى مائة واسر جميع شيوخهم .

وانتشرت الاشاعات بسرعة في جميع انحاء الدولة المغربية عن استئناف عبد القادر لنشاطه وعن الوميض المؤقت لنجاحه ، وخلقت هذه الاشاعات هيجانا لدى السكان المتعصبين وصل صداه الى حاضرة الملك نفسها ، وتشوقت القبائل الجزائرية المهاجرة ، التى وضعها السلطان المغربى على بعد ثلاثة ايام من فاس ، الى العودة الى قائدها المحبوب . واتصلت به قبيلة بنى عامر وتوسلت اليه ان يساعدها فى الانضمام اليه .

ولكن السلطان عبد الرحمان علم بالامر ، واستولى عليه الرعب وتخيل ان عبد القادر سيهجم على قصره ويرمى به عن عرشه ، لذلك لم يضع لحظة واحدة وارسل فى الحال قوة من 15،000 جندى ضد بنى عامر . وقد مزقت هذه

القبيلة ، التي اخذت على حين غفلة ، شر ممزق بينما حملت نساؤها واطفالها الى الاسترقاق ٠

ان مثل هذه الاعمال المخيفة بل الوحشية للنزاع قد ملات عبد القادر باليأس والغضب ، ولكن ما عسى ان يفعل بالحفنة الباقية من رجاله ضد قوات فرنسا والمغرب المتحالفة التي تبلغ 100،000 رجل ؟ وقد قرر ان يوجه نداء اخيرا الى صديقه القديم وحاميه والمعجب به ٠ فأرسل خليفته البوحميدى فى مهمة الى فاس ٠ ولجا المبعوث الى اكثر الطرق افناعا معددا ذكريات الماضى المجيدة ٠ وطالب بتطبيق أقدس شعائر الكرم باسم جميع علاقات الصداقة والدين ٠

ولكن ايام التضامن والاخوة والعاطفة القومية قد ولت بلا رجعة ٠ فقد اصبح مولاى عبد الرحمان يرى نفسه يوميا محاطا بصعوبات جديدة ٠ وكانت الحكومة الفرنسية من جهتها تطالب كل ساعة بالتطبيق الحرفى لنصوص المعاهدة ٠ وقد رمى بالبوحميدى فى السجن حيث مات بعد قليل ، كما ان عبد القادر قد اتصل بالامر السلطاني التالى : « ان على عبد القادر اما ان يستسلم شخصيا الى السلطان عبد الرحمان واما ان يعود الى الصحراء الجزائرية ٠ وفى حالة الرفض او التاخير يزحف الجيش السلطانى ضده » ٠ وهكذا انقطع آخر حبل بينه وبين امله الوحيد ٠ فوقف وحيدا فى مفترق الطريق ٠

ورأى ، وهو هادىء غير يائس ، ان الحبائل تضيق عليه الخناق ، اما فى الدائرة فان الجميع كانوا فى حزن وقنوط ٠ حتى اخوته تخلوا عنه ، فابن سالم الوفى المجرب المخلص كان سجينا عن طواعية لدى الفرنسيين ٠ ولم تعد قواته الخاصة تتجاوز 2،000 رجل ، غير انه كان يوجد من بين هؤلاء 1،200 فارس ، وهم زهرة الفروسية الجزائرية ٠ ومعظم هؤلاء الرجال ايضا كانوا اتباع السلطان الملازمين له ، المشاركين له فى جميع الاخطار والمصاعب خلال مقاومته البطولية ٠

واثناء فترة الاستراحة القصيرة التى كان عبد القادر الآن يتمتع بها ، كان يجمعهم حوله يوميا ٠ وكان لا يتوقف عن الصلاة والوعظ ٠ وكان هؤلاء المحاربون المجربون ، الذين كانوا فى لون البرونز ، يهتزون طربا لنبرات صوته ٠ ثم اندفعوا بحماس ثائر لاعداد الجولة الاخيرة ٠

وفي بعض الاحيان كان عبد القادر يتراجع الى خيمته ويظل ساهرا وحيدا فترة طويلة • وذات ليلة وقف لمدة سبع ساعات متواصلة وهو يرتل القرآن الى ان ختمه • وكان يجدد قوته الروحية بمثل هذه التمارين الدينية • لقـد كان دائما جديرا بالمصير الذي قدر له وها هو الآن يرتفع اعلى منه •

الفصل العشرون

(1847)

في التاسع من ديسمبر سنة 1847 كانت الدائرة معسكرة في اقدين على الضفة اليسرى لوادي ملوية . وكانت تضم حوالي 5 000 نسمة . وكانت الاشاعات تروج بان الجيش المغربي كان يتقدم نحوها ، في قوة ضخمة . وفي العاشر منه تلقى عبد القادر معلومات اكيدة بان مولاي محمد ومولاي سليمان، وهما ولدا السلطان عبد الرحمان ، كانا على مسافة ثلاث ساعات ، فقط ، على راس جيش قوامه 50،000 رجل . وعلم ايضا ان هذه القوات كانت مقسمة الى ثلاث فرق كبرى يفصل الواحدة منها عن الاخرى مسافة نصف ميل واكدت الاخبار ان الفرقة الاولى المكونة في معظمها من العرب الاحتياطيين ، كقبائل الريف وبني سناسن وغيرهم ، قد اخذت مكانها بالقرب من قلعة سلوان الاثرية .

وقد رأى عبد القادر انه اذا تمكن هذا الجيش الضخم من التحرك دون تدخل فان الدائرة ستسقط في يده لا محالة . ومن جهة اخرى فان مهاجمته بقواته الصغيرة قد بدت له بمثابة القاء النفس الى تهلكة محققة . ولكن مشاعر الشرف والفروسية والثأر كلها تجمعت وتعاونت على جعله يحاول محاولة يائسة .

وفي اليوم الحادي عشر منه جمع عبد القادر كل قواته التي لا تعدو 1،200 فارس و 800 راجل . وبعد القاء خطبة وعظية تشجيعية عليهم أعلمهم ان يكونوا مستعدين في نفس الليلة ليسيروا معه الى المعركة . ولم يكن من هؤلاء الانصار سوى رد واحد على هذه التعليمات : السير جميعا في صمت لتجهيز انفسهم للمعركة القادمة .

وفى صمت الليل تحركوا الى الامام ، وفى مقدمة القوة الصغيرة التى كانت لديهم سيق جملان مغطيان تماما بالحلفاء ومطليان بالقطران والقار ، وبعد مسيرة ساعتين وصلوا الى فرقة العدو الاولى • فاشعلوا النار فى الحلفاء التى كانت على ظهر الجملين فانطلق الجملان الهائجان الى الامام بينما اطلقت المشاة النار ، وحمل الفرسان على العدو بقيادة عبد القادر نفسه •

وكانت دهشة وحيرة المغاربة والعرب الذين وقعت عليهم هذه العاصفة المفاجئة ذكرى لا تنسى • فبعد ان كانوا فى طمأنينة وأمن فى هدوء الليل رأوا فجأة ظلام الليل القاتم يتحول الى ضوء بسهام النار المتطايرة ، وبلمعان السيوف وبالوميض الباهر لشهابين غامضين منطلقين حولهم وفوقهم ببريق خارق ، واضيفت المخاوف الخرافية الى ذلك الرعب والفزع • وقد اندفع الرجال فى جميع الاتجاهات كأن ابواب جهنم قد فتحت وانصبت لعناتها عليهم ، متخلين عن اسلحتهم وخيامهم وحقائبهم •

وفى نفس الوقت واصل عبد القادر وفرسانه سيرهم ودخلوا فى اشتباك مميت مع الفرقة الثانية التى كانت ايضا قد اخذت على غرة وهزمت وفرقت • وفى اقل من نصف ساعة وصلوا الى الفرقة الثالثة • وهناك لم يكد الاميران المغربيان يجدان الوقت لجمع بعض النظاميين للدفاع عن حياتهما بعد ان انذرتها الضجة والصخب فى الصفوف الامامية للفرقة ، وقد كان هدف عبد القادر المضى قدما الى خيامهما وأسرهما • ولكن واجهة قوية من نيران المشاة والمدفعية اجبرته على التخلى عن هدفه فانسحب • وعند ما طلع الفجر سيطر ببطء لكن بمثابرة على مرتفع مجاور واخذ مكانه فيه حيث كان يشاهد خصمه المهزوم المنكسر •

وفى نصف النهار تحرك 5،000 فارس مغربى ضده ، وقد انتظر تقدمهم بهدوء • وعندما وصلوا الى مسافة اطلاق النار قاد رجاله فى الهجوم فكان يتخلل صفوفهم المتماسكة وينفضهم كما ينفض الاسد قطرات الندى عن لبدته • وبمناورات ماهرة من الهجوم والتراجع عاد عبد القادر وفرسانه الابطال الى وادى ملوية عند الغروب •

وهناك عدد لا يحصى من المنازلات الباهرة التى قام بها اولئك المحاربون العمالقة الذين توجوا فى ذلك الصراع الخالد مهمتهم الطويلة المجيدة بشجاعة كانت فوق الطاقة الانسانية • ومن ناحية اخرى كان ذلك الصراع خالدا لانه شاهد الفصل الاخير من حياة ابن يحيي المثيرة المشهودة ، وهو فارس

عبد القادر المفضل وآغا جيشه الشهير • لقد كان ابن يحيى البطل المقدام في عدد لا يحصى من المعارك ، حتى لقب (بالشيطان) للغنائم العجيبة التى كان يحصل عليها ولنجاته المثيرة من شراك العدو • وفى ذلك اليوم قتل من تحته سبعة عشر حصانا ، وقد حكم القدر ان ينال الآن آخر اكليل وهو الموت شهيدا •

كانت الدائرة قد اوشكت على عبور وادى ملوية • وعند ما وصل عبدالقادر اليها كانت الحقائب والغنائم التى غنمت من العدو ما تزال في العبور • وقد تقدم الجيش المغربى لكن بحذر • ففرسانه لم تطلق النار الا من بعيد لانهم لم يكونوا يرغبون فى اعادة تجربتهم الاخيرة المريرة •

ومع ذلك فان وضع عبد القادر كان مليئا بالاخطار • فالدائرة لم تتعرض ابدا لمثل هذا الخطر الداهم • والذخيرة كانت قد استهلكت ، والذخيرة الكبيرة التى حصل عليها اتباعه والتى مازالوا يحضرونها قد برهنت على عدم فائدتها ، وكانت غير مناسبة لبنادقهم ، وبذلك اصبح المشاة لا يعول عليهم ، ولكن عبد القادر مازال يرى حرسه القديم حوله فشعر بالانتصار • ان حضورهم كان بالنسبة اليه هو الضمان للدائرة •

وعبرت الدائرة وادى ملوية • ورغم ان الخصم ظل يضغط عليها فان عبد القادر رفض ان يترك ضفة الوادى الى ان تكون الدائرة على بعد ساعة فى سهل الطريفة واخيرا وصلت وادى قيس الذى عبرته حوالى نصف الليل، وانتهى تعرضها للاذى ، فقد اصبحت فى منطقة فرنسية •

ومن كل ذلك الحشد الهائل من الرجال والنساء والاطفال والحيوانات لم تفقد حتى حياة واحدة ولم يضع حيوان صالح للحمل • ذلك ان عبد القادر كان حارس الجميع ببرودته ومهارته وشجاعته • ولكن كثيرا من الخسائر قد وقعت فى صفوف هذه الفرقة البطلة التى استجابت باخلاص لا يعرف النكوص لصوت قائدها وقلدت مثاله فى هذه الغزوة النموذجية التى كانوا مندفعين فيها تحت ارشاده اندفاعا لا مثيل له • فقد مات منهم اثناء ذلك اكثر من 200 رجل • وكان الباقون جميعا يعانون من الجراح • وقد قتل تحت عبد القادر نفسه ثلاثة جياد •

وبعد ان ترك الدائرة فى امن مؤقت رجع الى جبال بنى سناسن ، وهى قبيلة قد انضمت اليه جزئيا • وتبعه فرسانه الذين لا يحجمون فى صمت

قلق متألمين تعبين حائرين • وسقطت الامطار كالسيول • واستولت على عقل القائد الشارد الافكار المتضاربة الثقيلة • فرغم ان الفرنسيين كانوا على مرمى البصر يحتلون المضيق الرئيسي لجبل لكربوس ، فما تزال هناك بعض الممرات الضيقة التي يستطيع ان يخلص منها الى الصحراء • ومعنى ذلك انه مايزال في امكانه ان يجرب حظه • وفكر بقنوط : ترى لاية غاية ؟ كيف سيمضي هكذا في مقاومة بلا طائل ؟ واى قوة بقيت لديه الآن ؟ وعلى اية مساعدة سيعتمد ؟ ثم انتقلت افكاره الى امه المسنة وزوجته واطفاله واتباعه البائسين الذين كانوا على مسافة ثلاث ساعات من المعسكر الفرنسي والذين يمكن ان يدخلوه جميعا قبل ان يمضي وقت طويل كأسرى حرب • ولم يقع لعبدالقادر ان وجد نفسه من قبل في مثل هذه الحالة اليائسة • فقد شعر ان نهايته تقترب • وهو يعلم ان ما سيقرره عليه ان يقرره بسرعة • فأمر بالتوقف • وطلب من رجاله ان يقتربوا منه ، وعندما أحاطوا به افتتح هذا المجلس بكلمة قال فيها :

« هل تذكرون القسم الذى نطقتم به في المدية منذ ثماني سنوات عند استئناف الحرب ، ذلك القسم الذى تعهدتم به ان لا تتخلوا عني مهما كانت الاخطار والمعاناة التى تتعرضون لها ؟ اننا جميعا نذكره ومازلنا على استعداد للالتزام به » •

وتابع عبد القادر كلامه قائلا : « إنني دائما كنت اعتبر ذلك القسم ملزما لي نحوكم كما هو ملزم لكم نحوى • ان هذا الشعور وحده هو الذى جعلني اثابر على الجهاد الى هذه الساعة حتى ولو لم يكن هناك امل • فقد كنت عزمت على ان لا يكون في استطاعة اى مسلم ، مهما كانت صفته او درجته ، ان يتهمني بالزامكم بشيء لم اكن انا شخصيا مستعدا ان اقوم به ، او يقول بانني لم افعل كل ما في وسعي لنصر كلمة الله • فاذا كنتم تعتقدون انه مازال بوسعي ان اقوم الآن باى شيء ، فاخبروني • وان كنتم لا تعتقدون ذلك فاني اسالكم ان تعفوني من القسم الذى التزمت به اليكم عقليا عندما طلبت رسميا قسمكم •

« اننا جميعا نشهد امام الله انكم فعلتم كل ما في وسعكم لاعلاء كلمته • ويوم القيامة سيجازيكم الله بعدله •

« واذا كان ذلك هو رأيكم ، فان أمامنا ثلاثة احتمالات لا غير : اما العودة الى الدائرة حيث نكون مستعدين لمواجهة اية عقبة ، واما محاولة ايجاد طريق

لانفسنا الى الصحراء . وفى هذه الحالة لا تستطيع النساء والاطفال والجرحى ان يتبعونا وسيسقطون لا محالة فى ايدى العدو ، واما الاستسلام .

فاجابوه : « ليهلك النساء والاطفال ، أهلنا واهلك ما دمت انت سليما وقادرا على استئناف الجهاد فى سبيل الله . انك قائدنا وسلطاننا . فحارب او استسلم ، كما تشاء ، اننا سائرون وراءك الى حيث تقودنا .

وتوقف عبد القادر بعض اللحظات ثم استأنف كلامه بتأثر عميق : « صدقونى ، ان المقاومة قد انتهت . فلنعترف بذلك ، والله شاهد على اننا حاربنا طالما كان ذلك فى استطاعتنا . فاذا لم ينصرنا فلانه حكم ان تكون هذه الارض للمسيحيين . وبقائى فى البلاد او عدم بقائى فيها سوف لا يغير من الامر شيئا . وماذا استطيع ان افعل اكثر مما فعلت من اجل القضية التى دافعنا عنها طويلا ؟ هل فى استطاعتى ان استأنف الحرب ؟ اننى سأهزم وسيتعرض العرب الى مزيد من الآلام .

وبالاضافة الى ذلك فان القبائل قد اصبحت تعبة من الحرب . انها لم تعد تطيعنى . يجب ان نستسلم . والمشكل هو هل نسلم انفسنا الى ايدى المسيحيين او الى ايدى مولاى عبد الرحمان . ولكم ان تحكموا فى هذا الامر بما ترون انه الافضل . اما انا فاننى افضل الف مرة ان اثق فيمن حاربنى على من خاننى . ان وضعنا حرج ، ولذلك فان مطالبنا يجب ان تكون متواضعة . واننى سأكتفى بطلب الامان لنفسى ولعائلتى ولاولئك الذين يريدون ان يتبعونى الى بلاد اخرى اسلامية » .

وخامر الشك بعض اعضاء المجلس حول امكان تحقيق هذا المطلب بوفاء والتزام . فأجاب عبد القادر على هذا الشك بقوله : « لا تخشوا فان كلمة الفرنسيين واحدة . فهم اما ان لا يعدوا بانجازها ، وفى هذه الحالة لنا ان نرى ماذا يجب علينا ان نفعل ، واما ان يعدوا بها فينجزوها » . فكان ان اجابوا بصوت واحد : « ايها السلطان ليكن ما تريد » .

ولم يستطع عبد القادر ان يكتب مطالبه لان المطر كان مايزال ينزل بغزارة . ثم اخذ قطعة من الورق ووضع عليها خاتمه وارسلها فى الحال مع فارسين وكلفهما باظهار خاتمه الى الجنرال الفرنسى كعلامة على التفويض منه لهما بابداء المطالب التى سيقدمانها باسمه شفويا .

وخلال ليلة الواحد والعشرين من ديسمبر • علم لامورسيير بوصول الدائرة داخل الحدود الفرنسية وبالاتجاه الذى اخذه عبد القادر والقوة الصغيرة التى كانت معه • وفى الحال ارسل ضمانات السلامة الى الدائرة • وكانت الغنيمة هامة • ولكن اى حشد لاية قوة ضد معسكر عبد القادر سوف يكون بدون فائدة كبيرة ما دام القائد الشهير نفسه مايزال طليقا • وبدأ لامورسيير اذن ، دون تضييع لحظة واحدة ، فى مطاردة عبد القادر على راس فرقة صغيرة من المشاة والفرسان •

ولم يكد يقطع مسافة ثلاث ساعات حتى انضم اليه دون انتظار ابن خويه ، رهو جندى مساعد فى فرقة الصبائحية العربية التى كانت تابعة للامورسيير ، متبوعا بمبعوثى عبد القادر • وقد استظهر المبعوثان له بخاتم سيدهما وقدما مطالبه • فغمرت الفرحة وجه لامورسيير • ووافق على كل شىء • ولكنه كان فى حالة كحالة عبد القادر ، لان المطر منعه ايضا من التعبير عن رضاه بالكتابة، ولم يكن خاتمه معه • غير انه فى هذا الظرف الاستثنائى أعطى سيفه وخاتم الضابط بازين Bazaine الى المبعوثين لتقديمهما الى عبد القادر علامة على قبول شروطه •

وعندما هوجم لامورسيير ، فى وقت متأخر ، فى مجلس النواب ، على سماحه لعبد القادر بالفرار بينما لو استعمل قليلا من الجهد لاسره ، وعلى ارتكابه غلطة فادحة بمنحه ، دون تحفظ ، حق حرية غير مقيدة ، دافع عن تصرفه وحدد موقفه وعبر عن الدوافع التى جعلته يوقع على معاهدة كانت محل هجوم ، بما يلى:

« ان اتهاما وجه الى لاننى دخلت فى مفاوضات بدل مواصلة الهجوم • هل ترون ماذا كنت سآسر لو تابعت الهجوم ؟ كنت سآسر قافلته، كنت سأقوم بغارة لا اكثر • وكنت سأخبر بعد ذلك باننى اسرت خيمة عبد القادر وزريبته وحريمه ، وربما خليفة من خلفائه ، اما هو وفرسانه فيكونون قد انطلقوا الى الصحـراء •

« ان الامير عبد القادر تنازل عن اختيار • وبعد ان القت فرنسا بوزن جيشها الشجاع على الجزائر رات القائد الذى نادى واثار وحارب باسم الجهاد ياتى فى النهاية ويضع سلاحه اختيارا بيد الحاكم العام • لقد كان هذا ، بالنسبة لفرنسا ، انتصارا عسكريا وسياسيا ومعنويا • وان الآثار التى تركها هذا الحادث على الاهالى آثار عظيمة ، وان عواقبه مازالت تحتاج الى وقت لتظهر وتتطور •

« ان عبد القادر تجسيد لمبدا عاطفة دينية عظيمة ، وهى فى الجزائر العاطفة السياسية الوحيدة التى توحد السكان • وقد تمثل هذا المبدا فى الجهاد الذى له نفس الوقع الذى كان لفكرة الشرعية قديما بيننا (1) • فعندما يصبح رجل، بسمعته الماضية وبعقيدته القوية وببيانه المؤثر ، وبالمعارك التى خاضها ، وبالانتصارات التى حققها المثل الحى لفكرة تهز الجماهير بعمق ، فان خطرا داهما سيظل قائما طالما هو موجود فى بلاده » •

وتحرك عبد القادر الى قرية تريرات وعاد مبعوثاه • فجمع رجاله ليبدوا رايهم فى الجواب الذى اتصل به • فلاحظوا ان الوعد الذى اعطاه الجنرال الفرنسى كان شفويا فقط ، ورغم ان قيمة الجواب قد اعترف بها يؤيدها تسليم سيف الجنرال وخاتم احد ضباطه ، فما يزال من الحذر المطالبة بمزيد من الضمانات ، عند اخذ قرار فى مثل هذه الاهمية للجميع •

وما دام المطر قد توقف الآن فان عبد القادر كتب رسالة الى لاموريسيير يعلن فيها مطالبه • وقد ارسل من جديد مبعوثين اليه بهذا الشأن • وكان الجنرال قد نقل الخبر الى الدوق دومال ، الحاكم العام الجديد ، الذى حدث ان كان بالجوار • وعندما اتصل لاموريسيير برسالة عبد القادر كتب الى سموه ما يلى :

« لقد كنت مضطرا ان التزم بتعهدات • اننى فعلت ذلك وانا واثق من ان سموك والحكومة ستوافقون على تعهداتى اذا قبل الامير كلمتى •

« اننى الآن ممتط جوادى فى طريقى الى الدائرة • وليس لى الوقت ان ارسل اليكم نسخة من الرسالة التى اتصلت بها من الامير او نسخة من جوابى عليها • ويكفينى ان اذكر باننى **وعدت ، ووافقت** (اصل) على ان يؤخذ الامير وعائلته الى عكا او الاسكندرية • ولم اذكر سوى هذين المكانين • وهما اللذان ذكرهما فى مطلبه واللذان قبلتهما » •

لم يكن لعبد القادر الآن ما يخشاه او يؤخره اذ فى حوزته موافقة مكتوبة وهى تتماشى تماما مع شروطه الخاصة•وفى صباح اليوم الثالث والعشرين من ديسمبر تابع سيره ، متبوعا بالقواد والاتباع الذين قرروا ان يشاركوه

---

1) فكرة الشرعية اقرها مؤتمر فيانا بعد سقوط نابليون ، وتعنى « عودة الامور الى نصابها، » واعادة المتضررين بحكم نابليون الى مراكزهم • وقد كان لها مفعول قوى لا فى فرنسا فقط ولكن فى اوروبا عامة •

حظوطه حتى في بلاد اجنبية ، الى زاوية المرابط سيدى ابراهيم • وهناك استقبله العقيد مونتوبان Montauban على راس كوكبة من 500 فارس ، بكل تبجيل وتقدير واعتبار يليق بمكانته السامية ، وبذكريات اعماله المجيدة في الماضى ، وبمشهد نكبته الشديدة القاسية فى الحاضر •

وطلب عبد القادر ان يؤذن له بالدخول الى حرم الزاوية • وعندما استجيب طلبه ترجل ، وبوصوله الى الباب نزع سيفه وسلمه الى احد المرافقين له • ان دوره العسكرى قد انتهى • حتى الآن كانت حياته مكرسة لخدمة الله ووطنه • ومنذ الآن سيكرس حياته لله وحده • وبعد ساعة قضاها فى الصلاة خرج ، فواصل الركب كله السير •

وفي السادسة مساء وصل الركب جامع الغزوات، حيث مقر قيادة الدوق دومال • وبعد بضع دقائق توجه عبد القادر ، مصحوبا بالجنرال دى لا مورسيير ، والجنرال كافانياك ، والعقيد بوفور Beaufort للمثول امام سموه• وبعد دقيقة صمت فاه بالكلمات التالية :

« لقد كنت ارغب ان افعل ما افعله اليوم منذ مدة ، لكنى انتظرت الساعة التى شاءها الله••ان الجنرال قد اعطانى وعدا وانى اعتمد عليه تمام الاعتماد• وانى لست أخشى أن يخلفه ابن ملك عظيم مثل ملك الفرنسيين » •

وفى كلمات قليلة لكن واضحة وصريحة وعد الدوق بان كلمة الجنرال وتعهداته يجب الوفاء بها قطعا • ثم انسحب عبد القادر وعاد الى الدائرة التى التحقت اخيرا بالمعسكر الفرنسى •

وفى صباح اليوم التالى عقد الدوق دومال استعراضا • ووقف عبد القادر ، الذى كان ممتطيا جوادا عربيا اصيلا ومحاطا بقواده ، ينتظر عودة الدوق من الميدان • وعند اقتراب سموه ترجل عبد القادر وتقدم الى جانبه وقال له : « اننى اقدم اليك هذا الجواد الذى هو آخر جواد امتطيته • لقد كان جوادى المفضل ولكن يجب ان نفترق الآن • انه عنوان اعترافى، وانى ارجو ان يحملك دائما الى النجاة والسعادة • فرد عليه الدوق : « اننى اقبله باعتباره اكراما لفرنسا ، البلد الذى ستمتد حمايته اليك منذ الآن ، وعلامة على ان الماضى قد نسى » •

وفى اليوم الخامس والعشرين من ديسمبر ، سنة 1847 ركب عبد القادر وعائلته واتباعه السفينة اسمودس Asmodeus التى توجهت بهم الى

طولون • وكانت السلطات الفرنسية قد باعت كل ممتلكاته الشخصية ، حقائبه وخيامه وجياده وبغاله وابله ، بمبلغ 6،000 فرنك • ولكن حتى هذا المبلغ الطفيف لم يتصدق به عليه الا مقسطا ، بل ان تحقيقا دقيقا قد اجرى للبحث في الطريقة التي صرف بها كل قسط •وصعد معه الجنرال لاموريسير السفينة ومنحه بسخاء هدية من 4،000 فرنك ، وفي مقابل ذلك اعطاه عبد القادر سيفه •

وعمت انباء استسلام عبد القادر فرنسا بحماس طاغ من الفرح والانتصار• ان الجزائر يمكنها ان تسمى الآن بحق « مستعمرة فرنسية » • وقد نوهت جريدة المونيتور Moniteur في عدد الثالث من يناير ، سنة 1848 بالخبر السار هكذا : « ان اخضاع عبد القادر هو حادث في غاية الاهمية لفرنسا • انه يؤكد طمأنينة احتلالنا • انه يسمح لنا ان نخفض من عدد الرجال والنقود التي كنا نرسلها الى افريقية منذ سنوات طويلة • وهو يساهم ، من هذه الحقيقة وحدها ، في تدعيم قوة فرنسا في اوروبا • **ففرنسا تستطيع اليوم ، اذا دعت الضرورة ، ان تنقل المائة الف رجل التي تستخدمها للاحتفاظ بالاهالي المقهورين تحت نيرها الى مناطق اخرى** »

فاى اعتراف في هذه الكلمات بعبقرية وسمو رجل واحد !

الفصل الواحد والعشرون

(1848-1847)

وصل عبد القادر الى طولون في الاسبوع الاخير من شهر ديسمبر ، سنة 1847 • وكان يظن ان بعض الساعات او على اكثر تقدير بعض الايام ستكفي لاية استعدادات قد تكون ضرورية لتسهيل رحيله الى الشرق • وقد دعي للنزول من السفينة ، دون ان تتخذ اية تحضيرات ، مهما كان نوعها ، لاستقباله •

وبدلا من ذلك قيد هو وعائلته واتباعه ، الذين بلغوا جميعا ثمانية وثمانين شخصا ، الى قلعة لا مالق Lamalgue واندهش عبد القادر من ذلك واحتج ضده • غير انه اخبر بان لا يخاف من شيء • وقيل له ان بعض الوقت ما زال ضروريا للحصول على جواب من الحكومة التركية اذا كان سيذهب الى عكا او من الحكومة المصرية اذا كان سيذهب الى الاسكندرية • وقيل له ايضا انه عندما ياتي هذا الجواب سيسمح له بالاتجاه نحو وجهته •

وفي اليوم التالي لسجنه طلب ضابط فرنسي مقابلة معه • فقد جاء الجنرال دوماس (1) Daumas مكلفا رسميا من ملك الفرنسيين ، ان يتقدم اليه باسخى العروض اذا رضي فقط ان ينسى الوعد الرسمي الذى اعطاه له الجنرال لاموريسيير والدوق دومال عندما استسلم • فعرض عليه مكانة مرموقة في فرنسا ، قصر ملكي وحرس شرفي وكل الابهة والحاشية الجديرة بامير •

---

1) عين حارسا على الامير اثناء مقامه في قلعة لامالق • وقد ترك بعض الملاحظات عن زمالة الامير جمعها من افواه مرافقيه • وكان مهتما بالشؤون العربية ، وعينته فرنسا قنصلا لدى الامير بعد معاهدة التافنة (1837) • انظر المقدمة •

وكان عبد القادر يستمع الى الاقتراح المخزى فى صمت غاضب • وعندما الح عليه فى الرد انطلقت اساريره وركز عينه التى كانت كعين النسر على صديقه القديم وقال بعاطفة : « الم تعد تعرفنى ؟ ماذا ؟ هل هو انت الذى تتكلم معى هكذا ؟ ان مواهبك الدبلوماسية ، التى لا اشك فيها ، مفيدة جدا لفرنسا ، ولكنى انصحك بان لا تستعملها معى بهذه الطريقة غير المجدية » •

ثم اخذ طرف برنسه بكلتا يديه ومال نحو النافذة وقال بصوت حاد : « لو كنت ستاتى الى ، باسم ملكك ، بكل ثروات فرنسا ملايين والماسا ، وكان يمكنك ان تضعها جميعا فى طرف برنسى فاننى افضل ان ارمى بها جميعا فى الحال فى هذا البحر الذى يغسل جدران سجنى على ان اعيد اليكم الوعد الذى اعطى الى منكم رسميا • اننى ساحمل معى ذلك الوعد الى قبرى• اننى ضيفكم • فاجعلوا منى اسيرا اذا شئتم ، ولكن الخزى والعار سيلتصقان بكم وليس بى » •

وقد سئل ما اذا كان يرغب فى الذهاب الى باريس ، فاجاب « اننى اعلم ان ابراهيم باشا (2) قد زارها واعجب بغرائبها • ولكن فرنسا بالنسبة اليه كانت ارض الكرم • انه كان حرا ! اما بالنسبة لى فان كل فرنسا زنزانة لى طالما ظللت اسيرا • انه ليست لى رغبة فى ان اكون ضحية متوجة باكاليل الزهور » •

وكان عبد القادر صابرا ومسلما امره لله • وقد نشر فى اتباعه نفس الروح • فهم حتى الآن كانوا رعاياه متعودين الا يقتربوا منه الا بالتبجيل والاحترام الضروريين للملوك • اما الآن فهم اصحابه • وقد حطمت النكبة المشتركة كل الحواجز • فوضع كل وسائله المتواضعة تحت تصرفهم ، وكان سعيدا ان استطاع ان يساهم فى تلبية حاجاتهم او يرفع عنهم مشاقهم • وقد قال « فى الوضع الذى انا عليه الآن يجب على ان افعل ما فعل اجدادى• فلم يعد فى مقدورى ان اقول « فرسى ، وبرنسى ، وبضاعتى ، بل فرسنا وبرنسنا ، وبضاعتنا » •

وذات يوم جاءه الجنرال دوماس زائرا • وكان ذلك فى عنفوان الشتاء • وكان عبد القادر بلا تدفئة • فعبر الجنرال عن استغرابه • فقال عبد القادر « ان حطبى قد نفد بالامس ولم استطع ان اسال اصحابى ان يوفروا لى بعضا

---

2) كان العضد الايمن لوالده ، محمد على والى مصر، فى جميع خططه فى الشام والجزيرة العربية والسودان وقد عينه والده حاكما على الشام مدة حوالى عشر سنوات (1830 — 1840) •

مما عندهم . انهم مساكين ! اننى بدل ان آخذ منهم ارغب ان يكون فى استطاعتى دائما ان امنحهم » . فلاحظ له الجنرال دوماس قائلا : « انك اذن لست مثل اولئك القواد الذين يبدو انهم يجدون لذة فى استنزاف شعبهم » . فكان رد عبد القادر : « لو كنت اشبه هؤلاء الحكام هل كان فى استطاعة العرب ان يستمروا فى مقاومتكم كل تلك الفترة وان يضحوا بكل شىء فى سبيل دعمى ؟ » .

ومرت الايام تترى دون ان يأتى امر باطلاق سراحه . وهزت روحه مخاوف وشكوك مؤلمة . فهو مرة يؤكد له العقيد بوفور ، الكاتب العسكرى الخاص للدوق دومال ، باسم الدوق ، ان الملك عازم على تنفيذ الاتفاق الذى اتفق معه عليه . واخرى يخبرونه ان مجلس النواب قد طعن فى صلاحية هذا الاتفاق .

وفى الثامن والعشرين من فبراير ، سنة 1848 وصلت الى عبد القادر اخبار الثورة ، وتنازل الملك ، واعلان الجمهورية . وفى الحال رأى الاهمية العظمى لهذا الحادث على مستقبله وشعر شخصيا انه لعبة فى يد حظ غريب الاطوار . فليس بينه وبين الحكومة الجديدة اية علاقة . ولم يعد فى استطاعته ان يتكلم باسم المعاهدات والشرف والوفاء بالوعود . وشعر انه لا يمكنه ان يتوقع عملا كريما عندما فشل فى الحصول على عمل عادل .

وكان السقوط المفاجىء للملكية ، التى كان من المفروض حتى ذلك الوقت انها قائمة على قاعدة قوية وثابتة ، هو الحادث الملائم فى نظره . وتكلم لمن حوله عن عدم قيمة واستقرار العظمة الانسانية . وقد قال للجنرال دوماس : « انظر ، انظر الى سلطان كان فى كل مكان قويا وعظيما ، وكان قد عقد الاحلاف مع دول اخرى ، وله عائلة كبيرة تحفظ نسله ، وكان شهيرا بالحكمة والتجارب ! ومع ذلك فلم تأخذ الاطاحة به اكثر من يوم . السست على حق حين اعتقد ان ليس هناك قوة حقيقية اخرى ولا حق ولا واقع آخر سوى ارادة الله ؟ صدقنى ان هذا العالم ليس سوى جيفة لا تتشاجر عليها الا الكلاب » .

وزاره فى احدى المرات السيد أوليفى Olivier الوكيل العام للحكومة المؤقتة . ان الجمهورية العظيمة رأت من اللائق التفكير فى اسيرها . ولكنها لم تقترب منه كبطلة عازمة بشهامة ان تنقذ الشرف الفرنسى، ولكن كمتخاذلة مرتجفة من الاسم السحرى الذى اصبح ، حتى بعد ان سقط ، علامة شؤم على

السيطرة الفرنسية • فقد سئل عن الضمانات التي يمكن ان يقدمها لفرنسا بانه لن يظهر من جديد في الجزائر •

فاجاب : « ليس لي ضمانات اخرى اقدمها عن موقفي الذي لا يتزعزع عن المستقبل اكثر مما قدمت • فلو لم ارغب في الاستسلام لما كنت اليوم هنا • لقد جئتكم عن حرية وارادة • وهذا الضمان يعادل كل الضمانات الاخرى » ولكن الوكيل اوليفي قال له : « هل توقع بيدك ، وهل القواد الذين معك يوقعون بأيديهم ايضا ، على وثيقة تقسمون فيها على القرآن تعلنون فيها رسميا انكم لن تظهروا ابدا مرة اخرى في الجزائر او تتدخلوا في شؤونها مباشرة او غير مباشرة من قريب او من بعيد ؟ » فقال عبد القادر : « اني مستعد ان اوقع هذه الوثيقة بعيني اذا لم تكف يدي » • ثم سئل عبد القادر ان يكتب رسالة الى الحكومة المؤقتة يضمنها وثيقة بذلك المعنى • فكتب وارسل الخطاب التالي :

« الحمد لله وحده الذي لا يدوم الا ملكه •

الى الساهرين على الجمهورية التي تحكم فرنسا والذين هم بالنسبة اليها ، كالعينين والجوارح للجسم • لقد جاء لزيارتي وكيلكم السيد اوليفي • واخبرني بان الفرنسيين قد الغوا الملكية بالاجماع وقرروا ان تكون بلادهم منذ اليوم جمهورية •

« لقد فرحت بالانباء لانني قرأت في الكتب ان هذا الشكل من اشكال الحكم يهدف الى القضاء على الظلم ومنع القوى من الاستبداد بالضعيف • انكم قوم كرماء ، ترغبون في الخير للجميع ، ومن المتوقع ان تكون اعمالكم من وحي روح العدل • ان الله قد اختاركم لتكونوا حماة البائسين والمحزونين • لذلك انظر اليكم على انكم حماتي الطبيعيون • فانزعوا عني ثوب الحزن الذي وقع علي • انني انشد العدل على ايديكم •

« انه ليس فيكم من يستطيع ان يستنكر العمل الذي قمت به • لقد دافعت عن وطني وديني ما استطعت • وان نفسي تحدثني بانكم ، كرجال شرفاء ، لا يمكن الا ان تقدروني على ذلك • وعندما غلبت على امري ـ اى عندما لم يعد عندي مجال للشك في ان الله ، لاسباب لا يعلمها الا هو ، قد سحب مني تأييده ـ قررت ان انسحب من الدنيا • وعندئذ كان في امكاني ان اجد ملجأ مع الراحة

والاحترام بين البربر ، او قبائل الصحراء ، ولكنى رضيت ان اضع نفسى فى ايدى الفرنسيين •

« وكنت مقتنعا بانهم عندما وعدوا بذلك انهم سيأخذوننى الى البلاد التى علنت لهم عن رغبتى فى الذهاب اليها • لقد كان هذا الاقتناع هو الذى جعلنى اختار فرنسا لوضع ثقتى ، لان كلمة فرنسا تعتبر الى اليوم كلمة نافذة • وقد طلبت من الجنرال لاموريسير ان اذهب الى الاسكندرية دون التوقف بوهران او مدينة الجزائر او اى ميناء فى فرنسا •

« وهو لم يكتف بالموافقة الشفوية على هذا الطلب ، بل ارسل الى رسالة يضمن فيها رسميا تحقيق رغبتى ممضاة بالفرنسية وعليها خاتمه بالعربية • وعندما وصلتنى هذه الرسالة سلمت نفسى اليه اعتقادا منى بان كلمة فرنسا هى كلمة **واحدة** (اصلى) • وقد اهتز هذا الاعتقاد فى الوقت الحاضر • فثبتونى عليه باعطائى حريتى • انكم حققتم عملا يعد بالسعادة للجميع • فلا تدعونى فردا مستثنى من هذا الجميع •

« وطالما قلت لنفسى ، لو ان الفرنسيين اسرونى فى معركة لعاملونى معاملة حسنة ، لانهم قوم شجعان وكرماء ويعرفون كيف يقيمون التوازن بين الغالب والمغلوب • حسنا ، اننى لم اكن قد اخذت اسيرا • لقد سلمت نفسى بارادتى الحرة • ان بعضكم قد يتصور باننى نادم على الخطوة التى خطوتها واننى اخفى نوايا العودة الى الجزائر • ان ذلك لن يكون ابدا • ومن الممكن فى الواقع اعتبارى من الموتى • وكل رغبتى تتمثل فى السماح لى بالتوجه الى مكة والمدينة حيث اعبد الله جل جلاله الى ان يحين اجلى •

« واقبلوا تحياتى •

عبد القادر بن محيى الدين

9 ربيع الاول ، سنة 1264 — مارس ، 1848 »

ومع هذه الرسالة بعث بالوثيقة التى طلبت منه موقعة بيده وهى هكذا :

« الحمد لله وحده ،

« اننى اعطيكم وعد شرف لا يمكن ان يتطرق اليه الشك • واعلن اننى منذ اليوم لن اثير الاضطرابات ابدا ضد الفرنسيين سواء شخصيا او عن

طريق الرسائل او بأى وسيلة اخرى مهما كان نوعها . انني اقسم على ذلك أمام الله بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وابراهيم وموسى وعيسى وبكتب موسى والانجيل والقرآن. انني اقسم هذه اليمين بقلبي ويدي ولساني .

« وهذه اليمين ملزمة لي ولاصحابي الذين عددهم مائة ونيفا ، وهي ملزمة لاولئك الذين وقعوا هذه الوثيقة والذين لم يوقعوها لعجزهم عن الكتابة .

« تحية من عبد القادر بن محيى الدين » .

وقد شعر عبد القادر ان هذه الوثائق التي طلبت منه رسميا ستبرهن في الحال على انها مقدمة لاطلاق سراحه . وكان يستقبل فجر كل يوم على انه بشارة الحرية . واخيرا وصل الجواب الذى طال انتظاره له . وفتحه بفارغ صبر . فكان مضمونه ان « الجمهورية لا ترى نفسها مقيدة بأى التزام لعبد القادر وانها تعتبره كما تركته الحكومة السابقة اسيرا » .

وطعنت هذه السخرية اللاذعة عبد القادر في الصميم فانحدر الى حضيض اليأس والقنوط . واعلن ان الحياة كانت حملا ثقيلا عليه . وعندما حاول الجنرال دوماس ان يسرى عنه ببعض الكلمات ، اجابه بصرامة حزينة : « كيف يمكنك ان تعجب من ان ينهار صبري امام عظمة نكبتي ؟ ان عائلتي واتباعي في يأس . وان والدتي المسنة ونساء بيتي ينتحبون ليلا ونهارا ، ولم اعد احمل اليهم الامل الذى اعتدت ان احمله اليهم .

« ماذا اقول ؟ ليس النساء فحسب بل ان الرجال ايضا قد اطلقوا العنان للبكاء ، ان حالتهم اصبحت على درجة من السوء تجعلني اعتقد انه اذا طال اسرنا فان كثيرا منهم سيقضون نحبهم . وانني انا السبب في كل ما حل بهم من شقاء ! فانا الوحيد الذى اصررت على التسليم للفرنسيين . وليس من بينهم من رضى بذلك عن ارادة . لقد جعلتم مني في الواقع رجلا خداعا . وهم الآن جميعا يؤاخذونني على ثقتي فيكم .

« اليس في فرنسا محكمة مكلفة خصيصا بسماع صيحات وشكاوى المظلومين اجمعوا جميع علمائكم وساقوم باقناعهم بشرعية قضيتي . آه ! ان الجمهورية تختلف تماما عن ذلك السلطان الذى شوهد ينتحب بعد ان اصبح اصم ، والذى اجاب عندما سئل عن سبب دموعه : انني ابكي لانني لم اعد قادرا على سماع شكاوى المضطهدين والمحزونين » .

وجاء الامر بنقل الاسرى الى قلعة بـو Pau ، التى وصلوها فى العشرين من ابريـل سنـة 1848 • واتصلت السلطـات باخبـار مفادهـا ان عمـلاء انكليز كانوا بالقرب من المكان لتسهيل عملية فرار عبد القادر ، فـوضعت القضبان الحديدية على جميع نوافذ القلعة • وكان الحراس يقفون تحتها ليلا نهارا •

وكان عبد القادر يبتسم فى نفسه على كل هذه الاحتياطـات • ان فتـرة الارتقاب القلق قد انتهت • فقد شعر انه سيكون اسيرا مدى الحياة واسلـم امره للقدر يفعل به ما يشاء • ووضع رقابة ذاتية تضبط عواطفه التى كانت حتى الآن ثائرة • وعادت عظمة نفسه الى سموها المعتاد • ان رجلا يمتلـك الطاقة العقلية والموارد التي لعبد القـادر لا يمكـن ان يشعـر بـالـوحشة والانفرادية • ولكن العالم الخارجى قد اصبح يضغط عليه • وقد قبل ضغطه كواجب اكثر منه كلذة • فقد تزاحم الناس عليه من كل انحاء فرنسا يطرقون عليه ابواب القلعة • وتنافس عليه رجال السياسة والدبلوماسية والعسكرية، تحدوهم مشاعر مختلفة من الفضول والشفقة والاعجاب ، كلهم قدموا لاكرام الاسير الجليل فى نكبته • وكان عبد القادر مضطرا للقيام باستقبالات رسمية تدوم احيانا بضع ساعات •

وجميع اولئك الزوار كانوا قد اخذوا بسمو واصالة آرائه ودقة ملاحظاتـه وحرارة تحياته • وفوق كل شىء كانوا مندهشين ان يجدوا انه لم يكن يوبخ اولئك الذين كانوا السبب فى محنته القاسية ، بل لقد كان يجد لذة فـى التماس العذر لهم على تصرفهم ويسعى لتخليصهم من مسؤولية خيـانتهـم وعارهم •

كان الجنرال دوماس مرافقه الذى لا يتخلف • وان انطباع هذا الجنرال عن عبد القادر يمكن اخذه من الرسالة التالية التي وجهها الى السيـد دوبـوش Dupuch اسقف مدينة الجزائر ، وهي : « انك ستشاهد سجين قصر بو الشهير • اوه ! انك بالتأكيد لن تندم على زيارتك له • انك عرفت عبد القادر فى ايام عزه ، عندما كانت كل الجزائر تقريبا تعترف بحكمه • حسنا ، انك ستجده اعظم واجل فى محنته منه فى عزه • انه ما يزال ، كما عرف عنـه ، يسمو الى اعلى الدرجات •

« انك ستجده معتدلا بسيطا جذابا متواضعا ثابتا لا يشكو ابدا ، معتذرا لاعدائه ـ حتي اولئك الذين مازال يمكن ان يعانى عـلى ايديهم كثـيرا ـ ولا

يسمح ابدا ان يذكروا بسوء في حضرته • ورغم انه قد يشكو عن حق من المسلمين او المسيحيين فانهم سواء يجدون منه الصفح • فهو يلقى تبعة الاولين على الظروف ، وتبعة الآخرين على امن وشرف الراية التي حاربوا تحتها • انك في ذهابك لزيارة هذه الشخصية النبيلة السامية ستضيف عملا آخر صالحا الى اعمالك الاخرى التي اصبحت حياتك متميزة بها » •

ان الاسقف المسيحي والقائد العربي كانا منذ امد طويل مرتبطين برباط مشترك من اعمال الرحمة والصلاح • وكان عبد القادر قد اختار شريكه العظيم في ملتقى سيدى خليفة كمستودع لافكاره وتأملاته ، وكانت مراسلاته مع الاسقف لا تنقطع وبلا فتور (3) •

وقد كتب له اخيرا : « لعلك اكتشفت من خلال حديثنا انني لم اولد لاكون محاربا • ويبدو لي انه كان يجب على ان لا اكون محاربا ولو يوما واحدا • ومع ذلك فقد حملت السلاح طيلة حياتي • ما اكثر غموض مغيبات القدر ! ولم يكن سوى محض الصدفة ان وجدت نفسي بعيدا تماما عن الدور الذي حدده لي ميلادي وتربيتي وميولي، وهو الدور الذي، كما تعلم جيدا ، طالما تشوقت لاستئنافه والذي لم ازل أصلي الى الله ان يسمح لي بالعودة اليه ، الآن وانا في خاتمة حياتي الشاقة » •

ان تسجيل كل الآراء والذكريات التي قام بها عبد القادر نحو العديد من الزوار يتطلب في نفسه مجلدا ضخما • فلم يغادره احد دون ان يحمل معه ويختزن منه بعض الذكريات اللذيذة عن لطافته وذكائه البارع • وذات يوم اكد له محام بارز تعاطف احد رجال السياسة ذوى النفوذ القوى معه • فاجابه عبد القادر : « اعتقد ان في قلبه قليلا من حرارة الود نحوى ولكن لا تدع هذا يمنعك من مده احيانا بالوقود » •

وعندما كان ذات يوم يصافح يد قسيس ويد ضابط في نفس الوقت لاحظ : « انني احب هذه الزيارات وهذه الوجوه لان المرء يعرفكما من اول وهلة - ان زيارتكما تمثل شكلا مزدوجا للنفوس المؤمنة والقلوب الكريمة » •

وذات مرة قال لمجموعة كبيرة من الزوار : « انني ارى حولي اناسا طيبين ودودين وجدوا لذة في تمجيد المزايا القليلة التي بسطها الله على • ولكنني

(3) مراسلاته مع دوبوش قلما اشار اليها الكتاب ، ولعلها ، لو وجدت ، تكون مصدرا هاما لفهم روح الامير الدينية والإنسانية • انظر المقدمة •

اخشى ان لا يوجد هنا صديق حقيقى يخبرنى عن عيوبى التى هى اكثر بكثير من المزايا » ٠

وقد قال له رئيس اساقفة مدينة تور : « اننى كثيرا ما اخشى عليك عندما افكر فى قسوة طقسنا » ٠ فرد عليه عبد القادر : « حقا ان طقسكم بارد، ولكن حرارة استقبالكم تجعلنى انساه » ٠

وصادف مرة ان استقبل عقيدا على راس مجلسه العسكرى فقال له : « اننى اشكرك ايها العقيد ، اننى متأثر كثيرا لزيارتك وزيارة رفاقك الشجعان ٠ لقد حاربتمونى بشجاعة فى افريقية وغلبتمونى ٠ تعالت حكمة الله ! ان زيارتك الآن تظهر لى انكم تعتقدون اننى ايضا قد قمت بواجبى ، وانكم افضل من يحكم على ذلك ، اننى اشكرك مرة اخرى ٠ ومهما كان الامر، ودون الاشارة الى اى احد بالذات ، يجب ان يكون فى الجيش الفرنسى كثير من الضباط الذين عليهم ان يكونوا معترفين لى بالجميل ما دام كثير من العقداء كانوا ما يزالون ، لولاى ، ضباطا صغارا ، وكثير من الجنرالات كانوا مايزالون عقداء » ٠

وقد عبر عن نفسه بكرم الى رجل دولة قائلا « اننى لم اثر لتاخير تنفيذ الاتفاق بينى وبين الجنرال لاموريسير ٠ اننى اعرف جيدا انه فى الوضع الراهن لفرنسا ليس من المناسب ولا من اللائق بى ان الح كثيرا على الموضوع٠ اننى لا اطلب سوى ان لا يهمل الموضوع وقتا طويلا » ٠

وتقدمت اليه بعض السيدات بباقة جميلة من الزهور فخاطبهن بالعبارات الشرقية التالية : « اننى بالنظر الى هذه الباقة وشم عطور هذه الزهور الجميلة الكثيرة فكأننى انظر الى رمز قلوبكن واتنفس عبقها الشذى » ٠

ولكن استمرار الزيارات قد اتعبه فى النهاية ٠ فطلب تحديد ساعات الاستقبال ٠ وقد شاهد جميع الزائرين هدوء وابتهاج سرائره بتعجب واستغراب ، ولكن من يستطيع ان يسبر غور المعاناة الداخلية الصامتة لتلك النفس الجادة الثائرة التى استهلكت نفسها لدرجة العياء خلال خمس عشرة سنة فى دفاع شجاع من اجل استقلال وطنها ، والتى لم ترض بالتخلى عن المعركة المقدسة الا لكى تنقذ المنازل الاهلية ، والتى هى الآن ، بعيدة عن كل من المنزل والوطن ، ترى ان اعز شىء لديها ينحدر تدريجيا تحت التمزق البطىء المتواصل للاسر والمنفى ؟ ٠

ومع ذلك ، فكلما حاول الاسير الشهير ان يقوى نفسه بالتمارين الدينية والرياضة الروحية التى كانت دعامته وقوته طيلة حياته ، كانت مياه الحزن سبجس من حوله • وعبثا كان يسعى لاستعطاف السماء بالتوبة التامة ، باقسى انواع النداء والصلوات المواظبة • فكان يبدو كان هناك قدرا لا يرحم مرسلا لابقائه في قبضة يده الحديدية • وكان الموت ينتزع منه يوميا تقريبا اعز الناس اليه •

ولم تكد عيناه تجفان من دموع النحيب على بعض اصحابه المخلصين الذين قضوا نحبهم بين يديه ، حتى تترقرقان بقلق حاد على اولئك الذين مايزال يراهم امامه منهارين تحت الضربات القاسية من المرض والانقباض والقنوط • فبعد ان انتهى من البكاء على ابنه ، وابنته وابن اخ كان يعد بمستقبل باهر ، ها هو يرتعد لوالدته وحماته اللتين كان سنهما المتقدم والمرض قد جعلهما تبدوان الضحيتين التاليتين •

ورغم كل هذه المحن القاسية فان عبد القادر قد حافظ على رصانة لا تهتز في مظهره وسلوكه • فلم تتوقف كلماته عن تنفس روح المجالدة البطولية • وذات مرة آخذه احد المعجبين به على تقشفه الورع • فاجابه بابتسامة حزينة . « لماذا ، لماذا تحسدني في عزائي واملي في ادعيتي التى اصبحت اقل قيمة عند الله الذي اليه اوجهها من صميم قلبي ، والذى عساه ، مع ذلك ، ان يستجيب لها ، في يوم من الايام ، من ملكوته العلوى ؟ » وكان يبدو في طبيعة ايوب عندما اضاف : « رغم انه يضحى بى فانني مع ذلك اضع ثقتي فيه » •

بمثل هذه البساطة التى تشبه بساطة القديسين ، وهذا التواضع ، وهذا اللطف والنبل الذى كاد ان يكون انثويا ، مجتمعة كما كانت مع مزايا كمزايا الاسد ، التى تمجد وتبجل طبيعة الرجولية ، قد جعلت جميعا منه مثالا حيا للعظمة المعنوية والطبيعية اثار دون اختيار تقديسا وتعلقا حماسيا به • وان التاثير الخارق الذى تركه على كل من حوله ، سواء كانوا ملوحين بآلاف السيوف المشرعة اللامعة من حوله اثناء القيادة او كانوا في سجن مظلم ، يشهد على الولاء الكبير له والتعلق الذى كان يتمتع به لديهم •

ان عبد القادر قد غادر الجزائر الى الابد ، ولكن الوقع السحرى لاسمه قد ظل ، بل ظل الى هذا اليوم•فعندما زار بعض القواد العرب ، بعد استسلام

السلطان ، اصطبلات السلطات الفرنسية فى مستغانم ، كان اخر شخص ربما يخطر فى عقول الفرنسيين هو عبد القادر ، الذى كانوا قد تخلصوا لحسن الحظ من حضوره الذى كان شؤما عليهم · ولكنهم رأوا، وهم مندهشون القواد العرب يرمون انفسهم بعصبية على حصان فحل عظيم الجثة اسود اللون يقبلونه فى الرقبة والاكتاف بل والاخفاف ، لقد كان ذلك هو حصان عبد القادر · والعبارة التى كانوا يرددونها والتى كانت تعبر عن مشاعرهم الطاغية « لقد حمله ! لقد حمله ! » ولم يبعدوا عنه الا بشق النفس ·

وعندما نظر قارة محمد ، الذى كان سائس اصطبل عبد القادر ومصاحبه الذى لا يتخلف فى جميع معاركه ومخاطره ونكباته ، حارسا فى باب القصر كان ما يزال يرتدى الزى الملكى لم يستطع ان يتمالك نفسه وقال « ماذا ! ان سيدك (4) فى انكلترا وانت هنا ! فلو كنا مكانك لقطعنا الجبال والبحار لنتبع سيدنا الى اطراف الارض · فبعد ان ظلنا منافعه اصبحنا مرتبطين اليه فى الحياة والموت » ·

ورغم كل جهود عبد القادر وتثبيته فان اتباعه قد انساقوا وراء اليأس والقنوط · انهم ابناء الصحراء الذين كانت منازلهم هى سهول الصحراء غير المحدودة وحدودهم الوحيدة هى الافق البعيد · وها قد اصبحوا الآن يذبلون ويسقمون فى مأواهم الجديد المخيف · ان الحديد قد نفذ الى الروح ·

واخيرا جاء الامر باطلاق سراحهم · وكان حامل هذا النبأ يتوقع ان يجد ترحيبا كبيرا بالابتهاج والسرور · ولكنهم جميعا اجابوا بصوت واحد « لا ، لا ! ما دام **هو** (اصلى) اسيرا فانه لا احد منا سينفصل عنه ! » فكان الجواب « ولكن سيدكم سينقل الى قلعة اخرى حيث ستكونون فى حدود اضيق من التى لديكم اليوم » فردوا عليه بصوت واحد « ذلك لا يهم ، وماذا سيحدث ؟ اننا مستعدون لمحنة اكثر اذا كان ذلك ضروريا · اما التخلى عنه فى نكبته، فهذا لن يكون » ·

وفى شهر جوان ، 1848 عين الجنرال لامورسيير وزيرا للحرب · فتوقع عبد القادر بالتاكيد قرب اطلاق سراحه · فالرجل الذى كان قد اعطاه الوعد هو الآن فى السلطة · ولكن عبد القادر شعر انه قد يترك للاهمال امام ضغط الاحداث العامة · فاسرع اذن بتوجيه رسالة الى الجنرال طالبا فيها منه ان

---

4) يقصد الملك لويس فيليب الذى لجا بعد سقوطه الى انكلترا ·

ينقذ شرفه الشخصى ، بالاضافة الى الشرف القومى لفرنسا • ولكن مرت ايام واسابيع وشهور دون جواب •

حافظ عبد القادر على ثباته المعتاد ولكن اصحابه الجزائريين اصبحوا ساخطين • فنسجوا مؤامرة للوقوع على الحراس وقتل العدد الممكن منهم وتذوق حلاوة الثأر فى حركة يائسة من التضحية ، ما داموا هم غير مسلحين• وقد قالوا فيما بعد « اننا لم نفكر فى الهروب ، بل كنا نريد ان نموت حتى يبقى دمنا عارا ابديا لفرنسا ، على قدر ما يسيل منا ، من اجل المطالبة بالوفاء بالوعد الذى اعطى لسيدنا » • وكان عبد القادر ، الذى اخطر فى الحين بهذه خطة الجنونية ، قد تدخل فى الوقت المناسب لاحباطها •

وقد علم بها ايضا وزير الحربية نفسه • وكان يخشى العاقبة السوداء • فارسل ضابطا الى الاسرى اليائسين الممزقين عذابا يعرض عليهم الحرية • فردوا عليه بالجواب النبيل السامى الذى سبق ذكره • وفى الثانى من نوفمبر، سنة 1848 رافقوا عن اختيار سيدهم المفدى الى قصر امبواز Amboise

وكان قد سبقهم الى هذا المكان امر ، وهو انه لا عبد القادر ولا اى من اتباعه مسموح له ان يتحادث او يتصل مع احد من الخارج ، ولم يكن مسموح لهم ايضا ان يتصلوا ولا ان يكتبوا الرسائل • حتى امتياز استقبال الزوار بحرية قد اخذ منهم • وليس هناك اى طلب للزيارة يحظى بالموافقة دون اذن خاص من وزير الحربية •

وقد كان صاحب التوقيع على هذا الامر هو « دى لامورسيير ! »

الفصل الثاني والعشرون

(1853 - 1848)

رغم ان حكومة فرنسا الجمهورية قد وافقت على الاستمرار في هذا العمل الذي هو خرق صارخ للاتفاق مع عبد القادر ، فان رئيس الجمهورية قد رفع صوته لانقاذ قضية الحق والعدل • ففي الرابع عشر من يناير ، سنة 1849 ، اى بعد اربعة وعشرين يوما من انتخابه للرئاسة ، دعا لويس نابليون الى اجتماع خارق لدراسة الموضوع •

وقد دافع عن قضية الاسير باحر العبارات • واصر على ان الاستسلام كان اختياريا ، وعلى انه كان اعتمادا صريحا ونبيلا على الشرف الفرنسي من جهة وعلى الوعد الذى وعد به والاتفاق الذى وقع من جهة اخرى • ان هذه اللغة الصادرة عن وريث اسير سانت هيلينة St. Helena الشهير (1) كان لها اكثر من وزن الاحتجاج ، بل ان لها ، من بعض الوجوه ، قداسة الذكرى • ورغم تأييد بوجو وشانغارني فان راى الرئيس قد هزم • فوزير الحرب ، الجنرال روليير Rulhière رفض تحمل مسؤولية الموافقة على اطلاق سراح عبد القادر ، وعارض بنجاح هذه الخطوة •

وتحركت في المارشال بوجو مشاعر التقدير والشفقة على خصمه الاسير فكتب الى عبد القادر رسالة يقترح فيها عليه حلا يضمن له وجودا مريحا بل يغبط عليه ، بينما يخفف عنه الاحساس الحاد بالاسر :

« انني آمل ان تقرر ان تتبنى فرنسا وطنا لك ، وتسال الحكومة في ان تعطيك حق التملك ، مع حق الانتقال لورثتك • وبذلك سيكون لك مكانة

---

1) يعني نابليون الاول الذى اخذ اسيرا الى هذه الجزيرة •

تتساوى مع تلك التى هى لاعظم رجالنا نفوذا ، وستكون قادرا على ممارسة دينك ، وتربية ابنائك طبقا للطريقة التى تريد ٠

« اننى اخشى من ان هذا الاقتراح لن ينجح فى التاثير عليك ٠ ولكنه اقتراح جدير منك بالنظر والتقدير من اجل مستقبل اولادك ومصير العديد من الاشخاص الذين هم معك ٠ انك تشاهدهم يتعذبون ويموتون من الضجر ٠ فلو كانوا يعملون فى املاك خاصة بك ، لكانت حياتهم ، على العكس ، سارة ومريحة ٠ ان زراعة الارض ستعجبهم وربما يتسلون بالرياضة ٠ ذلك ان الاشتغال بالزراعة سيعطيهم يوميا موضوعات جديدة تثير اهتمامهم ، ولا شىء يعمل على رفع المعنويات اكثر من منظر الطبيعة وقد عملت فيها يد الانسان نفسه ٠

« هذه هى النصيحة التى اقدمها اليك ، وقد املتها على مشاعر الاهتمام غير المعتادة التى أثارها فى اتباعك البائسون والمزايا العظيمة التى منحها الله لك » ٠

لكن عبد القادر لم يلن فقد استمر فى رفض السماع لاية مساومة ، ولذلك اجاب بوجو هكذا « لو ان جميع خزائن الدنيا فتحت امامى واقترح على وضعها فى جهة وحريتى فى جهة اخرى ، لاخترت حريتى ٠ اننى لا اطلب لا جزاء ولا شكورا ٠ اننى اطلب تنفيذ الالتزامات التى التزم بها نحوى ٠

« لقد طلبت كشرط لاستسلامى وعد رجل فرنسى ٠ فأعطانيه جنرال فرنسي دون قيد ولا شرط٠ووافق عليه جنرال فرنسي آخر، وهو ابن الملك٠ وبذلك كانت فرنسا ملتزمة لى كما انى ملتزم لها ٠ فطلب نسيان الماضى امر مستحيل ٠ اننى لن اعيد اليكم وعدكم ٠ اننى ساموت معه خزيا خالدا لكم وعارا ٠ وستعلم الملوك والشعوب ، من امثالى ، اى ثقة تمنحها لكلمة الانسان الفرنسى » ٠

وكانت جميع الدلائل تدل على ان قضية تحرير عبد القادر قد تأجلت الى ما لا نهاية له ٠ وهو نفسه توقف عن الاشارة اليها ٠ وقد وجد العزاء فى كتبه ودراساته وعبادته ٠ وكانت الساعات مضبوطة بدقة وموزعة على هذه الامور ، وبذلك كان الوقت يمر بسرعة ٠ فقد كان يشغل نفسه بالكتابات الادبية ٠

وكانت نتيجة اعماله الفكرية كتابين الاول عنوانه « وحدانيـة الله » (2) والثانى عنوانه « ذكرى العاقل وتنبيه الغافل » (3) فالاول عبارة عن مقارنة ، وفى نفس الوقت استعراضٌ بارع لكل الحجج التى تؤيد وتوضح ذلك المبدأ الاساسى للدين المحمدى . أما الثانى فهو مقسم الى ثلاثة أقسام ، ويتنـاول القسم الاول فوائد التعليم ، والقسم الثانى عن الديـن والاخـلاق ، والقسم الثالث عن فن الكتابة والعلوم العامة .

ورغم انه كان مرخصا له أن يتجول فى الحديقة المحيطة بالسجن ، فانه لم يعمل ابدا بهذا الامتياز . والواقع انه لم يغادر غرفته الا نادرا ، حين يذهب الى الغرفة التى تجتمع فيها أسرته واتباعه للصلاة . وقد نصحـه أطبـاؤه بضرورة الخروج للرياضة . فكان يجيبهم « لا صحة لى فى قيود السجن . ان ما اريده هو نسيم الحرية ، وهو وحده الذى يستطيع أن ينعشنى » .

وتعاقبت الايام . ثم حدث تغيير سار رغم انه كان غير متوقع . ذلك أن لويس نابليون ، الذى أصبح ساخطا على النزاعات الحزبيـة التـى أحبـطت مشاريعه ، قد توجه الى العاطفة القومية ، فأظهر نفسـه الى فرنسا ، فـزار الاقاليم . وعندما وصل الى مدينة بلوة Blois أرسل كلمـة الى السيـد بواسونى (4) Boissonet الذى كان يشرف على قصر أمبواز الذى لـم يكن يبعد كثيرا عن تلك المدينة ، بأنه ينوى القيام بزيارة لعبد القادر .

ولكن الخطة النهائية لانجاز الامير (5) الرئيس هذه الزيـارة كانت محـل مناورة من الضباط والوزراء الذين كانوا حوله . فسانتارنو وغيره نصحـوه بالحذر . ولكن الامير كان مصمما . فضرورة انقاذ الشرف القـومى الـذى طال تلطيخه باخلاف الوعد سيطرت على عقله فوق جميع الاعتبارات الاخرى .

---

2) لعل تشرشل يقصد كتاب « المواقف » الذى هو ايضا فى التصوف . ويذكر ابنه فى (تحفة الجزائر) انه الف اثناء ذلك رسالة سماها « المقراض الحاد لقطع لسان الطاعـن فى ديـن الاسلام من اهل الباطل والالحاد » ج 2 ، ص 27 . فهل هو ما يعنيه تشرشل .

3) ترجم هذا الكتاب الى الفرنسية السيد دوغا G. Dugat ونشره فى باريس سنة 1858، وقد نقل فيه الامير اشياء كثيرة عن الغزالى فى « احياء علوم الدين » .

4) يكتب ايضا Boissonnet انظر مقالى « كتاب علاج السفينة فى بحر قسنطينة » مجلة كلية الآداب ، العدد 2 ، 1970 .

5) المقصود بالامير هنا نابليون الثالث .

وفي السادس عشر من اكتوبر، سنة 1852 امتطى الامير وحاشيته عربة وتوجهوا الى قصر امبواز ٠

وفي الطريق كتب بقلم الرصاص الوثيقة التالية :

« عبد القادر ،

انني قادم لاعلن لك حريتك ٠ انك ستحمل الى بروسة ، في منطقة السلطان ، حالما تنتهي الاجراءات الضرورية ٠ وستخصص لك الحكومة الفرنسية مرتبا يليق بمكانتك القديمة ٠

« ومنذ وقت طويل وأسرك يسبب لي ضيقا حقيقيا ٠ انه دائما يذكرني ان الحكومة التي سبقت حكومتي لم تنجز الالتزامات التي تعهدت بها نحو عدو منكوب ٠ وانه لاهانة في نظري لامة كبيرة عندما تبلغ درجة الشك في قوتها الذاتية فتخلف وعدها ٠ ان السخاء هو دائما افضل مستشار ، وانني على يقين من ان اقامتك في تركية لن تؤثر بأي شكل على هدوء ممتلكاتي في افريقية ٠

« ان دينك وديني ايضا ، ينص على الاذعان لمشيئة الله ٠ فاذا كانت فرنسا الآن منتصرة في الجزائر فلان الله اراد ذلك ، وان الامة لن تتخلى ابدا عن هذا الاحتلال (6) ٠ لقد كنت عدو فرنسا ، ولكنني مع ذلك مستعد أن أقوم نحوك بالعدل الكامل لشجاعتك وشخصيتك وصبرك في الشدة ٠ ولذلك فاني أشعر بأن الشرف يقتضيني أن اضع حدا لسجنك وأن اعتمد تمام الاعتماد على كلمتك » ٠

وغمر قلب عبد القادر بالاعتراف بالجميل فانطلقت مشاعره بالشكر٠ فقد طلبت أمه المسنة ان يؤذن لها برؤية الحاكم الكريم ذي النفس النبيلة ، الذي بعث المسرة والحبور في كافة ارجاء منزلها ٠ وعندما قدمت الى لويس نابليون طوقته ببركاتها ٠ وبعد أن شارك الامير بسرعة في تناول طعام الكسكسي ، وهو الطبق الوطني الجزائري ، ارتحل ٠ وحينما كان يختفي بعيدا ، استدار عبد القادر لاتباعه وقال « الآخرون قهروني ورموا بي في السجن ، اما لويس نابليون فهو الوحيد الذي انتصر علي » ٠

---

(6) هذا دليل آخر على ان نابليون الثالث لم يكن يفكر في التخلي عن احتلال الجزائر ٠

ورغب عبد القادر الآن في اكرام الرجل الذى خلصه من سجنه في العاصمه نفسها • فحصل على اذن بالذهاب الى باريس التي وصلها في الثامن والعشرين من اكتوبر ، سنة 1852 • وانتظم له استقبال جدير به بأمر من الامير • كانت مظاهرة شعبية في انتظاره • وتزاحمت الجماهير في الشوارع التى بها وكانت تتفرسه بمشاعر مختلفة من الفخر والفضول • ان وجوده قد .ى مشاعر شعب كان يعيش في حالة حرب ، ولكن الاحترام للشهرة .مكرية العظيمة للقائد العربي كان هو الدافع الرئيسى •

فى نفس المساء الذى وصل فيه عبد القادر دعى لزيارة الاوبرا الكبيرة • .. اولا بسبب العياء ، ولكن عندما اخبر ان الامير سيكون هناك رضى .! ب • وقد قيد الى الشرفة التى كان بها الامير • فانحنى عبد القادر ـ بن يديه ، لكن الامير عانقه وسط تصفيق حاد • ثم اجلس العدو القديم .. سا بجانبه واظهر له كل عناية واحترام •

ووجهت الدعوة الى عبد القادر لزيارة الامير الرئيس في قصر سان كلود St. Cloud وبناء عليه توجه الى هناك في الثلاثين من اكتوبر مرفوقا بمسؤول خيوله قارة محمد ، وابن علال ، وهو ابن اخ خليفته ابن مبارك الشهير ، وسيدى قدور ، وكوكبة من الضباط الفرنسيين المعينين لاصطحابه • ووصل هناك قبل الموعد المحدد لاستقباله ببعض دقائق • وكانت هناك ساعة .ئط فى غرفة الانتظار اخبروه انها تشير الى توقيت مكة بالضبط في ذلك .يوم • فسر عبد القادر بذلك وعدل ساعته الخاصة على توقيت الاماكن المقدسة لدينه • فوجدها تشير بالضبط الى وقت صلاة ما بعد الظهر • وأمام جميع الحاضرين قام باداء الصلاة •

وبعد قليل قدم الى الامير الرئيس الذى كان واقفا محاطا بجميع كبار دولته • وعندما انتهت حفلة التقديم طلب عبد القادر الاذن له لالقاء بعض الكلمات • فأذن له فعبر عن نفسه بطريقة لا تخلو من تاثر كبير ، قائلا :

« ايها الامير ، انني غير معتاد على تقاليدكم • ولعلني على وشك ان ارتكب خطأ ، ولكنني أرجو أن أعبر عن عواطفى نحوكم ونحو الشخصيات المرموقة التى أراها حولكم • ان آخرين قد وعدوا بشيء لم ينجزوه • ولكن سموك قد انجزت تعهدات لم تلتزم بها • فشكرا على كرمك الذى مكنني من أن أذهب للعيش في بلاد اسلامية • ان الكلمات تذهب كما تذهب الريح • اما الكتابة

فهي خالدة • انني اقدم الى سموك هذه الورقة • انها تحتوى على وعد مكتوب » •

ثم وضع التصريح التالى بين يدى الامير :

« الحمد لله وحده • أدام الله حفظه ورعايته على مولانا لويس نابليون وهداه وأرشده في احكامه وحكمه • ان الذى يقدم اليك نفسه هو عبد القادر بن محيي الدين • لقد جئت لسموك لاشكرك على افضالك ولامتع نفسى بالنظر فى طلعتك • انك فى الحقيقة اعز على من أى صديق آخر ، لانك غمرتنى بفضل يتجاوز قوة الشكر لك عندى ، ولكنه جدير بنبل شخصك وعظمة مكانتك • فرفع الله قدرك •

« انك لست من اولئك الذين يقيمون اعتراضات بلا طائل أو يخيبهم الرياء والنفاق • لقد وضعت ثقتك في ، ولم تصغ الى الذين لا يثقون بي • لقد منحتنى الحرية ، وانجزت تعهدات كان الآخرون قد التزموا بها دون أن ينجزوها ، بل انك فعلت ذلك دون ان تأخذ منى اى وعد •

« اننى اذن جئت لاقسم لك بالله العظيم وبكل الانبياء والرسل أن لا أفعل شيئا يتنافى مع الثقة التى وضعتها فى ، وعلى أن ألتزم بهذا القسم التزاما دينيا بان لا أعود ابدا الى الجزائر (7) • فعندما امرنى الله بالنهوض نهضت ، وقد استعملت البارود الى اقصى حد مكنتني منه وسائلى وطاقتى • ولكن عندما امرنى بالتوقف توقفت • وعند ذلك فقط تخليت عن السلطة واستسلمت •

« ان دينى وشرفى يأمراننى بالاحتفاظ بقسمى ويستنكران الحنث • اننى شريف وليس هناك من سيتهمنى بالخيانة • وكيف يمكن أن يقع ذلك منى بعد ان نلت افضالا عظيمة على يديك ان الاحسان سلسلة ذهبية تطوق عنق الانسان النبيل • اننى أغامر بأن آمل ان ستتفضل بالتفكير فى حتى عندما أكون بعيدا عنك ، وانك ستضعنى فى قائمة اصدقائك المقربين ، لاننى وان كنت قد لا أساويهم خدمة لك فاننى على الاقل اساويهم فى حبهم لك • ضاعف الله من حب أولئك الذين يحبونك وصعق قلوب أعدائك » •

ورد لويس نابليون على هذه العبارات الرسمية بقوله :

---

7) هذا يساعد على تفسير موقف الامير من ثورة 1871 ومن الاحداث العامة التى جرت بالجزائر اثناء وجوده بالمشرق •

« يا عبد القادر ، انني لم أفقد ثقتي فيك ابدا · وليس لى حاجة الى هذه الورقة المكتوبة التى تفضلت بتقديمها الى بكل نبل · انني لم أطلب منك أبدا ، كما تعلم ، وعدا أو قسما · ومع ذلك فقد اخترت أن تكتب وأن تقدم بين يدي هذه الوثيقة · انني أقبلها · ان هذا الاقرار العاطفي والشعورى منك قد برهن لى على أنني كنت على حق عندما وضعت فيك ثقتي غير المحدودة » ·

وعندما انتهى الاستقبال اخذ عبد القادر لمشاهدة جميع حجرات القصر ثم اخذ لرؤية اصطبل خيل الامير · فأعجب بالاخص بفرس عربى أبيض قوى ، فقال له الامير الذى كان حاضرا « ان الفرس لك ، وأرجو أن يجعلك تنسى انك ظللت وقتا طويلا بدون فرس ، وعليك ان تحاوله غدا معي في الساحة أثناء استعراض للفرسان امرت به خصيصا على شرفك » ·

وفي اليوم التالى امتطى عبد القادر فرسه الجديد وسار الى جانب الامير الى الاستعراض · وعندما ساله الامير بلطف عن صحة امه المسنة ، قال له عبد القادر بحيوية · « كانت امي تحتاج ، خلال اسرى ، الى جماعة لتحمل ثقل جسمها الذى أحنته السنين ، أما الآن وبعد ان أصبحت حرا بفضل كرم سموك ، فانها قد رمت بعيدا بثقل السنين وهي تسير بدون مساعدة » ·

وحضر عبد القادر استعراضا كبيرا آخر في فرساى · وتناول العشاء مع الامير مرتين · وأقام له جميع الوزراء استقبالات ضخمة ، وكان يستقبل يوميا رجال الدولة وكبار ضباط الجيش والعلماء · وكان قد تأثر بالاخص من زيارة عدد من الضباط الذين كانوا سابقا أسرى عنده والذين جاؤوا ليشكروه على اللطف والاهتمام اللذين وجدوهما منه خلال أسرهم ·

ثم زار عبد القادر جميع البنايات العامة في باريس · وعندما دخل كنيسة المادلين قال للقسيس الذى كان مرافقا له : « حينما بدات مقاومتى للفرنسيين كنت أظن انهم شعب لا دين له · ولكن تبينت غلطتى · وعلى أى حال فان مثل هذه الكنائس ستقنعنى بخطئى » ·

وبعد ذلك طلب أن يؤخذ الى محل اقامة صديقه القديم ، دوبوش ، اسقف مدينة الجزائر ، قائلا: « بعد ان خصصت زيارتى الاولى لله يجب على ان أخصص زيارتى التالية لافضل عباده » ·

وعندما كان يزور كنيسة نوتردام توقف ليتفحص عجائب الفن والأثـ .
التى تحتوى عليها باهتمام أثار دهشة الحاضرين لانه صادر عن مسلم .
فتماثيلها وصورها الملونة والعباءة التى كان قد توشح بها نابليون الاول
عند تتويجه وقطعة الصليب الحقيقى الذى أهداه بالدوين Baldwin الى لويس
الثانى عشر ، كلها على التوالى قد جذبت انتباهه .

وعندما وصل الى فندق الانفليد Invalides كان اول طلب تقدم به عبد
القادر ، كعادته ، هو أن يؤخذ الى الكنيسة . ذلك ان المعبد كان بدون
استثناء ، اول مكان تسير نحوه خطاه . وكان يشاهد بامعان الجندى وبارتياح
أيضا العدد الكبير من الرايات التى كان يحتوى عليها هذا المتحف . ومن
بينها بعض راياته هو . وعندما وقعت عيناه عليها تفرس فيها لحظات صامتا ،
ثم قال بهدوء « لقد مضت تلك العهود . اننى ارغب فى نسيانها . فلنسع
دائما ان نعيش فى الحاضر » .

وتوقف طويلا من جديد عند قبر نابليون . وبعد فترة تكلم قائلا : « كل
ما يمكن أن تفعله عبقرية الانسان وثروة العالم هو أن تحيط تلك العظمة
التى ملات العالم دويا بانتصاراتها بسياج معقوف » . وبعد أن ابتعد لاحظ :
« اننى ارى الآن الجانب الفانى من ذلك الضابط العظيم ، ولكن أين هو المكان
الذى لم يعد يذكر فيه اسمه ؟ » .

وأثرت فيه بالاخص الحياة فى المستشفى . فقد وقف المرضى أثناء مروره
بل ان احد الجنود القدماء قد نهض من سريره فى تألم وصعوبة علامة على
الاحترام لهذا المحارب العظيم . ووقف عبد القادر امامه وصافحه وألقى عليه
الكلمة التالية :

« اى قيمة ينالها شعب عظيم أن يعتنى بالمسنين من رجاله الشجعان الذين
دافعوا عنه ، وأن يستخدم أفضل وسائل العلاج لتضميد الجراح التى أصابتهم
أثناء الدفاع عن وطنهم ! لقد رايت قبر نابليون ولمست سيفه . وكنت
سأغادر هذا المكان سعيدا تماما لولا التفكير فى انه قد يكون هنا بعض ممن
كانوا قد اصيبوا بعطب على يدى او يد اتباعى . ولكنى دافعت فقط عن وطنى .
وان الفرنسيين ، الذين هم كرماء وعادلون ، سيصفحون عنى . ولعلهم يقرون
أننى كنت عدوا متفتحا وشريفا ، عدوا ليس تماما غير جدير بهم » .

وزار بعد ذلك متحف المدفعية ومطبعة الدولة • وطبعت أمام عينيه بالضغط الآلي الذاتي ، بينما كان مستغربا ، نسخة طبق الاصل من الوثيقة التى قدمها للامير • وبعد ان تتبع بدقة طريقة الطبع والسرعة الفائقة التى كانت النسخ تخرج بها ، قال « بالامس رأيت بطاريات الحرب ، وهنا ارى بطاريات الفكر» •

ثم حان وقت حديث الوداع بين عبد القادر ولويس نابليون • وكان الامير قد عبر عن نيته فى اهدائه سيف شرف غير انه أضاف : « ولكنى أرغب فى ان يكون جديرا بك ، وانى آسف انه ، رغم نشاط الصناع ، لن يكون فى استطاعتى أن أقدمه اليك قبل سفرك الى بروسة » • ان حد هذا السيف ، الذى اتصل به عبد القادر فيما بعد ، كان يعود الى العهد العباسى الذى كان عصر ازدهار فى بداية العصور الاسلامية • وقد نقش عليه ما يلى : « من السلطان نابليون الثالث الى الامير عبد القادر بن محيى الدين » وفى اليوم التالى رجع عبد القادر الى أمبواز •

وفى الواحد والعشرين من شهر نوفمبر دعى الشعب الفرنسى لانتخاب امبراطور • وقد طلب عبد القادر حق التصويت • وبالصدفة كان ذلك اليوم هو الذكرى العشرينية لانتخابه هو سلطانا للعرب • ومنح ذلك الحق ، ووضع صندوق انتخاب خاص بهذه المناسبة • وفى هذا الصندوق وضع عبد القادر صوته وصوت اثنى عشر من اتباعه •

وعاد عبد القادر الى باريس لحضور اعلان الامبراطورية • ووقف وسط كبار رجال الدولة والموظفين العموميين الذين تجمعوا فى التويلرى Tuileries لتقديم تهانيهم الى الامبراطور • وحالما لمحه هذا ذهب اليه وصافحه وقال : « أرأيت ، ان صوتك قد جلب لى الحظ السعيد » فرد عليه عبد القادر : « أيها السيد ، ان صوتى لا قيمة له فى حد ذاته ، ولكنه ترجمان قلبى » •

وفى الحادى عشر من ديسمبر غادر عبد القادر وعائلته وأتباعه أمبواز الى الشرق • وكان نفس الاهتمام والكرم الذى وجده فى باريس ينتظره فى جميع مدن الاقاليم التى مر بها • ففى مدينة ليون اقام له الكونت دى كاستلان Castellane استقبالا فخما ، حيث اقيمت له حفلة عشاء واستعراض عسكرى على شرفه • وعندما وصل عبد القادر الى الصفوف حياه الجند تحية عسكرية اكراما له • وكان عبد القادر مبتهجا بهذا الاحترام غير المتوقع فاستدار الى المارشال النبيل الذى كان راكبا فرسا بجانبه وقال : « ان الامبراطور قد منحنى الحرية ولكنك أنت كللتها بالغار » •

وفي الواحد والعشرين من ديسمبر ، صعد عبد القادر ظهر السفينة لابرادور التى اخذته الى وجهته الاخيرة · وتوقفت هذه السفينة البخارية فى صقلية · فنزل عبد القادر وتجول فى داخل البلاد مصحوبا بحاكمها · وصعد جبل ايتنة Etna وعند مغادرته صقلية وجه رسالة الى ذلك الضابط عبر له فيها عن انطباعه عما شاهده ، فقال « اينما حللنا وجدنا آثار الشعوب المختلفة التى سكنت هذه الجزيرة · وان ما شهدناه جعلنا نعتبر من ان الله حقا هو مالك الملك وانه هو الذى يعطى الارض لمن يشاء · وان جبل النار لآية من آيات الدنيا · وعندما شاهدنا من قمته السهول المزروعة الخصبة والآهلة بالسكان تذكرنا بكاء الشاعر العربى على جلاء المسلمين عن صقلية ، حين قال : يا سهول صقلية ، ان تذكرك من اعالى جبل ايتنة ، يبعث القنوط فى نفسى ! ولو كانت دموعى غير مالحة لوجب عليها ان تكون انهارا تروىهذه الجزيرة المجيدة · وان ساكن الفردوس لا يستأهله الا ليعدد عجائب صقلية » (8) ·

ووصل عبد القادر اسطانبول فى السابع من يناير ، سنة 1853 · وبمجرد نزوله توجه الى جامع طوبخانة Tophané الكبير وقد شعر بالغبطة والسرور ان وجد نفسه من جديد فى معبد النبى · واقام السفير الفرنسى هناك حفلة كبيرة على شرفه ، دعيت اليها الشخصيات البارزة للجاليات الافرنجية Frank ان هذا العمل الكريم كان خاتمة العلاقات الاجتماعية لعبد القادر مع العالم المتحضر · فحيثما حل فيه اعترف له بقيمته وعبقريته وشرفه اعترافا عظيما واحتفى به احتفاء كبيرا · أما الآن فهو فى عاصمة صبت فيها البربرية فى تالب مضحك من الحضارة الاروبية ·

وقد زار عبد القادر الوزراء الترك · فاستقبلوه بمظاهرة المتصنعة من الادب والاحترام · ولم يكونوا على ذلك الحال من اللطف الظاهرى الا لان السياسة اقتضتهم ذلك · وان الترك على درجة كبيرة من العنجهية والفخفخة تجعلهم يكرهون كل السلالات ماعدا سلالتهم·وهم ، كغرباء عن كل العواطف النبيلة

(8) هذه ترجمة ما اورده تشرشل ، ونعتقد ان الامير قد تمثل بقول ابن حمديس :

ذكرت صقلية والاسى يهيج ... فى النفس تذكارها
ومنزلة للتصابى خلت ... وكان بنو الظرف عمارها
فان كنت اخرجت من جنة ... فانى احدث اخبارها
ولو لا ملوحة ماء البكا ... لخلت دموعى انهارها

وساخرين من الغير ، معتقدين ان لا وجود لاى شىء فى العالم اكثر اهميـه من انفسهم ، كانوا ينظرون الى الحظوة والاهتمام الذى ناله عبد القادر (رغم كفاحه المجيد من اجل الدين المشترك) ، بغيرة ، بل باستهزاء • فشهرتـه كانت تغيظهم • وان وجود البطل العربى فى نظرهم كان غير مناسب ، بـل هو سفاهـة •

الفصل الثالث والعشرون

(1860 - 1853)

وبعد برهة أبحر عبد القادر الى بروسة ، وكانت الحكومة التركية قد امرت باشا (1) تلك المدينة ان يضع عربة خاصة تحت تصرف عبد القادر منذ ساعة نزوله • فقال ذلك التركي « ماذا ! عربي يركب العربة ! من الذى سمع بمثل هذا ؟ بالتأكيد ان هناك كثيرا من الابل يمكن ركوبها • فلماذا لا يؤجر هذا الرجل جملا ؟ أليس الجمل كافيا له ؟ » وتفادى التركي الاهانة التى تلحقه لو منح عربيا عربة ، معتمدا على حقيقة بسيطة وهى انه لا يمكن عبور الطريق من مكان النزول الى بروسة فى اية عربة متحركة مهما كانت • ورغم ان الباب العالى لم يكن سوى على بعد عشرين ميلا فقد كان جاهلا تماما لهذه الحقيقة •

ومن حسن حظ عبد القادر انه بالرغم من وجوده بين أيدى الترك فانه لم يكن مضطرا ان يكون تابعا لهم او متوقفا عليهم ، فاريحية لويس نابليون قد وفرت له جميع حاجاته • ذلك ان الامبراطور قد خصص له مرتبا مدى الحياة، وهو اربعة آلاف جنيه استرلينى سنويا • وعند التأمل فى عادات عبد القادر يصبح هذا الدخل اكثر مما يحتاجه ، بل يصبح بذخا • وكان يمكنه ان يعيش عيشة امير بهذه الثروة وينغمس فى التباهى • ولكنه كان خاضعا لمبادىء اخرى •

فعبد القادر الذى كان دائما معارضا لارضاء النفس قد نظر الى هذا المرتب الكبير كامانة ، لذلك قرر ان ياخذ منه ما هو ضرورى لمصاريفه الخاصة ، وان يصرف الباقى على الآخرين • فقد كرس دخله على تلبية حاجات كثير من اولئك

---

1) هو خليل باشا الذى كان صهرا للسلطان والذى رحب بالامير اجمل ترحيب خلافا لما يدعى تشرشل

الذين رفضوا بنبل ان ينفصلوا عن مصيره ، بل انه كان قادرا على ان يغمر بكرمه جهات اخرى • ولم يكد يحتفظ لنفسه ولعائلتـه بسوى النصف مـن ذلك المبلغ ، اما الباقي فقد وزعه في شكل رواتب على قواده واتباعه الذيـن كانوا في حاجة ماسة ، وفي شكل صدقات على الفقراء ، وهبات الى المساجد، وغير ذلك من الاغراض الخيرية ، كما انه كان يصرف من دخلـه على اخويـه وعائلتيهما •

لقد كان عبد القادر معارضا لكل المصاريف التي تصرف فيمـا لا فائـدة فيه،حتى ان المبلغ الذى اعتاد المسلمون ان يخصصوه للاحتفالات والمهرجانات في اهم الاعياد الدينية وجهه هو الى اغراض خيرية • ففي مناسبة ختان احد ابنائه استغرب اهل بروسة انه بدلا من المسيرة الغالية العادية ، مع كل ما تستلزمه من ابهة وبهرجة الفرسان والاعلام والموسيقى ، كان هناك جمع من الفقراء مجتمعين امام منزله يتلقون من يديه هدايا الخبز والملابس والنقود • ان هذا كان في عين عبد القادر أفضل احتفال بهذه الشعيرة المقدسة •

كانت البناية التي خصصتها الحكومة التركية لاقامة عبد القادر عبارة عن خان قديم مهدم ، وكثير من اجزائها كان بلا سقوف•وقد حاول جهده بصعوبة ان يجعلها صالحة للسكن • وكانت بشاعة وهمجية هذا الاثر القديـم تثيـر الرعب • ولكنه اشترى مزرعة صغيرة بجوارها حيث كـان يهـرب بنفسـه احيانا ليمتع نفسه بمنظر الشمس وليتنفس هواء نقيا •

وكانت ايامه تمر كالعادة في تربية ابنائه ، وفي القراءة في الجامع ، وفـي الدراسة الخاصة وفي العبادة • ومع ذلك فقد كان يشعر انه في ارض الغربة فقليل هم الذين كانوا يفهمون لغته • ولم يكن بينه وبين الترك عاطفة ممكنة، ولا يمكن ان تكون ابدا • فعلماؤهم كانوا يحسدونه ويكرهونه لعلمه الغزير• وكانت طبقة الافندية منهم ، في فخرها المتشامخ ، قلما تتنـازل لتلاحظـه • وكانت طبقة الموظفين العموميين ، التي كانت تستعيد نفسها تدريجيا مـن خوفها من نفوذه الواسع الانتشار ، تبتسم في داخلها راحة ورضى لا يخلوان من سخرية وهي تهنىء بعضها على اكتشافها ان البطل العربي الكبير لم يكن في الواقع سوى « درويش » •

ومر وقته هكذا حوالي ثلاث سنوات • وكان سريا يتشوق الى تغيير مكان منفاه • ولكنه كان يستحي من طلب ذلك • واخيرا حدث سنة 1855 الزلزال

الذى اوشك على خراب جميع بروسة ، والذى اعطاه الفرصة للمفاتحة فـى الموضوع ، فاسرع لاغتنام الفرصة • وقد حصل على اذن بالذهاب الى فرنسا (2) • فرأى من جديد الامبراطور الذى رضى بانجاز جميع رغباته • وهناك تم الاتفاق على ان اقامته فى المستقبل ستكون فى دمشق •

وبينما كان عبد القادر فى باريس وصلت الاخبار بسقوط سيبستبول (3) Sebastopol وقـد طلب منه ان يحضر احتفال صلاة الشكـر فـى كنيسة نوتردام ، واخبر ان الامبراطور سيكون سعيدا بحضوره فى هذه المناسبة •

ورغم انه كان منهوك القوى من مرض شديد حديث ألم به ، فانه وافق على الحضور • وقد حدثت حركة كبيرة وسط الزحام الهائل الذى ملأ الكاتيدرالية عندما تقدم عبد القادر حتى وصل المذبح ، متكئا على ذراع مارشال فـرنسى ومرفوقا بضباط آخرين كبار • وعند مغادرته الكنيسة هتف له الناس عاليا•

وأخذه الكاتب الاول لوزير الحربية الى المعرض الدولى الذى جعل باريس خلال سنة زيارته لها ، ملتقى كل العالم المتحضر • وبعد ان اطلع على جميع المنتوجات المتنوعة التى احتوى عليها المعرض ، توقف طويلا فى استغـراب كبير عند عجائب المصنوعات الآلية التى كانت منتشرة فى مختلف الاجنحـة امام عينيه • ثم قال فجأة « ان هذا بالتأكيد معبد العقل والذكاء يسيره روح اللـــه » •

وبعد ان عاد الى بروسة حيث بقى بضعة اسابيع لترتيب شؤونــه وحـل مشاكله ، ركب سفينة تجارية فرنسية ، مع عائلته واتباعه ، الذين بلغـوا جميعا مائة شخص ، ووصل بيروت فى الرابع والعشرين من نوفمبر سنــة 1856 • وبعد الاقامة مدة قصيرة واصل رحلته الى دمشق •

وبينما هو صاعد جبل لبنان سمع ، وهو مندهش ، صوت الرصاص كمـا لو كانت معركة حامية تجرى قريبا • وشاهد اعالى الجبل ومنحدراته مغطـاة بعدد كبير من الرجال الذين يقبضون على حزمات البنادق • ثم رأى كوكبـة من الفرسان متراصة فى زى فخم متقدمة لمقابلته• لقد تجمع الدروز للترحيب بــــه •

2) سافر الامير ، بناء على صاحب (تحفة الزائر) ، فى شهر ذى الحجة سنة 1271 هـ •

3) شكل سقوطها انتصار الحلفاء (الدولة العثمانية وفرنسا وبريطانيا) على روسيا فى حـرب القرم (1853 ـ 1856) • وقد شارك الجزائريون فى هذه الحرب •

وعندما اقترب رؤساؤهم منه ترجلوا • فرد عليهم التحية • وقد انحنوا امامه حسب التقاليد الشرقية وقبلوا يده • ثم سألوه ان يشرفهم بالاستراحة بينهم ولو ليلة واحدة • فقبل دعوتهم • ووجد مرة اخرى وطنا شرقيا كريما • وتفتح قلبه للمناسبة ، فهو مرة اخرى بين العرب •

وقد سأله هؤلاء المحاربون الجبليون طويلا وعن كثب عن حملاته ضد الفرنسيين • وقالوا له « اذا كانت شهرتك قد رفعت معنوياتنا منذ وقت طويل واثارت اعجابنا ، واذا كانت صدورنا قد اثلجت بالسماع عنك منذ وقت ، فكم نحن سعداء ان نراك ! » وعند مغادرته جبل لبنان رافقه الدروز الى حدود منطقتهم • وبعد ان شكرهم على ادبهم نحوه واحترامهم له ، رحل عبد القادر من عندهم قائلا « هدانا الله ان نظل متحدين ! » فرد عليه الدروز قائلين « حقق الله ذلك ! وجعلنا نجتمع مرة اخرى قريبا » •

وكان ينتظر عبد القادر احتفاء آخر اهم واعظم في دمشق (4) • فكل السكان المسلمين — رجالا ونساء واطفالا — خرجوا لاستقباله • وعلى مسافة اطول من ميل خارج ابواب المدينة اصطف الناس على حافتي الطريق ، وكانوا من مختلف الطبقات والرتب ، ويرتدين افخر الثياب ، وقد جاؤوا ليشبعوا اعينهم بالتفرس في بطل الاسلام الشهير • ومر عبد القادر كانه فاتح وسط الزحام مسبوقا بفرقة عسكرية تركية وجوقة للموسيقى العسكرية وكان يرد بسرور على عبارات التحايا والترحيب التي لا تتوقف والتي كان الناس يبدونها اليه • انه لم يدخل دمشق عربي على هذا النحو منذ صلاح الدين الايوبي •

كان السلطان قد امر بوضع قصر تحت تصرف عبد القادر • ومن حسن حظه انه وجد جميع الخانات مسكونة • فجعل اقامته في منزل اعد له مؤقتا ، الى ان يكون في استطاعته ان يختار ويشتري منزلا لنفسه • ولم تهتم به السلطات التركية بعد ذلك • لقد آن الاوان للترك ان يتحملوه • فهم لا يستطيعون ان يخفضوا من قيمته ولا من مكانته لان يدا اقوى من يدهم امتدت اليه لتحميه (5) • وهم لا يستطيعون ان يمسوا نفوذه لانه نفوذ بلغ الاوج الذي يتحدى به حقدهم • فاكتفوا بالنظر اليه على انه نشاز مؤلم لا مناص منه واستكانوا •

---

4) كان والي دمشق التركي عندئذ هو السيد محمود نديم باشا •
5) لعله يقصد نابليون الثالث •

وسرعان ما تضاعفت لديه الزيارات والتحيات على اختلاف انواعها ، فابن سالم ، خليفته القديم الوفى ، ومئات الجزائريين الذين كانوا قد حصلوا على رخصة الاقامة فى دمشق والذين ضخموا عدد اتباعه عند دخوله المدينة ، هم الآن يزدحمون عليه ليلا ونهارا ، لا يشبعون ابدا من النظر الى سلطانهم المفدى الذى كان قد غاب عنهم منذ امد طويل ، وقد قام الأفندية العرب الكبار بتقديم كل آيات الاحترام له ٠

ولكن عبد القادر كان مركز اهتمام العلماء والمثقفين اكثر من غيرهم ٠ فهو بألقابه الثلاثة : كونه شريفا من نسل النبى وعالما وزعيما للجهاد ، كان جديرا بتبجيلهم العميق ، وكانوا يشعرون انهم يرتبطون اليه ليس فقط بمشاعر العاطفة القومية ولكن ايضا بالواجب الدينى ، وان تجربتهم السريعة معه فى علمه الغزير قد جعلتهم يتشوقون الى الاستفادة من معارفه ٠ لذلك ترجوه ان يصبح معلما لهم ٠ وتكونت حلقة درس دينى مؤلفة من نيف وستين طالبا ٠ وكانت تجتمع يوميا فى الجامع الكبير وكان عبد القادر يرأسها ولا يتخلف عن حضورها ٠ ومن الطبيعى ان كان القرآن والحديث هما قاعدة المناقشة ٠ ولكن خلافا للمعلمين العاديين الذين لا تمتد قواهم العقلية الى اكثر من ملاحظات وتعاليق عتيقة بالية عن الكتب المقدسة ، فان عبد القادر قد اثار استغراب اتباعه واثلج صدورهم باختياره للنصوص من اعمال افلاطون وارسطو ، واحيانا حتى من مؤلفين فى درجة ادنى من هذين سمعة ٠ وكان يختار هذه النصوص من مكتبته الخاصة التى كان قد بدأ فى اعادة جمعها بعناية خلال اقامته فى بروسة ٠

ان الضوء الذى بعث اشعته على المثقفين من مسلمى دمشق كان بالطبع مصحوبا بظله من الحسد والنميمة ، تزيده الخيلاء الجريحة والشهوات الغامضة امتدادا ٠ هكذا كانت على العموم المكانة الاجتماعية لعبد القادر فى دمشق ، عندما وقعت حوادث غير منتظرة اقلقت بعض الوقت طمأنينة مجرى حياته ٠

ذلك ان معاهدة باريس الموقعة سنة 1856 قد ملأت الترك بعواطف مختلطة من الفخر وعدم الثقة : من الفخر لان المعاهدة قد انقذتهم من نهاية محققة وجددت لهم الامل فى البقاء السياسى ، ومن عدم الثقة لان عمل الخلاص كان قد توج بمرسوم الموت ٠ وان مثل هذه النهاية كانت تتوقف حقا على تحقيق نظرية ، ولكن هذه النظرية كانت بالنسبة اليهم على جانب كبير من الاهمية المشؤومة ٠ فالدول المسيحية ، بانتزاعها من الترك قانون (خطى همايون) سنة 1856 ، قد جعلتهم يضعون السكين على رقبتهم ٠

فاذا كانت هذه الوثيقة الشهيرة التى دعاها بسخرية من لا يعرف شيئا عن السياسة فى الشرق « ماقنه كارته (6) Magna Charta مسيحى الشرق»، ستنفذ بحذافيرها ، فان مكانة الترك ، والمسيحيين كمجموعة فى الدولة العثمانية ، ستنقلب تماما فى الوقت المناسب . فالترك قد نجوا حتى الآن من الضرورة الملحة فى طعن انفسهم الطعنة القاتلة . وان حلفاءهم الطيبين والمترفقين بهم قد ابوا حتى الآن ان يضغطوا من اجل الاجهاز عليهم . ومع ذلك فالواجب على الدول المسيحية ، ان تدرك بجد ووعى ، ان على تنفيذ او عدم تنفيذ قانون (خطى همايون) يتوقف التحرير التدريجى او استمرار العبودية والمهانة للمسيحية تحت الحكم التركى .

فعندما وقعت الدول المسيحية وثيقة تعطى للترك وجودا سياسيا غير محدود ، كانت فى الواقع قد وافقت على التزام يجعل الأخيرين يتصرفون فى مناطق من اخصب اقاليم الارض باجلاء سكانها وتعقيمها وتجديبها . فرضى هذه الدول بالحصول ، فى مقابل ذلك ، على برنامج لا يمكن تحقيقه لتحسين الاوضاع وتحقيق التقدم والتهذيب جعلها لا تناقض نفسها فقط بل تخون المصالح الحيوية للانسانية والحضارة .

اذا كانت انكلترا قد رضيت بهدوء ان تكون ملتزمة بتقاليد كانت قد ظهرت فى عصر كان فيه الشرق ، بكل امجاده القديمة ، مجهولا للجميع ، وما تزال تختار ان ترى فى الابقاء على الدولة التركية ضرورة لا مناص منها لحفظ توازن القوى فى اوربا ـ كما لو كان سقوط هذه الدولة او تفككها ،سيجعل اعادة النظر فى المصالح القومية غير ممكن ، والتعديلات السياسية خرافة ، والمعاهدات الدبلوماسية اسطورة ـ واذا كانت هى ما تزال تصر ، بنزاع انتحارية ،.على مساعدة ابقاء تلك الاقاليم الغنية الخصبة الواسعة بعيدة عن ايدى المنافسين، تلك الاقاليم التى ستفتح بسرعة ، لو وقعت الدولة العثمانية تحت سلطة مسيحية ، لمشاريعها التجارية وستزيد الطلب على فنونها ومصنوعاتها عشر وخمسين ومائة مرة . اذن بالله دعها تستمر فى عبادة صنمها « الخشبى » وتبذر من اجله نقودها وسلاحها ورجالها ، وبذلك تكون فى الواقع تبذر وتقتطع من مواردها الحالية والمستقبلة .

---

6) عبارة تعنى « الميثاق العظيم » الذى اعلنه الملك جون الانكليزى بتاريخ 15 جوان (يونيو) سنة 1215 والذى اعترف فيه ببعض الحريات المدنية والسياسية للشعب .

ولكن ، اذا استيقظت انكلترا فى النهاية لتدافع عن سمعتها ومصالحها . ولا تتحدث عن مسؤوليتها نحو سلطة اعلى ، فانها يجب ان تصمم على التخلي عن عمل بلا جزاء ولا شكور ، تحاول به ان تدعم وتحرس وتصلح حكومة بطبيعتها عقبة وعرقلة في وجه تقدم الشرق ، حكومة عدوة متعصبة ضد دينها تضحك من سلامة نيتها ، وتنتهز فرصة اناتها ورفقها بها ، وهي عقبة دائمة لتطور ثرواتها وعظمتها تطورا كاملا • اذن فان سياستها ستكون واضحة كل الوضوح • فلتترك انكلترا الترك يحاربون معاركهم بانفسهم • فكيفما وحيثما وايا كان المهاجم فلتقف متفرجة دونما قلق • ولتدع فى هدوء اللعبة تبدأ • فانها ستكون دائما حاضرة فى الوقت المناسب لان تتدخل وتلعب اوراقها الخاصة •

ان الترك طالما نظروا الى مسيحيى سورية بغيرة بشعة • فهم يدعونهم « مفتاح الفرنجة » ويتصورونهم دائما مستعدين للترحيب ومساعدة القوة الافرنجية الغازية ، يمدونها بالمؤونة ويدلونها بجميع الوسائل على موارد وطاقات البلاد • فزيادة عدد السكان المسيحيين وثروتهم ورخاؤهم هى للترك مصدر دائم للقلق تثير فى صدورهم مشاعر الحقد وغيوم الثأر •

وهؤلاء المسيحيون قد خدعوا انفسهم بظنهم (ان خطى همايون) سيصبح حقيقة • فقد فكروا بنشوة فى مستقبل المساواة المدنية والعسكرية والسياسية مع زملائهم الرعايا المسلمين ، وهى الحقوق التى نص عليها لهم هذا القانون • وكانوا يشرئبون الى الوقت الذى يسمح لهم فيه بمقتضاه ان يدخلوا فى خدمة الدولة ، وعلى ذلك تقدموا برغبتهم فى الدخول الى الجيش • ولكنهم اخبروا ان خدمتهم غير مرغوب فيها • وفى نفس الوقت وصلتهم الاخبار انهم سيكونون موضوع ضريبة سنوية تقدر بعشر شلنات لكل شخص بدل الخدمة العسكرية •

وقد تساءلوا مع انفسهم قائلين « ماذا ! هل هذا هو كل ما استطاع اصدقاؤنا وحماتنا ، الدول الاروبية العظمى ، ان يفرضوه على الترك باعلان (خطى همايون) ؟ الم يستطيعوا ان يحققوا سوى السخرية والاستهزاء لانفسهم ، وزيادة فى الانحطاط والمهانة لنا ؟ » انهم لم يصدقوا ما حدث • وكانوا على يقين من ان الخطأ سيصلح • فاحتجوا ورفضوا دفع الضريبة •

وسرعان ما لاحظ مسيحو جبل لبنان ، وهم مصيبون فيما لاحظوه، الموقف العدائي الذى عبر عنه الدروز نحوهم • وعلموا بسرعة ان الترك سيلعبون

لعبتهم القديمة باطلاق الحبل على الغارب لهذه القبائل ضدهم • وماذا كان عليهم ان يفعلوا ؟ لقد سلحوا انفسهم الى اقصى حد ، وكانوا على حق فيما فعلوا • ومن جهة اخرى كان الاتفاق التركي ـ الدرزي قد كمل • هكذا كان الوضع بين الترك والرعية ((7) في سورية سنة 1859 •

وفي الحال بعثت السلطات التركية في هذا الاقليم الى اولى الامر في اسطانبول عن السلوك التمردى للمسيحيين وعن النغمة الادعائية العامة التي اعلنوها • وجاءت التعليمات صريحة بوجوب « زجر » المسيحيين • وكان هذا التعبير يبدو بسيطا، ولكن الذين وجه اليهم فهموا جيدا معناه التآمرى•

يحكى انه ذات مرة كان احد السلاطين الترك داخلا جوسقه فلفت انتباهه شاب وسيم الطلعة ظريفا كان ابن احد وزرائه • فاقترب منه وربت على وجنته ثم امر يده على ذقنه • ولكن الولد ، الذى احس بالمشاعر التي حركت هذا الانتباه اليه استدار وابتعد عن هذه الملاطفة بجفاء مهين ، فنظر السلطان الى الوالد وقال بحدة « ان ولدك يجب ان يزجر ، وفي نفس اليوم قطع رأس ذلك الولد • انه قد « زجر » وهذا ما يدعى في التعبير الشرقي « بالزجر السلطاني » •

وفي شهر ماى ، سنة 1860 اندلعت الحرب الاهلية بين الدروز والمسيحيين، وهي الحرب التي اوقد نارها وجد في ايقادها الترك • وفي مدة شهر ونيف اصبح لبنان مسرحا واسعا للمذابح والحرائق • وفي لحظة سوداء سمح المسيحيون لانفسهم ، رغم تفهمهم ان يخدعوا بالدعاوى الرسمية للباشوات والعقداء الاتراك الذين كانوا يشهدون الله على انهم هناك ليعملوا كوسطاء • فتوجه المسيحيون بالمئات الى مختلف المراكز العسكرية التركية المنبثة في الجبل ، وكانوا يتوقعون بفارغ صبر اشارة السلام • وهناك طلب منهم بلطف ان يسلموا اسلحتهم ، علامة على الثقة ، ثم حشروا في ساحات مفتوحة او في غرف صغيرة ، حسب طبيعة المكان الذى هم فيه ، واعطوا الضمانات بانهم في أمن حقيقي • وبعد ذلك بقليل وقع عليهم الدروز والجنود الاتراك وذبحوهم جميعا • لقد كانوا قد « زجروا » •

ثم جاء دور « زجر » مسيحيي دمشق•وارسل عبد القادر ، الذى كان يجهل تماما المؤامرة التركية ـ الدرزية الكبرى ، الرسل الى بعض اصدقائه من

---

7) يبدو ان تشرشل يقصد بلفظ « الرعية » هنا رعايا السلطان من غير المسلمين •

مشائخ الدروز عند بداية الحرب الاهلية في لبنان ، داعيا لهم ان يكونوا رحماء معتدلين . ثم حانت المناسبة له ليرى ويسمع عن الحوادث القريبة منه . فقد كانت الاشاعات تنتشر كل لحظة على ان مسلمي باشاليك دمشق يعتزمـون القيام ضد المسيحيين .

وكان عبد القادر في اول الامر لا يصدق . ولكن الجزائريين كانوا يأتون اليه يوميا ويكررون له حديث المدينة المخيف . وكثير منهم ، الذين تأثروا بما كان يجرى ، قد طلب منهم ان ينضموا الى المؤامـرة . فـذهب الى العلـماء وترجاهم ان يستخدموا نفوذهم لدى الاهالى لتبريد المشاعر وتفادى مثل هذه النكبة المهولة . وكتب رسائل مستعجلة فى نفس المعنـى الى علمـاء حمص وحمـــــاه .

وعندما وصلته الاخبار من ان بعض الفرق الدرزية المتجولة كانت تتقدم بخرابها نحو دمشق ، اسرع بارسال الرسالة الجماعيـة التاليـة الى جميـع شيوخهم البارزين :

« الى شيوخ الدروز في جبل لبنان وفى سهول وجبال حوران . اننا دائما ندعو لكم بالسعادة الدائمة والهناء المستمر .

« انكم تدركون صداقتنا لكم واهتمامنا بالصالح العام لجميع عباد اللـه . فاصغوا الى ما نقوله لكم واقبلوه واعتبروا بنصيحتنا اليكـم . ان الحكومـة التركية وكل الناس يعرفون عداوتكم القديمة نحو مسيحيى جبل لبنان. وقد تتصورون بان الحكومة لن تحملكم كل مسؤولية الحرب التى تدور الآن بينكم وبينهم . وقد تقبل الحكومة عذركم .

« ولكنكم اذا قمتم بهجوم على مكان لم يكن سكانه في يوم من الايام اعداء لكم فاننا نخشى ان يكون هذا التصرف سببا فى قطيعة خطيرة بينكم وبين الحكومة . انكم تعلمون كم نحن نتمنى الخير والسعادة لكم ولجميـع سكـان بلادكم . ان الحكيم هو الذى يقرأ العواقب قبل ان يخطو خطوة في الطريق.
« ان بعض فرسانكم قد قاموا بالنهب في ضواحى دمشق . وان مثل هذا السلوك غير جدير بقوم تميزوا بشعورهم الخير وسياستهم الحكيمة . اننـا نكرر لكم باننا لا نسعى الا لخيركم واننا نتالم لاى خدش يصيب اسمكم .

عبد القادر بن محيى الدين
ماى ، : 1860 »

ثم لجأ عبد القادر الى الحاكم احمد باشا وعبر له عن مخاوفه . واكد له الباشا بان ليس هناك ما يدعو للخوف ، وان كل الاخبار لم تكن سوى محض اشاعات وكرر الذهاب ثانية وثالثة الى الحاكم وجدد له مخاوفه ، ولكن بدون جدوى ، واخيرا سمح الباشا بتوزيع بعض الاسلحة على اتباع عبد القادر ، ولكن دون اعطاء اى رخصة لاستعمالها مهما كانت الظروف .

وفي ضحى التاسع من يوليو هرع جزائريو عبد القادر اليه وانفاسهم تتقطع واخبروه بان المدينة قد قامت . ودون ان يضيع لحظة واحدة خرج في اتجاه المدينة وامر قومه باتباعه . وبعد مسافة التقى بمجموعة من الاهالي المسلمين الساخطين متجهين نحو الحي المسيحي . فاصطف هو ورجاله وسط الشارع . وتوقفت الغوغاء دونهم . وتلا ذلك هدوء . وخطب عبد القادر في المتظاهرين وعاتبهم وسعى الى اقناعهم ببشاعة الجريمة التي هم مقدمون على ارتكابها . وترجاهم ان يتعظوا ويعودوا ادراجهم .

لكنهم صرخوا قائلين « ماذا ! انت الذي كنت اعظم ذباح للمسيحيين تأتي لتمنعنا من ذبحهم هنا في مدينتنا ؟ ابتعد عنا ! »

فصرخ هو فيهم مجيبا لهم « اذا كنت قد ذبحت المسيحيين فان ذلك كان طبقا لتعاليم شريعتنا . وهم المسيحيون الذين اعلنوا على الحرب والذين كانوا مدججين بالسلاح ضد ديننا » .

فاجابه المتظاهرون « ابتعد ، ابتعد ! » واندفعوا الى الامام . وخلال ثلاث ساعات كان الحي المسيحي عبارة عن ورقة تشتعل في مهب الريح . وكان الحر ، مشحونا بانين المعذبين وصياح المصابين يمتد فوق المدينة كلفح من الجحيم .

وكان الباشا قبل ذلك بعدة ايام قد ادعى بانه سيحمي المسيحيين بوضع فرقة من الجنود الاتراك في حيهم-وقد ارسل الآن الاوامر لجنوده بالانسحاب، فتخلوا عن الاسلحة ونهبوا . فهب عبد القادر للنجدة . لقد التف حوله حتى الآن حوالى الف من الجزائريين . فكان يحرس الشوارع الملتهبة . وكان رجاله يذهبون من منزل الى منزل منادين « ايها المسيحيون ، تعالوا لا تخشوا منا . اننا رجال عبد القادر ، واننا هنا لانقاذكم ! تعالوا ، تعالوا ! »

ولم يستجب احد في البداية . ان هؤلاء الضحايا المنكوبين كانوا يخشون خيانة جديدة . ولكنهم شيئا فشيئا وبعد ضمانات مؤكدة وجادة ، استعادوا

تقتهم • فخرج الرجال والنساء والاطفال يرتجفون ويزحفـون من مخابئهـم • لقد كانوا مختبئين في الآبار واحواض الغسيل ومجارى المياه • وبمجرد مـا أمكن جمعهم معا أسرع بهم جنود عبد القادر الى منزله ، وساروا بهم في شكل تربيعات مستطيلة ، اعدها الجزائريون لحمايتهـم في الطريـق من الاهانـة والهجـــوم •

وعاد عبد القادر الى منزله ، بعد ان اوشك عـدة مـرات على الاختنـاق • فوجده قد غص بهم • فطلب من جيرانه الاقربين ان يخلوا منازلهم لتوفيـر المأوى الى هؤلاء الفارين المنكوبين • ولكن موجة الفارين كانت ما تزال تتدفق حتى ضاق المكان بهم • واقترح على المسيحيين كآخر حل ، ان يرسل بهـم الى القلعة التركية لحمايتهم • ولكن صرخة مدوية من الجميع علت عند سماع هذا الاقتراح • وجثت تلك المخلوقات المسكينة وصاحت في نحيب يمـزق الاكباد واشارات عصبية قائلة «نتوسل اليك بالله يا عبد القادر ان لاترسلنا الى الاتراك ! نتوسل اليك بأمك ! بزوجتك ! باطفالك ! انقذنا يا عبد القادر من الترك ! » •

وحاول عبد القادر ان يهدىء روع المتوسلين ويكفكف دموعهم • فتعهد لهم بالامن وعرض ان يذهب معهم شخصيا الى القلعة • وقال انه ما دام حيا لن تمس منهم شعرة من رؤوسهم • وبعد ذلك رضـى المسيحيـون بالذهـاب ، بقلوب كئيبة وهواجس حزينة وقاد عبد القادر شخصيا هذا الموكب الحزين وكان الجزائريون يمشون على جانبى الموكب ومن خلفه وكان يسير بسرعة • وكان يسود المدينة الكبيرة جو غير عادى من البشاعة • وكـانت الاسواق كلها مهجورة وقد تحولت الى ميدان للحرس المتجول وكانت تتصادى باصوات جنائزية حزينة • ووصل الموكب قبل الغروب بقليل الى القلعـة التى كانت تبعد بحوالى ميل • وادى عبد القادر الامانة ونظر الترك اليه بشزر •

واستمر الجزائريون عدة ايام في حراسـة المسيحييـن المشردين ، فـى مجموعات من عشرين وخمسيـن ومائـة ، الى نفس المكـان • وبينمـا كان المسيحيون في طريقهم كانوا جميعا يقولون « لا تتركونا تحت رحمة الترك ! عودوا الينا ! ابقوا معنا ! ان الترك سيقتلوننا ! » والواقع ان مخاوفهم كان لها ما يبررها •

وفي اليوم الثالث ، عندما اكتظت الساحة الواقعة داخل القلعة بالمسيحيين حيث بلغوا بعض الآلاف من كل الطبقات والاعمار والجنس ، قسمهم الاتراك

ببرودة الى مجموعتين كبيرتين ، رجالا ونساء ، احداهما عينت للذبح ، والاخرى احتجزت للاغتصاب ، ولم يكونوا ينتظرون سوى وصول الدروز الذين كانوا ينتظرونهم بفارغ صبر ويتوقعون وصولهم في اية لحظة ، لكي يتعاونوا معهم على هذا العمل الجهنمي ٠

ولكن عبد القادر ، في هذه المرة ايضا ، قد منعهم وافسد عليهم خططهم الشيطانية فقد كان قد سمع بقرب وصول الدروز : فركب وخرج لملاقاتهم ٠ فالتقى بهم في قرية الاشرفية في ضواحي المدينة ٠ وهناك تحادث مع شيوخهم، وحاول ان يصرفهم عن غرضهم الدموي ويرجعهم الى الصواب والعقل، ونجح بنفوذه الشخصي وبيانه وحججه ٠

وقد استمر في عمله الشاق عشرة ايام ، وذات مرة اقتربت الغوغاء من منزله وصرخوا باصوات جنونية مطالبين بتسليم المسيحيين الذين كانوا بداخله اليهم ٠ فانتضى سيفه في الحال وخرج ، مرفوقا بعدد كبير من اتباعه لمواجهة الغوغاء وقال لهم « ايها الملعونون ! هل بهذه الطريقة تشرفون النبي؟ صب الله لعنته عليكم! عار عليكم عار! انكم ستعيشون وتندمون على فعلكم ٠ هل تظنون انكم تفعلون ما تشاؤون بالمسيحيين٠ ولكن سياتي يوم القصاص٠ ان الفرنجة ما زالوا سيحولون مساجدكم الى كنائس٠ انني لن اسلم اليكم مسيحيا واحدا ٠ انهم اخوتي ٠ فتقهقروا والا امرت رجالي باطلاق النار » فانسحبت الغوغاء ٠

وعندما رجع الى مركزه كان لا يتخلف عن المراقبة القلقة بالنهار والحراسة اليقظة طوال الليل ٠ وكان له زربية مفروشة عند مدخل الباب ، وعلى هذا الفراش الخشن كان يسترق احيانا استراحة قلقة ، ولم ينسحب تماما ابدا ٠ فقد كان يشعر ان حضوره الشخصي كان ضروريا لضمان الامن للجميع ، وكان تيار المشردين لا يتوقف ٠ وكان يطلب من عبد القادر في كل لحظة ان يشكل حرسا للحماية او يوزع المواد الغذائية على الآلاف المتجمعين تحت سقفه ٠

وكان القناصل الاروبيون قد هربوا اليه بعائلاتهم منذ اليوم الاول ، تاركين قنصلياتهم تحترق وراءهم ٠ وكان القنصل البريطاني هو الوحيد الذي ظن نفسه في أمن حيث كان يعيش في حي اسلامي ٠ ولكنه ، زيادة في الاحتياط ، ارسل الى الباشا طالبا منه ان يرسل الجنود الاتراك لحراسة منزله وبناء على ذلك ارسل الباشا فرقة من الجنود لحمايته ٠

وبعد وصولهم بقليل جاءه احد شواشه واخبره بان يحذر ٠ فقد سمع محادثة بين الجنود الاتراك ٠ وكانوا يتحدثون عن التسلل الى القنصلية وقتل كل احد يجدونه داخلها ٠ وبعد مداولات بسيطة تقرر ان عبد القادر هو الملجأ الوحيد الذى بقى ٠ وبناء على ذلك ارسل فى الحال رسولا الى عبد القادر ، متوسلا اليه فى تقديم مساعدة مستعجلة ٠ وامام استغراب واندهاش الجنود الاتراك ظهر فجأة سبعة عشر جزائريا ، وكان يبدو انهم يحلون محل الجنود الاتراك ٠ وخاف الاتراك ، واحبطت مؤامرتهم الدموية ٠ وضمنت سلامة القنصل البريطانى ٠ ان تدخل عبد القادر كان حقا فى الوقت المناسب وكان فى نفس الوقت تدخلا الهيا ، ولو مرت بعض الدقائق الاخرى بدون تدخله لواجه القنصل ومساعدوه وعائلته **القتل على يد حراسهم الاتراك !** (اصلى) ٠

ورغم ان الجمهور الاعظم من المسيحيين كانوا قد ارسلوا الى القلعة ، فان القناصل وعددا كبيرا من الطبقات الغنية قد بقيت فى رعاية عبد القادر وكرمه اكثر من شهر ٠ ولكن هذا الجمع الحاشد تفكك شيئا فشيئا ، متجها فى موجات متلاحقة ، ودائما تحت حراسة الجزائريين ، الى بيروت ٠

وبعد ذلك استطاع عبد القادر ان يستريح ٠ فقد انقذ خمسة عشر الف نسمة ينتمون الى الكنيسة الشرقية من الموت ، بل مما هو اسوأ من الموت ، بشجاعته النادرة ، ونشاطه الذى لا يكل ، وحماسه المتحرر ٠ فكل ممثلى الدول المسيحية ، الذين كانوا يقيمون عندئذ فى دمشق ، مدينون ، بدون استثناء ، لعبد القادر بحياتهم ٠ انه لقدر غريب وفريد من نوعه ! ان عربيا قد وضع درعه الواقى فوق كرامة اوروبا الجريحة ٠ وان حفيد النبى قد وقى وحمى قرينة (اوروبا) المسيح ٠

الفصل الرابع والعشرون

(1864-1860)

ان السلطات التركية في دمشق كانت تعمل بأمر فؤاد باشا ، وقد سجلت شعورها نحو تدخل عبد القادر الانساني لصالح المسيحيين بارساله امرا بوجوب تسليم الجزائريين اسلحتهم • ولكن عبد القادر رفض الامر على انه اهانة واحتج على ذلك • وكان رده على هذا الاجراء « ابدا ، لن اخضع لهذا الامر الى ان يعلن فؤاد باشا رسميا انني ورجالي قد أسأنا استعمال اسلحتنا وفي هذه الحالة فانني سأتركه يبرر سلوكه بما يراه انسب له مع الدول الاروبية التي باركت عملي » •

ولما كان عبد القادر مؤيدا بقوة من جهة اخرى (1) ذات نفوذ ، فانه نجح في اتقاء الاهانة التي وجهها الترك ضده عن عمد وسوء نية • ان الدوافع التي كانت تحرك فؤاد باشا ، والسلطات التركية عامة ، قد اصبحت اذن واضحة • ذلك ان هذه السلطات كانت قد بدأت حملة عامة لتجريد سكان دمشق من السلاح ، وجمعت حوالي ستمائة بندقية عند ما اصدر فؤاد باشا امره المذكور الى عبد القادر • وعند ما فشل الترك في الحصول على اسلحة عبد القادر واتباعه عدلوا في الحال عن حملة التجريد من السلاح • وكان من الواضح اذن هو ان هذا الاجراء كان تعلة لالحاق الاهانة بالشخص الذي دافع عن المسيحيين •

وقد غطت الدول المسيحية عبد القادر بأرقى اوسمة الاعتراف والاعجاب • فقد انهالت عليه الرسائل والهدايا والاوسمة من كل جهة فأرسلت اليه فرنسا النطاق الكبير المعروف بوسام الشرف ، وارسلت اليه روسيا صليب

---

1) الغالب انه يقصد فرنسا •

النسر الابيض الكبير . وارسلت اليه بروسيا صليب النسر الاسود الكبير، وارسلت اليه اليونان صليب المنقذ (المسيح) الكبير، وارسلت اليه تركيا الوسام المجيدي من الدرجة الاولى ، واما انكلترا فقد ارسلت اليه بندقية ذات فوهتين مرصعة بالذهب ترصيعا جميلا ، كما ارسلت اليه امريكا بندقيتين مرصعتين بالذهب ايضا ، وارسلت اليه منظمة (الفريماسيون) في فرنسا نجما عظيما. وكانت جميع هذه الاوسمة والهدايا مرفقة برسائل الشكر .

ولكن سلوك عبد القادر ، الذي قام به وسط المناظر الفظيعة التي جرت اثناء جور التعصب التركي ، لم يثر موجة من الاعجاب العميق والثناء الحسن والفرحة العارمة في العالم المسيحي فقط . ففي العالم الاسلامي ايضا ظهر شعور عميق من الاستغراب والاستنكار ضد العمل الانتقامي والحماقة العمياء، والحقد الدموي المعادي للمسيحيين من دولة اسلامية كانت تزعم بانها تتبع ارقى مبادىء الحضارة الاروبية بينما كانت تمارس الاعمال البشعة بل البربرية التي لا تؤيدها او تنص عليها اكثر النصوص القرآنية شدة وصرامة .

وان هذا الشعور قد وجد افصح تعبير عنه في شخص بطل القوقاز الشهير. فقد كتب شمويل (2) ، من منفاه في روسيا ، الرسالة التالية الى عبد القادر .

« الى الذي اصبح معروفا لدى جميع الطبقات العليا والدنيا ، والذي يقف متميزا عن جميع الرجال بميزاته العديدة ، والذي اطفأ نار الفتنة قبل ان تمد السنتها ، والذي اجتث شجرة العداوة التي لم تكن ثمرتها في الواقع سوى راس الشيطان ، الحمد لله الذي كسا خادمه بالقوة والايمان ! ونعني بذلك الصديق المخلص الحقيقي ، عبد القادر العادل . السلام عليكم ! وجعل الله شجرة الشرف والجدارة دائما مثمرة في شخصكم ! .

« اعلموا انني عندما سمعت بما تمجه الآذان وترفضه الطبيعة الانسانية — وانا اشير بهذا الى الحوادث التي وقعت اخيرا بين المسلمين والمسيحيين حين أظهر الاولون سلوكا غير جدير بعلماء الإسلام ولا يمكن ان يؤدي الا الى كل نوع من انواع التطرف — تمدد امامي شريط الاحداث الذي صار به وجهي المعروف بالهدوء والاطمئنان مغطى بغشاوة من الحزن . فصرخت في نفسي : يا لله ان الشيطان في البر والبحر نتيجة الشر والضلالة الكائنة في الانسان.

---

2) هو محمد شمويل القوقازي (الدغستاني) الذي كان عندئذ في المنفى . وقد تدخل الامير لاطلاق سراحه لدى نابليون الثالث وقيصر روسيا فتم ذلك وذهب شمويل الى الحجاز ومات بالمدينة ، وكان قد تجاوز السبعين .

« لقد استغربت من عمى المسؤولين الذين انساقوا وراء هـذا العمـل ، ناسين كلمات النبى صلى الله عليه وسلم : **الا من ظلم معاهدا او انتقصه حقه او كلفه فوق طاقته او اخذ منه شيئا بغير طيب نفس فانـا حجيجـه يـوم القيامة (3) (اصلى) ·**

« يا للكلمات السامية ! ولكنى عندما سمعت انك حميت اهل الذمة بجناح العافية والرحمة ، وانك وقفت بنفسك ضد الذين كانوا يعملون عكس مـا امر به الله تعالى ، وانك احرزت ثمرة النصر فى ميدان الفخر ـ وهو النصر الذى استحققته عن جدارة ـ اثنيت عليك لان الله تعالى سيثنى عليك يـوم لا يغنى مال ولا ولد · حقا لقد انجزت كلمة اعظم رسول ارسله الله تعـالى رحمة للعالمين ووقفت سدا ضد اولئك الذين رفضوا ان يقلدوا مثاله · حفظنا الله من الذين يتعدون حدوده ! ··

وما دمت لا اطيق صبرا على التعبير لك عن اعجابى بسلوكك ، فانى اسرع بتوجيه هذه الرسالة اليك كقطرة مما اكنه لك من عواطف الاخوة والاعجاب ·

« من سوء الحظ ، الذى باتباعه تعاليم سيد الخلق اجمعين ، وقع فى ايدى الكفـار ·

شمويل ، المنفى » ·

ورد عبد القادر على هذه العاطفة المتدفقة بقوله :

« الحمد لله رب العالمين ! وصلى الله على سيدنا محمد وعلى الانبياء والمرسلين

« ان هذه الرسالة من الفقير الى ربه تعالى ، عبد القادر بن محيى الديـن الحسنى ، الى اخيه وصديقه فى الله الامام شمويل · كان اللـه لنا ولـه فـى الظعن والاقامة ! سلام الله عليكم ! ·

« لقد وصلتنا رسالتك الكريمة واثلجت كلماتك الطيبة صدورنا · ان ما سمعته عنا وما اثار اعجابك بنا بخصوص دفاعنا عن المعاهدين والحماية التى وفرناها لهم فى اشخاصهم واملاكهم ، طبقا لامكانياتنا وقدرتنا ـ كل ذلك ، كما تعلم ، لم يكن الا تنفيذا لمبادىء شريعتنا الطاهرة والمقتضيات الانسانية،

---

3) لم اترجم هذا الحديث وانما اخذت نصه عن (تحفة الزائر) ج 2 ، ص 115

حقا ان شريعتنا تأكيد لكل ما هو خير وهى تشتمل على جميع الفضائل كالقلادة فى العنق ٠

« ان البغى مذموم لدى كل الاديان ٠ وان من سمح لنفسه بارتكابه كمن وضع غذاء مسموما فى بطنه ٠ ولكن كما قال الشاعر :

يقضى على المرء فى ايام محنته
حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن (4)

فمن الواجب ان نقول انا لله وانا اليه راجعون ٠ عندما نفكر فى قلة اهل الدين الحق ، وفى ندرة حملة وابطال الحقيقة ، وعندما نرى الجاهلين يعتقدون ان مبدأ الاسلام هو الظلم والقسوة والبلادة والجفاء فقد حان الوقت ان نقول صبرا جميلا ولا حول ولا قوة الا بالله ٠

« لقد بلغنا منذ وقت انكم قدمتم على امبراطور روسيا ، وان هذا الامير الذى عاملك بما هو انت اهل له قد صبغ عليك نعمه وغطاك بالتشريف والتكريم بل لقد اخبرنا بانك طلبت رخصة زيارة الحرمين الشريفين ، واننا نسأل الله ان يحقق مطلبك وينجز آمالك ٠

« حقا ان امبراطور روسيا من اعظم الملوك شأنا ، وهو من الذين يرغبون ان يروا اعمال المكارم مسجلة فى الكتب ٠ فنرجو لكم منه اذن تحقيق ما تصبون اليه دون صعوبة ٠ لقد تصرف معنا نحن السلطان نابليون الثالث على ذلك النحو ٠ فقد قام نحونا باشياء لا يمكن ان تخطر فى البال وعلى كل حال فانه فى الله وحده يجب ان نضع ثقتنا ، وهو وحده الجدير بالعبادة والاجلال ٠

عبد القادر بن محيى الدين الحسنى »

ان المجرى الهادىء لحياة عبد القادر قد استأنف الآن جريانه الطبيعى بعد ان شهد اضطرابا مؤقتا نتيجة الاحداث المثيرة التى وان كانت قد هزته فانها لم توقفه ٠ فالبساطة والنظام الدقيق والوعى الثابت الصحيح الذى يقود

4) لم اترجم هذا البيت وانما اخذته عن المصدر السابق ٠

ويؤثر في اعماله ، كلها كانت تعمل طبقا لخط سير وجوده بانسجام له دقة القوانين ٠

فقد كان ينهض ساعتين قبل الفجر وينغمس في الصلوات والعبادة حتى الشروق ، ثم يذهب الى المسجد ٠ وبعد ان يقضي هناك نصف ساعة في الصلاة العامة يعود الى منزله فيتناول وجبة سريعة ، ثم يدخل مكتبته للدراسة الى نصف النهار ٠ وعلى صوت الأذان يعود الى المسجد حيث تكون حلقة درسه قد انتظمت في انتظار وصوله ٠ فيأخذ مكانه ويفتح الكتاب المعين للمناقشة ويقرأ بصوت عال ، وكان يتوقف باستمرار عند طلب تلك التوضيحات التي تفتح المستودعات المتنوعة والمتراكمة لسنواته المضطربة من دراسته الشاقة ومن التحقيق والبحث ٠ وكان هذا الدرس يستغرق ثلاث ساعات ٠

وبعد صلاة الظهر يعود عبد القادر الى منزله حيث يقضي ساعة مع اطفاله، وهم ثمانية بنين (5) ، متفحصا تقدمهم في دراستهم ٠ ثم يتناول الطعام ٠ وعند الغروب يعود الى المسجد حيث يعطى درسا يستغرق ساعة ونصفا ٠ وبذلك ينتهي واجبه اليومي كأستاذ ٠ ولكن ما يزال في اليوم بعض الساعات وهي التي يقضيها في مكتبته ٠ ثم يذهب للراحة ٠

ان عبد القادر شديد الاحتفاظ بتوقيت الصدقات ٠ ففي كل يوم جمعة يشاهد المرء الشارع الذي يقود الى منزله مليئا بالفقراء الذين تجمعوا لاخذ نصيبهم من الخبز في الموعد المحدد ٠ وكان الموتى من الفقراء يدفنون من حسابه الخاص سواء كانوا من حيه او من دمشق كلها، اذا كانوا حقا معوزين٠ ومهما كانت مشكلة العوز فانها لا تحتاج الى اكثر من لفت انتباهه اليها حتى يقوم بحلها ٠ وكان يقدم بانتظام في كل شهر اكثر من عشرين جنيها انكليزيا هبات خيرية ٠

وطالما اشرأبت نفس عبد القادر الى تحقيق امل ورغبة وهي ان يكون قادرا عاجلا او آجلا ، على اكمال واجباته الدينية بتتويجها بعمل آخر من اعمال العبادة ٠ ففي عين المسلم الحقيقي ليس هناك رتبة دنيوية او تقدير يمكن ان يقارن بذلك مثل الميزة العالية التي يطلق على صاحبها « مجاور النبي » ٠

---

5) انجب الامير ستة عشر مولودا ، منهم عشرة بنين ، والباقي اناث ٠ ولا شك ان بعضهم قد ولدوا بعد ان كتب تشرشل كتابه ٠

ولكى يحقق المرء هذه الميزة يجب عليه ان يقيم باستمرار فى مكة او فى المدينة مدة سنتين ، او على كل حال ان يبقى فى الحرمين الشريفين حتى تتعاقب عليه حجتان ويغادر الحجيج بعدهما الحرمين المذكورين · وقد حصل عبد القادر على رخصة من صديقه وولى نعمته ، الامبراطور نابليون الثالث ، لانجاز غرضه الدينى · وعندما سئل ذات مرة كيف يستطيع ان يفصل نفسه فى مثل سنه عن عائلته ، كل تلك الفترة أجاب « حقيقة ان عائلتى عزيزة على، ولكن الله اعز منها » ·

غادر دمشق فى يناير ، سنة 1863 ، وبعد اقامة بعض الاسابيع فى القاهرة سافر بالباخرة الى جدة · ووصل الى مكة فى الوقت المحدد · وهناك استقبله عدد كبير من العلماء والايمة الذين يجعلون من هذا المكان الحرام محل اقامتهم الدائم ، استقبالا مليئا بالاحترام والتقدير · وقد ادر له شريف مكة بغرفتين فى فناء الحرم توضعان تحت تصرفه · وتهاطل عليه الزوار ، وبعد عشرة ايام اعلن ان فترة الاستقبال قد انتهت · وسال ان يترك على انفراد وفى عزلة هادئة ·

وخلال الاثنى عشر شهرا الثانية لم يغادر حجرته سوى للذهاب الى الجامع الكبير · فكل وقته قد كرسه للدراسات الدينية والتعبد والصلاة ، وكان حماس فكره الدينى قد استثير باشد انواع انكار الذات · فلم يسمح لنفسه بسوى اربع ساعات من النوم · ولم يوقف صومه خلال الاربع والعشرين ساعة سوى مرة واحدة ، وحتى عندئذ فانه كان لا يتناول سوى الخبز والزيتون · وكان قد انهك هذا التقشف القاسى الطويل قواه حتى ظهر على بدنه الحديدى · وفى ربيع سنة 1864 اخذ استراحة قصيرة بالذهاب الى الطائف ، وهى مدينة لها موقع جميل فى منطقة جبلية تقع حوالى اربع عشرة ساعة من مكة وتحوط بها الجداول والبساتين اليانعة ·

وعاد من هناك الى جدة حيث ركب سفينة ووصل بها ميناء الرائس خلال خمسة ايام وكان هذا الميناء يقع على بعد ستة ايام بالبر من المدينة وكانت كل المناطق الواقعة بين مكة والمدينة ، والممتدة من الداخل الى ساحل البحر ، مسكونة بقبائل عربية تدعى قبائل حرب·وكانت هذه القبائل شبه المتوحشة خطرا يجب الحذر منه · فقد كان اهلها لا يرتدون الثياب الا قليلا · وكانت جلودهم تشبه الرقوق المحروقة المشققة · وكانت شعورهم الغزيرة الشعثاء

السوداء تتموج بوحشية فوق اكتافهم • وكان لهم قليل من الخيل ، ولكنهم يجرون كالنعام •

وكانت هذه القبائل في حرب دائمة مع الترك • فليس هناك قافلة تجتاز هذه المناطق الخطيرة دون حراسة مشددة • وقد آل هذا الواجب الى الجنود الاتراك الذين كانوا يحتملون التهكم والتعبير بقلوب كانت تخونهم من الخوف • ذلك انهم في معظم الاحيان كانوا يهاجمون ، وفي أغلب الاحيان ايضا كانوا ينهزمون ، وفي بعض الاحيان كانوا يقتلون ، وتصل القافلة غايتها عريانة وفارغة الوطاب •

ومنذ امد طويل كان اسم عبد القادر كلمة شائعة على السنة عرب قبيلة حرب • وعندما سمعوا بوصوله الى ميناء الرائس ارسل اليه شيوخهم وفدا يطلبون منه ان يسمح لهم بالقدوم اليه لتحيته • فرد عليهم بانهم ما داموا في حرب مكشوفة مع الحكومة التركية وما دام بعض الاتراك الرسميين معه في هذه الرحلة الداخلية ، فانه يرجوهم ان يعفوه من قدومهم اليه • فاعترفوا بالحرج الذى هو فيه ولم يصروا على طلبهم • ولكنهم من اجل عبد القادر فقط ، ولمرة واحدة فقط ، سمحوا للقافلة ان تمر بين ميناء الرائس والمدينة بدون ادنى اذى • اما القافلة العائدة فقد تعرضت الى الهجوم والنهب وقتل حرسها التركى عن آخره •

وقد بقي عبد القادر في المدينة اربعة اشهر ، مستأنفا العمل الذى كان قد مارسه بينما كان في مكة قرب قبر النبى • وكان حارس الضريح النبوى يطلب منه دائما ان يفحص الاشياء الثمينة التى يحتوى عليها : نذور الماس والجواهر والاحجار الكريمة ، والذهب والفضة ، المرسلة من الملوك والامراء ورجال الدين والاعيان من جميع انحاء العالم الاسلامى • ولكن عبد القادر كان يرفض حتى النظر الى هذه الاشياء • فقد كان ينظر اليها على انها تبذير وبذخ لا فائدة منه وسوء تصرف مذنب في الثروة التى كان يمكن استعمالها في اعمال الخير ذات الصالح العام •

وعندما حان وقت رحيله الح عليه عرب قبيلة حرب مرة اخرى بعرض خدماتهم واصروا على ان يرافقوه في سلامة وامن خلال رحلته في الطريق الداخلي التى تستغرق اربعة عشر يوما الى مكة • وكان عبد القادر على استعداد لقبول عرضهم لو لا ان عالمين كانا مرافقين له خافا من تعب السفر

ولما كان لا يرغب في فصل نفسه عن رفيقي سفره ، اضطـر مرة اخـرى الى الى رفض هذه العلامات الدالة على الاطراء وعلى الاخلاص والتعلق بشخصـه فرجع الى الرائس ووصل مكة عن الطريق الذى جاء منه ، فـى الوقت الذى يجب عليه ان يكون حاضرا لاداء شعائر وفرائض عيد الاضحى للمرة الثانية. وبذلك يكون قد حقق وعده وغرضه فالتفت الآن عائدا نحو أهله ، وفى شهر يونيو سنة 1864 وصل الى مدينة الاسكندرية .

لقد نجح عبد القادر فى تحقيق اعلى المراتب الدينية التى تعتبر اساسيـة وجليلة ، بعد عمل شاق وانكار طويل للذات . ومن جهة اخرى اصبح يحمل شعار جمعية تقوم على مبدا الاخوة العالميـة (6) . ان الجمعية الماسونية فـى الاسكندرية قد سارعت للترحيب بالعضو الجديد الشهير . فقد دعى المحفل الماسونى ، المعروف بمحفل الاهرام ، للاجتماع خصيصا لهذه المناسبة ، عشية الثامن عشر من يونيو . وادخل عبد القادر فى هذا النظام الصوفى الغامض. وقد اضيفت الى ميزة « مجاور النبى » ميزة « ماسونى حر ومقبول » ، وهـى العبارة العرفية المستعملة فى هذا المقام .

وبعد ان بقى وقتا قصيرا فى الاسكندرية لكى يكمل الوثائـق المطلوبـة وينتهى من الاجراءات الضرورية للحصول على ملكية واسعـة مـن الارض ، اعطاها له والى مصر (7) ، غادرها الى سورية ، ووصل دمشق فى نهاية شهر يوليو سنة 1864 . وهناك نتركه فى الوقت الحاضر هذا « الرجل العظيـم الكامل » يواصل ذلك الدور الذى يعتبر انه دور مقدر له منذ الازل . وقد قال هو نفسه عن هذا الدور « لقد خط لى بالميلاد والتربية والميل ، انه دور طالما اشرأبت نفسى لاستئنافه ، وطالما صليت الى الله ان يسمح لى بالعودة اليه ، الآن وقد قاربت سنوات عمرى الشاقة نهايتها » .

ورغم ان هذا هو الدور الذى تصور عبد القادر انه مخلوق له فان قوة الهية قاهرة قد قررت غير ذلك . ان دوره ، كما هو معروف لدى الخاص والعـام ، ليس له مضاه فى اخبار الرجال العظماء غير العاديين ، لظهوره المفاجىء غير المتوقع ، ولتنوع مراحله وغرابتها ، ولادوار تطوره غير المنتظرة . فلم يكـن هناك دور اكثر نموذجية للغز الوجود الانسانى ، ولا اكثر تعبيرا عن حقيقة

---

6) من الواضح ان المؤلف يمدح هنا الجمعية الماسونية ، ولكن دورها لم يكن كذلك كمـا هـو معروف .

7) هو الخديوى اسماعيل باشا .

قولة الرجل الحكيم حين قال « ان رحيل الانسان من امر الله ، فكيف اذن يستطيع الانسان ان يفهم طريقه ؟ » من دور عبد القادر ٠

ويمكن الآن اختصار ذلك الدور في الجمل القليلة الآتية فهناك شاب مسلم عربي كرس نفسه للعمل الديني في معزل عن الناس ٠ ولكن ازمة حلت ببلاده كان فيها مصيرها فناداه الواجب من معزله ووضعه على رأس الاحداث ٠ وانبعثت بذور عبقريته الكامنة دفعة واحدة في كامل النضج ٠ وسطع نجمه في عظمة لا تقارن كداعية وزعيم للجهاد ضد اعتداء دولة مسيحية ، وصد جيوش هذه الدولة مدة خمس عشرة سنة ، بقوة ادنى بكثير من قوتها ، ولم يجندها الا بحماسه النارى الذى عرف كيف يستخدمه للحفاظ عليها ٠ وقد ارغم عدوه مرتين ان يعترف له بامتيازات في بنود الصلح ، وان يحييه بالقاب السيادة ٠

وفي نفس الوقت كان يقيم ويكون ادارة داخلية كانت بسرعة تحل محل الفوضى المتناهية والاضطراب ، وقد اصبحت مثالا للقانون والنظام والعدل٠ ووضع الاسس لدولة اسلامية ٠ واعطى في شخصه لرعاياه نموذجا للشجاعة والقوة والنشاط والمثابرة والورع والحماسة ٠ ثم خضع لاعداد لا طاقة له بها ٠ فاستسلم الى خصومه المسيحيين بشروط واضحة ، وهي ان يحملوه في حرية تامة وغير محدودة الى ارض اخرى اسلامية ٠

ولكن اعداءه خافوه فحملوه الى بلادهم ٠ فرمت به حكومتهم في سجن يائس كان يبدو انه سيكون له سجنا مؤبدا ٠ غير ان اميرا تدعمه عبقرية ، كعبقريته ، بثقة لا تتخلف وايمان راسخ نتيجة الحظوظ المتقلبة ، قام بانقلاب على الحكومة ووصل الى سدة الحكم ٠ وأعادت مروءة ذلك الامير الى عبد القادر حريته ٠

ثم ان هذا البطل الاسلامي اللامع غير المسلوم قد اخذ ، في دورة عجيبة من دورات الحظ ، مكانة ممتازة وبارزة في العالم المسيحي ، فقد اصبح عضوا في كثير من جمعياته الادبية والعلمية ، تراسل على قدم المساواة والصداقة مع اشهر رجاله ، واخيرا عند نهاية دوره البارز رأى صدره مغطى باوسمة ذلك الدين الذى كان في البداية قد جرد سيفه لمقاومته وتحديه ! حقا انه لدور بلا مثيل في التاريخ (8) ٠

---

(8) لا شك ان الامير لم يحارب الدين المسيحي هكذا ولكنه حارب الاستعمار بجميع اشكاله ٠

ان الذين قد تمعنوا فى الصفحات الماضية سيجدون كثيرا من الاسباب التى تدعو الى الاعجاب والتامل • ولكن من المفيد لهم ان يتذكروا ، امام المثال الذى بين ايديهم،قصر النظر المتناهى وعدم التأكد فى جميع التقديرات الانسانية • وفى نفس الوقت سيتعلمون ويتهذبون ويتشجعون بالدليل القاطع الذى يقيمه وهو ان الدوافع الوحيدة للعمل الانسانى ، الدوافع الحقيقية التى تولد القوة الذاتية والسلام ، هى الشعور الدائم الحى بالواجب، والثقة التامة المبتهجة المتواضعة فى الله •

الملاحق

رسالة الأمير إلى المؤلف *

« الحمد لله وحده

سعادة حلو الشمائل ، جامع اشتات المحاسن والفضائل ، السيد الكولونيل تشرشيل ، اما بعد السلام والسؤال عن الشريف خاطركم فانه وصلنى عزيز كتابكم معربا عما لنا عند جنابكم فالله يجازيكم باحسن الجزاء ويجعل حظكم الاوفى الاوفر من السعادة الدائمة بين الحظوظ والاجزاء ، وانه ما منعنى من رد الجواب بسرعة الا مرض اصابنى كان عاقنى عن الخروج الى المسجد اياما ، والا فالمبادرة بجوابكم عندنا آكد المؤكدات وشكر احسانكم علينا من الزم اللازمات ، ونحن سائلون عن كل من تعلق بكم ولاذ بجنابكم نسال الله ان يصلح لنا جميعا الاحوال ويوفقنا جميعا للخير وصالح الاعمال والسلام من عبد القادر بن محيى الدين غرة جمادى الاولى 1273 » .

الختم
عبد القادر بن محيى الدين
271

* اوردها المؤلف بالعربية ثم ترجمها الى الانكليزية . وهذا هو نصها العربي الاصل . ويوافق التاريخ الهجرى المذكور 25 ديسمبر ، 1856 ميلادية .

نص معاهدة ديميشال

ان الجنرال ديميشال قائد القوات الفرنسية في اقليم وهران وامير المؤمنين سيدى الحاج عبد القادر بنمحيى الدين قررا العمل بالشروط التالية:

المادة الاولى : ابتداء من اليوم يتوقف النزاع بين الفرنسيين والعرب • ان القائد العام للقوات الفرنسية وامير المؤمنين سيبذلان جهدهما ، كل من جهته ، لاحلال الود والاخلاص بين شعبين حكم الله عليهما ان يعيشا تحت نفس السلطة • ولهذا الغرض ، سيرسل امير المؤمنين ثلاثة قناصل من جهته احدهم الى وهران وثانيهم الى ارزيو وثالثهم الى مستغانم ، وسيرسل الجنرال من جهته ايضا ، قناصل الى معسكر لمنع النزاع بين الفرنسيين والعرب •

المادة 2 : ان دين وعادات المسلمين ستكون دائما محل احترام وحماية •

المادة 3 : ان المساجين الفرنسيين سيطلق سراحهم حالا ، وكذلك المساجين العرب •

المادة 4 : ستكون السوق حرة ولن يعترض اى من الطرفين فيهما طريق الآخر •

المادة 5 : كل العسكريين الذين يفرون من عند الفرنسيين يجب على العرب اعادتهم الى الفرنسيين ، وكذلك العرب الذين يفرون من عند العرب

---

* ترجمت هذه المعاهدة من النص الفرنسي الذى قال عنه شارل كوكنبوت Charles Cockenpot بانه ترجمة للنص العربى الاصلى •
انظر كتابه « معاهدة ديميشال » (باريس 1924) (المترجم)

فرارا من العقوبة على مخالفة ارتكبوها والذين هربوا الى الفرنسيين ، سيسلمون فورا في عين المكان الى قنصل الامير في وهران او في ارزيو او في مستغانم .

المادة 6 : كل اروبي يريد التنقل داخل البلاد سيحمل معه جواز سفر عليه ختم قنصل الامير وختم القائد العام للاقليم حتى يكون حامل هذا الجواز محل احترام وحماية اينما حل في البلاد .

نص معاهدة التافنة

النص العربـي

اليتنان جنرال بيجو حاكم جيوش الفرنصيص فى وطن بلاد وهران والامير عبد القادر اتفقوا بينهم على الشروط الآتية بعده

شرط اول : الامير عبد القادر يعرف حكم سلطنة فرانسا فى افريقية ·

شرط ثانى : فرانسا تحفظ لنفسها في وطن بلاد وهران مستغانم ومزغران وساير اراضيها ووهران وارزيو وايضا الحـدود التى نذكرها بعـده شرق المقطع من عند المرجة من اين يخرج الواد وقبله من المرجة المذكورة اعمل خط مساوى قبلة السبخة على نيشان سيدى سعيد لحد واد المالح واهبط مع الواد المذكور لحد البحر بنوع انهذه المذكورة أعلاه جميعها تكونفىيد الفرنصيص·

وفى وطن بلاد الجزاير الجزاير والساحل والوطن متاع متيجـة من جيهـة الشرق لحد واد خضرة الىقدام وقبلة لحد رأسأول جبل حتى واد شفة وداخل فى ذلك البليدة وساير نواحيها وغربا من شفة لحد عكس واد مزفران ومـن هناك خط مساوى لحد البحر ومتضمن فى هذا الحد القليعة وكامل نواحيهـا بنوع ان جميع هذه الحدود المذكورة تكون فى يد الفرنصيص ·

شرط ثالث : الامير يحكم فى وطن بلاد وهران والمدية ونصيب من عمالة الجزاير الذى ما دخلت فى حدودنا وغربا للحدود المذكورة فى الشرط الثانى وما يقدر يحكم غير فى الحدود المذكورة اعلاه ·

شرط رابع : الامير ما يقدر يحكم على المسلمين الذين يحبون يسكنون فى الحدود الذين بيد الفرنصيص وهم مخيرين ان يمشوا يعيشوا فى بلاد حكـم

الامير كما ان السكان في بلاد الامير يقدروا من غير مانع يمنعهم ان يجوا يسكنوا في بلاد حدود الفرنصيص ·

شرط خامس : العرب السكان في بلاد الفرنصيص يتبعوا دينهم بكل حرية ويقدروا يبينوا جوامع ويسلكوا بموجب شريعة دينهم على يد قاضيهم كبير الاسلام ·

شرط سادس : الامير يعطي لجيش الفرنصيص ثلاثين الف ربعي وهراني قمح (كذا) وثلاثين الف ربعي وهراني شعير وخمسة آلاف فرد · وهذا الدفع متاع الحب والفراد يكون لوهران كل ثلث واحدة فاول ثلث يكون بعد ثلاثة اشهر من التاريخ بمدة خمسة عشر يوم الثلثين الاخرين بعد شهرين اعني في كل شهرين ثلث ·

شرط سابع : الامير يشترى من فرانسا البارود والكبريت والسلاح الذى يستحق ·

شرط ثامن : القرغلان الذين يحبون يقعدوا في تلمسان او في موضع آخر يتصرفوا بكل حرية باملاكهم ويعاملهم مثلما يعامل الحضر والذين يحبون يجوا لبلاد الفرنصيص يقدروا من غير معارض لهم ان يبيعوا او يكروا املاكهم ·

شرط تاسع : فرنسا تسلم الى الامير رشقون وتلمسان والمشور والمدافع السابقين في المشور ·

والامير يلزم نفسه ان يرفد ويوصل لوهران كامل القش والعوين والبارود والسلاح متاع عسكر الفرنصيص الذى بتلمسان ·

شرط عاشر : السبب والتجارة يكونوا مسرحين بكل حرية بين العرب والفرنصيص ويقدروا يمشوا من حدود الى حدود في البلاد ويتسببوا ويتاجروا ·

شرط حادى عشر : الفرنصيص يكونوا محروسين موقرين عند العرب كما العرب عند الفرنصيص فالاملاك والبلاد الذين اشتروهم الفرنصيص والذين يشتروهم في بلاد حدود الامير يتصرفوا بهم بكل حرية وضمان والامير يلزم نفسه ان يخلص بزيادة كلما يفسده العرب في هذا الاملاك ·

شرط ثاني عشر : المذنبين اعنى القتلة وقاطعى الطرق والذين يحرقـون الاملاك او غيره يردون من الجيهتين ·

شرط ثالث عشر : الامير يلزم نفسه ان لا يسلم شيء من مراسى البـلاد لجنس من الجنوس الا باذن فرانسا ·

شرط رابع عشر : السبب والتجارة فى اقاليم الجزاير ووهران ما يكـون غير فى المراسى الذين بيد الفرنصيص ·

شرط خامس عشر : فرانسا تقدر تصنع عند الامير وكيـلا وكذلـك فـى البلاد الذى فى حكمه لان يكونوا واسطة بين رعية الفرنصيص لاجل النزاع متاع التجارة او غير ذلك الذى يمكن ان يكون مع العرب والامير يقدر يصنع كذلك فى البلاد ومراسى الفرنسيص ·

كتب برشقون فى 23 صفر عام 1253

المصدر : المجلة الافريقية (1950) كما ترجمها بريسنى Bresnier
(خريج مدرسة اللغات الشرقية بباريس ، واستاذ اللغة العربية فى الجزائر) ·

رسالة الأمير إلى الوزير برنار

(1839)

الحمد لله وحده ،

وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده ٠

(ختم الأمير)

من امير المؤمنين السيد الحاج عبد القادر بن محيي الدين ايده الله بمنه آمين ، الى وزير القرة برنار ، السلام على من اتبع الحق والرحمة والبركة وبعد ٠

فان وزيرنا السيد المولود بن عراش ورد علينا بالسلامة والعافية وشكر صنيعكم واحسانكم معه وفرحكم به فسرنا ذلك غاية السرور ٠ غير ان مارشال الجزائر بعث الينا في هذه الايام على ان يجعل الطريق بين الجزائر وقسنطينة وذلك ينافي شروطنا الاولى التي وقعت بتافنة على يد وكيلكم بيجو وما جعلنا الصلح الا بعد احضار علماء الوطن ومشايخه ومشاورتهم في ذلك فرضوا بما هنالك ولم نجعله وحدي ٠

ولما ورد علينا هذا الامر جمعناهم مرة اخرى الآن وشاورناهم فلم يرضوا بذلك ، وان كنت نحب الصحبة والالفة والصلح معكم فلم يمكنني مخالفتهم لموافقة شرعنا لمرادهم ولا يخفى عليكم حال الرعية اذا ارادوا شيئا لا يمكنني مخالفتهم ٠ وايضا فان الوكيل بيجو كنا قد اتفقنا معه على بعض المسائل فلم يوف لنا بها ٠

من ذلك انا شرطنا عليه ان ينقل من الدوائر نحو الخمسة عشر المشتغلين بالفساد بيننا وبينكم من وهران الى محل بعيد فلم يفعل بعد ان التزم بذلك

وكتب لنا بخط يده ، وان الدوائر الباقية بجهة وهران لا ينزلون الا بارض الحفرة فلم يوف بذلك ، ومن اراد منهم الانتقال الينا فلا يتعرض اليه احد . وشرطنا عليه شراء الف قنطار بارود وثلاثة آلاف مكحلة يدفعها لنا في ثلاثة اشهر فلم يدفع لنا الا شيئا قليلا ، وان بلغك انا لم نوفوا بالحب والبقر فاعلم انا دفعناه ولم يبق الا القليل نحو الخمس . ولما لم يقع الوفاء بالشروط من جهتكم طلب منا اهل الوطن تأخير الباقي الى الوفاء بالشروط عن جهتكم . ومن الشروط الا يتعرض احد لمن اراد الانتقال الينا من جهة الجزائر ووهران فاذا بالتعرض وقع حتى ان بعض الناس نحو المائتين روحا هربوا وتركوا نساءهم واولادهم ومالهم ولما رأى العرب عدم الوفاء بالشروط القديمة قالوا كيف نتكلموا على الشروط الجديدة .

وهذا ما عندنا أخبرناكم به . كتب في 19 ذي الحجة عام (تاريخ غير مقروء) * .

(بدون توقيع)

---

* المصدر : 1673 ، 80 F (دار الارشيف ، باريس) .

---

* ذكر في النص الفرنسي بانها قد وصلت بتاريخ 4 مارس 1839 رقم 3 .

رسالة الامير عبد القادر الى السلطان العثماني عبد المجيد الثاني ، 1841

من الصعب ان يثق الباحث ثقة مطلقة في هذه الرسالة • فلا اسلوبها ولا محتواها يقطعان بانها فعلا من الامير عبد القادر•ورغم ان الاستاذ التميمي قد وضع لفظ (كذا) بعد الكلمات المكتوبة خطأ فما يزال في النص كلمات اخرى خاطئة لم يقع التنبيه عليها • وقد حافظت على ذلك احتراما لمسؤولية زميلي • ويجب التنبيه الى ان النقط المتعددة في النص تشير الى كلمات محذوفة غير مفهومة في الاصل•اما التعاليق فهي من وضعي الخاص• (المترجم)

نص الرسالة :

بسم الله الرحمان الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

من عبد •••• ومقبل ترب اعتابكم المستعطف لرحماكم ، الراجي فضلكم وقضاكم ، خادم حضرتكم ، وخادم المجاهدين ، عبد القادر بن محيي الدين ، منحه الله رضاه ثم رضى رسوله ثم رضاكم في الدنيا ويوم الدين ، آمين •

الى سلطان سلاطين الاسلام ، وحامي بيضة امة محمد عليه الصلاة والسلام، طود الملوك الشامخ وركنهم الثابت الراسخ ، وشمسهم التي تستمد منها كواكبهم والبحر المحيط التي (كذا) لا تخوض لجة مراكبهم ، خير ملك قاد

الجيوش ، ورتب العساكر ، واحكم سلطان اعترف بفضله الحسود والناكر ، عين اهل الايمان التى بها ابصارهم ، وكنزهم وملجاهم (كذا) الحصين الذى به انتصارهم ، شرف المنابر ، وفخر الطروس والمحابر ليث الحروب ..... الكروب . فهو اذا ركب سيد الفرسان ، واذا جلس فنو سياسة اعيت آل ساسان ، الغيث الذى عم البسيطة منه فضل واحسان ، وكان امير الانام بمنزلة الانسان ، وغبن ان يسمى غيره الآن وليس على الله بمستنكر ان يجعل العالم فى واحد ، فلذا كان كعبة الملوك التى اليها حجها وامامها ومنهج نهجها ومحجها ...... من فرع جمع ما فى الاصل وزاد سيدنا وابن سيدنا الى الجد عثمان السلطان عبد المجيد خان (1) ، اعانك الله على ما اولاك ، وكان لك وتولاك ، ونصرك على مر الدهور والازمان ، وسلام على سيدى ورحمة الله وبركاته . وبعد : فالمرغوب اولا العفو عن خطانا (كذا) والاغضاء عن عورات وعثرات كتابنا ، فان ادنى الناس واقلهم لا يحسن بخطاب مثلك لا كن (كذا) الضرورة دعتنا الى ذالك (كذا) وجرانا على مخاطبتك ، ما علينا من حلمك وعدلك ، وانا نهنؤك بالخلافة التى لا يلحقها بحول الله وقوته كدر ، الميمونه .... على جميع الخلايق (كذا) من بشر وشجر وسدر ، ونعزوك (كذا) فى الوالد (2) امير المؤمنين برء الله ضريحه ، واسكنه من الجنان فسيحه ، فالله يعظم لك الاجر ويلهمك الصبر ، ثم انا نخبر سيدنا ونقص عليه من اخبارنا وان كنا نعلم ان علمه محيط بما هو ابعد من انظارنا وذلك ان الينيشارية (3) الذين كانوا بالجزائر ، ولما خرجوا عن طاعة امير المؤمنين والدك المرحوم ، عاقبهم الله بسوء فعلهم ، وسلط عليهم من لا يرحمهم العدو الكافر الغشوم ، (4) فبدد شملهم ، واجتث اصلهم ، وملك القرى والمداين (كذا) واستولى على الاموال والذخاير والخزاين (كذا) ، وسمت به همته ، اخزاه الله ، الى ملك جميع الايالة واسترقاق المسلمين تارة بالمكايد (كذا) والحيل وتارة بالقهر والاستطالة وحال الكافر والبحر بين المسلمين وبين سلطانهم مع شدة حاجتهم الى من يقوم بهم ويدافع عن حريمهم واولادهم

---

1) تولى السلطنة سنة 1839 ، وعمره اذاك ست عشرة سنة ، فيكون الامير يخاطب سلطانا لا يتجاوز عمره الثامنة عشرة .

2) هو السلطان محمود الثانى الذى تولى سنة 1808 ومات طبيعيا سنة 1839 . وقد وقع فى عهده احتلال الجزائر ، وثورة محمد على ، واشتهر باصلاح الجيش والقضاء على الينكشارية .

3) يعنى هنا الاتراك الذين كانوا بالجزائر عامة .

4) يعنى الفرنسيين .

واوطانهم،فعند ذلك استغاث الناس بالسلطان الشريف سيدنا عبد الرحمان، سلطان مراكش ، فبعث الى الوطن ابن عمه (5) مع جيش كثير وصار يمدعم بالمدد الغزير ، فما جعل الله فيهم نفعا ، ولا جاهدوا ولا غنوا عن المسلمين دفعا ،وانقلبوا من حيث جاءوا ورجعوا من حيث فاءوا (كذا) ·

فوقع اذ ذاك الهرج بين المسلمين ، وكثر الخلاف وتقطعت السبل ، وظهر البغي والاعتساف · وكان والدى واسلافنا شأنهم بث العلم لطلابه واطعام الطعام لابناء السبيل وفتح ابوابه مع الاشتغال بما يعنى ······· والتباعد من كل ما يعنى · فلما راى والدى عموم المصيبة فى الدين ، واشتغال المسلمين فيما يلهيهم عن قتال الكفار الملحدين ، بذل جهده فى اصلاح ذات البين ، ورفع الحيرة ، وشن الغارات على الكفار فى كل حين بمن وافقه واطاعه من المجاهدين ·

فلما راى الكفار ذلك ، زاد فى قوته وشدته وتكالب على المسلمين القريبين من حصونه ، واحتاج الناس اذ ذاك الى من يضبط جهادهم ، ويقوم بجميع امورهم ويجمعهم،ويجمع ما به قوام جهادهم ويتكلف سياسة خاصتهم و···

فاجتمعوا (كذا) اعيان الوطن وطلبوا ذلك من الوالد ، فنفر منهم ، نفر البعير الشارد ، مع ما كان فيه من الرحمة على المسلمين والاشفاق · لانه كان اودع اهل الوقت على الاطلاق فطلبوا منه تعيين بعض اولاده لذلك ، فاشار الى ، لما سبق لى من الشقاوة (؟) فى ام الكتاب هنالك (؟) فامتثلت امره وان كان امرا، اذ لم اعص له مدة عمرى امرا ، وشمرت على ساعد الجد والاجتهاد، وبذلت للمسلمين نصحى فى جمع الكلمة والجهاد وصيرت من وجهتى،وجهتين، فتارة بجمع الكلمة وردع البغاة ، وتارة للدفع (كذا) عن المسلمين وقمع الكفار العتات (كذا) ، ودفع الله عن الاسلام بذلك من الشر بعضه ، وشيد من اركان الدين ما كان للكافر يحاول نقضه ، وضيقنا على الكافر المجالات وصاروا لا يأمنون فى جميع الحالات ·

ولما راى الكافر منا تلك القوة والحدة احتال فى حل عزائمنا بطلب الصلح (6) مدة ، فاجبناه لذلك على شروط علو الاسلام فيها ظاهر مضبوط·فتحملها لظنه ان الصلح يحل من المسلمين العزايم (كذا) ويميلون الى ترك الجهاد

5) بناء على تشرشل هو ولد السلطان نفسه ، وقد جاء فى 5،000 فارس الى مدينة تلمسان ·
6) يقصد معاهدة فيفرى ، 1834 المعروفة بمعاهدة ديميشال والتى كانت فى جملتها فى صالح الامير ·

والراحة على الدايم (كذا) فبقي في الصلح نحو سنة ثم غدر وخرج للحرب والمسلمين على حين غفلة وسنة • فبادر للغاية من قرب من المسلمين ، بعدما سار الى أم العساكر من وهران ،رحلتين ، فهزمه الله هزيمة شنعاء كانما ارسلت عليهم ريح عاتية ، فترا (كذا) القوم فيها صرعى • والجاهم المسلمون الى البحر فرموا بانفسهم فيه ، وما نجا من ذلك الجيش مقدار عشره ولا ارجعوا من سلاحهم الا شيئا تفيه (كذا) •

ثم بقوا نصف سنة • وجمعوا قوتهم واستجدوا عدتهم ، وقصدوا ام العساكر فوصلوها بعد حروب لم تبق منهم شجاعا ولا ماكرا فباتوا بها ليلتين، وانقلبوا خاسئين • ثم ذهبوا الى تلمسان باتفاق الينيشرى (7) الذين بها، وما من مدينة من مدن الاسلام دخلها الكفار الا كان الينشارى (كذا) هم دعاتهم اليهم ومرسليها •

ولما فات المسلمين (كذا) قتال الكفار في الذهاب ، اجتمعنا وقتلناهم في الإياب قتالات متعددة بقيت الكفار والمسلمون كانهم خشب مسندة • ثم رجع الى وهران وترك بعض عسكره مع الينشارى الذين بتلمسان ، فاقاموا بها سنة ونصف في ضيق الحصار والهوان ، وخرج الكافر ليبلغهم الزاد ، فتلقاه المسلمون ، وردوه بالهزم والنكاد ، وبقي محصورا على شاطيء البحر شهرين ما درج • والمسلمون كل يوم يقاتلونه حتى جاءه المدد من سيده فخرج •

ولما رءا (كذا) عدو الله ما بلغه من المشقة وما لحقهم من الحصار والقتال مع بعد الشقة • طلب الصلح (8) من المسلمين على مال يدفعه للمجاهدين فاجبناه رجاء ان نستريح لمثلها ونستعد بالسلاح والكراع لنيلها (؟) وقد جعل الله في ذلك للمسلمين صلاحا ولامور الدين نجاحا •

واجتمعت كلمات المسلمين من حدود طاعة الشرفا (9) (كذا) الى حدود تونس • وانتفا (كذا) منها كل شر ولم يبق الا ما يسر ويونس (كذا) ، تسير المراة وحدها مسيرة شهر ، لا تخاف الا الله ولا تخشى من احد نكر (كذا) •

---

7) هم كراغلة تلمسان الذين لم يكونوا على علاقة طيبة مع الامير •

8) يشير الى معاهدة التافنة التي وقعها الامير مع الجنرال بوجو سنة 1837 ، وقد اعترفت فيها فرنسا للامير بحوالى ثلثي الجزائر •

9) اى من حدود المملكة المغربية .

ولما اخذ الكافر قسنطينة من يد الباى احمد (١٥) ولم يبق في مقابلته من ذلك الوطن احد وقع النزاع بيننا وبين الكافر على تلك الايالة ، فالكافر يحتج بماخذها من يد غيرنا وانه افنى عليها امواله ورجاله ونحن نقول المسلمون جسد واحد فاترك امرهم الينا ٠

فانتقض الصلح بيننا واشتعلت نار الحرب (١١) ، ومنذ سنتسان (كذا) لم ينقطع بيننا طعن ولا ضرب وانه في هذه المدة ، خرج الى المدية ، فوصلها بعد احوال سيئة وطوالع رديئة ، جعل ستة وعشرين يوما في مسيرة ست ساعات ٠ وامتلات الارض من قتلى الفريقين بترادف الحملات ، وعجز الناس عن دفن القتلى ٠٠٠٠٠٠٠ بهم الارض ، فهي آية تسطر وتتلى ٠ وكل مدينه قصدها وقع عليها مثل هذا واكثر ، وانا اخبرناك بالاجمال ولو فصلنا لكان في الاستغراب اكبر ٠ وان جيش الكافر المقابل لنا يناهز المائة (كذا) الف، سلاح تام وصواعق و مدافع تصير الواحد ضعيفا ، وانه اذا جمع قوته وقصد بعض المواضع ، فلا نقدر ان نرده ، اذ ليست لنا قوة بارود ولا سلاح ولا مدافع مثل ما عنده لاكى (كذا) يذيقه المسلمون شديد النكال وعظيم القتال٠

فاذا افترقت عساكره في المداين (كذا) والبروج وحاصره المسلمون ومنعوه الدخول والخروج ، فهم لا يامنون في ابواب الجزاير ، وان نساءهم واموالهم ورجالهم واولادهم كل يوم للمجاهدين جزاير ٠ فكل مدينة دخلها وعمروها برجالهم ، اقام المسلمون محلة معدة لحصارهم وقتالهم ، فيبقى جيشهم من وراء الجدارات (كذا) كأنهم نساء مخدرات ، وما وصل حيث وصل بشجاعة جيشه وجلده ، ولاكن (كذا) بكثرة عدده وعدته ، فما قابلهم المسلمون قط وهم ثلثه في العدد وفي بعض المرات ليسوا ربعه بقطع النظر عما له من المدد ٠

ومع ذلك ما ضعفوا ولا وهنوا ولا استكانوا ولا حزنوا مع الضعف الذى لا يحتاج الى شاهد ، مع قلة المال والسلاح ، الذى يعلمه الغايب (كذا) والشاهد ٠

فكم من يوم منحنا الله منهم ادبارا فنفذ ما عندنا من البارود ، فعاد ربحنا خسارا ، واهل هذا الوطن بالاصالة ضعاف منذ عاملهم عمال الجزائر في

---

١٥) وقع ذلك في خريف سنة ١٨٣٧،وظل الحاج احمد يحارب بعد ذلك الى ان استسلم سنة ١٨٤٨

١١) انتقضت معاهدة التافنة سنة ١٨٣٩ ٠

السابق بالظلم الكبير والاعتساف ومنذ ...... العدو الكافر اشغلهم حربه على البيع والشرا (كذا) فهم كلهم يتكففون عالة ، فقرا (كذا) .

لقد نفذت في سبيل الله اموالهم وفنيت في سبيل الجهاد رجالهم ، والكافر لقوته اذا اخذت له محلة، جدد اخرى، واذا هلك له جيش، استخلف بالاخرى (كذا) ، واذا احتاج لشيء ، امده به سلطانه فهو لا شغل له الا تدبير المكايد (كذا) للمسلمين وبما يأمره به شيطانه .

ونحن اسلمنا اخواننا المسلمون ، وتركونا اسارى في يد العدو فهم لنا ظالمون وتبرأ مما (كذا) من كان قريبا من الملوك (I2) ومنعونا شراء ما نتقوى به على الكافر ، خوفا منه ، ومنعونا حتى السلوك .

طلبنا منهم الاعانة بالرجال ، فلم يقبلوا . واستعناهم بالاموال ، فلم يفعلوا . وطلبنا منهم السلف ، فكان عين المحال ، ومنعوا رعاياهم من اعانتنا بكل وجه وحال ، فما نفعنا قريب ولا مجرور ، ولا دافع عنا ذو سيف ولا محاور ، كأن المسلمين ليسوا بجسد واحد ، وكانه ليس الظلم لى الواجد . والمسلمون بهذا القطر لا ينظرون من غيرك افراج ، ولا لهم ملجأ يلجئون اليه غير حصنك العالى الادراج ، فابصارهم لاعانتك وامدادك طامعة ، وقلوبهم بمجتك وذكرك طافحة .

فان قيل مال ، عندك المال وافر . وان قيل جيش ، عندك العساكر البحر. واني وحياتك السعيدة لولا خوفي على المسلمين من العدو ، ما لازمت سكونا ولا هدوء حتى أوقف بين يديك واقص من اخبار المسلمين بهذا القطر عليك. فانهم قد غلقت عليهم الابواب وتقطعت بهم الحبال والاسباب ، ولا بلاغ لهم الا بالله ، ثم بك . وقد استمسكوا بالعروة الوثقى ، وتعلقوا بحبلك وسبيلك ، ومحال ان يرجع كتابهم بعد الوقوف بين يديك صفر اليدين ، او يبقى على معشرهم بعد استمطار غيثك ، دين . فانك الغيث المدرار والبحر الزخار وحضرتكم ، حضرة اغاثة اللهفاء ، وزوال الظمأ ، ومشاهدة طلعتكم، تزيل العناء والعما (كذا) وانا من عيالك والله سايلك (كذا) عنا فازل ما اثقل الظهر منا وعنا . لا زالت تلك الحضرة تزيل ...... وتوفي لقاصدها كل مطلوبها ومرغوب .

(I2) الظاهر انه يعرض بالسلطان عبد الرحمن .

ولما لم يكن سبيل الى وصول كتابنا ، فضلا عن أنفسنا اليك ، ترانا نكرر المكاتب اذ لم ندر من وصل منها ومن لم يصل اليك ، فكم من كتاب كتبناه ولم يأتنا من حضرة سيدنا جواب ، نسئل (كذا) الله ان يجعل المانع خيرا ، لا مانع سخط وعتاب .(13)

ومرادنا نبعث لحضرة سيدنا هدية مع من يقوم مقامنا في تقبيل يديك الكريمة (14) .... ومن كثرة الحروب ، لم يتيسر لنا ذالك (كذا) والله المسؤول في تبليغ مرادنا فيما هناك .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما وفي شوال ، من رباط مستغانم 1257 .

(اما ختم الامير عبد القادر فكان بأعلى الصورة) .

---

13) نفهم من هذا ، اذا صحت الرسالة ، ان الامير كان قد كاتب السلطات العثمانية من قبل، ربما بعد توتر العلاقات مع الفرنسيين سنة 1839 .

14) المعروف ان الامير قد مدح السلطان عبد المجيد الثاني بقصيدة لامية عند استقبال هذا له اثر اطلاق سراحه من فرنسا ، وان هذا السلطان هو الذي كفل الامير لدى نابليون الثالث. وقد مدحه الامير ايضا ودعا له في قصيدة نونية بمناسبة حرب القرم ، وليس في القصيدتين اية اشارة الى هذه المراسلات .

فهرس الاعلام والجماعات

● الاعلام : عبد القادر = الامير ابن محيى الديـن = السلطان ؛ الجـزائـر (القطر) ؛ فرنسا ؛ الفرنسيون = المسيحيون ؛ واشباهها لم نرتبها ضمـن الفهرس لكثرة ترددها فى الكتاب ·

- ت -

- ج -

- ح -

اسماء الاماكن والبلدان والمدن والاودية ...

ـ ت ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ

— ي —

اسماء الاحداث والمعاهدات

أسماء الكتب

محتوى الكتاب

الملاحـــق :

تم طبعه بمطبعة الدار التونسية للنشر - تونس
في مـاي 1974

